

الهيئة العامة
لقصور الثقافة



ملاعيب على الزيبق



فاروق خورشيد





ملاعيب على الزيبق

سيرة (على الزيبق المصرى بن حسن رأس الغول) هى واحدة من أبرز السير الشعبية التى حملها الضمير الفنى العربى عبر الزمان والمكان، وحفظها من الزوال، فظلت فى الصدور زمنا تتناقل شفاهاً على ألسنة (الحكواتية) وشعراء الربابة حتى دونت وظلّت على ثباتها و لم تتحرك مع تحرك المجتمع وتطوره، وأصبحت مهمة من يستوحى هذه السيرة شديدة الصعوبة، إذ يجب أن يلم بكل الظروف التى تحكمت فى نسختها المدونة، وأن يكون على معرفة بالتراكبات الفولكلورية المتتالية التى تمثل عصور التداول الشفاهى ورموز الشخصيات فى جذورها الأسطورية وأسرار حرفيتها فيما نسميه "فن كتابة السير الشعبية"

وهذه المحاولة الطموح فى استلهام هذه السيرة تريد أن تخلق التواصل فى الإبداع الفنى بين الأمس واليوم، وأن تصب مجرى صغيراً فى تيار نهر الحياة الأدبية المتدفق.

فاروق خورشيد

الأمل للطباعة والنشر

الثمن : ثلاثة جنيهات

ملاعيب علي الزيبق

ملاعيب علي الزيبق

فاروق خورشيد



الهيئة العامة
لقصور الثقافة



سلسلة شهرية تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونصوص وسير وحكايات وملاحم الأدب الشعبي

(٦٣)

مكتبة
الدراسات الشعبية

• ملاعيب علي الزيبق .
• فاروق خورشيد .
• الطبعة الأولى : دار الهلال
• الطبعة الثانية :
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - فبراير ٢٠٠٢ م
٥٨٤ ص ؛ ٥ر١٢ × ٥ر١٩ سم
• تصميم الغلاف للفنان : محمد بغدادي
• كلام الغلاف الأخير :
من تقديم الأديب خيرى شلبي للكتاب .
• مراجعة لغوية : بيومي عوض.
• رقم الإيداع : ٥٨١٨ / ٢٠٠٢
• طبع من هذا الكتاب ثلاثة آلاف نسخة

• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي : ١٦ أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي ١١٥٦١
ت : ٧٩٤٧٨٩١ (داخلي : ١٨٠)

• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر.
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

المحتوى

المحتوى

المحتوى

هذا الكتاب

فن صياغة الوجدان

قاد فاروق خورشيد جيلا من المبدعين، نحو الولع بالسير الشعبية دراسة واستلهاما. ذلك هو الجيل الثانى بعد الجيل الأول ممن كانوا أكثر جرأة وأكثر ارتباطا بمكوناتهم الوجدانية وبتراثهم الشفاهى حيث تواضعوا أمامه وتمعنوا فيه فاكتشفوا ما يحتويه من طاقات إبداعية عظيمة تتمثل في خلالها أمة أعظم انطوت عقليتها الشعبية على مَلكة حضارية خلاقة استطاعت أن تجسد القيم الأخلاقية والفروسية النبيلة وأن تشخصها فى أشخاص من لحم ودم.

ذلك الجيل يقف فى مقدمته الدكتور فؤاد حسنين على والدكتور عبد الحميد يونس وزكريا الحجاوى وأحمد رشدى صالح وغيرهم. تبعهم جيل يقف فى مقدمته فاروق خورشيد ويضم الكثيرين مثل محمود ذهنى ود. نبيلة إبراهيم وشكرى عياد وغيرهم.

ولكن اهتمام فاروق خورشيد بالسير الشعبية أكل الكثير من سنوات عمره الغض، وغطى على اهتماماته الأدبية الأخرى فى سن النضج حيث كان من كتاب القصة القصيرة البارزين فى جيله إلى جانب الأدب الإذاعى الذى كان ولا يزال يعشقه بحكم عمله كرجل إذاعة بدأ عمله مذيعا ثم أبدع فى جميع أشكال الإبداع الإذاعى. اهتم فاروق خورشيد بالغوص فى السير الشعبية وهى تحتاج لوحدها عمرا كاملا، مع ذلك قرأها مرات عديدة حتى أصبح حجة فيها، فى كل ما يتصل بها من قضايا فنية وتاريخية واجتماعية . ومن ثمرة هذه الاهتمامات المخلصة كتابه عن عصر التجميع وبداية فن الرواية ، وكتابه أضواء على السير الشعبية، وكتاب فن كتابة السيرة الشعبية بالاشتراك مع صديق عمره الدكتور محمود الحنفى ذهنى الذى قدم رسالة لإجازة الدكتوراه عن سيرة عنترة بن شداد التى نتعشم أن يأذن لنا بإعادة نشرها فى هذه السلسلة تعويضا له عن الظلم الذى حاق به فى الطبعة الأولى التى نشرت باسم محمود الحفنى، فكان ذلك الخطأ فى الاسم سببا فى جبال

الكآبة التي ألمت بالرجل فلم يعن حتى بتصحيح الاسم فى طبعة ثانية منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً إلى اليوم!

ومن ثمرة اهتمامات فاروق خورشيد بالسير الشعبية محاولاته المتكررة لإعادة صياغة بعض السير بأسلوب عصرى مستفيد من إمكانيات فن الرواية بعد نضجه فى العالم الحديث، حيث تتحول السيرة الحافلة بالكثير من الخرافات والغيبيات والشعوذات والثرثرات التى كانت تفرضها طبيعة العمل الشفاهى الذى لا بد أن يتلون كل جلسة كل ليلة بشيء جديد يثير شهية المستمعين ويربطهم بما سبق الاستماع إليه.. إلى رواية ذات بناء فني محكم، لها منطقها الفنى الخاص، لها مصداقيتها، بحيث تبقى روحها الشعبية كالعطر الذى يميز أهله، تبقى لها مشهياتها الفنية الإثارية ولكن دون مبالغة دون خروج على المألوف دون لجوء إلى ما يجافى المنطق القويم. هكذا فعل فى رواية سيف بن يزن الموصولة الأصل بالسيرة الشعبية المعروفة، وهكذا فعل أيضاً فى روايتى (على الزيبق) و(ملاعيب على الزيبق) الموصولتين بأصل السيرة الشعبية المعروفة باسم على الزيبق المصرى ومن نافلة القول - كما يقول العرب القدامي- الإشارة إلى ما يصاحب هذه الصياغة الروائية العصرية من مقتضيات فنية تمتد إلى جسم العمل الأصلى وتهزه وتعيد بناءه على نسق روائي درامى حيث يتراجع السياق السردى المتراتب المنثال، ليبرز الحدث الروائى، كما يتحول

التراكم الملحمي الغزير بغير حساب إلى لبنات منتقاة يقوم عليها بناء الحدث، وفي بوتقة الحدث تنصهر الشخصيات ويظهر جوهرها، لا كشخصيات متفردة - فردية- بل كمرايا للمجتمع والتاريخ الذى يعبر عنهما الحدث. وهذا جهد ليس بالقليل كما أنه غير قابل للانتحال من أى كاتب آخر يزمع تحويلها للسينما أو التليفزيون بحجة أنها قائمة على أصل موجود، لا، إن الصياغة هذه هى ملك لصاحبها بصرف النظر عن الأصل القديم الذى صيغت منه لأنها صياغة وليست إعادة كتابة، فالصياغة تعنى تشكيلا جديدا وبناء جديدا، إنها تحويل مادة انتهى عمرها الافتراضى أو انتهى تأثيرها بانقراض دورها ثم شكلها، إلى شيء جديد بروح جديدة ومعطيات جديدة واستكشافات جديدة، ولهذا فأوديب توفيق الحكيم تختلف عن أوديب أندريه جيد وبدورهما يختلفان عن أوديب سوفوكليس الذى يختلف بدوره عن الأصل الأسطورى للحدوتة.

ولكن لماذا ننشر هذه الصياغة الجديدة ولا ننشر السيرة الأصلية مع أنها فى حوزتنا.

الواقع أننا لم نفضل هذه على تلك، فالحاجة ماسة إلى نشر النصين وهذا في خطتنا إن شاء الله. وإنما بادرنا بنشر الاستلهام الحديث لنثبت إلى أى حد يمكن أن يستفيد كتابنا من تراثنا الشعبى فى استلهام أعمال حديثة تعمق فينا جوهر ومقومات

الشخصية المصرية العربية . ولسوف ننتهز فرصة قريبة قادمة لننشر النص الأصلى لما يحتويه من إبداع خاص له مذاقه الخاص وله أيضا قدرته الباقية على الإيحاء والإلهام .

نرجو أن نكون قد وفقنا ، وسلام عليكم .

• خيرى شلبى •

كلمة حول «على الزيبق»

هذه هى المحاولة الثانية فى استلهام سيرة الزيبق المصرى عملا روائيا يحتفظ بروح السيرة وأحداثها الرئيسية من ناحية، ويتعامل مع الفن الروائى المعاصر بكل إمكانياته الفنية والدرامية.. وقد صدر العمل الأول باسم «على الزيبق» ونشر أول مرة عام ١٩٦٣ وأعيد نشره عام ٨١، وقد نفدت الطبعتان كلتاهما... وأعد الراحل ميخائيل رومان «العمل الروائى الأول للإذاعة بإذن خاص وأذيع من إذاعة القاهرة، وأعددت أنا مسلسلا إذاعيا عنها أذيع من إذاعة الكويت، ثم تعرضت الرواية لعمليات اغتصاف من تليفزيون

الأردن وتليفزيون القاهرة. ولم يكن هناك من رد على هذا إلا إصدار رواية جديدة تماما لنثبت أن «سيرة على الزيبق المصرى» غنية ومليئة بالإمكانيات التى كان يمكن أن تمد معدى التليفزيون بما يصبح لهم ملكهم الخالص دون اعتساف لجهد أحد.. ولنؤكد ما نادينا به مرارا من أن السير الشعبية كنوز تحتاج إلى من يستخرجها ويستلهمها، ويعيدها إلي الحياة، لأنها بحكم شعبيتها صالحة فى كل عصر، إذا ما حملت هموم العصر ومشاغله، واستجابت لآماله وآلامه على السواء.

ونحن فى هذه الرواية نبدأ من حيث انتهت الرواية الأولى مع فتح ما أغلق فنيا من دوائر درامية يتحرك خلالها العمل الجديد. ويحمل البطل فيها هموم الماضى وهموم الحاضر على السواء. ويتحرك الموقف فيها فى حرية أكثر واتجاه أصح، روائيا واجتماعيا على السواء.

وسيرة على الزيبق المصرى بن حسن رأس الغول هى واحدة من أبرز السير الشعبية التى حملها الضمير الفنى العربى عبر الزمان والمكان. وحفظها من الزوال فظلت فى الصدور زمنا تتناقل شفاها على ألسنة «الحكواتية» وشعراء الربابة، إلى أن دونت وطبعت فى صورتها الأخيرة التى نجدها بين أيدينا الآن إلا أن السيرة حين دونت ظلت على ثباتها ولم تتحرك مع تحرك المجتمع وتطوره، ولهذا فقد حملت سمات العصر المملوكى ولغته ومفاهيمه ومعتقداته، فامتلأت بالكثير من الغيبيات

والخوارق مما كان سائدا فى ذلك العصر. ومهمة من يستوحى هذه السيرة شديدة الصعوبة إذ يجب أن يلم بكل الظروف التى تحكمت فى نسختها المدونة كما ينبغى أن يكون على معرفة بالتراكبات الفولكلورية المتتالية التى تمثل عصور التداول الشفاهى، ورموز الشخصيات فى جذورها الأسطورية وأسرار حرفيتها فيما نسميه فن كتابة السير الشعبية، وهو فن له أصوله وقواعده التى سارت عليها هذه السيرة إلى جوار زميلاتها الباقيات لنا كسيرة عنترة بن شداد، وسيرة ذات الهمة وسيرة حمزة البهلوان وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وسيرة الزير سالم وسيرة فيروز شاه والسيرة الهلالية.

والواقع أنه رغم ضخامة حجم كل عمل من هذه الأعمال، واستقلاليتها من ناحية الأبطال والأحداث والحقبة التاريخية التى تعالجها والقضايا الفنية التى تتعرض لها إلا أنها تتفق فى المنهج الفنى وطريقة العلاج الروائى بحيث تكون لنفسها فنها الخاص. كما أن هذه الأعمال قد تعايشت فى أكثر من مرحلة، وأثر بعضها فى البعض الآخر تأثيرا واضحا فى المنحى الفنى وفى رسم الشخصيات الروائية بها. ونحن نذهب إلى أن شخصية على الزيبق نجد جذورها فى عمق هذه السيرة الشعبية من سيرة عنترة بن شداد وذلك فى شخصية شيبوب بطل سيرة عنترة الجانبى، ثم فى الشخصيات المساعدة المشابهة لشيبوب

التي ظهرت في باقي السير، كشخصية أبو محمد البطال في سيرة ذات الهمة وشخصية عمر الخطاف في سيرة حمزة البهلوان، وشخصية عثمان بن الحبلى، وشخصية جمال الدين شيحه في سيرة الظاهر بيبرس إلى أن تنفرد ببطولة خاصة بها هي (سيرة على الزيبق المصرى بن حسن رأس المغول) وهذه الشخصية تعتمد في البطولة على الذكاء والحيلة و«الملاعيب» إلى حروب الروم إلى الحروب الصليبية نفسها، ومن هنا كان ضروريا وجود رابط قومى عام يجمع الأمة رغم تفرق دويلاتها، ويحدد للفرد هموم المتلقى العادى في البطل الجديد صورة قريبة إلى نفسه، وواقع حياته، فيسهل أن يلتحم مع هذه الصورة ويقترب منها. ويسهل كذلك أن يمثل البطل صورة كفاح الإنسان العادى في حياته اليومية المعيشة، وبهذا تقترب من البطل الروائي المعاصر كل الاقتراب.

والمهاد التاريخى الذى تقع فيه أحداث السيرة هو مرحلة تفكك الدولة الاسلامية إلى إمارات مستقلة، بعضها ناصب الدولة المركزية العداء، وبعضها اكتفى بالانتماء الرمزى إليها دون وجود انتماء حقيقى ممارس. وواجهت الدولة الاسلامية هذا التمزق الداخلى في الوقت الذى واجهت فيه الغزو الصليبى الذى لم يتوقف منذ حروب الروم إلى الحروب الصليبية نفسها ومن هنا كان وجود رابط قومى عام يجمع الأمة رغم تفرق دويلاتها، ويحدد للفرد هموما مشتركة رغم تهاوى

السلطة المركزية في بغداد . والمجتمع الإسلامى في ذلك الحين كان مجتمعا ثريا ، ينعم بخيرات امتداده الجغرافي من ناحية وثروات المنطقة كلها المتنوعة الثروة ، والمتنوعة العطاء من ناحية أخرى، ولهذا كان قوام الحياة فى هذا المجتمع هم طبقة التجار وطبقة الحرفيين.

ولكن حكام الأقاليم كانوا ينظرون إلى الحكم باعتباره أداة لجمع المال ، فكثرت المظالم واللصوصية ، ويمثل الزيبق البطل الذى ينتقم لنفسه ولقومه من طبقة التجار الجشعين مستعملا أسلحتهم ليأخذ منهم حق الفقراء والمطحونين . فهو بطل سياسى من ناحية ، وبطل اجتماعى من ناحية أخرى. فرغم أن مغامراته الأولى أو ملاعيبه تتم داخل إطار الثورة الاجتماعية ، إلا أن هذه المغامرات سرعان ما تتجه ضد أعداء الأمة الذين يهددونها من الخارج وهم الإفرنج ، أو يهددون وحدتها من الداخل، وهم أمراء بعض الدويلات التى استقلت ثم طمعت فى غزو مقر الخلافة نفسه وخاصة الدويلات الفارسية الأصل.

وهذا الثراء فى الحدث يقابله ثراء فى الشخصيات ، لأن البطل هناواحد من عامة الشعب ولأن ملاعيبه تتم فى غالبها الأعم داخل المدن الإسلامية بشوارعها وأسواقها وبيوتها وحوانيتها .. ومن هنا كانت خصوصية هذه السيرة الشعبية وكانت أهميتها.

والمحاولة الطموح فى استلهام هذه السيرة عملا روائيا يجمع

بين الأصـــالة والمعـنـاصــرة ، تريد أن تـخلق التـواصل فـى الإبداع الفنى بين الأمس واليوم، وتريد أن تصب مجرى صغيرا فى تيار نهر الحيـاة الأدبية المتدفق، أمـا الجهد فقد بذل قصاراه، وأما التوفيق فمن عند الله سبحانه.

فاروق خورشيد

- ١ -

عم سلطان السقا

كانت القاهرة فى هذه الساعة الباكرة من الضحى شديدة الحرارة خانقة الجو، مما كان يشى بيوم قائظ من أيامها الصيفية التى تمتص العرق من فوق الجباه، وترسله غزيرا إلى أجزاء الجسد كلها... وهز حمار عم سلطان السقا ذيله يدفع الذباب الذى يحط بكثافة فوق جسده يمتص العرق، ويزيد من إحساسه بالضيق والتعاسة ـ وصاح فيه عم سلطان:

ـ الصبر طيب يا جميل... والرزق يحب الصبر، وكلها كام لفة والشعير جاهز.

نهق الحمار كأنه يجيب عم سلطان،

وضحك عم سلطان وهو يدخل بحماره من الباب الخارجي للدار إلى الباحة الداخلية، فيوقفه إلى جوارالباب، ثم يحمل قربة من فوقه في خفة إلى ظهره هو لتستقر فوق المنطقة الجلدية التي تحيط بجلبابه، ثم اهتز ليعدل (القربة) ليميل فمها إلى أسفل، ومد يده يفتح الربطة التي تربط عنقها، ثم يسد بأصبعه الفوهة بمهارة ودراية، ويعيد وضع القربة ويمد يده بعنقها الطويل، ويتنهد ويقول:

ـ يا عوض الله، ياساتر، وخلقنا من الماء كل شيء حي ـ حي ياقيوم ـ ياعوض الله.

وابتسم المقدم سالم الذي خرج إلى الباحة من باب الدار الداخلي ووقف يرقبه باستمتاع، وهو يتحرك في نظام ليرش أرض الباحة المتربة بماء (القربة) يرفع إصبعه عن فتحتها بمهارة بحيث لا يخرج منها إلا القدر الذي يريده من الماء، ثم يحرك عنق القربة وهو يميل بكتفه ناحيتها، ويوزع الماء بمهارة فوق التراب فتخرج منه سحابات من غبار وقيظ، ثم يستقر وتمر نسمة رقيقة تنعش الجو قليلا... وكان عم سلطان منهمكا في عمله تماما، فلم يحس بخروج المقدم سالم، ولا بوقفته عند الباب، ولا بنظرات عينيه التي تشبه نظرات الصقر من تحت الحاجبين الكثيفين الأشيبين، إلى أن قال المقدم سالم في صوت يشوبه وهن:

ـ تسلم الأيادي يا سلطان .. شيخ السقائين بحق... وأجفل

عم سلطان ، وأسرع يعدل القربة حتى لا تقع، ورفع بصره إلى المقدم سالم وهو يبتسم عن فم أهتم خلا من الأسنان الأمامية وبعض الأضراس ، وقال :

ـ صباح الخير يامقدم سالم، حمدا لله على سلامتك، الكلام كثير أنكِ مريض ، وأنك جرحت جرحا فظيعا قال أولاد الحرام أنه الغطاس، وهذا أنت أسد كما كنت ، بارك الله فيك..

ثم مضى ينهمك في رش الباحة في دقة، وهو يحجل بقدمه، ويميل بكتفه، ويسكب الماء من (القربة) في مهارة ونظام.

وقطب المقدم سالم حاجبيه الكثيفين، واعتدل في وقفته، وأسند ظهره إلى الباب المغلق وراءه وقال :

ـ الله سلم يا سلطان، ولنا في العمر بقية..

صاح عم سلطان، وهو يتحرك إلي ناحية أخرى من الباحة، والغبار يتصاعد من حيث يسكب الماء، مثيرا الأبخرة ومرطبا الجو الساخن :

ـ أطال الله عمرك يامقدم، ولكنك أوحشت الرميلة وقرة ميدان، ومقدم المصارعين يظل حتى المغرب ينتظر حضورك لتقسم عليهم رزق اليوم، وعندما ييأس من مقدمك يجمعهم حوله، ويعطى كلا منهم قسما لا يرضيه، وكلهم يتحدثون بأيامك وأيام قسمتك العادلة، وكلماتك المليئة بالحكمة والعطف.

ضحك المقدم سالم فانفرجت أسارير وجهه المتغضن

العجوز، وهو يقول:

- فيك وفيهم الخير يا سلطان ، والمقدم فحل الرجال فيه الكفاية وزيادة..

كان عم سلطان يرش آخر ما بقى فى (القربة) من ماء، ولم يكن قد تجاوز نصف الباحة بعد... ورفع (القربة) إلى نهايتها على كتفه اليسرى لتنزل منها آخر قطرات بها، ثم جمعها ومضى وهو يتنهد إلى الحمار فوضعها، ورفع قربة ثانية مليئة، نقلها بمهارة إلى ظهره وهو يصيح عندما وقع حملها الثقيل فوق ظهره: - ياعوض الله - حى ياقيوم - ياساتر - وخلقنا من الماء كل شيء حى - ياعوض الله.

وعاد المقدم سالم يبتسم وهو يرقب حركات عم سلطان، يعدل القربة ويميلها، وينحنى بوسطه ليمكن يده من عنق (القربة) الجديدة، ثم يزيل رباط فتحة (القربة) ويحكم أصابعه عليها فلا تخرج منها قطرة ماء، ثم يزيد ميله وذراعه اليسرى تمتد تحت عنق القربة، ثم يبدأ فى رش باقى الباحة فى نظام ومهارة وصبر، ويعود الغبار ليتصاعد ، وتزداد رقة الهواء وهو ينتقل من مكان إلى مكان فى بطء وصبر شديدين، وقال له:

- وماذا يقولون أيضا فى الرميلة وقرة ميدان يا سلطان؟.

توقف عم سلطان السقا ليعدل (القربة) فوق كتفه، واستأنف رش الباحة وهو يقول:

ـ الكلام كثير يامقدم.. ولكنه كله كلام خير.. ونهق الحمار وهز ذيله فى قلق، فصاح فيه عم سلطان:

ـ كفى نهيقا يا جميل... الصبر جميل، والرزق يحب الصبر يا جميل..

ضحك المقدم سالم، ومد يده يعبث فى شاربه وهو يتأمل الحمار وعم سلطان السقا وهو يرش باقى الباحة فى صبر ونظام، وقال:

ـ اسم الحمار جميل يا سلطان؟ غريب اسمه هذا وهو قبيح قبيح..

ضحك عم سلطان وهو يميل بكتفه ويمد ذراعه اليسرى إلى آخرها، ويظل فى أنحاء الباحة يرش الماء، وقال:

ـ أسماء يا مقدم أسماء، وهم يطلقون عليكم الآن اسم سالم ناب السبع وأطلقوا على مقدمك حسن اسم حسن رأس الغول، وعلى ابنه على اسم على الزيبق، وعلى أمه فاطمة اسم فاطمة اللبؤة...أسماء يامقدم ، أسماء..

بدا الاهتمام على سالم وهو يسأل:

ـ حسن رأس الغول وفهمنا فقد أسميناه كلنا هذا الاسم من يوم اجتث رأس الغول الذى كان يقطع الطريق على الناس فى مغارة جبل الجيوشى، فقد كانت هذه هى (النفيلة) التى طلبها المقدمون منه لكى يعترفوا به واحدا منهم... أما ناب السبع...، وضحك المقدم سالم ثم سعل واهتز جسده النحيل لسعاله..

بينما توقف عم سلطان السقا لحظات يعدل فيها (القربة) على كتفه، وقال كأنه يدلى بأمر واقع يعرفه الجميع:

- أنت يامقدم سالم كناب السبع الذى تقع كل أسنانه ماعداه، والذى ينهش لحم الفريسة فيمزقها، ومامن مهمة أراد المقدم حسن أن ينجزها إلا وأرسل إليها المقدم سالم فهو نابه الذى يفترس به ضحاياه وأعداءه على السواء...

أطربت كلمات عم سلطان المقدم سالم، فعاد يبتسم وهو يداعب شاربه الكث الأشيب بأطراف أصابعه، وقال:

- وباقى التسميات ياسلطان؟

استأنف عم سلطان رش باقى الباحة فى همة، وهو يقول: وسط رذاذ الماء، والأتربة المتصاعدة:

- الست فاطمة كان اسمها عند أولاد البلد أحمد بن البنى..

وتوقف عن الرش ورفع رأسه وهو يقول وقد نسى عنق القربة تنز من أصابعه:

- ياسلام .. من منا لايذكر أحمد بن البنى وصولاته وجولاته .. كان هو الفارس الوحيد الذى استطاع أن يجرح المقدم حسن رأس الغول حين تصدى له ليمنع بطشه وجوره وظلمه للناس، ولكن حين سقط المقدم حسن وسقط السيف من يده، ظهرت الست فاطمة فجأة، كأنما انشقت عنها الأرض، لتلقط السيف وتتصدى لأحمد بن البنى وتمنعه من الإجهاز على زوجها.. ياسلام..

ومضى عم سلطان السقا يرقص، وهو يحرك عنق (القربة) في يده، . وكأنه يبارز فارسا وهميا، والماء يتساقط من فتحتها تساقطا عشوائيا، وهو يقول وقد استخفته الحكايات والطرب معا:

- كانت مبارزة مشهورة لاتنسى، وحين حاول أحمد بن البنى أن يلجأ إلى نفس الخدعة التى جرح بها المقدم حسن، خدعته الست فاطمة وأطاحت برأسه، ومن يومها تزيت بزيه وتقلدت حسامه، وأسمت نفسها باسمه، وأصبحت تعرف بأحمد بن البنى، الذى يظهر فى الشدائد ليساند المقدم حسن رأس الغول فى معاركه. ..

ضحك المقدم سالم وهو يصيح:

- الماء ياسلطان كاد يغرق الباحة ويكون البرك..

فالتفت عم سلطان السقا إلى (قربته) وعاد يعدلها فى مكانها فوق منكبيه، ويتحكم من جديد فى مهارة فى فمها ليمنع الماء إلا بالقدر الذى يريده... وأخذ ينهمك فيرش الباحة فى سكون، وهو يعظل فى حركته من مكان إلى مكان، فى نظام ورتابة - ثم هز رأسه وقال:

- ولكن هذا الاسم نسى منذ ظهر ابنها وابن المقدم حسن رأس الغول، نعم اختفى منذ ظهر على وظهر مكانه اسم آخر... أحس المقدم سالم أن الباب الذى يستند إليه يدفع فى هدوء، فتحرك من مكانه، وفتح الباب وظهرت فى فرجته

فاطمة وهي تبتسم ، وهمست :

ـ لا تزعجه، ودعني أسمع مايقول..

ولم يتكلم المقدم سالم، وإنما أفسح لها مكانا إلى جواره، فوقفت بقامتها الفارعة ووجهها الساكن تسمع حديث عم سلطان السقا الذي كان منهمكا فيرش الباحة بآخر ما بقي في (قربته) الثانية من ماء، وقد أنزلها فوق ذراعه، ومال بجسده كله وينزل منها آخر ما بها من ماء، وكان يقول وهو يتحرك عاظلا في نظام ورتابة:

ـ منذ ظهر علي ابن حسن رأس الغول، وهي وراءه ، تظهر حين تشتد الأزمة، ويحلك الزمان، فتنقذه بفروسيتها وشجاعتها ومهارتها، وحين حاصره صلاح الكلبي في الكمين الذي أعده له، ظهرت فاطمة مرتدية ملابس أحمد بن البني، وهزمت رجال الكلبي وخلصتك أنت وهو من براثنهم ، ولولاها لكانوا قتلوك لا جرحوك وحسب، ثم كانوا انتهوا منه يومها وقتلوه وارتاحوا... و،لكنها ظهرت كاللبؤة التي تدافع عن أشبالها ، فتنتشلهم من براثن الخطر ـ ست ولا كل الستات يامقدم ـ ألم تخرجه من تحت حبل المشنقة ، فجأة انشقت الأرض عنها وهي فوق جوادها، واختطفته اختطافا والموت يحوم حوله ـ من يومها يامقدم، وكل أولاد البلد يسمونها اللبؤة ـ ولم يخطئوا أبدا في هذه التسمية، فهي التي علمته كيف يأكل فرائسه أكلا، وهي التي تخرجه من كل مأزق مهما اشتد الخطر،

وتأزمت الأحوال..

ومال بجسده فسال آخر الماء من (القربة) .. وأخذ يلمها فوق كتفه وقد فقدت انتفاخها ،ومد يده بعنقها مرات حتى أنهت كل ما بها من ماء، واتجه إلى حماره وهو يقول:

- ناس يامقدم سالم ولا كل الناس، أنت لم تسمع نداء الصبية في الحوارى وهم يلعبون تقول جماعة: كنت فين ياعلى) ..وترد جماعة أخرى (كنت فين، كنت فين) لترد الأولى قائلة (كنت فين ياعلى وأمك بتدور عليك) .. تقول لعب عيال ، أقول لك لا، إنما هو الكلام الذى ملأ كل الألسنة والقلوب - المرأة اللبؤة التى تحمى شبلها الوحيد، كلما وقع فى مأزق بحثت عنه، وأخرجته منه، وعادت تحمله منتصرة إلى العرين.

ثم مضى يرقص وهو يتجه إلى حماره ويغنى فى إيقاع رتيب:

- كنت فين ياعلى - كنت فين .. كنت فين ياعلى وأمك بتدور عليك.

وأحس المقدم سالم بأن فاطمة وراءه لاتملك نفسها من الضحك، فضحك هو الآخر، والتفت عم سلطان السقا فرأى فاطمة واقفة إلى جوار المقدم سالم وهى تلف شالها على وجهها، ولكنه عرفها فى الحال ، فقال:

ـ دستور يا ست .. هو كلام أهل الرميلة... وقرة ميدان، ولا ذنب لي، وإنما سألني المقدم سالم فقلت له..

ضحكت فاطمة ضحكة رائقة هدأت من مخاوف عم سلطان، وقالت:

ـ لا بأس ياعم سلطان.. ولكن ماذا يقول أولاد البلد عن علي؟

صاح عم سلطان:

ـ ماقاله عن نفسه... وماقالته الرميلة وقرة ميدان كلها، وما قاله حتى صلاح الكلبي ورجاله، هو الزيبق، يعرف كيف يخرج من أي مأزق، وينزلق من أي فخ كأنه الزيبق... ومن ملاعيبه مع صلاح الكلبي، وخروجه من كل كمين أعده له هو أو دليلة العراقية المحتالة، سماه الناس علي الزيبق... هل غلطت يا ست فاطمة؟ قالت فاطمة:

ـ أبدا ياعم سلطان ما أنت إلا ناقل لما قاله الناس.. صاح عم سلطان وهو يتجه إلى حماره، يرمي عليه القربة الفارغة.. ويسوي مكانها، ثم يلتفت إلى (قربة) ملآنة، فيرفعها على ظهره:

ـ كلام البلد لا ينتهي عند حد ـ ياعوض الله ـ (دستور... وخلق الله من الماء كل شيء حي ـ أين الزير ياجماعة لأملأه.. حي قيوم، هو الستار.

تنحت فاطمة عن مكانها، وتحرك المقدم سالم ليفسح مكانا له، وهو يتحرك حاملا (القربة) المليئة الثقيلة في عناء، وهو يحجل ويدلف من الباب إلى صالة المنزل وهو يقول:

- ياساتر، ياعوض الله.

وكان يعرف مكانه إلى الزير فسار إليه مسرعا، ورفع غطاءه، ثم عدل (القربة) فوق منكبه، وهو يوجه عنقها إلى الزير، ويفتح الرباط بمهارة، ثم يوجه فم القربة إلى حافة الزير، ويميل بجسده فيندفع الماء إلى الزير الفارغ في صوت رنان واضح، وهو يبسمل ويحوقل ويقول:

- ياساتر استر على عبيدك وخلقك، واحد قيوم - ياعوض الله.

ويرتفع صوت الماء يملأ الزير، فيزغرد صوته وسط الحر القائظ، يرطب النفوس والأفئدة - وقالت فاطمة وهي تغادر القاعة:

- سأحضر لك إفطارك ياعم سلطان لتأكل قبل أن تخرج. لم يسمعها عم سلطان فقد كان منهمكا في إفراغ الماء في الزير حتى امتلأ، ثم عدل وضع (القربة) الفارغة فوق كتفه وهو يقول:

- ياعوض الله - دستور ياأهل البيت... وخلقنا من الماء كل شيء حي.. قيوم..

قال له سالم :

ـ انتظر إفطارك ياسلطان ، فالست فاطمة ذهبت لتحضره .

لملم عم سلطان (قربته) الفارغة ، وجال بنظره فى القاعة ، ثم انطوى على نفسه وهو يقول :

ـ مقبول كرم الست فاطمة ، أطال الله فى عمرها ، ... المحروس دائما ، على الزيبق .

- ٢ -

البنت المخطوفة

لم يمهل عم سلطان السقا، فاطمة حتى تدخل بصينية الطعام بل اندفع نحوها قائلا:

- هذا لا يليق ياأم الرجال، أنا أخدم نفسى.. وأحسن الله إليك وأبقاك، ياعوض الله - ياساتر - وحمل عنها صينية الطعام ليضعها أمامه فى لهفة، وأسرع يرفع (المكبات) عن الصحون، وهو يلتهم بأنفه الروائح العبقة المتصاعدة، ويقول:

- يا سبحان الله، نعمة صانها الله من الزوال، ما كل هذا يا ست فاطمة؟

ولم ينتظر أن يجيبه أحد على سؤاله،

بل انقض يذوق كل الصحون في سرعة ونظام، ورفع المقدم سالم نظره عنه وابتسم ردا على ابتسامة فاطمة، وقال:

ـ هو منظم وسريع في كل شيء، في رش الباحة، وتذوق الصحون..

ولم يلتفت عم سلطان إلى كلماته لأنه كان قد فرغ من التذوق، إلى معركة الأكل الحقيقية... وكان منظره مسليا بالفعل فقد كان يأكل بيديه وفمه ولحيته وأكمامه وعينيه وأنفه وكل شيء... وانبعث صوت قوي يفيض رقة وحنانا من عند باب إحدى الحجرات المطلة على القاعة يقول:

ـ الجوع كافر... لعن الله الذين يأكلون السحت في بطونهم، ويتركون مثل عم سلطان على حافة الجوع دائما..

وقعت اللقمة من يد عم سلطان، وازدرد ما في فمه بصعوبة وقد جحظت عيناه، وتهدلت شفتاه، وهب متعثرا من جلسته أمام صينية الطعام وهو يقول:

ـ الزيبق، سلمت ياعلي، ياكحلا للعين المروضة.. ما أسعدني أن أراك سالما..

ثم التفت إلى الصينية فعاد يجلس في الحال، وينقض من جديد على الطعام، وإن كانت عيناه ظلتا مثبتتين على الزيبق لا تريدان التحول عن وجهه، واستأنف على حديثه إلى أمه قائلا:

ـ العزيز لا يرى كل هذه المظالم التي تصيب أهل مصر. صلاح الكلبي يخفي الحقائق عنه، والمحتسب والقاضي والوزير

يشتركون مع صلاح الكلبى فى نهب البلد ، والنتيجة أن يجوع الناس ويعروا .

قالت فاطمة :

ـ الآن ستصبح شريكا لصلاح الكلبى فى مقدمية الدرك ، وتستطيع أن تحمى الضعفاء من عسفه ، وأن ترفع للعزيز الحقائق حول أحوال الناس ، فينصلح الحال .

فتح باب آخر من الأبواب المطلة على القاعة ، وخرجت منه زينب وهى تقول :

ـ ما كل هذه الضجة فى الصباح الباكر . .

مرة أخرى وقفت يد عم سلطان السقا ، ومرة أخرى ازدرد ما فى فمه من طعام ، ونقل بصره من وجه على الزيبق إلى وجه زينب ، وهو يهمس لنفسه :

ـ يا سبحان الله ، أبدع وصور ، ماأجمل الوجهين ، وأحلى القوامين ، وأظرف الزوجين . .

ضحكت زينب وهى تقول :

ـ من الضيف ياخالة فاطمة ؟

قالت فاطمة وهى تتحرك ناحية مطبخ الدار :

ـ هذا عم سلطان السقا ، يأتى بالماء كل صباح ، أيقظتنى حركته وصوته وهو يرش الفناء . .

وقال على الزيبق :

ـ كم رشنى بالماء وأنا صغير ألعب فى باحة الدار .

صاح عم سلطان السقا:

ـ تلعب؟ أكنت تلعب حقا؟ لقد كانت لك شقاوة العفاريت، وكنت أدخل الدار وأنا أرتجف رعبا من ملاعيبك وعبثك، وكنت وأنا خارج من الدار أتحسس كل أعضائى لأتأكد أنها سليمة، فأحمد الله وأمضى فى حالى.

وغادرت فاطمة القاعة وهى تضحك، بينما نظرت إلى على وعيناها تلمعان، وقالت:

ـ هكذا منذ الصغر ياعلى.

ضحك على وهو يقول:

ـ كنت أحب أن أعابثه..

صاح عم سلطان بين المضغ والبلع:

ـ الحمد لله أنك لم تعابثنى كما عابثت صلاح الكلبى؛ فكويت جلده بقطع الزجاج، وأحرقت أفخاذه بالماء المغلى، وصبغت لحيته بالحناء المسمومة، وأوسعته عذابا بثمن العجل الذى سرقه منك، حتى أذقته لحم العجل مخلوطا بالعلقم... لقد أنجانى الله من هذا النوع من العبث، فما أنا إلا سقاء مسكين على باب الله.

ضحك على الزيبق وهويقلده فى ندائه:

ـ ياعوض الله، ياساتر... وخلقنا من الماء كل شىء حى ـ قيوم ـ هو الدائم .. ياعوض الله.

وضجت زينب والمقدم سالم بالضحك، بينما نظر عم

سلطان في بلاهة إلى الزيبق ، وقال :

ـ سبحان الخالق الناطق، هذا صوتي ، ولولا أنني أعرف نفسي لظننت أنني أنا الذى أتحدث ، هل أنت عفريت من الجن يازيبق ؟

ضحك على وضحكت زينب ، ولكن سالم لم يضحك ، بل قال : ـ انس ما سمعته ياسلطان ، وسبحان واهب النعم... والله وهبه نعمة النطق فلا اعتراض على حكمة الله.. صاح عم سلطان وهو يعود إلى طعامه في حمية وشوق :

ـ اللهم لا اعتراض ، اللهم لااعتراض ، سبحان الحى القيوم... حى .. وحدوه..

ثم نسى نفسه بين صحون الطعام... وقالت زينب :

ـ حقيقة ياعلى لقد مهرت فى تقليد الأصوات :

قال المقدم سالم في اعتزاز :

ـ وفى التنكر إلى أى شخصية يشاء ـ الأداوت موجودة ، والدهون والأصباغ واللحى والشوارب ، والألوان ، ولكن على له موهبة خاصة تفوقت على موهبتى ، وأنا الذى علمته كل شيء ، كما تفوقت على موهبة أبيه حسن رأس الغول ، والأدوات التى ورثها هى أدواته .

قالت زينب وفى صوتها نبرة تأمل وحزن :

ـ كنت أحسب دليلة هى سيدة الناس فى التنكر ، ولكن بعد أن رأيتك ياعلى ، وسمعت أفعالك فأنا أؤمن أنك قد فقتها قدرة

وإتقانا ، شميعة ، وصبى الحمام، والجارية، وصبى المطبخ... لا لا ... دليلة لا تقدر على كل هذا..

قال المقدم سالم في اعتزاز:

ـ لقد تفوق الزيبق على كل من سبقوه، تفوق على أبيه، وعلى صلاح الكلبى ، وعلى.. أنا شخصيا بل أستطيع أن أقول إنه تفوق على دليلة نفسها.. قال عم سلطان وهو يبسمل ويحوقل، ويرفع يده بعد أن أتى على كل صحون الطعام التى قدمت إليه:

ـ الحمد لله رب العالمين... ياعوض الله.. من كان يصدق هذا كله، ولكنه الولد الشقى، لو عرفت أن مثل هذه الفعال تصدر منه. قاطعه المقدم سالم قائلا:

ـ هل انتهيت؟

قال عم سلطان السقا وهو ينظر إلى الصحون فى حسرة:

ـ نعم يامقدم، أكلت حتى شبعت وحتى فرغت الصحون، ولكنى كنت أقول..

قاطعه المقدم سالم قائلا مرة أخرى:

ـ هل انتهيت؟

نظر عم سلطان حوله فى حيرة، ثم قال:

ـ الحمد لله، من الإفطار انتيهت... وأعود إلى حمارى و(قربى) لم تبق إلا (قربة) واحدة ملآنة، أذهب بها إلى سقاة الخيل، ثم أنصرف...

قال المقدم سالم:

ـ فعلا آن الأوان.

ولم يفهم عم سلطان السقا شيئا من كل الحديث الذى دار ـ لماذا كان المقدم سالم يدفعه دفعا إلى الصمت ـ لم يقل شيئا غريبا، هو دائما لا يقول إلا ما يبسط الناس، ولكن لعله أخطأ، فلكل لسان زلة ولملم نفسه، وجمع أشتات أفكاره وهو يقول:

ـ نسيت أن أقول صباحية مباركة ياعرسان ـ فالكل يتحدث عن على الزيبق الذى خدر دليلة وابنتها زينب، وساق دليلة ذليلة إلى غرفة العزيز، وخطف البنت زينب من أمها، ثم طرد الأم، وتزوج البنت...

صاح المقدم سالم:

ـ حيلك يارجل حيلك ما كل هذا، هذا ما كنت أخشاه، لسانك لا يعرف متى يتوقف أبدا.. ووجم عم سلطان، وهب واقفا وقد بدأ شيء من الخوف يتسلل إلى قلبه، فهو يعرف سطوة هؤلاء الناس، ويعرف أن غضبهم لاتؤمن عقباه، وقبل أن يتحدث دخلت فاطمة ووراءها خادم يحمل صينية جديدة لإفطار أصحاب الدار، وبينما كان الخادم يحمل الصينية الأولى بأطباقها الفارغة ليخرج بها وضعت فاطمة الصينية الثانية مكانها وجالت ببصرها بمن فى الحجرة ثم توقفت عند عم سلطان المرتجف فأحست أن هناك شيئا يخيفه، فقالت ملاطفة:

ماذا حدث ياعم سلطان؟

لم يجب سلطان، وإنما نكس بصره فى الأرض، بينما قال سالم:

ـ كان يخرف بما لايعرف، ويقول ما لايقال، وهو أنهى طعامه وسينصرف الآن.

همس عم سلطان لنفسه وهو يلملم ثيابه، ويستعد للفرار من القاعة، بل ومن البيت كله:

ـ جاءك الفرج يا سلطان، وهربت هذه المرة بجلدك.

إلا أن أمنه لم يستمر طويلا، إذ رفع الزيبق يده يوقفه، وقال :ـ بل كان يتحدث عن الصباحية المباركة، والعريس والعروس ، والزيبق الذى خطف بنت دليلة، اسمعي معى ياأم فهذا كلام جديد... اندفع عم سلطان السقا يقول: وهو يتعثر فى كلماته:

ـ إنه كلام الناس، مالى أنا، أناأقول ماسمعت..

قالت فاطمة فى اهتمام:

ـ وأين سمعت هذا الكلام ياعم سلطان..

قال سلطان السقا وهو يستعيد هدوء نفسه إذ غدا مصدر معلومات، لا مثار الغضب منها:

ـ أنا أنتقل من مكان إلى مكان أحمل الماء للمنازل والخانات والدكاكين ، وأسمع من هنا كلمة، ومن هناك كلمة، وعيبى أن رأسى كقربتى ما تمتلىء حتى تفرغ ماءها فى كل مكان..

ضحكت فاطمة وهى تقول:

ـ لا عليك ياعم سلطان . .

صاح سلطان وكأنما جاءه الفرج . .

ـ أمضى لحالى إذن . . ؟

قالت :

ـ والله معك . .

اندفع عم سلطان السقا إلى باب القاعة، وهو يصيح :

ـ أطال الله عمرك يأم الرجال . . . يا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . . . حى . . . قيوم ـ ياساتر ـ ياساتر . .

وسرعان ما انفلت من باب القاعة، وصوته يأتى إليهم مبتعدا فى سرعة، وقال سالم :

ـ ما كنت أحب أن تعرف ياعلى ماقاله هذا الخرف . قال على الذى أطرق برأسه واجما :

ـ إذن فأنت كنت تعرف .

هز المقدم سالم منكبيه، وجلس أمام صينية الطعام متنهدا وهو يقول :

ـ كلام الناس ياعلى لا يستطيع أحد أن يحجر عليه، ولا حديث للناس إلا أفعالك بصلاح الكلبى ودليلة المحتالة . . . إنها سمر كل مجلس، وحكاية كل بيت . .قالت فاطمة وهى تربت على كتف ابنها :

ـ اجلس ياعلى إلى الإفطار، ولا تدع مثل هذا الكلام يفسد

عليك طعامك ويومك. جلس على متثاقلا ، وجلست زينب إلى جواره واجمة. واستأنفت فاطمة حديثها وهي تجلس إلى جوارها :

-إن الناس لايعرفون إلا أنصاف الحقائق، بل ربما لا يعرفون من الحقائق شيئا على الإطلاق ، ولكن ما يجهلونه يؤلفونه بأنفسهم ليرضى عندهم التشفى فيمن ظلمهم وقهرهم . .

قال على الزيبق وهو يمد يده إلى الطعام فى تثاقل :

-ولكن هذا ظلم، فأنا لم أخطف زينب . وقالت زينب :

-ونحن لم نتزوج . . . ضحك سالم وهو يقول :

-هذا أمر سهل تصحيحه . . . فالبطل لابد أن تكون جائزته عند الانتصار زوجة جميلة وشابة مثلك يازينب .

قالت زينب فى غضب :

-أنا هنا ضيفة، ما كنت أريد أن أذهب مع دليلة بعد أن غدرت بعلى وساقته إلى المشنقة ، وكنت أنا السبب فى سقوطه فى شراكها . . . كنت أريد أن أبين لها غضبى منها ومن أفعالها ، وفى نفس الوقت كنت أريد أن يعرف الجميع أننى مع على لا مع دليلة . .

ضحكت فاطمة وهى تقول :

-فقط . . ؟

احمر وجه زينب ، ومدت يدها إلى الطعام ، وأخذت تأكل فى صمت - بينما قال علي وقد احمر وجهه أيضا :

- أنت محقة يا أم فنحن أنا وزينب ، نريد أن نتزوج...
صاحت فاطمة ضاحكة :
- إذن فلم يكذب الناس ؟ ...
وضحك المقدم سالم حتى انتباته نوبة سعال قطعت ضحكاته ، وجعلت الدموع تقفز إلى عينيه، بينما نقل على الزيبق نظره بين أمه وبين سالم وقال :
- ما الذى يضحك فيما أقول .. ؟
ولم يستطع أن يظل على تقطيبته ، إذ انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة، بينما قالت زينب :
- ولماذا لاتضحكون مادام الأمر مسليا بالنسبة لكم ، ولكنه يمس شرفي وكرامتي ويضيرني ، ويجعل مني حديث المجالس في مصر ... ولست أجد في هذا ما يضحك ..
وماتت الضحكات على شفاه الجميع ، وكست ملامحهم سمات الجد ، وقال سالم وهو يعبث في شاربه :
- أنت محقة في هذا يازينب ، ولهذا اقترحت أن تتزوجا على الفور... صاحت زينب :
- ليس من تقاليدنا أن تزوج البنات نفسها ، بل لابد من أن يتقدم على إلى أمي وخالي طالبا يدى ، وأن يقدم مايطلبانه منه مهرا لي ، وأن يتم كل شيء جهرا وفي وضوح.
قال المقدم سالم مجادلا إياها :
- ولكنك تحبينه ، وهو يحبك ، فما دخل أمك وخالك في

هذا الأمر؟

قاطعته فاطمة في حزم قائلة:

ـ أنتم معشر الرجال لاتفهمون هذا، ولكنها محقة في كل ماقالت. قال علي الزيبق:

ـ المهر أنت تحددينه كما تشائين، وسأحضر لك كل ما تريدينه حتى لو كلفني حياتي،..

قال فاطمة:

ـ آه، هذا هو مدخل دليلة إليك ياعلي..

قالت زينب:

ـ أن أمي لن تغالي في مهري فهي تعرف أنني... أعني.. أوافق على علي زوجا لي..

قال فاطمة:

ـ ولكنها تكره عليا، ولا تنسى له أبدا أنه قهرها، وساقها مكشوفة الرأس عارية القدمين إلى أمام بيت السلطان الناصر عزيز مصر.

صاحت زينب في ضيق:

ـ وما دخل مهري بكراهيتها لعلي الزيبق؟

قالت فاطمة:

ـ ستطلب وتغالي..

قال علي مندفعا:

ـ وأنا عند طلبها.

استأنفت فاطمة حديثها قائلة :

ـ ستطلب الأشياء المستحيلة التى تكلفك جريتك، وربما روحك أيضا . .

قال المقدم سالم :

ـ صدقت إن هذا بالفعل مدخلها الجديد إليه . .

قالت زينب فى حدة :

ـ ولكنها تركت له مصر كلها وعادت إلى العراق، وهى هناك مقدمة درك بغداد ، ومقربة إلى الخليفة ويطيعها الجميع ويهابونها . .

قالت فاطمة :

ـ هذا لن ينسيها حقدها على إبنى . . . ولن يهدأ لها بال حتى تنتصر عليه كما انتصرت على غيره، ولن تطمئن إلى مكانها فى بغداد، ومكانتها عند الخليفة إلا إذا أقر لها الزيبق بالسبق وأصبح من أتباعها ، أو على الأقل غدا أقل منها أهمية ومكانة .

قال المقدم سالم مؤمنا :

ـ كما فعلت بالمقدم أحمد الدنف الذى سبقها إلى احتلال المكانة الأولى فى درك بغداد، وكما فعلت فى المقدمين المشهورين والمعروفين بالمهارة (والعياقة) والشجاعة، شحادى أبو حطب، وحسن شومان، وعمر الخطاف . . فأبقاهم الخليفة، ولكن فى درجة دون درجتها ، وفى مكانة لا ترقى إلى مكانتها .

قالت زينب فى اصرار :

أنتم تنسون أنكم تتحدثون عن أمى، ومايؤذيها من قول يؤذينى أنا أيضا.

قالت فاطمة:

ـ بل أنت تنسين أننا نتحدث عن دليلة التى لا تعرف إلا النجاح والفوز بكل وسيلة، وتنسين أنها سبق أن استغلت حب على لك للإيقاع به، وساقته مهانا إلى المشنقة، فما الذى يمنعها أن تكرر الحيلة مرة أخرى.

صاحت زينب فى غضب:

ـ أنا فى صف على، ولن أغدر به مرة ثانية أبدا.

قال على:

ـ أنا أصدقك يازينب، ولكنى لا أفهم ماذا تريدين؟

قالت زينب:

ـ أريد أن أعود إلى بغداد، ومن هناك، من أمى وخالى تطلب يدى قبل أن يجيبها على أو تعقب فاطمة على حديثها، ارتفع صوت قرع ملح على باب الدار الخارجى، فصمت الجميع وتبادلوا النظرات فى دهشة، وقال سالم:

ـ لعله سلطان السقا عاد لأمر أو لآخر.

ثم هب واقفا واندفع إلى خارج القاعة، بينما قالت فاطمة:

ـ قلبى لا يبشر بخير..

قال على:

ـ زمان القلق والخوف انتهى، فقد أعطانى العزيز منديل

الأمـان، وأقـر صـلاح الكلبـى بحـقى أن أشـاركـه فى مـقـدمـيـة مصـر . . . ولـم تجبـه فاطمـة ، وطـال الصـمت القلق ، الـذى قطعـه دخول المقدم سالم شاحب الوجه وهو يقول :

ـ إنه المقـدم عـثـمـان يحـمل رسـالة من العـزيز أن السلطان يريدك فى مجلسه الآن ودون إمهال .

قالت فاطمة :

ـ ألم أقل إن قلبى لا يحدثنى بخير .

قال على :

ـ سنعرف كل شىء فى حينه ، وأنا ذاهب إليه .

قال سالم :

ـ وأنا معك .

-٣-

النفيلة

كان ديوان السلطان الناصر عزيز مصر هذا الصباح يموج بالحركة والنشاط، وقد امتلأ بكبار رجال الدولة، وفى ناحية جلس المحتسب منهمكا فى حديث هامس مع قاضى القضاة، بينما فى جانب آخر كان مفتى الديار بعمامته الضخمة ولحيته الشيباء الكثة يحادث كبير الكتبة، ووقف جنود فى أرديتهم المزركشة فى جوانب الديوان، الذى كان يتصدره السلطان الناصر وعن يمينه جلس الوزير قيس ، وعن يساره جلس المقدم صلاح الكلبى مقدم الدرك وقد انهمك الثلاثة فى حديث

طويل، وعند باب الديوان وقف المقدم عثمان مع سلحدار السلطان وهما ينظران بين حين وحين إلى الباب في ترقب وقلق، وهمس السلحدار:

ـ أتظنه سيحضر..؟

قال المقدم عثمان:

ـ وهل هو يخاف شيئا؟ سيحضر دون شك، وانتظرته...

قال السلحدار وهو يعبث بمقبض سيفه:

ـ لو عرف ما ينتظره لما جاء..

ضحك المقدم عثمان ، ولمعت عيناه وهو يقول:

ـ بل لو عرف لكان هذا أدعى أن يجيء.. أنت لا تعرفه، هو الزيبق..

حدق السلحدار في حدة في وجه المقدم عثمان وقال:

ـ من يسمعك يظن أنك معجب به، ومن يعرف الحقيقة يدرك غير هذا..

قال المقدم عثمان:

ـ بل أنا أكرهه كما لم أكره إنسانا في حياتي من قبل، ولا أظن أنني سأكره إنسانا في باقي حياتي كراهيتي له، لقد خدعني في كل مرة التقينا، وجعل مني الأداة التي يسخرها للوصول إلى المقدم صلاح الكلبي، مرة يظهر في ثوب فتاة، ومرة في ثوب شميعة اليهودي، ومرة في ثوب المغسل الأبله، ومرة على شكل امرأة عجوز..

وسكت لحظات ولمعت عيناه غضبا، ومضى يفرك كفيه كأنه يعصر بينهما رقبة عدوه، وقال:

- في كل مرة أقسم أنني سأكشفه رغم تنكره، وأمسك برقبته بين يدي، لا أتركها حتى أتركه جثة هامدة، وفي المرة الأخيرة يستطيع أن يخدعني من جديد - إنه شيطان..

وتنهد المقدم عثمان، وهو يرفع يده إلى شاربه يفتله في عصبية، بينما قال السلحدار:

- بالفعل لقد جعل منك ومن المقدم صلاح الكلبي، وكل أتباعه من الزعر أضحوكة أولاد البلد في مصر، ولم يجد العزيز بدا من أن يعطيه منديل الأمان، وأن يعلن أنه سيشركه مع المقدم صلاح الكلبي في مقدميه درك مصر، وخاصة بعد أن تغلب على تلك الحية الرقطاء، دليله..

قال المقدم عثمان:

- لكل واحد يوم نصره، وله أيضا يوم هزيمته وذله، والأمر لم ينته بعد، وسيعرف الزيبق هذا بعد أن يصل إلى هذه القاعة، وقطع عليهما الحديث، صوت الحاجب وهو يعلن بدء الديوان، وتقدم كبير الديوان ينحني مستأذنا من السلطان الذي أشار بيده إشارة البدء، فأسلم كبير الديوان ورقة مطوية إلى الحاجب تضم أسماء أصحاب المظالم والشكايات الذين سيعرض أمرهم على السلطان في ديوانه هذا اليوم... وبدأ الحاجب ينادي على الأسماء، ويدخل صاحب الشكاية من باب جانبي ويتقدم إلى

مقام السلطان ثم ينحنى ويرفع إليه عريضة مكتوبة بشكايته، فيسلمها السلطان إلى الوزير الذى يقرأها بسرعة ليحدد للسلطان الشكاية فى كلمات قليلة، فيشير السلطان بإحالتها إلى من تقع الشكاية فى اختصاصه، المحتسب أو الكاتب أو القاضى أو المفتى أو مقدم الدرك، فيأخذ الشاكى شكايته، ويذهب بها إليه حيث يجلس... فينادى الحاجب على صاحب الشكاية التالية.. وابتدأ الديوان يمتلىء باللغط والأصوات المتداخلة.

وقال السلحدار فى أذن المقدم عثمان:

ـ لقد نفد صبر السلطان الديوان.

بادله المقدم عثمان همسه قائلا:

ـ سيزيد هذا من غضب السلطان فهو لا يحب أن يجعله أحد فى موقف الانتظار..

وقبل أن يجيبه السلحدار انبعثت ضجة من ناحية باب القاعة الرئيسى، فالتفتت كل العيون نحوه، فإذا به ينفتح فجأة ويدخل كبير الحراس ووراءه على الزيبق فى ثياب فاخرة ووراءه المقدم سالم يتبعه وصاح كبير الحراس معلنا قدومه:

ـ المقدم على بن حسن رأس المغول.

فهب المقدم صلاح الكلبى من مكانه إلى جوار السلطان صائحا:

ـ أخطأت ياكبير الحراس، فهو ليس مقدما بعد، بل هو

الشاطر على الزيبق..

فانحنى على الزيبق أمام السلطان ، بينما ظهر الارتباك على كبير الحراس، وبدا الزهو على وجه المقدم صلاح الكلبى، وهمس المقدم عثمان فى أذن السلحدار قائلا:

ـ طعنة فى الصميم.. بكلمة واحدة أزاح كل نصره.. وارتفع صوت على الزيبق قائلا:

ـ مولاى السلطان أنا لم أزعم لنفسى لقبا، ولكنك وعدت وعلى هذا فلا لوم على كبير الحراس أن كان قد أخطأ وسمانى بغير ما يجب أن أسمى به.

همس السلحدار فى أذن المقدم عثمان:

ـ عفارم... هذا زيبق صحيح..

وقال السلطان:

ـ تقدم ياعلى ولا تثريب عليك فقد أعطيناك منديل الأمان.. فتحرك على الزيبق مقتربا من مجلس السلطان، وعاد ينحنى فى أدب، ثم قال:

ـ مولاى السلطان أنت وعدتنى فى ديوانك هذا، وأمام الجميع، أن أكون شريكا للمقدم صلاح الكلبى فى مقدمية الدرك.. قال السلطان وهو يسعل سعالا مفتعلا:

ـ طبعا، طبعا، ولكن..

وقبل أن يكمل السلطان، قال صلاح الكلبى الذى كان مايزال واقفا أمام مقعده وقفة استفزاز وتحد، وعيناه تلمعان فى

حقد وغضب :

ـ للمقدمية أصول ياشاطر، ولا يعنى أن الحظ حالفك ضدى وضد دليلة أنك غدوت مقدما دون امتحان أو اختبار لأحقيتك وجدارتك بالمقدمية..

صاح صوت واهن عجوز من عند الباب :

ـ كلام السلطان لايرد، صلاح الكلبى أو غير صلاح الكلبى.. من سمع أن كلام السلاطين يرد؟ ووجم الديوان وكل العيون تتطلع إلى جسد سالم الفارع، وهو يتقدم فى وهن نحو مجلس الملك، ويقف إلى جوار الزيبق، ويستأنف كلامه قائلا :

ـ ما تعودنا يامولاى أن هناك معقبا على كلام السلطان، فما قاله السلطان يصير..

وتنحنح السلطان ، وتحرك فى مجلسه فى قلق، بينما صاح المقدم صلاح الكلبى فى غضب :

ـ من الذى أدخل هذا المحتال إلى الديوان؟

صاح فيه المقدم سالم قبل أن يشير إلى الزعر والحرس لينقضوا عليه :

ـ تأدب فى حضرة السلطان يامقدم صلاح.. والسلطان يعرف من أنا، فأنا سالم ناب السبع خادم مقدم درك مصر الراحل حسن رأس الغول..

ووجد السلطان مخرجا من حرجه فى كلمات المقدم سالم، فابتسم وهو يقول :

ـ من زمن لم أرك يامقدم سالم، هل هذا فعل السنين فيك. ؟
ضحك المقدم سالم وهو يقول :

ـ بل هو فعل سيف أحد الجبناء، ولا أدرى أى جبان هو، فقد كانوا من الكثرة بحيث لم أعرف لهم عددا ، وهم يطبقون من كمين أعدوه لنا أنا وعلى، ومع هذا يامولاى فقد هربوا من أمام هذا السيف العجوز..

ضحك السلطان فى حرج، ثم سعل ، ثم قال :

ـ لا أحد يشك فى شجاعتك وبسالتك يامقدم.

ورغم كلمات الإطراء، فإن الفارس العجوز لم يمهل السلطان، بل قال :

ـ وأنت يامولاى وعدت، ووعد الملوك لايرد. . قال السلطان وهو يتحرك فى مجلسه فى قلق :

وأنا عند وعدى يامقدم سالم، ولكن المقدم صلاح الكلبى أفهمنى إنه لايجوز إشراك هذا الشاب فى مقدميه درك مصر إلا بعد أن يصبح مقدما أولا..

والتفت بوجهه ناحية صلاح الكلبى الذى أسرع يقول :

ـ هذا صحيح يامولاى السلطان، فهو الآن ليس إلا شاطر من الشطار ، ولم يسمع أحد أن أحد الشطار غدا مقدم الدرك، بل لابد له من أن يكون مقدما أولا . . وأسرع السلطان يقول :

وقد أيد المقدم صلاح الكلبى فى كلامه كل وجوه الديوان، الوزير، والقاضى والمحتسب، وكبير الكتبة، والمفتى ،

والسلحدار، وكبير الحرس، ورئيس العسكر..

وكان السلطان وهو يتحدث، ينقل بصره إلى صاحب كل منصب فيهز هذا رأسه موافقا، حتى أنهى ذكره لهم جميعا، فقال علي الزيبق:

- كلام مولاى السلطان عندى أمر واجب التنفيذ ، ومادام السلطان يوافق المقدم صلاح الكلبى على كلامه، وكذلك يوافقه كل وجوه القوم هنا، فأنا مطيع منفذ.

رجع السلطان إلى الوراء في كرسيه وهو يتنهد في ارتياح، وقال :

وعلى هذا فلا يحول بينك وبين الحصول على المنصب الذى وعدتك به إلا أن تكون مقدما.

وسأل على الزيبق فى أدب:

- وكيف يكون ذلك؟

صاح صلاح الكلبي قبل أن يجيب السلطان عن سؤال على قائلا:

- النفيلة يا شاطر علي، لن يرضى المقدمون أن تكون منهم إلا بالنفيلة.

سأل على فى سذاجة:

- يأمرون وأنا مستعد.

وصاح المقدم سالم فى تحذير:

- حذار يا على هذا فخ ينصبه صلاح الكلبى فلا تقع فيه.

وقال صلاح الكلبى فى براءة، وهو يلوح بذراعيه مشيرا إلى الذعر يملئون الديوان:

- هذا ليس طلبى أنا، بل هو طلب كل المقدمين والزعر، لابد لكى يقبل واحد فى زمرة المقدمين أن يقدم النفيلة التى يتفق عليها الجميع..

قال على فى اندفاع وحمية:

- وأنا قلت إننى مستعد، فما هو طلبك يا مقدم صلاح الدين الكلبى..

استمر صلاح الكلبى يتصنع لهجة البراءة وهو يقول:

- أنا أقول لك ما اتفقوا عليه، لا ما أطلبه أنا.. قال على فى صبر نافد:

- إذن قل، وعلى التنفيذ.

قال صلاح الكلبى فى انتصار وتشف:

- تحضر لنا صندوق التواجيه.. وساد الوجوم القاعة كلها، بينما شحبت بعض الوجوه، وارتسمت ابتسامة التشفى على وجوه أخرى، وهمس المقدم عثمان فى أذن السلحدار قائلا:

- هذا هو السهم الذى احتفظ به المقدم صلاح فى جعبته فقال السلحدار:

وقد أصمى وأدمى.

قال المقدم عثمان فى ابتهاج:

- من سمع أن أحدا ذهب لإحضار صندوق التواجيه وعاد..

قال السلحدار:

- هذا عالم من الجن والطلاسم والسحرة لا يقدر عليه أحد... لن يوافق الزيبق على هذا

همس المقدم عثمان:

- بل سيوافق، وسترى..

قال السلحدار:

- إن المقدم سالم يحاول أن يحذره.. قال المقدم عثمان في ثقة:

- لن يجدى معه تحذير..

وكان واضحا أن سالم يشتبك مع على في جدل عنيف هامس، وكانت لحية سالم الشيباء تتحرك في عصبية، بينما كان على يهز رأسه الشاب في إصرار... وقطع عليهما المقدم صلاح الكلبى حوارهما الهامس قائلا في سخرية:

- مولانا السلطان ينتظر ردك ياعلى... ومولانا السلطان لا يحب أن ينتظر أحدا..

وأمن السلطان على حديثه بقوله:

- ماذا قلت ياعلى، إن باب الاعتذار مفتوح، فأنت مازلت شابا صغير السن، قليل التجربة، ولو اعتذرت ما لامك أحد، ومازال منديل الأمان معك، فلن أمسك بسوء..

ورغم كل اعتراضات المقدم سالم تقدم على الزيبق خطوة وقال:

- بل أفعل يامولاى السلطان، وأحضر صندوق التواجيه هدية لك.. ضحك السلطان في اضطراب وقال:

- مثل هذه الهدية جديرة بمن هو أعلى مقاما مني، هي هدية منا جميعا إلى خليفة بغداد، هارون الرشيد..

صاح صلاح الكلبي في سخرية:

- لو أحضرها..

قال على الزيبق في إصرار:

- سأحضرها، ولتكن هدية بلادى لمركز الخلافة مولانا هارون الرشيد.

ارتفعت من القاعة آهة تقطع الوجوم الذى ران عليها وهذا الحوار دائر، واهتزت لحي في إشفاق، واهتزت رؤوس في حماس وتأييد.. وهمس المقدم عثمان في أذن السلحدار في سخرية:

- ابتلع الولد الطعم، ولن يعود إلا جثة هامدة، إن عثرنا له على جثة..

قال السلحدار وفي صوته رنة إشفاق:

- صغير هو على هذا والله..

نظر إليه عثمان في دهشة، وقال:

- أتتعاطف معه؟

قال السلحدار، وهو يواجه نظرات المقدم عثمان الحادة بنظرات أكثر حدة:

- لقد حدثتني عنه بكل ما هو بشع، لقد صورته لي وحشا

في صــورة إنســان ، وهـاهو أمــامى الآن، شــاب رقـيق يافع يشع حماسا وحيوية، ويلقى المخاطر بابتسامة جريئة وأبية.

ثم صمت لحظات، وعاد يقول:

ـ وهو يعجبنى، وأفضله على صلاح الكلبى مائة مرة ..

وتقابلت نظراتهما فى حدة غاضبة، وأعادهما إلى ماهم فيه صوت على الزيبق الفتى وهو يقول:

ـ هل هذا هو كل ما استدعيتنى من أجله يامولاى السلطان..

وابتسم السلحدار فى ثقة، بينما امتلأت عينا المقدم عثمان حنقا وغضبا من لهجة الزيبق الهادئة الواثقة، والتفتا إلى حديث الزيبق والسلطان الذى قال:

ـ لم يكن هذا هو سبب استدعائى لك ياعلى، وإنما كان هذا ما أثاره المقدم صلاح الكلبى، أما الموضوع الأصلى فسيخبرك به الوزير... وما أن صمت الملك حتى وقف الوزير قيس وأخرج لفافة من ورق كان يحتفظ بها وأمسكها بيده وأشار بها وهو يقول:

ـ هذه شكوى جاءتنا من ديوان الخليفة هارون الرشيد نفسه ضدك.. وعاد الوجوم يسود الديوان كله، بينما تقدم على الزيبق خطوة إلى أمام، فأمسك المقدم سالم ذراعه يمنعه من التقدم، واستأنف الوزير كلامه قائلا:

ـ إنها شكوى مقدمة من دليله مقدمة درك بغداد إلى الخليفة، تقول فيها أن ابنتها قد اختطفت فى مصر، وتطلب عودة ابنتها

إليهـا ، والخليفة أرسل إلى عزيز مصـر يطلب منه البـحث عن زينب بنت دليلة وإعادتها إلى أمها فى بغداد سالمة آمنة .

وسكت الوزير يلتقط أنفاسـه ، فعاد صلاح الكلبى يصـرخ وهو يشير بأصبعه إلى على قائلا :

ـ ونحن جميعا نعرف أن الذى اختطفها هى وأمها هو أنت ورفع السلطان الناصـر يده فسكت صلاح الكلبى ، بينمـا عاد الوزير قيس يقول :

ـ دليلة تقول إنها غادرت مصـر على عجل ، ولم تر ابنتها ، ولم تعثـر لها على أثر ، وتتهمك بأنك خطفتها ، وتزوجتها قسرا ... ، قال السلطان :

ـ مـا قـولك ياعلى فى هذه الشكوى الخطيـرة ، لو صـدقت لكلفتك عنقك ..

قال على الزيبق فى أدب شديد :

ـ مولاى السلطان محق ، فلو كنت فعلت هذا لاستحققت الشنق على يدك من جديد .

وأثارت كلمات على همهمة بين المجتمعين فى الديوان ، فقد تذكـر كل واحد منهم ، كيف سيق على الزيبق إلى المشنقة ، وتذكر أيضا كيف هرب منها ... وعاد الزيبق يقول :

ـ ليس من شـريعتنا يامولاى خطف النسـاء ، أما ما حدث لدليله فقد كان وفاء بقسمها أن تسوقنى إليك وعند بابك ، مقيد اليدين عارى الرأس ، فوفيت بقسمها عليها نفسها ،

فسقتها إلى بابك عارية الرأس مقيدة اليدين، لأثبت لك ولها أننى أفوقها مهارة وقدرة وحيلة.

وارتفعت كلمات الاستحسان من كل مكان فى الديوان، حتى أطرق العزيز فى خجل وصمت، وعاد الزيبق يقول:

ـ لقد رفضت زينب أن تعود مع أمها إلى بغداد، لكراهيتها للطريقة التى أشركتها فيها دليلة فى حيلتها فى الإيقاع بى.. ولكن زينب يامولانا السلطان ضيفة عزيزة فى دارى لم تمس... ولن تكون زوجتى إلا بإرادتها وموافقة أمها، وأنا مستعد أن أعيدها إليها فى الحال..

وارتفعت صيحات كل من فى الديوان، وكلها تعاطف واستحسان وحب.. وقال السلطان:

ـ إذن تعيدها إلى أمها فى بغداد، ونجيب عن خطاب الخليفة بأنها عائدة..

قال الزيبق:

ـ نعم يامولاى أعيد زينب إلى أمها شريفة معززة مكرمة لم يمسها سوء..

قال السلطان:

ـ سلمت ياعلى.

قال سالم:

ـ المقدم على

قال صلاح الكلبى:

ـ الشاطر على إلى أن يثبت لنا أحقيته بالمقدمية.

قال على:

ـ وأنا عند وعدى يامولاى

قال السلطان الناصر، وهو يرفع يده ليصمت الجميع:

ـ إذن تحضر صندوق التواجيه لتصبح مقدما، وساعتها تصبح شريكا لصلاح الكلبى فى مقدمية مصر، وتعيد زينب إلى أمها دليلة لتبقى صفحتها بيضاء عند الخليفة هارون الرشيد.

قال الزيبق:

ـ نعم يامولانا السلطان أفعل، الصندوق سيكون عندك وفاء بوعدى، وزينب ستكون عند أمها وفاء بمعنى الشهامة والكرم..

- ٤ -

صندوق التواجيه

قالت فاطمة فى حنق وهى تتحرك فى الغرفة ذاهبة آتية فى عصبية وغضب:

- صندوق التواجيه ... ؟ هذه داهية أرسلوك إليها، ما طلب صلاح هذا الطلب إلا ليرميك فى بحر المهالك الذى لا عودة منه... قال على وهو مطرق الرأس:

- إنه تحدانى، وكان لابد أن أجيب على تحديه بالقبول.. وكان وجه زينب شاحبا وهى تراقب حركات فاطمة الغاضبة فقالت:

- وما صندوق التواجيه هذا يا خالة؟

وقفت فاطمة أمامها، وعقدت ذراعيها

على صدرها، وهى تقول:

ـ دخلنا في دنيا السحر والأرصاد، صندوق التواجيه أعجوبة من عجائب الزمان صنع بالحكمة والكهانة، وهو مركب من أربعة معادن هى الماس والياقوت والزمرد والفيروز، وقد اصطنعه أحد حكماء اليونان الأقدمين، وكان يجلس أمامه فيكشف كل ما فى الدنيا، ويرى الممالك القريبة والبعيدة، ويرصد ما يحدث فيها كأنه يعيش مع أهلها.

قالت زينب فى دهشة:ـ كأنه يجمع الدنيا فى صندوق..

التفتت فاطمة إلى سالم الذى كان يقف مستندا إلى جدار الغرفة، والإعياء باد عليه، وقالت:

ـ لقد حسبت أن ذهابك معه إلى ديوان السلطان سيجنبه مثل هذه المهلكة.. كيف نتركه يقبل هذه النفيلة يا سالم؟

قال سالم، وهو يمر بيد متعبة فوق جبهته المتغضنة:

ـ حاولت أن أحذره ونحن فى الديوان، ولكنه رفض أن يستمع إلى نصحى، حتى وضح أمام الجميع أننا نكاد نتشاجر أو حتى نتعارك. قال على فى صبر نافد:

ـ ليس لسالم شأن بهذا، فالتحدى كان موجها إلى لا إليه، وأنا الذى قبلته، وسأحضر هذا الصندوق مهما كلفنى الأمر.

قالت فاطمة وهى تهز كتفيها فى استسلام:

ـ بينك وبين المدينة المرصودة التى فيها الصندوق مسافات ومسافات.

سألت زينب :

ـ المدينة المرصودة؟

قالت فاطمة :

ـ كان الحكيم اليونانى يعيش فى مدينة عند حافة البحر، لا يصل إليها الإنسان إلا بعد قطع صحراء مخوفة، وغابات مليئة بالوحوش والسباع. ومع هذا خاف على ذخيرته ، فقصد إلى جزيرة تواجه المدينة فبنى فيها قبة عظيمة وضع فيها صندوق التواجيه، ثم طلسم الجزيرة بالسيوف القاتلة التى لا يعرف سر حركتها الدائمة إلا هو، فإذا ما دخل الجزيرة إنسان واقترب من القبة مزقته هذه السيوف المتحركة...

قال على الزيبق :

ـ هذا أمر عجيب.. وكيف صنع هذه السيوف يا أم؟

قالت فاطمة :

ـ من قدر بعلمه وحكمته على صنع صندوق التواجيه لا يوجد مثله فى الدنيا، والذى يستطيع أن يجعله يرى البحار والأنهار والمدن كأنه يعيش فيها لحظة بلحظة، قادر على حماية ما يصنع..

عاد على الزيبق يسأل فاطمة :

ـ ولكنك قلت إن المدينة مرصودة..؟

قالت فاطمة :

ـ كان أهل المدينة يحبون هذا الحكيم اليونانى، فقد صنع لهم

الأنهار ، وعلمهم الزراعة ، وبنى لهم مخازن الغلال ، وعلمهم من الصناعات ماتفوقوا فيه على سائر المدن حولهم ، فأحبوه وتفانوا فى الإخلاص له وعندما حانت منيته ، أوصى ملك المدينة أن يحافظ على ذخيرته من كل من يحاول الحصول عليها ، وبنى لهم تمثالا على هيئة إنسان من النحاس ، ووضعه على باب المدينة رصدا لمن يدخلها بغية الحصول على الصندوق ، فإذا دخل المدينة غريب ، صاح هذا التمثال صيحة عظيمة ، فيعلم أهل المدينة بأمر دخول الغريب ، فيخرجون إليه ، ويقبضون عليه ، ثم يقتلونه جزاء تعديه على مدينتهم ..

قالت زينب :

ـ من سمع بمثل هذا من قبل ، صندوق ينقل العالم إلى من يراه ، وسيوف متحركة تقتل كل من يقترب منها ، وتماثيل تصيح عندما يدخل غريب إلى المدينة ..

قالت فاطمة :

ـ ولم يقصد إنسان إلى هذه المدينة ونجا بحياته أبدا ، فمن أفلت من أهل المدينة ، وغضبهم ، مزقته سيوف الجزيرة وقضت عليه .

قال على :

ـ لكل شيء سر ، ولو عرف السبب بطل العجب .

قالت فاطمة :

ـ قلت لك ياعلى إن هذا الحكيم كان يعرف من أسرار

الحركة، وعلوم المعادن مالا يعرفه غيره، وكان يستطيع أن يحرك الساكن بمعرفته، وأن ينطق المعدن بحكمته..

قال على فى إصرار:

- مازلت أقول إنه فوق كل ذى علم عليم..

تحدث سالم الذى ظل صامتا طوال هذه المدة فقال:

- ومن أين لنا بهذا العالم الذى يفوق علمه ذلك الحكيم؟

سكتت فاطمة، وعيناها تبرقان بوهج غريب، فصاح على:

- أنت تعرفين ياأم ولا تريدين إخبارى خوفا على

قالت زينب:

- ليس فى بلادنا من يفوق علمه علم هذا اليونانى..

قالت فاطمة فى غضب:

- هل عقمت النساء فى بلادنا يازينب... وكل هذه الجسور والمعامل، وكل هذه السدود والأهرامات، وكل هذه المصانع والآلات، ألم يقمها أناس فى بلادنا، يعرفون العلم، ويتقنون الصناعة.

ابتسمت زينب وهى تقول:

- ما كل هذا الحماس ياخالة..؟

وارتسمت ابتسامة الأمل على شفتى على الزيبق وهو يقول:

- ألم أقل إنها تعرف..؟

قالت فاطمة:

- لم أقل أى شىء سوى أن لدينا فى بلادنا من أهل الحكمة

والمعـرفـة من علمـوا هذا اليـوناني وغـيـره الحكمـة والعلم والكهانة... قال على الزيبق وهو مايزال يبتسم:

ـ مثل من ياأم..؟

صاح سالم محذرا

ـ حذار أن تخبريه فيورد نفسه موارد التهلكة

قالت فاطمة وهى تدق الأرض بقدمها فى إصرار:

ـ لقـد قطع على نفسـه عـهـدا، ولابد أن يـوفـيـه ، ومـا كنت لأرضى لابن حـسـن رأس الغول أن يكون عـاجـزا عن تحقيق أمر أخذ على نفسه أن ينجزه.

قال سالم فى تخاذل:

ـ ولكنه

قالت فاطمة وعيناها تلمعان:

ـ ليس هناك لكن، لقـد حـاولت أن أثنيـه عن عـزمـه، ولـكنه مصمم على المضى فى طريقه، فلتكن إذن مشيئة الله

اشتعل صوت زينب حماسا وهى تقول:

ـ إذن فـسينتـصـر الزيبق من جديد، ويثبت بطولته وجدارته.

قالت فاطمة:

ـ لابد أن ينتصر يازينب، فانتـصـاره هو طريقه الوحيد إليك،

علت حـمـرة الخجل وجه زينب، وهى تطرق برأسهـا ، وتهـمس فى اضطراب:

ـ كيف..؟

قالت فاطمة وهى تضحك :

- ألم تشك أمك دليلة إلى الخليفة من أن على الزيبق قد اختطفك أنت ستغادرينا غدا إلى بغداد معززة مكرمة، ولكن على لايستطيع أن يطلبك من الخليفة هارون الرشيد إلا إذا ذهب إليه يحمل صندوق التواجيه هدية من عزيز مصر، وعربونا على جدارته بك، واسترضاء لغضب الخليفة عليه..

تنهدت زينب وهى تقول :

- ويفعل هذا من أجلى أنا..

قال على فى حماس وهو لايلحظ ما علا وجه زينب من خجل وخفر ::

- بل من أجلها أفعل أكثر من هذا..

ضحكت فاطمة وقالت :

- لابد لك إذن من صندوق التواجيه إن كنت تريد زينب...

قالت زينب فى صوت خافت :

- أنا له دون هذا الصندوق وأهواله..

قالت فاطمة :

- لابد أن يرضى الخليفة عنه، ولابد له أن يثبت حسن نواياه... قالت زينب :

- عودتى سالمة إلى بغداد كافية بإثبات كل هذا.

قال سالم بعد أن سعل ليلفت الأنظار إليه :

- لن يجديها شىء أن يهلك فى طلب هذا الصندوق

الشيطاني.. صرخت زينب في اجفاله:

ـ يهلك .. لا قدر الله..

وقالت فاطمة وهي تربت على كتفها في حنو:

ـ لن يهلك الزيبق وله عزيمته ودهاؤه وملاعيبه التي لا تنفد..

منذ غادر الزيبق الديوان والمقدم عثمان قد فقد اهتمامه بما يدور حوله، وكان يرد على ملاحظات سلحدار السلطان في فتور وقلق، كان يعرف أن الزيبق قد وقع في فخ حفره له صلاح الكلبي، ولكنه لم يكن يحس في قلبه بفرحة لأزمة الزيبق الجديدة التي ستورده مورد التلف والهلاك... هو يعرف السيف والسهم والحربة، ولكن حروب الطلاسم والسحر، شيء لا يجب أن يتعرض له فارس.. وما من إنسان قصد المدينة المطلسمة. حيث جزيرة القبة وصندوق التواجيه إلا أهلك، ولم يسمع أحد عنه شيئا بعدها أبدا... والزيبق بعد شاب حدث، شجاع هو وذكي، وصاحب ملاعيب لا تنتهي ولكنه حارب دائما بشرف، وانتصر بجدارة، وأما أن يرسل إلى هلاكه الغامض، فهذا شيء لا يستسيغه ولا يحبه... وأفاق من تأملاته على لكزات السلحدار، فرفع رأسه وقال:

ـ ماذا جد؟

قال السلحدار، وهو يبتسم:

ـ المقدم صلاح الكلبي يشير إليه، وأنت سارح في فكرك لا

تراه وسيغضب منك إن لم تجبه..

التفت المقدم عثمان ناحية المقدم صلاح الدين الكلبى الذى يجلس إلى جوار السلطان فى صدر الديوان، فرآه يشير إليه بيده، فأحنى رأسه، ومضى يشق طريقه وسط الديوان إلى ناحيته ، بينما قال السلحدار فى صوت هامس:

- سهم جديد من جراب صلاح الكلبى..

ولم يلتفت إليه المقدم عثمان ، وإنما مضى فى طريقه حتى اقترب من صلاح الكلبى حتى كاد يحاذيه، وأشار إليه صلاح الكلبى أن يقترب منه أكثر، ففعل حتى أصبح يلامس كتفه، فهمس صلاح الكلبى فى أذنه:

- اخرج من هذا الباب الجانبى وسأتبعك دون أن ألفت نظر السلطان..

وأشار صلاح الكلبى إلى باب جانبى صغير، يقود إلى جزء مهجور من الدار، فسار المقدم عثمان إليه مسرعا... وماكاد يدخل من الباب إلى ممر معتم مهجور حتى لحقه المقدم صلاح الكلبى، وأمسك بكتفه وهو يقول:

- لقد وقع الزيبق فى أيدينا ولن ينجو من الهلاك أبدا.. لم يجب المقدم عثمان عندما، وإنما نظر فى عينى صلاح الكلبى المليئتين بالحقد والكراهية، فقال:

- إلى هذا الحد تكرهه يامقدم..؟

اشتدت قبضة صلاح الكلبى على كتف المقدم عثمان، وهو

يقول :

ـ لقد فضحني .. وهزمني بحيله وملاعيبه ، ولابد من القضاء عليه بكل وسيلة ، النجاح هو الحكم في حياتنا ، الفاشل يموت وينتهي ، لا أريد أن أكون الفاشل أبدا ..

قال المقدم عثمان ، وهو يتمالك نفسه :

ـ لا قدر الله يامقدم .. وهو لن يعود من سفرته إلى صندوق التواجيه أبدا .

قال صلاح الكلبي :

ـ هذا لايكفي ، أنا لا أركن إلى حديث السحر والشعوذة ، أنا لا أعرف إلا الحقائق ، ولهذا أريده أن يموت قبل أن يبدأ .

وانتبه المقدم عثمان لحديث المقدم صلاح الكلبي ، وانتبهت كل حواسه وهو يسأل :

ـ كيف يامقدم ؟

قال صلاح الكلبي وهو يعض على نواجذه :

ـ عند باب النصر ، وفي آخر حوش من أحواش المقابر ، ستجد حوشا خشبيا أحمر اللون ، هناك ستجد حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، أخبرهما أنني أريدهما ، وأرسلهما لي ..

فتح عثمان فمه في دهشة وبلاهة وهو يسأل :

ـ حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار ، لقد نفاهما السلطان ، وأنت بنفسك أخرجتهما من ديوان الزعر ... وأمرتهما أن يرحلا عن مصر ، وإلا قتلا .

قال المقدم صلاح الكلبى فى صوت هامس أجش :
ـ لا يعرف أحد أنهما لم يغادرا مصر إلا أنا ، أنت الآن . .
ونظر فى عينى تابعه نظرة متوهجة وهو يقول :
ـ ولن يعرف أحد بأمرهما ، وإلا طارت عنقك .
ارتجف المقدم عثمان رغم صلابته تحت نظرات المقدم صلاح الكلبى ، وقال :
أنت تعرفِ ، أن ما تقوله لى لا يعرفه أحد أبدا .
همس صلاح الكلبى فى صوت كالفحيح :
ـ يدفن معك ياعثمان ، أفهمت ، يدفن معك . . فلو عرف العزيز أننى آويتهما فى مصر لقتلنى دون تردد .
همس المقدم عثمان :
ـ لا سمح الله يامقدم
وعاد صلاح الكلبى يقول :
ـ لقد أصبحت يدى مشلولة حيال على الزيبق ، فقد حصل على منديل الأمان من السلطان ، وأصبحت حمايته من واجبى . . تصور . . هل هذا شىء يصدق . . . قال لى السلطان : لا أريد أن يحدث له شىء . وإلا غدوت أضحوكة عند أبناء مصر ، ولسانهم لا يرحم . .
قال المقدم عثمان فى حذر :
ـ إن قلبك لم يصف له يامقدم . .
ثم استدرك قائلا :

ـ وكيف يصفو بعد كل ملاعيبه التى لا ترحم.

أصر المقدم صلاح الكلبى على أسنانه ، وهو يقول:

ـ لقد خدمه الحظ، وأننا لم نكن نعرف من هو، وماهو شكله؟ أما الآن وقد عرفناه فالأمر أسهل من قبل بكثير.. اسمع ، عندما تقابلهما أخبرهما أن الزيبق فى طريقة إلى المدينة المرصودة، وسيخرج من مصر من ناحية الجيزة، فليرصداه، وعندما يتأكدان من خروجه فليسبقاه إلى بئر النجاة.. وهى البئر الوحيدة وسط المغارة المهلكة التى لابد أن يجتازها من أرض الوادى إلى المدينة المرصودة، وليكمنا هناك ولا يعودان إلا برأسه.

ارتجف المقدم عثمان وهو يسمع صوت المقدم صلاح الكلبى الذى غدا كالفحيح.. وقال:

ـ ولكن ألم تحسب حساب مكره، وأنه قد يتغلب عليهما...

ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يقول:

ـ أنت لا تعرف الطريق، لن يصل إلى بئر النجاة ألا وقد خبله العطش والتعب، ولو أحسنا الحيلة لقبضنا عليه باليد دون عناء..

أوصهما بالحذر والكتمان.

قال المقدم عثمان:

ـ أذهب معهما يامقدم فأنا أعرفه أكثر منهما...

قال صلاح الكلبى فى غضب:

ـ لقد أتيحت لك مائة فرصة وفرصة لتتخلص منه هنا، وفشلت .. وأنا لا أخشى علي حسن بن الحصرى وعلى بن البيطار فهما من العتاة، وليس الزيبق من رجالهما..

قال عثمان:

ـ لا تغضب يامقدم، فإنما أعرض خدماتي..

قال صلاح الكلبى وهو يبتسم فى شراسة:

ـ لن تنفعنى خدماتك الآن، لا أنت ولا أحد من رجالى المعروفين، وإنما سيقتل الزيبق اثنان من العصاة على وعلى السلطان، كما سيقتل خارج مصر، فلا لوم على ولا اتهام...

ثم اتجه إلى خارج الممر المظلم وهو يقول:

ـ حذار أن يراك أحد معهما..

ثم ابتلعته فتحة الممر إلى الديوان، بينما خرج المقدم عثمان من مدخل الممر إلى الشارع وهو عازف عن أن يرى السلحدار أو غير السلحدار، وصدمته ضجة القاهرة وشمسها الساطعة، فوقف لحظات يعود أذنه وبصره على حياة الشارع الصاخبة، ومضى مسرعا يشق شوارع القاهرة وحواريها، وحوله ترتفع نداءات الباعة، وصنوج الشربتلية، وصهيل خيل، ونهيق حمير، وشجار بين نافذتين وجدل عند باب الحمام فى سوق الزلط، ثم تخف الضجة وهو يتجه إلى خارج القاهرة، إلى باب النصر، إلى المقابر تقف منفردة بشواهدها، أو الأحواش الخشبية تضم داخلها شواهد قبور وغرف الزيارة، وأماكن

الحزين.. كان يحس ثقلا فى قلبه، لقد هزمه الزيبق حقا، ولكنه كان فى كل ملاعيبه مثال الشجاعة والجرأة والذكاء، ومنذ نجا الزيبق من المشنقة، وهو يعتقد فى أعماق قلبه، أن الحياة أصبحت من حقه، ولكن هكذا تجرى الأمور، فماله هو وكل هذا، ماهو إلا مقدم من مقدم صلاح الكلبى، عليه أن ينفذ أوامره وإلا ناله السوء، وعاد إلى حياة الصعلكة والشقاوة والخوف القديمة...

ومن بعيد لاح له حوش منفرد بعيد، جدرانه من خشب طليت باللون الأحمر... وشد أقدامه شدا وهو يتحسس مقبض سيفه، ويتقدم نحوه فى استسلام وقنوط، لقد كان يعرف أنه يحمل إليه رسالة الموت الغادر الأكيد..

-٥-

غدا .. نرتحل

قال عم عباس المبخراتى، وهو يحرك يده بالمبخرة ذاهبة رائحة ويده الأخرى تمدها بالبخور بين الحين والحين ، فتزداد كثافة الدخان المتصاعد من المبخرة، وهو يقول :

- هو الحى القيوم، سبحانه، مخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى، له الدوام وحده قيوم حى، وحدوا الله...

ثم يختفى وراء غلالة من الدخان وهو يتحرك من مكان إلى مكان، ويده تمر بالمبخرة فوق الأحمال المتراكمة وسط باحة الدار... ويتمتم لنفسه مرة، ويجهر

بصوته مرات، وهو مفقود وسط ما فى البيت من حركة وضجة وصياح... فقد كان البيت هذا الصباح يموج بالحركة ويعج بالناس، يتوه وسطهم عم عباس المبخراتى، ويتوه صوته، وتتوه حركة يده الرتيبة بالمبخرة... كان الحمالون يحملون الأمتعة التى تثقل كواهلهم إلى القاعة.. ليعودوا إلى الحمير المربوطة فى الفناء الخارجى، يركبونها ويعودون إلى السوق، ليعودوا من جديد بأحمال أخرى... أقمشة ، وتوابل، وعطور، وآنية من كل نوع. .وعم عباس المبخراتى، يقابل كل حمل جديد بمبخرته المتوقدة دائما ، المتشعلة على الدوام، تفوح منها روائح المسك والعنبر ، ويدور بها حول كل جديد يدخل القاعة وهو يبسمل ويحوقل ويقول: ـ

ـ هو الحى القيوم، العفو من الله، والرزق من الله، وهو الحى، سبحان الله.

ويتخافت صوته شيئا فشيئا، وهو يحرك مبخرته ذات اليمين، وذات الشمال، ويتحرك من مكان إلى آخر وعيناه لا تغادران فاطمة عند الوسط تماما من كل هذه الحركة الدائبة.. وكانت فاطمة مشغولة عنه فى ترتيب الأحمال والأمتعة ، بينما كانت زينب تقف عند طرف القاعة وهى ترقب هذه الحركة النشطة فى خجل، وتفرك كفيها فى ارتباك، وأخيرا رفعت رأسها وقالت:

ـ كل هذا ياخالة لى.. هذا كثير..

وصاح عم عباس المبخراتى، وهو يحرك يده فيرتفع الدخان والبخور يكاد يخفيه عن أعين الناظرين:

- ما يكثر على الله نعم الله.. حى .. قيوم.. سبحانه مقسم الأرزاق.

وصاحت به فاطمة فى غضب:

- ياعم عباس - بخرت القاعة - ماذا يبقيك؟ تعال خذ حسنتك.

ومدت يدها فى جيب ثوبها بحفنة دراهم، أعطتها له فى صمت وقال متعلثما:

- قال المقدم سالم بخر من عين العواذل بخرت، كل حمل يدخل بخره ياعباس، وإياك أن تترك حملا لا تبخره بخرنا.. القاعة كلها بخرناها... ولا يبقينى شىء إلا كرمك وحسن رضاك ياأم الرجال، ياكاملة..

ضحكت زينب، وهى تخرج حفنة دراهم أخرى تعطيها له فى كفه التى أطبقت عليها فى حرص وقالت:

- خذ وانصرف

وأسرع يحرك المبخرة فى يده، لينبعث منها دخان جديد، وخرج من القاعة، وهو يتصايح قائلا:

- من عين العواذل، من عين الحاسدين، سبحان من يرفع من يشاء، ويذل من يشاء، هو الحى القيوم..

وفى غلالة من الدخان المتصاعد من مبخرته انسحب خارجا

من القاعة، وقالت فاطمة :

ـ إنسان طيب ولكنه ثقيل الظل..

قالت زينب :

ـ وهل كان حضوره ضروريا ؟

قالت فاطمة :

ـ المقدم سالم أحب أن يخزى العين عن كل ماجاءك ، فجاء بالمبخراتى لكى يبخر كل ما جاء من السوق لتحل به البركة..

ضحكت زينب وهى تقول :

ـ ولكن هذا كثير ياخالة فاطمة...

قالت فاطمة وهى تتجه نحوها وتضمها إلى صدرها :

ـ أبدا هذا أقل من القليل يازينب... ومع هذا فالمقدم سالم أراد أن يرقى هذا القليل من العين فأتى بالمبخراتى.

وضحكت .. بينما أحنت زينب رأسها وهى تدير بصرها فيما ملأ القاعة من أحمال، وقالت :

ـ ولكن هذا شوار عروس ياخالة فاطمة...

ضمتها فاطمة وقبلتها، ثم قالت :

ـ وأنت عروس يازينب وإن تأجل زفافك.. علت الحمرة وجه زينب، وازداد إطراق رأسها وهى تقول :

ـ بعد كل هذه الفضيحة ياخالة.. قالت فاطمة بسرعة وهى تربت على شعر زينب :

ـ لا فضيحة فى الأمر، أنت يازينب ضيفتنا منذ البداية...

قالت زينب :

ـ ومايقوله الناس ؟ الزيبق أسر زينب بعد أن طرد أمها دليلة ؟

قالت فاطمة :

ـ الآن الكل يعرف أنك لست فى أسر أحد . . ثم ضحكت وقالت :

ـ وإذا تحدثنا عن الأسر ، فمن فيكما في أسر الآخر ؟ ازداد احمرار وجه زينب وهى تقول :

ـ ياخالة . . هذا كرم منك . . . ضحكت فاطمة ، وهى تشير إلى ما فى القاعة من متاع جديد ، وقالت :

ـ كل هذا هديتنا لدليلة علها ترضى ـ وأنت ستسافرين معززة مكرمة إلى بغداد دون أن يمسك أذى ، ودون أن يطلب منك أحد شيئا . . تعودين إلى بلدك وإلى أمك ، معززة مكرمة ، ضيفة عزيزة حلت ، وضيفة عزيزة ترتحل عنا ، وكلنا حزن على فراقها ، وسفرها .

قالت زينب :

ـ آسفة على فراقكم . . ضحكت فاطمة وهى تقول :

ـ فراق من يازينب ؟ ضحكت زينب وهى تقول : ـ فراقك ياخالة ، وفراق على . . وفراق عمى سالم . . . وبادلتها فاطمة الضحك ، ثم قالت فى تؤدة ، وكأنها تزن كلماتها :

ـ أما أنا ، فنحن حبيبان ، ومهمنا طال الزمان فسوف نلتقى ، أما على . . . وضحكت . . وتمايلت ، وضمت إليها زينب

وقبلتها، ثم قالت:

ـ نعم أما علي، فهذه مسألتك معه.. أنتما وحدكما تعرفان مافيها.

صاحت زينب: ـ ياخالة

قالت فاطمة وهى تربت على شعر زينب فى حنان وتضحك:

ـ هو يحبك... قالت زينب: ـ نعم... قالت فاطمة:

ـ وأنت تحبينه...

أطرقت زينب ولم تجب... وقطع عليهما الحديث دخول زمرة أخرى من الحمالين يحملون متاعا جديدا وعلى رأسهم المقدم سالم، الذى تصدر القاعة وهو يقول:

ـ كل شيء يتم فى راحة ـ أنت هنا ـ ضع هنا ... وأنت هناك لا تستعجل .. حملك ضعه فى هدوء هنا..

كان المقدم سالم يشرف فى جدية على وضع كل شيء فى مكانه، ولا يتهاون مع الحمالين، حتى لا ينكسر شيء، أو يندلق شيء من قواريره، أو ينسكب شيء من خوابيه... وكان يصيح وهو يوجه كلامه هنا وهناك:

ـ إياك أن ينكسر شيء، ضع هذا هنا... وأنت إياك أن يقلب من حملك ما تحمل، ضعه فى هدوء.. وقال شيخ الحمالين، وهو يضع حمله فى أرض القاعة:

ـ كل شيء تمام والصلاة على النبى ـ مالك يامقدم سالم، لماذا

تقلق، هذه مهنتنا من قديم، كل شيء يصل إلى مكانه وتمام التمام..

قال المقدم سالم، وهو يخرج من جيبه نقودا يودعها في يد شيخ الحمالين:

ـ صدقت يامعلم، اترك كل شيء في مكانه ومع السلامة...

قال شيخ الحمالين:

ـ الصلاة على النبي مكسبي، لم يعرف أحد عنا في السوق أننا نكسر شيئا أونضيع حملا.. كل شيء هنا تمام يامقدم...

قال المقدم سالم:

ـ نعم كل شيء تمام، وأجركم تمام..

قال شيخ الحمالين، وهو يشير إلى رجاله ليتركوا القاعة:

ـ مرضيين وحياة صلاة النبي..

وأخذ يداعب ما أعطاه المقدم سالم في يده ويقول:

ـ تمام.. التمام.. وحياة صلاة النبي..

ثم أشار إلى من معه من رجال، فأخذوا ينصرفون واحدا واحدا، حتى كان هو آخرهم، وقبل أن يخرج التفت إلى المقدم سالم قائلا:

ـ نحن في الخدمة دائما، وليس في كل يوم نحمل هدايا على الزيبق لدليلة المحتالة..

قال المقدم سالم في صبر:

ـ من قال لكم هذا الكلام، هذه هدايا على الزيبق لزينب في

رحلتها..

قال رئيس الحمالين:

ـ جعلها الله سفرة موفقة، وأمتعنا بالزيبق وزوجته زينب.. صاحت فاطمة:

ـ يامعلم، هذا شيء سابق لأوانه، ونحن وأنتم نعرف الأصول..

قال شيخ الحمالين وهو يلم حباله:

ـ الأصول أصول، وماهو اليوم كلام غدا يصبح فعلا وفعالا. قالت فاطمة وهى تصرفه بحركة من يدها:

ـ أكرمك الله يامعلم، وجعل كلامك كل الفأل الحسن الذى تطلبه..

خرج شيخ الحمالين، وهو يقبل النقود في يده مرات، ويقول:

ـ جعل الله الدار عامرة، وأكرمنا بفرحنا بالزيبق وحليلته... وخرج شيخ الحمالين، وزينب غارقة فى خجلها، وفاطمة تقول لسالم:

ـ يامقدم، ألم تجد غير هؤلاء..

قال سالم فى صبر:

ـ كل الناس يعرفون حكاية زينب وعلى ـ فماذا أفعل؟ قال فاطمة:

ـ لا عليك يامقدم سالم... الله يفعل مايريد قالت زينب:

ـ فضيحتى إذن فى كل مكان... وسيرتى على كل لسان..
صاح المقدم سالم فى عصبية:
ـ حاشا الله يازينب، ما أنت إلا أطهر البنات، وما على إلا أشرف الفتيان..
قاطعته فاطمة فى حزم قائلة:
ـ كل هذا سينتهى، حين تسافر قافلة زينب فى الغد إلى بغداد.. قالت زينب:
ـ كل هذه الهدايا ستجعل الناس يتحدثون ... قالت فاطمة:
ـ فاتركيهم يتحدثون ، فما لنا وحديث الناس... قال سالم وهو يبتسم فى رقة:
ـ غدا نرتحل ، أنت وكل هداياك، وأنا... صاحت زينب:
ـ أتسافر معى ياعم سالم؟..
قال وهو يضحك:
ـ لابد أن يحرسك واحد منا، أما الزيبق ، فأمامه السفر فى الحصول على النفيلة، أما أنا فحر، أسافر معك، وأسعد بك، وأغيظ الكائدين والحساد.
قالت زينب فى حزن:
ـ ويبقى على وحده ، دون رعايتك..
قالت فاطمة:
ـ بل هو يسافر إلى قدره يازينب ويرعاه الله... ما أتمت فاطمة كلامها حتى دخل على القاعة وهو يقول:

هل كل شيء أعد لسفر زينب إلى أمها ؟
قال سالم :
- كل شيء معد ياعلى لا تقلق ، والجمال تحضر في الصباح وأنا أصحبها إلى دار أمها في بغداد وأنت رعاك الله في سفرتك من أجل إحضار النفيلة ، كم كنت أود أن أكون معك ، ولكن سلامة زينب تأتي في الدرجة الأولى ، وأنا على قافلة زينب ، أما أنت فيرعاك الله..
قالت فاطمة :
كل شيء معد لرحلة زينب ياعلى فلا تقلق ، اهتم بنفسك ..
ثم أشارت إلى المقدم سالم فقال :
- أنصرف الآن لأعد الأمر لرحلة الغد مع زينب..
وخرج المقدم سالم ، وخرجت فاطمة - ونظر على حوله ، فطالعته علائم الرحلة والسفر ، وقالت زينب وهي تتقدم نحوه في تردد واستحياء :
- إذن أنا من طريق، وأنت إلى طريق.
أطرق على برأسه وهو يقول :
- أنت إلى أمك ، وأنا إلى المجهول..
قالت زينب وهي تزداد اقترابا منه :
- إلى قدر معلوم أسير ، وإلى قدر مجهول أنت تسير...
همس الزيبق :
- طريقك مأمون ، ومعك المقدم سالم ضمان الطريق.. قالت

زينب وهى تمسك بذراعه فى تردد :

ـ لست أخاف على نفسى من الطريق، وإنما أنا أخاف عليك.

جفت الكلمات فى فم الزيبق وصمت، فعادت زينب تقول :

ـ ألابد من سفرتك هذه إلى المجهول ؟

تمالك على نفسه، وقال :

ـ لكى أصل إليك لابد أن أجتاز هذه العقبة..

قالت :

ـ أتغامر بحياتك.. وشبابك ونفسك..

همس :

ـ وأغامر بكل شيء، لكى أكون كفئا لك.. قالت وهى تمسك بذراعيه :

ـ ياعلى هذه مهلكة رماك فيها صلاح الكلبى، ولا يريد لك عودة..

قال :

ـ ومن أجل هذا أذهب ، فلن أطلبك من أمك إلا وقد أحضرت هذه النفيلة وغدوت جديرا بك..

قالت :

ـ ياعلى.. أخاف عليك

همس :

ـ حبك نورى ووقائى، وسأنجح وأعود ، لأكلل معنى حبى لك قالت :

ـ هى مغامرة مخيفة ياعلى، ولم يرجع منها أحد منتصرا أبدا، هم يريدون هلاكك.

قال وهو يقترب منها ويمسك بذراعها:

ـ سأعود يازينب، وسأنتصر، فأنت جائزتي الكبرى ـ ولن يثنيني شيء أبدا عن الفوز.. الموت وحده يمنعني.

قالت:

ـ الموت وحده بعيد عنك، فأنا أحبك.

قال:

ـ فالنصر لى ياحب ـ طالما ظل وعد حبك قائما..

- ٦ -

نصلى لله وحده

كانت لحظات مشهودة حين مر موكب زينب من شارع سوق الليمون متجها إلى باب الفتوح، مغادرا القاهرة، وسط ضجة السوق ، والأصوات التى تتابع الموكب من شارع النحاسين الذى لا ينقطع الطرق فيه طوال النهار، كان المقدم سالم على رأس قافلة زينب فوق جواده، ووراءه جمل زينب الذى يحمل هودجها، ثم يأتى جملان محملان إلى أقصى طاقتيهما، وكل جمل يسوقه تابع مسلح، ووراء الجميع تابعان مسلحان يركبان الجياد، شهد الموكب الصبيان، يتابعونه من كل الأحياء

التي مر بها، بعضهم يمسك عصا كأنها حربة، وبعضهم يركب عصا كأنها جواد، وشهدها العجائز المتسكعون حول السوق، يفترشون الأرض أمام الحوانيت وهم يتندرون بالجمال المحملة التي تنوء بعبء ما تحمل، وشهدتها النساء من المشربيات، وهن ينادين ليفرجن على الموكب، ويتابعون سيره الوئيد.. وقالت الست حفيظة:

ـ هذا (شوار) عروس..

ردت عليها الست جليلة من المشربية المقابلة قائلة:

ـ وماله، أليس هو هدية الزيبق إلى عروس المستقبل..

مصمصت الست حفيظة بشفتيها، وهي تقول:

ـ ولكنه ياحسرة حرم منها، أرسلها عذراء إلى أمها دون أن يبنى بها..

قالت الست جليلة:

ـ وماله رجل ولا كل الرجال، يطلبها حين يصبح قادرا على مثلها، وحين يقطع كل الألسنة عنها، وعنه، أما الآن، فهى تعود إلى أمها معززة ومكرمة.

هزت الست حفيظة رأسها مؤمنة على كلام جارتها، وقالت وهي تشير بيدها نحو الموكب:

ـ انظرى إلى المقدم سالم أمام الموكب.. زين الرجال وملء العين والله..

قالت الست جليلة:

ـ هو قادر على حفظها، من هنا وإلى بغداد..

قالت الست حفيظة وهي تعود إلى المصمصة بشفتيها:

ياحسرة علينا... لو كان لنامثل هؤلاء الرجال ما أصبح حالنا مائلا، ولاعتدل البخت، وصفت الحياة.

صاحت بها الست جليلة:

ـ خمسة وخميسة في عين العدوين ياست حفيظة.. الولد ابننا وابن اختنا فاطمة ست النساء، ونحن نحبه، ونضعه في قلوبنا، والبنت صديقتنا كلنا، تسافر إلى أمها بالسلامة... ادعى لها ياشيخة أن يحفظها الله من العين، ومن شر الطريق ،ليسترك الله، ويستر كل أعراضنا..

مصمصت الست حفيظة بشفتيها، والموكب يبتعد على مهل، وهي تقول:

ـ قادر، هو صاحب القدرة وحده، لا يعترض أحد على عطائه، ومن أعطى لعلي بن حسن رأس الغول يعطنا، ومن جعل لزينب هذا الموكب يجعل لبناتنا مثله..

قالت الست جليلة:

ـ الله يحفظها ويعيدها إلى أمها بالسلامة.

وكان الأولاد يتصايحون وراء الموكب وهو يدخل في البوابة:

ـ يامحنى ديل العصفورة...وزينب هى المنصورة..

ـ ياأولاد حارتنا، سوسة سوسة

ـ وزينب ترجع لنا عروسة..

وما أن خرج الهودج من ظلام القبو ورطوبته إلى خارج بوابة الفتوح حتى أشارت زينب إلى قائد هودجها فأوقف الجمل، بينما تكأكأت حولها باقي الجمال، والتف الأولاد حولها ، وهم يرددون صيحاتهم وضحكاتهم، وأغانيهم. .وأسرع المقدم سالم إلى هودج زينب، فرفع السجف وقال:

ـ لماذا توقفت ياسيدة الملاح؟

كانت في عيني زينب دموع ، وكانت شفتها السفلى ترتجف، فأشاحت بوجهها عن المقدم سالم وأطرقت، وتركت لدموعها أن تسيل في صمت، ثم قالت بصوت مرتجف يشرق بالعبرات:

ـ إنما هي نظرة وداع للقاهرة. .

ضحك المقدم سالم في خفوت ، وقال:

ـ وداع إلى لقاء قريب يازينب، ستعودين إليها عروسا بإذن الله رفعت زينب يدها بوشاحها تجفف الدموع، وأشارت برأسها إلى الصبية المتحلقين حول الجمال وقالت وصوتها يزداد ارتجافا:

ـ اترك هذه الأمنيات للصغار ياعم سالم. .

ازدادت ضحكة سالم ارتفاعا وهو يقول:

ـ الأطفال أحباب الله، وكلامهم البرىء يحمل كل أمنيات أهل القاهرة لك يازينب أن تعودى إلينا منصورة مجبورة، وعروسا تزف إلى عريسها.

همست زينب، وهي تحاول كبح جماح دموعها :

ـ من يدرى ياعم، من يدرى؟

قال المقدم سالم، وهو يخفى ما جاشت به نفسه من عواطف، وراء حركة كفه على شاربه الكث فى رتابة عصبية :

ـ اطلبى الخير من الله ياابنتى ، وتفاءلى خيرا.. ألا تجدين فى صياح هؤلاء الأطفال بشرى الخير ؟

ابتسمت زينب وسط دموعها وقالت :

ـ كلماتهم هى التى دفعت الدموع إلى عينى ، ولو سمعتها دليلة لعرفت إلى أى حد يحب أهل مصر على الزيبق، ولأحبته كما يحبونه... هز المقدم سالم رأسه الأشيب، وابتسم وهو يقول :

ـ الله وضع على قلوب أقفالها..

ثم ضحك بصوت عال، وهو يقول :

ـ هل ستطول وقفتنا هنا.

أشارت زينب بيدها إلى ضريح سيدى حسن الذوق يتوسط الباحة أمام البوابة، وقالت : ـ يقولون أن من يقرأ الفاتحة لسيدى حسن الذوق وهو يغادر بوابة الفتوح يعود مرة أخرى ليقرأ له الفاتحة من جديد.. نظر إليها لحظات فى صمت، ثم مد راحتيه منضمتين وهو يقول :

ـ اذن نقرأ له الفاتحة سويا..

ومدت زينب كفيها أمام وجهها ومضت تقرأ الفاتحة مع

المقـدم سـالم الذى أنهـاها بـأن مسـح على وجـهـه بكفـيـه ، وهو يقول :

ـ آمين

وحين أنـهت زينـب الفـاتحـة ، مـدت يدها إلى صـرة بـيـدها ، ففكتها وهى تقول :

ـ لا تحسبنى أتلكأ فى بدء الرحلة ياعم ، إنما أتودع من مصر .

ضحك المقدم سالم ، وقال :

من مصر ، أم من واحد فى مصر ؟

احـمـر وجـه زينـب ، ودارته بوشـاحـهـا ، وهى تعـبث بيـدها الأخرى فى الصرة ، وقالت :

ـ كل ما فى مصر عزيز يامقدم سالم ، وهو فى مصر بهجتها التى تمثلها عندى . .

ثم مـلأت كـفـهـا بالدراهم من الصـرة ، ومـضت تبـدرها على الأولاد المتـحلقين ، الذين أخـذوا يتـصـايحـون ، وهم يجـمـعـون الدراهم المتسـاقطة وتنهدت زينـب وهى ترفع وجـهها إلى المقدم سالم وتقول :

ـ والآن هيا بنا . .

قال المقـدم سالم وهـو يسدل السـجف على الهودج ، ويشـير إلى رجاله ببدء الرحلة :

ـ على بركة الله .

ومضى الموكـب وئيـدا يغادر الساحة ، مبتعدا عن باب الفتوح

ببطء وصياح الصبية يعود من جديد ليردد :

ـ يا محنى ديل العصفورة ، وزينب هى المنصورة . .

ـ ياولاد حارتنا ، سوسة سوسة

ـ وزينب ترجع لنا عروسة . .

قالت فاطمة فى حدة :

ـ كفى ياعلى ، لقد ذرعت القاعة أكثر من خمسين مرة ، لو كنت نادما على ترك زينب تعود إلى أمها لكنت احتفظت بها هنا ، وتزوجتها ، ولن تبالى بأحد . .

فرك على الزيبق كفيه ، وعض على شفتيه ، وهو يقول :

ـ بل كان لابد من عودتها .

قالت فاطمة فى حزم :

ـ إذن انسها ، وركز تفكيرك كله فى المهمة الصعبة التى أوقعك فيها صلاح الكلبى . .

تمتم على من بين نواجذه :

ـ النفيلة ، صندوق التواجيه . . . المدينة المطلسمة ، الجزيرة ذات السيوف المهلكة . . دوامة ، دوامة ، كلما أمعنت التفكير فيما أخبرتنيه عنها ، احتار فكرى ، وتبلبلت أفكارى .

ربتت فاطمة على منكبيه فى حنان ، وهى تقول :

ـ راحت السكرة وجاءت الصحوة وعرفت الآن إلى أى مهلك دفعك صلاح الكلبى . .

هدأ على قليلا ، وأطرق وهو يقول :

ـ أيا كان الأمر، لابد من الوفاء بما تعهدت به.. قالت فاطمة:

ـ هذا أحسن من القلق ياعلى، فأعد نفسك لما عزمت عليه.

قال على هامسا كأنما يحدث نفسه:

لقد سمعت جدى القاضى نور الدين يقول: إن الصلاة ملجأ كل نفس قلقة، فهى تثبت الإيمان وتقوى العزم... وأنا ذاهب إلى مسجد السيدة زينب أصلى عل ما بنفسى من قلق يذهب عنى.

قالت فاطمة فى حنان:

ـ اذهب يابنى، فنعم النصيحة هذه تذكرها عن جدك، فهو والله أفضل الناس وأتقاهم..

مضى على الزيبق يشق طريقه وسط شوارع القاهرة وأزقتها، وهو مطرق برأسه، مشغول بفكره، لا يحس بضجة الناس من حوله، ولا يشعر بحركتهم المورارة وزحامهم الذى يملأ كل الشوارع والأزقة التى يعبرها فى صمت وسرعة، ولكن حاسته الحذرة ما لبثت أن أدركت أن هناك من يتبعه من مكان إلى مكان. ربما كانت حياة الطريد الذى يتعقبه رجال صلاح الكلبى لتوقع به، قد علمته أن يلاحظ من الأمور ما قد يغيب عن غيره، وربما كان قد تعود أن يراقب ما يحدث خلفه كما يراقب مايحدث أمامه، ولكنه آخر الأمر ازداد تأكدا من أنه متبوع في سيره ولاشك... وفكر فى أن يلجأ إلى إحدى حيله لكشف من يتبعه، ولكنه فضل أن يظل فى سيره فهو ليس ذاهبا إلى مهمة

سرية، وهو قد حاز منديل الأمان فلا خوف عليه من كمين يعده له صلاح الكلبى ورجاله... وكان قد وصل إلى المسجد، فاتجه إلى بابه، وخلع نعليه دون أن يتلفت حوله، ودخل إلى ساحة المسجد لتتسلل إلى قلبه ووجدانه تلك الرائحة الذكية التى تملأ جوه، وهدأت نفسه وهو يجيل بصره فى رحاب المسجد الذى يسوده الهدوء إلا من تمتمات هنا وهناك يرددها المصلون فى خشوع وابتهال . ونسى قلقه وحذره، وهو يتجه إلى الميضة ليتوضأ فى استغراق ، ثم يعود إلى المسجد لينتحى ركنا هادئا، ويصلى وحده فى ابتهال هامس مؤمن.

آيات القرآن تخرج من بين شفتيه فيحس أنها مرت بقلبه فطهرته، وبعقله فهدهدته، وبنفسه فزرعت فيها الهدوء والأمل ..ويركع فيضيع الوجود بصخبه، وأحقاده، ومؤامراته، وينحصر بصره أمامه فى بؤرة نور خرجت من ذاته لتعود إلى ذاته بالحب والسلام والأمن... ويسجد فإذا هو ذرة ضئيلة فى ملكوت الرحمن الرحيم، إذ هو يشفى ويرزق، ويحس بصغاره وصغار الكون كله، وينتصب من جديد، فإذا كل جسده قد غدا خفيفا لا ثقل فيه، لا شىء يشده إلى الأرض، لا شىء يغل من حركته، ويمور قلبه بالحب وهو يقرأ الفاتحة من جديد... ما أنت ومن أنت أمام عظمة الخالق الواحد الأحد، سبحان من له الملكوت، سبحان من له الدوام، وإذا هو فى ركوعه ينحنى لما ملأ قلبه من عظمة خالقه الرحمن الرحيم، وإذا هو يخر ساجدا

رهبة وخشوعا يرتجف جسده كله. . وحين أنهى صلاته كانت دموع خبيئة تملأ عينيه، فجلس في ركنه صامتا، وأحداث حياته تمر أمام باصريه، وأدرك أنه ما كان يقاوم صلاح الكلبى إلا لأنه طغي وبغى، وأن الإيمان الذي يملأ قلبه هو الذى دفعه إلى نصرة المظلومين والمضطهدين، وأن هذا سر حب الناس له، وتأييدهم لأفعاله بصلاح الكلبى ورجاله. . وسمع نفسه يهمس في صوت مرتجف خفيض:

- اللهم بصرني، وسدد خطاى، واجعلني أداة رحمة وهداية، لا عنصر شقاوة وضلال.

وانهمرت دموعه فتركها تبلل وجهه، وهو مطرق خاشع مضطرب إلا أنه فاق على صوت يقول بصوت جهورى:

- نويت أصلي ركعتين تحية للمسجد. . الله أكبر. .

فرفع رأسه يحدق في صاحب الصوت. . . كان الرجل يقف أمامه إلى اليمين قليلا، وقد رفع كفيه إلى جبهته ثم خفضهما وضمهما إلى صدره، ومضى يقرأ الفاتحة بصوت هامس ولكنه مسموع. . لا يعرف على ما الذى لفته إليه، الصوت بالطبع هو لم يسمعه من قبل يتأمله في دقة، ولكنه متأكد أنه لم يره من قبل. . . وهز رأسه في حيرة، عجيب أن يسترعى الرجل انتباهه رغم كثرة المصلين في المسجد، ولكن للرجل حضورا يفرض نفسه، ويشعر بوجوده. . . وعاد علي يهز رأسه من جديد - ربما كان هذا هو كل ما في الأمر. . . لبعض الرجال وجود طاغ يرغم

الآخرين على الإحساس به... وهذا الرجل واحد منهم... ليست المسألة مسألة صوت، ولا مسألة طريقة كلام، وليست كذلك في القامة المنتصبة والهامة المرتفعة في كبرياء، ولكن هو شيء غير هذا كله، وهو هذا كله في آن واحد .. وهمس على لنفسه:

- لا تشغل بالك به، هو واحد يصلى، وأنت لا تعرفه، ولا داعى لإمعان النظر نحوه... وأنت قد صليت ، فهيا بنا يافتى.. ولملم نفسه ليقوم، ولكنه فجأة ارتجف حين أحس بأصبع يمر بيد لزجة باردة فوق كفه، وصوت هادىء يقول:

- مسك من روائح الجنة يافتى... هات كفك الأخرى وتوكل على الله..

رفع على الزيبق رأسه، فواجهته عينان عميقتان قد تكحلتا وصفت حدقتاهما، وعاد صاحبها يقول في نفس الصوت الهادىء:

- هات كفك الأخرى..

ومد على الزيبق كفه الأخرى فمسح عليها الرجل بإصبعه بعد أن مر به على «حق» صغير، ودهن يده وهو يبسمل ويقول:

- من ريح الجنة، والصلاة على النبى..

ثم اختفى الوجه الملتحى من أمامه، وذهبت العينان الصافيتان، ووجد نفسه يحدق في فراغ، فرفع كفه اليمنى إلى أنفه، وانبعثت رائحة عطرية نافذة جميلة إلى صدره، ثم رفع

كفه الثانية إلى أنفه، فانبعثت نفس الرائحة، رائحة المسك ـ تملأ صدره، وتعطر أنفاسه .. ومضى يفرك كفيه ثم يمسح بهما على وجهه وجبهته... وأحس بالانتعاش ـ وتنهد وهو يقف ويحمل نعليه في يده ليخرج من المسجد ، وفجأة التفت إلى حيث كان الرجل الأول يصلى فلم يجده .. متى انتهى من صلاته، وكيف اختفى ..؟ هو لا يعرف، وعندما أخذ يجول ببصره في المسجد بحثا عن الرجل صاحب «حق» المسك، أدرك أنه اختفى هو الآخر ـ وأحس بالشك يملأ صدره من جديد .. وإحساس غريب بأن هناك غموضا ما يحيط به لايريد أن يفارقه .. وعاد يجول ببصره في المسجد الرحب من جديد بحثا عن الرجلين، ولكن بصره لم يقع على أى منهما ... وهز رأسه في حيرة ثم مضى يغادر ساحة المسجد وقد بدأ فكره يتبلبل من جديد ـ وما أن خرج من المسجد وساحته المعتمة إلى ضوء النهار الساطع، وضجة الحياة الصاخبة في الميدان المحيط بالمسجد حتى نسى أمر الرجلين، وابتسم لنفسه ساخرا وهو يلبس خفيه، ويجول بصره في الحركة الدائبة التي يموج بها الميدان، هنا راحة وهنا تعب، هنا هدوء، وهنا صخب، هنا ذكر الله، وهنا انغماس كامل في كل أمور الحياة... وأحس بنفسه يضحك، وهو يترك نفسه تنساب مع الحركة الغامرة في الميدان... نداء الحمارين على حميرهم، وصياح الباعة على سلعهم، وصخب الصبيان يخترعون ألعابا غريبة منهمكين في أدائها بكل جد، وجدل

هنا، وضحكات هناك... وصنج السقاء.. وتوقف.. صنج السقاء.. نعم، هى صنج السقاء يسمعها منذ غادر المنزل وحتى وصل إلى المسجد ، ويسمعها الآن وهو يتجه من المسجد إلى باب الخلق، وتوقف في سيره ،وأخذ يجوس الميدان بناظريه، بحثا عن السقاء المتجول يبيع الماء للعطاشى من عابرى السبيل، ولكنه لم يجده ـ بائع برتقال، حمار يجرى وراء حماره، امرأة تصحب فى كل يد طفلا، وتحمل فوق رأسها «بقجة»، سائل أعمى يمد عصاه، ويجأر بشكوى الزمان، طفل لوث وجهه بحلوى ساحت على يديه ووجهه، رجل عجوز فى يده عصا يتوكأ عليها ويجهد ليتابع سيره، لا سقاء ـ ولا سقاء.

ومضى يتابع سيره وهو يتلفت حوله في حيرة وقد اختفت أصوات الصنج.. وكان حر القاهرة قد اشتد عليه، وصوت الصنج قد ذكره بالماء فأحس بالعطش، ومضى يغذ السير فى دروب الحمالين، ففى آخره وعند الميدان السبيل القديم، وهناك سيجد الماء الذى يروى عطشه... ووجد سائلا يجلس على حافة الطريق فرمى له بدرهم ، ثم لاح السبيل من بعيد، فمضى في سيره وهو يسأل نفسه، إذا كان لا يستطيع احتمال وهج شمس القاهرة، فكيف سيحتمل لفح شمس الصحراء المخوفة، التى حكت له عنها أمه، والتى تفصل الوادى عن المدينة المرصودة.. وهمس لنفسه:

ـ نترك أمرنا لله... ومن توكل على الله كفاه ياعلى.

وقبل أن يتحرك نحو مبنى السبيل الدائرى الذى لاح من بعيد، عاد يسمع صوت الصنج من جديد، وكانت هذه المرة قريبة جدا منه، فالتفت وراءه ، وإذا برجل سقاء، من السقائين الجائلين يتقدم نحوه وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وفوق كتفه قربة منداه، ويده تلعب بالصنج فى وقع رتيب، وهو يقول له:

ـ الماء ياعطشان، اشرب ـ وصل على النبى.

كان الصوت مألوفا، وكان الوجه مألوفا، وكان جسد الرجل الذى يتقدم نحوه مألوفا، ولكنه لا يستطيع أن يذكر متى رآه، ولا أين رآه، وقال الرجل وهو يمد يده بطاسة نحاسية مليئة بالماء:

ـ ماء معطر بالورد... اشرب.. وبل ظمأك.. وصل على النبى.

أمسك على الزيبق الطاسة فى يده، كان الماء فيها رائقا وجميلا، وكان عطشان، ولكنه كان أيضا الزيبق، رج الماء فى الطاسة ورمى الماء منها فى صمت، وأعادها إلى السقاء، وأخذ السقاء الطاسة الفارغة ومال بجسده يملؤها من القربة على ظهره، وهو يقول:

ـ اشرب وصل على النبى

وعاد على الزيبق يرج الماء فى الطاسة مرة ثانية، ثم يرمى الماء على الأرض، ويعيد الطاسة فارغة إلى الرجل، الذى نظر فى عينيه فى صمت، وعاد يملؤها من جديد ويقدمها إليه...

وشرب على الزيبق الماء فى استمتاع ،وأعاد الطاسة،وهو يمد يده إلى جيبه يخرج دريهمات يعطيها له وهو يقول:

ـ هذا ليس صبر السقائين.

نظر الرجل إلى الدراهم العديدة، فى يده، وابتسم، وقال:

ـ وهذا ليس عطاء عطشانين.

قال على الزيبق:

ـ وإذن

ضحك الرجل وهو يقول:

ـ أنت الزيبق.. أليس كذلك؟

قال على الزيبق:

ـ وأنت تتعقبنى منذ خرجت من منزلى..

عادالرجل يضحك، وهو يقول:

ـ لو كنت أريد بك شرا لأقدمت عليه من زمن.

لمعت عينا الزيبق وهو يقول:

ـ وأنت الرجل الذى كان يصلى فى مسجد السيدة زينب أمامى.

قال الرجل:

ـ وصاحب المسك الذى هو عطر الجنة

ابتسم الزيبق فى هدوء وقال:

ـ فماذا تريد؟

قال الرجل فى هدوء شبيه بهدوء الزيبق:

ـ هناك من يريد أن يراك، وأنا مكلف أن أقودك إليه. فماذا قلت..؟

قال الزيبق:

ـ سر أمامى، أتبعك إليه

وضحك الرجل، ومال بالقربة وهو يملأ الطاسة ويمدها إلى الزيبق قائلا:

ـ اشرب وصل على النبى، ثم اتبعنى ،وصل على النبى... وتوكل على الله.

ثم رفع عقيرته وهو يميل بقربته من جديد، ويصيح:

ـ الماء ياعطشان.. اشرب ، وصل على النبى..

وتبعه الزيبق.

- ٧ -

أحمد الدنف والفتيان

كان على الزيبق يتبع السقاء فى سيره من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، وهو يحاول أن يتذكر فى سيره كل المتعرجات والمنحنيات التى مرا بها، ولكنه اعترف لنفسه أنه قد تاه وسط مدينته، وأنه لم يعد يعرف أين هو فى القاهرة التى كان يظن أن لا أحد يعرف أسرارها ، ومداخلها ومخارجها مثله... ولكنه مع هذا لم يكن يحس بالقلق، لأنه لو أراد به هذا الرجل الذى يتبعه منذ خروجه من منزله شرا لناله به من زمن، ولما احتاج إلى أن يكشف عن نفسه له... لم يكن الخوف إذن هو الذى

يساور الزيبق، وإنما كان هو الفضول الذى استحوذ على عقله ونفسه حين رضى أن يتابع السقاء فى هذه الرحلة المجهولة عبر أزقة القاهرة وحواريها... كان يحس أنه على وشك الحصول على مفاتيح أسرار ظلت مغلقة عليه كل هذا الزمن... ونظر إلى ظهر السقاء المحنى تحت القربة، ولاحظ أنه يداوم على قرع الصنج بين الحين والحين، كما أنه يداوم على ترديد نداءاته على ما يحمل من ماء... وبين الحين والحين كان يقف أثر إشارة من أحد العابرين ليملأ له الطاسة النحاسية بالماء فى أدب، ويتقبل الدراهم التى تعطى له فى امتنان.. لن يشك أحد فى أنه سقاء حقيقى يمارس مهنته، ولن يشك أحد فى أنه يسير نحو هدف محدد يقود الزيبق إليه عبر شوارع وأزقة القاهرة المزدحمة.. وابتسم لنفسه وهو يعجب كيف أمكن لهذا الرجل أن يتحول من المصلى ذى الملامح الجامدة، إلى موزع المسك صاحب العينين المكحولتين، ثم إلى هذا السقاء الذى ينوء ظهره بحمل القربة الملآنة... وبين كل تحول وآخر دقائق، بل ربما لحظات لا تتسع لكل هذا التقمص الغريب والمتقن من شخصية إلى أخرى، وأحس بشىء من الانبهار والإعجاب يملأ نفسه ناحية هذا الرسول الغريب، وأفاق من تأملاته على صوت السقاء يردد نداءه، وهو يضرب الصنج:

ـ الماء، ياعطشان اشرب، وصل على النبى.

كان الرجل قد توقف أمام باب حمام قديم، وكان ينظر إليه

نظرة ذات معنى ، وفهم أنه يدعوه إلى الاقتراب منه ، فذهب إليه وهو يقول:

ـ اسقني ياسقاء.

مال السقاء بكتفه يملأ الطاسة وقدمها إلى على الزيبق، وهو يقول: ـ مرحبا ياشاب، بالهناء والشفاء.

وبينما كان الزيبق يرفع الطاسة إلى شفتيه، همس السقاء:

ـ اترك البابين الأولين على اليسار وادخل في الثالث، وادخل وكأنك تقصد المكان وتعرفه، ولا تلتفت يمينا أو يسارا..

وأنهى الزيبق ما فى الطاسة من ماء، فصاح السقاء، وهو يتناول الدراهم التى أعطاها له الزيبق فيقبلها، ثم يرفعها إلى جبهته ثلاث مرات:

ـ بالهناء والشفاء يا شاب.. ماء للعطشانين، اشرب وصل على النبى.

وأدار له ظهره، ومضى إلى حال سبيله وهو يدق الصنج فى رتابة ومهارة .. ولم يعره الزيبق التفاتا ، بل سار فى طريقه وكأنه يعرف إلى أين يقصد، وكان الباب الأول علي يساره لشربتلى، وابتهج الزيبق فهو يعرف هذا الدكان، وهو شربتلى مشهور فى الكحكيين. إذن فهو فى الكحكيين، أما كيف جاء إلى هنا دون أن يلاحظ طريقه فهذه وحدها تثبت مهارة دليله السقاء... وتجاوز الزيبق الدكان، وطالعته من الباب الثانى روائح أليفة وحبيبة يعرفها جيدا، وعرف أنه أمام دكان عطارة

فلم يلتفت إليها، وإنما اتجه مباشرة إلى الباب الثالث، وكأنما هو مقصده الذى يسعى إليه، ولم يفاجأ حين وجد الباب الثالث، باب دكان أقمشة، بل دخل وهو يلقى بالسلام فى ثقة، وأسرع إليه رجل وقور وخط الشيب لحيته، وارتسمت على وجهه ابتسامة مرحبة وهو يقول:

- أهلا وسهلا يا ابن المقدم حسن ، اتبعنى فطلبك فى داخل المحل، ولم يدهش على الزيبق أن يخاطب باسم أبيه، فقد كان يتوقع شيئا كهذا ، وسار وسط بالات الأقمشة المكومة إلى جنبات المحل، وهو يزيح من طريقه أقمشة علقت لتتدلى معلنة عن نفسها، بألوانها الصارخة ونسيجها الهفهاف، حتى وصل إلى آخر الدكان، فإذا أمامه ستار ملون، أزاحه الرجل الذى يتقدمه وهويقول:

- تفضل فهم ينتظرونك

وأمامه كانت تمتد قاعة معتمة بعد ضوء النهار الساطع فى الخارج. كان أثاثها مقاعد ممتدة على الجانبين، وفى الوسط مقعد طويل، جلس فى وسطه رجل كهل ملتح، فى ثياب الفرسان وإلى جواره سيفه فى قرابه وأمامه «مداعة» طويلة ينبعث منها دخان كثيف وهو ممسك مبسم من مباسمها يشده فى هدوء وتواصل وينفث الدخان من منخريه ليغطى الدخان وجهه لحظات ثم ينقشع.. واعتدل فى مجلسه وقال:

- ادخل ياعلى فنحن فى انتظارك منذ وقت طويل.

ولاحظ على الزيبق أن هناك رجلا آخر يجلس فى مقعد إلى اليمين يمسك بمبسم آخر «للمداعة» ويمتص منه الدخان فى صمت . . . فتردد لحظات ، ثم استجمع شجاعته ، ودخل إلى وسط القاعة ، وهو يقول :

ـ من أنت ؟ ولماذا استدعيتنى ؟

ضحك الرجل الكهل الملتحى ، وأشار بيده إلى مقعد على يساره ، وهو يقول :

ـ اجلس أولا ، وستعرف كل شىء .

لم يتردد على الزيبق ، واتجه إلى المقعد الذى أشار إليه الرجل الكهل ، وجلس فى هدوء ، وهو يقول :

ـ ما كل هذا الغموض ، ولماذا رسول يتعقبنى ، ثم لماذا أنا هنا .

ضحك الكهل وهو ينفث الدخان من أنفه وفمه ، وقال وهو يعتدل فى جلسته :

ـ يعجبنى هدوؤك ، وثبات جنانك . . سأخبرك بكل شىء فلا تقلق والآن هل تحب المنقوع من زبيب وتين وبلح ،أو العصير من عنب وبرتقال أو تحب القهوة .

اعتدل الزيبق فى جلسته ، وقال فى هدوء :

ـ أنت تريدنى أن أكون على سجيتى ، وهذا حسن ـ ولكنى لا أحب شيئا من كل هذا ، وإنما أحب أن أعرف ، فلا تطل قلقى ، وحدثنى بما تريد .

قال الرجل الكهل، وهو يترك مبسم المداعة، ويتجه إليه بكليته:

ـ نحن نرصد تحركاتك كلها من زمن طويل، وآن لنا أن نتواجه ونتكاشف..

قال علي الزيبق:

ـ أنتم... ؟ من أنتم؟

قال الرجل الكهل في هدوء، وهو يبتسم:

ـ نحن يابني حماة هذه الدولة الاسلامية الذين يضحون من أجل بقائها واستمرارها وأمنها بكل شيء.. هل أضاف إليك هذا شيئا؟ أطرق الزيبق في حيرة، وأخذ يحرك ساقيه في عصبية، وقال:

ـ هذا كلام كبير..

ضحك الكهل، وتحرك الرجل الآخر في الجانب المقابل، وترك مبسم المداعة، وانضم إلى الرجل الكهل في مجلسه... وقال:

ـ هذا كلام من يدركون معنى ما يقال لهم.

ونظر الزيبق في عيني الرجل الآخر، كانتا صريحتين صافيتين، وارتسمت ابتسامة على الوجه أضاءته، فأطرق وهو يقول:

ـ أحس أنني أمام عالم مجهول لا أعرفه، فزيداني إيضاحا

ضحك الرجل الكهل، وقال للرجل الآخر:

ـ ألم أقل لك، هو مثل أبيه، وقد آن الأوان أن يكون معنا.
قال الرجل الكهل في هدوء:
ـ اسمي يابني أحمد الدنف، ألا يثير عندك هذا الاسم شيئا..
لمعت عينا الزيبق، ورفع رأسه وهو يقول في اندفاع:
ـ بل سمعت عنه الكثير..
ثم ازداد اندفاعا وهو يقول:
ـ أحمد الدنف اسم تعرفه مصر كلها، أنت كنت مقدم الدرك في مصر، وفي بغداد..
ضحك الرجل الكهل، ومر على لحيته بيديه وقال:
ـ لا تندفع ياعلي... وجودنا هنا سر لا يعرفه أحد، وما جئنا إلا من أجلك
وصمت علي واجما... وعاد الرجل الكهل يقول:
ـ أنا الآن بالفعل مقدم درك بغداد، والفضل في هذا يرجع إليك، رفع علي وجهه في تساؤل وقال أحمد الدنف:
ـ لا تعجب، استطاعت دليلة أن تقصيني عن مقدمية الدرك، حتى هزمتها أنت هنا في مصر، فنحيت عن المقدمية، وعدت أنا مقدما لدرك بغداد، ومسئولا من جديد عن أمن الدولة الإسلامية كلها... أنت لاتعرف يافتي أي خير فعلته حين جعلت منها أضحوكة هنا، لقد فقد الخليفة في بغداد ثقته بها، فأقصاها، وكان هذا أحسن ما يمكن أن يحدث ليومنا ولغدنا أيضا.

هز الزيبق رأسه فى حيرة، وقال:

ـ لست أفهم.. ما هى علاقتى أنا بكل هذا..

لأول مرة تدخل الرجل الآخر فى الحديث.. فقال:

ـ ياعلى، أنت عندنا فى مكانة كبيرة فأنت ابن حسن رأس الغول، وأنت أيضا ابن فاطمة... الفارسة المشهورة باسم أحمد ابن النبى، ولهما معا من الأفعال ما يجعلهما قرة عين كل من يحب مصر.. ويسعى إلى سعادتها وعزها.

وأكمل أحمد الدنف قائلا:

ومن هنا كانت رسالتك جزءا من رسالة أبيك حسن رأس الغول، وحسن رأس الغول.

أكمل على الزيبق تلقائيا دون أن يحس.

ـ كان من رجالك..

تنهد أحمد الدنف... وصمت... بينما قال الرجل الآخر:

ـ كلنا كنا من رجال الدنف، وحين ذهب إلى بغداد ذهبنا معه، أبوك وحده هو الذى أصر على البقاء فى مصر، واغتاله صلاح الكلبى، والباقى أنت تعرفه..

صمت على الزيبق، ومضى يتأمل فيما قيل له، وأحس أنه فى دوامة... بينما قال الدنف...ـ كلنا كنا أصدقاء أبيك، وكان من مشاديدى، ولكن الموت حق، وهذا أمر قد انتهى... وقلنا إننا خسرنا مصر إلى حين، ولكن حين بلغنا ما فعلته بمصر عرفنا أنك ابن حسن رأس الغول ـ وعرفنا أن لحظات الانحسار

قد انتهت، وأنه آن الأوان أن نظاهرك، وأن نقف إلى جوارك.

قال الرجل الآخر:

ـ لقد طردت دليلة من مقدمية الدرك بفضلك، وهذا إنجاز لم نكن نتصور أنه يحدث ، فقد خدعت دليلة كل الناس، خدعت حتى الخليفة نفسه، ولم نكن نستطيع أن نقدم له دليل خبثها وضعتها، لأنها لم تكشف أبدا عن غدرها بنا وبالخلافة نفسها.

عاد أحمد الدنف يقول:

ـ وحين أقصيت دليلة عن مقدمية درك بغداد، عرفنا أن الشاطر الجديد الذى ظهر في القاهرة ، واحد منا ـ وكان لابد أن نساندك، ونقف إلى جوارك.

قال الرجل الثانى:

ـ ولهذا جاء أحمد الدنف ونحن معه إلى القاهرة لنقدم لك كل مانستطيع من مساندة ومساعدة.

قال الزيبق فى هدوء:

ـ ومن أنت؟

ضحك الرجل الآخر، ولم يجب، بينما قال أحمد الدنف:

ـ هذا ياعلى، شحادى أبو حطب، وقد ارتفق اسمه باسم أبيك فى مغامرات عديدة لا تنساها مصر أبدا.

قال على الزيبق فى ذهول:

ـ شحادى أبو حطب، لقد سمعت عنه الكثير..

أكمل أحمد الدنف

ـ ومن كان على باب الدكان، هو حسن شومان، صديق أبيك ورفيق سلاحه.

قال الزيبق في ذهول متعاظم:

ـ أحـمـد الدنف وشـحـادى أبو حـطـب وحـسـن شـومـان ـ لا ينقصني إلا عمر العيار.

قطع عليـه كـلامـه... دخـول الرجل الذى كـان على باب الدكان وهو يقول:

ـ أنا حسن شومان ياعلي، أما عمر... فقد عرفته قبلنا كلنا.

قال أحمد الدنف:

ـ الرجل الذى يصلى، والرجل الذى يوزع المسك والعنبـر، والسقا الذى يقودك من مكان إلى مكان، هذا هو عمر العيار.

كان على الزيبق فى ذهول مطلق، يواجه هذه الأسـمـاء التى عـرفـهـا كـأشـبـاح من ماض حـافل مـجـيـد في صـمـت وسكون، ويفكـر فى نفس الوقت فى عـمـر العـيـار، ومـافـعله مـعـه حـتى أوصله إلى هذا المكان فـيـحس فى قلبـه رهبـة وفى داخله إعـجـابا عميقا متزايدا وصمت.. وطال صمته..

ضحك أحمد الدنف وعاد يقول بصوته الجهورى القوى:

ـ أدهشك كل هذا... ولكن لا تترك لدهشتك أن تنسيك ما أنت فيه، فليس فى كل ما عرفت ما ينجيك من خطر داهم منا، أو من هم أشر منا، فمن يدرك، أنحن نريد بك الخير أم نريد بك الشـر... وجم على الزيبق، ولـم يجب، وهو يجـيـل بصـره بين

أصحاب هذه الأسماء المخيفة التي ترتعد من ذكرها قلوب أشد الناس سطوة في مصر، حتى صلاح الكلبي، لو عرف أن هؤلاء الرجال في مصر، لاهتز رعبا وفرقا ـ أما السلطان

ـ قال على الزيبق:

ـ هذا شرف لى كبير يامقدم أحمد الدنف

ضحك أحمد الدنف، وهو يقول:

ـ لقد سبقتنا إلى هذا الشرف يازيبق ـ فحين هزمت دليلة هنا في مصر، نحاها الخليفة هناك في بغداد، وكشف ضعفها وعجز حيلتها، ومن ساعتها ونحن معك، ومن ساعتها وهى عدوة عمرك..

قبل أن يجيب الزيبق، دخل القاعة شاب أمرد، رشيق كالحربة، هادىء كنهر النيل، ونظر إلى الزيبق، ثم نظر إلى الجالسين حول المداعة وقال:

ـ هل جئت في وقت غير ملائم؟

ـ ضحك أحمد الدنف ، وأشار بيده وهو يقول:

ـ بل جئت في وقتك، فأخونا الزيبق مفتون بك.

قال على الزيبق:

ـ هذا عمر العيار..

قال الدنف وهو يعود إلى ضحكته:

ـ كيف عرفته؟

قال الزيبق:

ـ عرفته، حين جهلته، هذا صاحب المائة وجه، والمائة لغة، والمائة مشية.

ضحك الجميع المتحلقون حوله، وقال أحمد الدنف:

ـ وهذا ما نريد أن نعلمك إياه يافتى ـ أن تكون صاحب المائة وجه والمائة لغة والمائة مشية ـ بل والمائة شخصية.

وسط الضحكات أحس الزيبق أنه بين أصدقاء أحبة، فانطلق يضحك معهم من قلبه، دون حذر أو وجل، فوسط هؤلاء يحس مثله أنه يعيش عالمه الذى خلق له، ويحس أنه أمام عالم آخر عميق وجديد.

-٨-

نعرف الحقائق.. ونتكلم فى همس..

قال عمر العيار فى جدية، وهو يريح جسده حول ثوبه:

-آن الأوان لنكاشفه يامقدم أحمد بكل شيء، فهو جدير بأن يكون منا..

أدار الدنف عينيه فى الجالسين حوله، ثم قال:

- هذا ما يجب عليكم جميعا أن تقرروه، أنحن معه إلى النهاية، أم نتركه لحاله ونمضى؟

ضحك شحادى أبو حطب وقال:

- ما جئنا من بغداد، وقطعنا كل هذا الطريق لنتركه لحاله ونمضى وقال حسن شومان:

ـ لقد كنا رفاق أبيه ، وكان المقدم حسن رأس الغول واحدا منا ، بل كان هو الرجل الظاهر أمام الناس فى فرقتنا . .

قال على الزيبق فى دهشة :

ـ ما كل هذه الألغاز والأحاجى . . منذ الصباح وأنا أخرج من سؤال لأدخل في سؤال . . هل كان لمجموعتكم أو فرقتكم . . . أو ماشئتم أن تسموها ، ظاهر وباطن .

ضحك عمر العيار وقال :

ـ لا لف ولا دوران ، وإنما سؤال فى الصميم ،أجبه يامقدم أحمد ، وأرحه وأرحنا . .

تنهد أحمد الدنف ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال :

ـ بعد الذى فعلته بصلاح الكلبى وبدليلة من ملاعيب مبهرة ، أصبح من حقك ياعلى أن تأخذ مكان أبيك بيننا ، وأن تعرف ما كان يعرفه عنا ، وأن تلقى معونتنا وتأييدنا ، وأن يكون لنا عليك ، ما كان لنا على أبيك . .

قال على الزيبق :

ـ وماذا كان لكم عليه . .

قال أحمد الدنف :

ـ الثقة الكاملة ، والإخلاص المتناهى . . . وفى مقابلها لك ثقتنا وإخلاصنا . .

قال على الزيبق فى إلحاح :

ـ فى أى شىء ؟ . .

هنا قال عمر العيار، وعيناه تلمعان ببريق الإعجاب:

ـ أحسنت توجيه السؤال يافتى..

واستأنف أحمد الدنف حديثه قائلا، وكأن أحدا لم يقاطعه:

ـ حين عادت دليلة مهزومة على يديك عزلها الخليفة عن مقدمية الدرك، وأعاد تعييني فيه، وقد كان هو منصبي القديم قبل أن تبهر دليلة بغداد كلها بملاعيبها الشيطانية، حتى أراد الخليفة أن يمنع أذاها عن الناس فأعطاها هذا المنصب الرفيع، ومن يومها وهي ما أن تسمع بظهور أحد الشطار في أي جزء من أجزاء الخلافة حتى تسرع بالقضاء عليه، حتى يظل لها الأمر كله، وتظل يدها مسيطرة على الأمور في بغداد، حتى حاولت معك أنت أيضا وفشلت، وذاع أمر فشلها، وأقصاها الخليفة دون عناء..

ابتسم على الزيبق وهو يقول:

ـ لم أكن أظن الأمر يصل إلى هذا الحد، بل ظننت أن مكانتها من الخليفة في بغداد ثابتة كما هي، وقد أفهمني السلطان وصلاح الكلبي،أن رسولا جاء من بغداد يعلن غضب الخليفة لاحتجاز ابنتها زينب، فأرسلتها إليها هذا الصباح معززة مكرمة..

قال أحمد الدنف:

ـ نعرف أنك فعلت هذا..

وقاطعه حسن شومان:

- وكان هذا اختبارا لقوتك وشهامتك ياعلى... ونحن لا نرحب وسطنا إلا بمن كانت هذه أخلاقه، وهز الآخران رأسيهما تأييدا لحديث حسن شومان، بينما استأنف أحمد الدنف كلامه قائلا:

- إن الخليفة أقصى دليلة عن مقدمية الدرك، ولكنه ترك أمر الحمام الزاجل، فهى مقدمة بريده، والمطلعة على أسراره كما كان زوجها السابق، ونحن نشك فى صدق ولائها للخليفة وللدولة الإسلامية كلها.. وهنا يأتى السر الحقيقى فى مصرع أبيك..

صاح على الزيبق فى انفعال:

- سر مقتل أبى، أخبرتنى أمى أن صلاح الكلبى دس عليه جارية قتلته حتى ينفرد بمقدمية درك مصر.

قال أحمد الدنف:

- هذه هى القصة التى يعرفها كل الناس، ولكن الحقيقة أعمق من هذا بكثير.

ولم يتكلم على الزيبق، وإنما ظل ينظر واجما إلى أحمد الدنف، الذى تنهد، ثم قال فى صوت خافت:

- نعم الحقيقة إن أباك اكتشف صلات مشبوهة بين دليلة وعملاء الفرنجة هنا فى مصر، وعرفت دليلة بالأمر، فاتفقت مع صلاح الكلبى على قتله حتى لا يفضح أمرها وأمره، وكانت هى التى أرسلت إليه الجارية التى دسها على أبيك بعد أن مرنتها، وأعدتها لمثل ما أريد منها، وكان موت الجارية مقدرا

منذ البدء حتى لا تتكلم.

قال على الزيبق فى ذهول :

- دليلة تتصل بعملاء الفرنجة، هى إذن.. إذن..

قال شحادى أبو حطب :

- قلها ولو همسا، فنحن نعرف هذا من زمن، ونبقيه بيننا همسا.

وقال حسن شومان :

- وآن لك أن تشاركنا الحقائق، وأن تشاركنا الهمس أيضا، فما نعرفه لا نقوله إلا بيننا.

وعاد أحمد الدنف يقول :

- نحن نشك فيها من زمن طويل، وكنا قد اكتشفنا- أو بمعنى آخر- اكتشف عمر العيار أنها تتصل بالأمراء العجم الذين ولاهم الخليفة على ولاياتهم تحرضهم على الانفصال على الخلافة، وإعلان هذه الولايات الأعجمية الأصل مستقلة عن الخلافة.

قال على الزيبق فى عجب :

- ولكن هذه الولايات، ولايات مسلمة؟

- قال عمر العيار :

- إن حقد بعض الناس على انتشار الإسلام، وسطوة دولته ينسيهم دينهم وقوميتهم..

وقال أحمد الدنف :

- إن الفرنجة لا يخشون إلا وحدة دولة الإسلام، وهم يدفعون

الغالي والرخيص ليوقعوا الفتنة بين أجزائها، وهم يدسون رجالهم بيننا، ويستميلون ضعاف النفوس منا.. وهنا يأتى دورنا الحقيقى.

رفع على الزيبق رأسه فى انتباه وقال:

- دوركم الحقيقى؟

ضحك أحمد الدنف وهو يقول:

- ودورك معنا منذ الآن يا فتى.. فنحن لنا عملان، الأول يعرفه الجميع، وهو المحافظة على الأمن، وحماية أموال الناس وأعراضهم من اللصوص وقطاع الطريق، والمرتشين والعمال الفاسدين، أما الثانى فلا يعرفه أحد، فهو المحافظة على سلامة البلاد من تآمر أعدائنا علينا، واكتشاف الخونة، وعملاء الفرنجة، والجواسيس، والإيقاع بهم..

ضحك عمر العيار، وهو يعقب قائلا:

- وهذا أيضا كما قال شحادى أبو حطب، نعرفه، ونبقيه بيننا همسا..

قال على الزيبق وهو يطرق إلى الأرض:

- ولكن هذه مهمة ضخمة وثقيلة..

قال حسن شومان:

- ونحن لا نختار لها إلا من يستطيعون تحمل مخاطرها..

وقال أحمد الدنف:

- وسيظل دورك المعلن كما هو، فأنت شاطر من شطار مصر حصل على منديل الأمان من السلطان، وسيحتل مكان صلاح

الكلبى مقدما لدرك مصر.

قال شحادى أبو حطب :

- بعد نجاحك في الحصول على النفيلة بإذن الله..

هنا سأل على الزيبق :

- وما علاقة حصولى على النفيلة بكل هذه الأسرار التى ذكرتموها أمامى الآن..؟

قال أحمد الدنف :

- صلاح الكلبى يريد هلاكك.. وما أظن فكرة صندوق التواجيه إلا من وحى دليلة المحتالة، ووحى مكرها وخبثها، فهذا الصندوق سعى ملوك الإفرنج إلى الحصول عليه، وأرسلوا أمهر رجالهم في طلبه، ولكن أعياهم، فإما أمسكهم رجال المدينة المرصودة وقضوا عليهم، وإما أهلكتهم السيوف المتحركة فى الجزيرة المعزولة، وكذلك سعى أمراء العجم إليه، وأرسلوا خيرة رجالهم فى طلبه.. والكل فشل..

قال على الزيق وقد قطب ما بين حاجبيه :

- أهو معجز إلى هذا الحد..؟

قال عمر العيار :

- وأكثر من هذا الحد، وإلا لذهب أحدنا فى طلبه من زمن ولكننا نعرف أننا لسنا من رجال.

ضحك على الزيبق في حيرة، وقال :

- وأنا أصغركم سنا، وأقلكم شأنا من رجاله؟

قال أحمد الدنف فى تؤده :

- نحن قوم مؤمنون يا على، ولم يكلف أحد منا من قبل بإحضار هذا الصندوق، ولكن حين كلفت أنت به، نحس أنه اختيار العناية، فلكل شيء سبب، وكل أمر له من يقضيه، ونحن نحس أن الله سيوفقك حيث فشل غيرك.. فصندوق التواجيه ذخيرة مهمة لابد أن تكون في حوزة خليفة المسلمين، لأنه عن طريقه يستطلع شئون الدنيا حوله، ومثل هذه الذخائر تكون دائما في خدمة أصحاب الإيمان ومن يرفعون لواء دين الله في أرضه، وليست بحال من الأحوال، ولن تكون في خدمة أعداء دين الله..

وأطرق على الزيبق إلى الأرض وقلبه يهتز انفعالا وحمية، ثم قال :

- سأعود بصندوق التواجيه ولو كلفني هذا حياتي.

قال أحمد الدنف :

- ونحن نريد أن نتأكد من قدرتك على هذا الأمر، ولذلك فقد استأذنت الشيخ زكي البتوكي أن يضع ما عنده من ذخائر وأدوات تحت تصرفك وأن يعلمك كيف تستعملها..

قال على الزيبق في سخرية :

- هل سنستعين بالسحر والرقى والتعاويذ؟

قال أحمد الدنف :

- هذه أدوات القاعدين العجزين الكسالى الذين لا يريدون أن يستعملوا ما خلق الله فيهم من عقل، وما أمدهم به من قوة على الاستنباط والمعرفة- لا يا على- الشيخ زكي البتوكي هو

آخر سلالة خدم وتلاميذ الحكيم أخميم الطالب. الذى كان أبرع أهل زمانه فى الطب والفلك والهندسة وعلوم طبائع الأشياء وعلوم الكيمياء والسمياء، وغيرها من علوم الإنسان التى سخر بها الأشياء لخدمته.

قال على الزيبق :

- نسمع عن هذه العلوم في الكتب القديمة، ولكننا لا نرى منها شيئا اليوم.

ضحك أحمد الدنف فى مرارة، وقال :

- بل هناك منها الكثير فى بغداد مركز الخلافة يا بنى، وإلا فكيف تمتد رقعة البلاد، وكيف نتفوق على أعدائنا فى الحرب وفى الحضارة أيضا.

قال على فى عناد :

- ولكننا هنا.

قاطعه أحمد الدنف قائلا :

- هنا وفى كل أطراف البلاد الإسلامية علماء يعملون فى صمت وجدية، ونتائج علومهم ومعارفهم تصب فى قلب البلاد. ومن هؤلاء هنا الشيخ زكى البتوكى، والليلة موعدنا معه..

عاد على يجادل :

- ولكن لماذا الصمت والسرية؟

قال عمر العيار :

- لأن المكائد من الفرنجة تتربص بنا، فهم لا يريدون أرضنا

وثرواتنا فحسب، وإنما هم يريدون عقولنا وثمرات هذه العقول، واليوم الذى نغفل فيه عن حراسة ما عندنا منهم، يكتب لهم كسب السبق الأكيد.. وعاد أحمد الدنف يقول :

- ونحن موكلون بحفظهم ورعايتهم، وحراسة نتائج أعمالهم.. ولكننا أيضا مفوضون أن نستعمل ما ينفعنا فى عملنا من نتائج أبحاثهم، ولهذا سنتجه الليلة إلى الشيخ زكى البتوكى لنضعك فى رعايته بعد أن نفهمه بحقيقة مهمتك..

قال الزيبق محتجا :

- ولكننى كنت أريد الارتحال غداً.

ضحك حسن شومان وقال :

- ليس قبل سبعة أيام يا على - فلدى كل منا ما يريد أن يلقنه لك. وخاصة عمر العيار.

انفرجت أسارير على الزيبق، وهو يقول :

- أهو معسكر تدريب إذن..

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

- سمه هكذا إن شئت، والآن أصغ جيداً - بعد صلاة العشاء الليلة، تسلل من منزلك متخفيا وأقصد إلى حمام سالم عند درب سالم فى أول القرافة، ولن تتوه عنه فهو حمام جناده بن عبس المعافرى الذى عند مصبغة الحفارين المعروفة بفسقية ابن طولون، هو على يسارك وأنت متوجه إلى القرافة، بالقرب من قبر القاضى بكار..

قال على الزيبق :

- أعرف هذا المكان وسأكون هناك بعد صلاة العشاء..

ضحك أحمد الدنف وقال :

- وافهم عنا يا على.. أمك السيدة فاطمة إن أردت أن تخبرها بشيء فأخبرها بما تريد فمثلها يؤتمن على كل الأسرار..

قال عمر العيار وهو يضحك :

- وهي منا وإن كانت لا تدرى، فكم خاضت من معارك إلى جوار أبيك حسن رأس الغول..

وفي صمت صافح على الزيبق أحمد الدنف والمتحلقون حوله، ثم غادر الدكان وهو يحمل حملا من الأقمشة ليوهم من يراه أنه كان يشترى وينتقى داخل الدكان..

***

كان على الزيبق يتناول طعامه في وجوم وبطء، وكانت أمه فاطمة تجلس أمامه ترقبه في حنان، وقد فهمت وجومه وصمته على غير حقيقته، فقالت وهي تدفع أمامه بصحن ملئ باللحم:

- أحزنك فراق زينب يا على..

رفع على رأسه عن صحاف الطعام أمامه، وقال :

- قلبك الحنون يسبق قلبى إلى أحزانه يا أم، ولكنها ليست زينب التى تشغلنى الآن فهى فى أمان فى حماية سالم، وإنما ما بقلبى هم يشغلى عقلى..

نظرت فاطمة إليه فى اهتمام، وهى تقطب ما بين حاجبيها

وقالت :

- هموم القلب فهمناها ، أما هموم العقل فيحيرنا أمرها..

قال على ، وهو يحمد لأمه أنها لا تحرجه بسؤال مباشر :

- لقد أذنوا لى أن أحدثك بالأمر..

اقتربت فاطمة منه وهى تقول :

- أذنوا لك ؟ من هم ؟. لقد خرجت لتصلى ويهدأ بالك ، فماذا حدث لك..

قال على :

- صليت يا أم كما لم أصل من قبل ، وهدأ بالى واستقرت نفسى ولكنى بعد الصلاة قابلتهم ، وعرفت الحقائق التى لا يتحدث من يعرفونها عنها إلا همساً..

أجفلت فاطمة ، ونظرت إلي ابنها فى حدة ، وقالت :

- الحقائق التى تعرفها ، ولا تتحدث عنها إلا همساً.. هذه عبارة غامضة من عبارات أبيك حسن رأس الغول ، وهى من الأشياء القليلة فى حياتنا التى رفض أن يشرحها لى..

ضحك على الزيبق وقال :

- آن الأوان أن يشرحها لك ابنه ، ولكن همسا..

ورفع يده عن الطعام وقال :

- سأحكى لك..

صاحت فاطمة في احتجاج :

- وطعامك يا على ؟

قال على :

- ينتظر الحكاية، فهي تضجر صدرى، ولابد أن تعرفى كل شيء. ومضى يحكى فى صوت خافت ، ومضت تسمع حديثه، ووجهها يشحب كلما مضى فى حكايته، وقاطعته مرة قائلة :

- هذه فعلا أفعال عمر العيار..

ولكن عندما وصل إلى لقائه بأحمد الدنف ومن معه، قالت فى انفعال :

- المقدم الدنف ورجاله هنا فى القاهرة وأنا لا أعرف، لا هذا كثير، ما كانوا ينزلون القاهرة إلا ويكون بيتى هو بيتهم..

ذكرها على الزيبق قائلا :

- كان هذا أيام كان أبى مقدم درك مصر، أما الآن فهم يتخفون من جواسيس صلاح الكلبى، وعملاء الفرنجة..

دقت فاطمة على صدرها وهى تقول :

- علماء الفرنجة، هنا فى مصر.. ما هذا يا على..

قال على الزيبق وهو يبتسم :

- إذن اسمعى..

ومضى يحكى لها كل ما سمعه فى الجلسة الغريبة التى عاش فيها كالحلم المذهول، ومضت تسمع له فى إصغاء شديد، وازداد شحوب وجهها عندما ذكر لها ما عرفه عن مصرع أبيه، وهمست وكأنما لنفسها :

- إذن فهذا هو السر، رحمه الله المقدم حسن رأس الغول، اقرأ له الفاتحة يابنى..

ومدت كفيها تقرأ الفاتحة ، وحذا على حذوها، فلما انتهت

منها مسحت بكفها على وجهها، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع:

- ما كنت أعرف كل هذا.. ولكن حياته كانت مليئة ومفيدة، ومثله لاتموت ذكراه أبدا... ومضى على يكمل حكايته وفاطمة تنصت، فلما انتهى من كلامه قالت:

- كان الشيخ زكى البتوكى صديقا لجدك القاضى نورالدين، ولكن كان لكل منهما طريقه، فقد كان جدك غارقا فى التسابيح والأوراد، أما الشيخ زكى فهو غارق فى التجارب والأبحاث، وكل منهما يعرف طريقه إلى الله بوسيلته.. فالذكر عبادة والعلم عبادة..

قال على:

- أنا مشوق إلى لقائه، فأنا لم ألق مثله حتى الآن..

قالت فاطمة:

- أكمل طعامك، ثم قم فنم، وحين صلاة العشاء أوقظك، لتصلى وتذهب إليه مخفورا بعناية الله.

عاد على إلى طعامه وهو يقول:

- كلماتك ذكرتنى كم أنا متعب... نعم، سآكل وأنام.. فأنا محتاج إلى راحة طويلة من عناء هذا اليوم الطويل..

-٩-

الشيخ زكى البتوكى

كانت قاعة الزعر مليئة بالاضطراب والقلق، الكل يجرى هنا وهناك، والكل يهرول فى أرجاء القاعة دون هدف واضح، وقد امتلأت قلوب الجميع بالهلع لغضبة المقدم صلاح الكلبى، الذى كان يقف وسط القاعة وهو يلوح بيديه فى حنق، ويصيح :

- كيف تسرق مجموعة رسائلى الخاصة من وسط القاعة وهى مليئة بكم، دون أن يحس أحد، إن من دخل القاعة وسرق الرسائل كان من الممكن أن يقتلكم جميعا، ويقتلنى أنا أيضا دون أن يعترضه أحد..

قال أحد المتقدمين :

ـ لعله الزيبق..

لوح المقدم صلاح الكلبى بيده فى ضجر، وهو يقول:

ـ الزيبق، الزيبق، لا ... كان هذا قبل أن يأخذ منديل الأمان، وينشغل بأمر النفيلة، من دخل القاعة وسرق الرسائل ليس الزيبق، وإنما هو لا يقل مهارة عنه، ولابد من كشفه.

وهنا دخل المقدم عثمان القاعة، وهو ينظر إلى الفوضى التى ضربت أطنابها فى ذهول، فأشار إليه المقدم صلاح الكلبى ليقترب منه، وعندما فعل، قال له همسا:

ـ هل أبلغتهما الرسالة؟

قال المقدم عثمان همسا:

ـ تعنى حسن بن الحضرى وعلى بن البيطار، لقد أبلغتهما الرسالة. صاح المقدم صلاح الكلبى فى حنق:

ـ ألم أقل لك لا تنطق باسمهما أبدا.

قال المقدم عثمان همسا:

ـ لأذنك فقط، كان حديثى، ولم يسمعه أحد.. وهما فى الطريق إلى تنفيذ ما تريد، عسى أن لا يكون الزيبق قد سبقهما..

ضحك المقدم صلاح الكلبى وهو يفتل شاربه ويقول:

ـ هو مازال فى القاهرة، وسأعرف أخباره من المقدم عباس الأشول الذى يلازمه منذ الصباح كظله..

تنهد المقدم عثمان، وهز كتفيه، وهو يقول:

ـ هما إذن سيسوقانه إلى بئر النجاة كما قلت لهما . . قال المقدم صلاح الكلبى وفى صوته نبرة تشف واضحة :

ـ وهناك ستكون نهاية الزيبق، ولن يعبر الصحراء أبدا . ثم نظر فجأة فى حدة إلى المقدم عثمان وهو يقول :

ـ هل تعرف شيئا عن سرقة الرسائل من القاعة ؟

فتح المقدم عثمان فاه فى ذهول وهو يدير رأسه فى القاعة المضطربة ، وقال :

ـ إذن فهذا هو السر فى كل هذه الفوضى . . أيبحثون عن الرسائل صاح المقدم صلاح الكلبى فى غضب :

ـ لا ، الرسائل فقدت من هنا تماما ، رغم أننى أخفيها حيث لا يهتدى إليها أحد ، فما فيها خطير للغاية لا على وحدى ، وإنما على أناس كثيرين ، ولو وقعت فى يد الخليفة لطارت أعناق .

قال عثمان فى إصرار :

ـ ولكن عن أى شىء يبحثون إذن ؟

قال المقدم صلاح الكلبى فى صبر نافد :

ـ عن أى أثر يكون اللص قد تركه وراءه . .

ضحك المقدم عثمان وهو يقول :

ـ أثر . . ؟

هل سرق اللص شيئا غير الرسائل . . .

حدق فيه المقدم صلاح الكلبى ، ثم قال :

ـ لا ، لم يسرق شيئا من القاعة سوى هذه الرسائل . .

أكمل المقدم عثمان حديث قائلا :

ـ ومن مخبئها السرى الذى لا يعرفه أحد سواك يامقدم.. مثل هذا اللص لا يترك وراءه أي أثر... ومهما أجهدتهم فى البحث فلا فائدة، فهم يتخبطون بلا جدوى..

همس المقدم صلاح الكلبى من بين أسنانه :

ـ صدقت..

ثم راح يصيح فى الرجال صارفا إياهم عن البحث ليذهب كل منهم إلى ما كلف به من عمل ، بينما قال المقدم عثمان :

ـ وربما لم تترك الرسائل هنا يامقدم صلاح، ربما كانت فى مكان آخر..

نظر صلاح الكلبى إليه فى حدة، وقال :

ـ ماذا تعنى ياعثمان؟

قال عثمان محاذرا وهو يهمس فى أذن مقدمه :

ـ أعنى، ربما تركت الرسائل فى بير جوان..

صرخ المقدم صلاح الكلبى محنقا ، وقال :

ـ قلت لك ألف مرة، لا تذكر هذا المكان.

قال عثمان وهو يخافت من صوته :

ـ فقط أذكرك.. ربما تركت هذه الرسائل هناك، فى الطابق المستور.. أعنى..

صاح المقدم صلاحالكلبى :

ـ كفى ياعثمان ، فحولنا آذان لا نعرف أين ولاءها

قال عثمان:

- قبل أن نقيم الدنيا ونقعدها، نتوجه إلى بير جوان، عسى أن نجد الرسائل هناك..

تلفت المقدم صلاح الكلبى حوله فى حذر، وهو يجوس بعينيه فى القاعة، وقال:

- ربما عندك حق.. ولو أنى لا أترك هناك إلارسائل معينة،ليس منها هذه الرسائل..ولكن من يدرى .. هيا بنا.

وقبل أن يتحرك المقدم صلاح الكلبى من وسط القاعة، اقتحمها المقدم عباس الأشول وهو يجيل عينيه فى أرجاء القاعة إلى أن استقرتا على المقدم صلاح الكلبى، فاتجه إليه..

وقال المقدم صلاح الكلبى:

- الآن ستعرف أخبار صاحبك الزيبق.

ثم وجه سؤاله إلى المقدم عباس الأشول قائلا:

- هل سافر؟

كان منظر المقدم عباس الأشول مثيرا للشفقة، كانت ملابسه متربة، وكان وجهه مربدا، وقد انعقدت على جبهته آثار أتربة سالت مع العرق، ثم جف العرق وتركها بقعا سوداء داكنة هناك، وحين تكلم كان صوته يشف عن إرهاق وتعب.. وقال:

- إنه فى بيته ينام الآن كالحمل الوديع..

ثم عض على ناجذيه، وقال فى حنق:

ـ لقد لف بى القاهرة كلها أكثر من مرة، وكأنه يودع كل شوارعها وحاراتها، وكأنه يريد أن يتأكد من مكان كل خان وحمام وشربتلى ودكان فى مصر كلها..

قال المقدم صلاح الكلبى، وهو يتأمله فى إمعان:

ـ لنبدأ من البداية..

قال عباس الأشول، وهو يشرح بيده فى ضجر:

ـ ليست هناك بداية، ولا نهاية، إلا إذا اعتبرت خروجه من بيته بداية، وعودته إليه نهاية..

استمر المقدم صلاح الكلبى يسأله فى إمعان:

ـ ولكن، لابد أن هناك شيئا ما وراء هذه الجولة.. أخبرنى ماذا فعل؟

ازداد ضجر عباس الأشول وضوحا فى نبرات صوته، وهو يقول:

ـ خرج قاصدا مسجد السيدة زينب ليصلى، وهذا أمر مفهوم، وبعد هذا أخذ يضرب على غير هدى فى أنحاء المدينة، مرة يدخل دكان شربتلى، ثم يخرج ليشرب من سقاء ماء عابر، ثم يجوس فى المدينة من مكان إلى مكان، ولم يقف آخر الجولة إلا عند دكان أقمشة، وقف يتأمل ما فى واجهة المحل من معروضات، ثم دخل ليبدأ جولته فى استعراض ما فوق الأرفف، وما هو معلق فى أنحاء الدكان، ثم صحبه صاحب الدكان إلى داخل المحل وكأنما لم يعجبه من المعروض شىء، وغاب حتى

خلت أنه لن يخرج أبدا، ثم عاد محملا بالأقمشة، ليتجه إلى بيته مباشرة.. هذا كل ما هناك..

أطرق المقدم صلاح الكلبى مفكرا، ثم رفع رأسه وهو يعبث فى شاربه، وقال:

- لو كان يريد شراء الأقمشة لقصد إلى المحل بعد أن انتهى من الصلاة.. لا هذا الدكان له سر.. أتعرف مكانه ياعباس..؟

قال عباس الأشول:

- لا سر هناك، فالدكان فى مكانه منذ كانت الكحكيين فى مكانها، ولا أحسبه إلا ضجر من كثرة التجوال، واستراح فى ظل المحل من الشمس..

قال المقدم عثمان:

- مثل الزيبق لا يسير على غير هدى أبدا، ولا أظن إلا أنه كان يحاول بتجواله أن يخدع من يتعقبه.

وقال صلاح الكلبى:

- اذهب ياعباس وتحقق من الدكان، من صاحبه، وماذا يبيع. وماذا هناك فى غرفته الداخلية. فلمن يشترى الزيبق الأقمشة، وقد اشترت أمه أمس نصف المعروض فى السوق هدايا لزينب.. لا...هذا أمر كلما طال فيه التفكير زاد فيه الشك.

قال المقدم عباس الأشول فى حيرة:

- لم يخطر كل هذا ببالى يامقدم.

ضحك المقدم صلاح الكلبى، وهو يقول:

ـ ومنذ متى وأنتم تعرفون التفكير.. اذهب وافعل ما أمرتك به وتركه ينصرف، وهو يدير ظهره له، ويقول للمقدم عثمان:

ـ هيا بنا ياعثمان إلي الجمالية لنتحقق من فكرتك.. فربما بالفعل أكون قد تركت الرسائل هناك.

ضحك المقدم عثمان وهو يقول:

ـ هيا بنا إلى بير جوان

كان علي الزيبق يتقدم فى الطريق المظلم فى حذر، ما أن يسير عدة خطوات حتى يرتكن إلى حائط ويمكث مكانه بجزء من الظلام المحيط به، ينظر إلى الطريق خلفه فى إمعان ليتأكد أن أحدا لم يتبعه في هذه الرحلة الليلية الغامضة. ولم يكن يخشى على نفسه، وإنما كان يخشى أن يكشف سر هؤلاء الأصدقاء الذين وثقوا فيه، وباحوا له بسرهم، وتقدموا وحدهم لمساعدته وحمايته..

ومضى فى طريقه دون وجل فهو يعرف هذه الأماكن جيدا، كم قصد إليها عندما كان يهرب من معلمه الضرير المضجر فى الأزهر، وكم كان يحب أن يتصور نفسه يقاتل العفاريت والجان الذين كان الناس يقولون إنها تسكن المقابر، وخاصة هذه المقابر بالذات، وعلى الأخص فسقية ابن طولون، وقبر القاضى بكار... كبر الآن وعرف أن العفاريت هى رجال صلاح الكلبى، وأن الجان هو صلاح الكلبى وأمثاله ممن يركبون الناس

بالعنت والظلم، يسرقون وينهبون ، ويزدادون ثراء ومالا وسطوة... ومر إلى جوار مبنى متهدم لحوش قديم، فدلف إلى جوار حائطه ووقف ساكنا يرقب الطريق خلفه وقد غدا جزءا لا يتجزء من الحائط الذي التصق به.. وتنهد، فهو واثق أن أحدا لم يتبعه، لأن أحدا لا يعرف أنه خرج من مسكنه، لقد حمل جرابه القديم وفيه كل حاجاته، وتسلق «سلم التساليك» إلى سطح الدار، ثم قفز إلى سطح الدار المجاورة، ومنها قفز إلى زقاق جانبى ، ثم خرج إلى طريق آخر غير الطريق الذى يقع فيه باب داره، ومع هذا فالحذر واجب مع واحد كصلاح الكلبى، والحذر واجب لحماية واحد كأحمد الدنف.. وعاد يذكر وجه أحمد الدنف الجاد الصارم، كأنه قطعة من صخر لا تظهر عليها الانفعالات ، يخرج كلامه من فمه هادئا، ولكنه كلام لا عاطفة فيه، كم رأى هذا الرجل من مآسي وأحداث.. وتوالت أمامه الوجوه التى عرفها لأول مرة هذا النهار، وجه حسن حسن شومان الذكى الماكر، ووجه شحادى أبو حطب الهادىء الوقور، ووجه عمر العيار الضاحك العابث الذى يسخر من كل شىء ، ولا يبالى بشىء، وابتسم لنفسه فى الظلام، الآن غدا واحدا منهم، منذ هذا النهار وهو من مشاديد أحمد الدنف ، يأخذ مكان أبيه، ويخرج إلى دنيا الرجال، وكأنه استمرار لرسالة أبيه، وإكمال لدوره .. وأفاق من تأملاته على صوت وقع أقدام تقترب من مكانه... هل كان هناك آخر الأمر من يتعقبه بعد

كل ما أخذ من احتياطات، وهز على كتفيه، وظل يرقب القادم في قلق.. لم يكن في أعماقه يخشى أن يفتضح أمره، أو أن يعرفه أحد، فقبل أن يغادر الدار تنكر على هيئة قارئ عجوز يحمل خرجه على ظهره المقوس، وتهتز لحيته الشيباء مع حركة رأسه.. ومن الذى يشك فى قارئ عجوز داخل المقابر، لعله يقيم فى أحد حيشانها المهجورة، ولعله عائد من القراءة على قبر ميت حديث الموت، عجل أهله بدفنه إكراما له وازداد وقع الأقدام اقترابا... وتلفت الزيبق حوله من جديد، كان قريبا جدا من درب سالم، واستطاع أن يلمح وسط الظلام شبح مبنى حمام المعافرى على أول درب سالم.. هو إذن قد أوشك أن يصل، فكيف سمح لأحد أن يتعقبه حتى باب بغيته.. وفكر أن يتراجع ويختفى حتى يمر هذا القادم صاحب الخطوات الواثقة، وفكر أن يظل فى مكانه مختفيا عن عينيه، ولكنه كان يعرف أن من ينظر نحوه من قرب سيكتشف وجوده، فقد بدأت النجمات المتلألئة فى السماء تسمح بضوء مغبش يميز الناظر فيه الأشباح والأشياء... وقبل أن يحسم رأيه توقفت الخطوات أمامه، وجاءه صوت هادئ من الظلام، يقول له:

- أتعرف الطريق يامولانا إلى حمام سالم؟

وكاد قلب على الزيبق يتوقف عن نبضاته، وعقدت المفاجأة لسانه فصمت، بينما استمر الصوت الهادئ يقول:

- لقد ضللت طريقى فى الظلام، ووسط هذه الحيشان

المتشابهة، ولست أجد أحدا يدلني على حمام سالم، قالوا لى أنه في أول درب سالم، فى أوائل القرافة، وأنا قد سرت فى هذه القرافة حتى تعبت أقدامي ولست أظن إلا أنني قد تهت..

تقدم على الزيبق نحوه متشجعا، وهو يحني ظهره ويقوسه تحت عبء خرجه، وقال فى صوت عجوز مشروخ صدىء:

- بل أنت ياحاج فى الطريق الصحيح، ليس أمامك إلا عدة خطوات وتصل إلى درب سالم..

عاد الصوت الهادىء يقول:

- جزاك الله خيرا يامولانا... هل أطمع فى كرمك فتسير معي إليه، فأنا غريب عن هذه النواحي... شك على الزيبق فى نبرة سخرية خفية فى كلام الرجل، كما أحس أن الصوت ليس غريبا عنه، ولكنه لم يكن متأكدا من شىء، فهز كتفيه فى استسلام، وهو يتقدم نحو الرجل ويقول:

- حبا وكرامة ياحاج... سر معي وسنصل إليه بإذن الله...

ومد على الزيبق يده يتحسس مقبض سيفه قطاع الجادل الذى أخفاه تحت الجبة والقفطان، بينما قال الرجل وهو يستأنف سيره فى محاذاه على:

- من يسمع صوتك يامولانا يظنك خائفا، فمم تخاف وأنت رجل قارىء عجوز فقير، أم أنت تحمل ذهبا أو شيئا ثمينا فى هذا الخرج الذى يثقل ظهرك..

ضحك على الزيبق ضحكة واهنة، ثم أخذ يسعل كأنما

أثقلت السنون صدره، وقال: -

- إنما هي أقراص مما يوزعه الناس رحمة على أمواتهم، وخبز وفاكهة جمعتها اليوم في تجوال بين القبور أقرأ سورة هنا وسورة هناك، ويجود على الناس بما عندهم..

ثم أردف بعد صمت قصير:

- إن كنت جائعا أفتح الخرج وأقاسمك ما فيه من زاد ...

وكانت قبضته قد اشتدت على مقبض سيفه، بل لقد جذبه من غمده عدة بوصات، حين سمع ضحكة الرجل الهادئة، ثم جاءت كلماته حافلة بالسخرية الواضحة، وهو يقول:

- لست جائعا، ولست فضوليا، ولكني أحسبك خائفا، فأحببت أن أعرف مم تخاف..

تظاهر على الزيبق بالخوف، فنظر حوله في تردد، وهو يقيس المسافة بينه وبين الرجل، وقال في صوت ملأه بالارتعاد والرعشة:

- العمر غال ياحاج، وأولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا..

ثم التفت إلى مدخل الزقاق، وأشار بيده الأخرى قائلا:

- هذا هو زقاق سالم، وأمامك مباشرة باب الحمام...

وكان قد تأهب تماما لأي حركة غدر من الرجل.. كان يستطيع أن يجذب الحسام، أن يتقدم خطوتين اثنتين، ليشق رأسه بضربة واحدة... فقد كان واثقا أن الرجل يسخر منه،

وأنه يلعب معه لعبة لايدركها، وإن كان واثقا أيضا أنه ليس من رجال صلاح الكلبى، وإلا لهاجمه قبل هذا بفترة، ودون أن يتركه حتى يأخذ حذره ويتأهب لملاقاته ... وعادت ضحكة الرجل الهادئة تشق الصمت ، وعاد يقول:

-بل تقدمنى أنت ، ألست على موعد هناك..؟

صاح على الزيبق فى غضب، وهو يسحب سيفه من قرابه حتى منتصفه، ويتأهب للوثوب:

-من أنت؟.. وماذا تريد؟... وماذا تعرف عن موعدى هنا ..؟ ضحك الرجل ضحكته الهادئة، وهو يقول:

-أسئلة .. أسئلة.. نسيت ياعلى لهجة القارىء العجوز المتهالك.. حذار من هذا الغضب فهو ينسيك مارسمته لنفسك من دور ثم مد يده فأزاح اللحية المستعارة من فوق وجهه، فإذا هو أمام وجه عمر العيار الأمرد، أمام عينيه الضاحكتين فى عبث وسخرية.. وتمالك على الزيبق نفسه بصعوبة، وهو يعيد السيف إلى قرابة، ويتنهد قائلا:

-لقد خدعتنى يامقدم عمر... ولولا كلامك الآن لكان سيفى فى يدى..

ضحك عمر العيار، واقترب من على الزيبق مربتا على كتفه وهو يقول:

-لقد لاحظت حركة يدك تحت الجبة وعرفت أنك تحتفظ بسيفك للطوارىء، وأعجبنى هذا منك... هيا فالقوم فى

انتظارك .. قال على الزيبق :

ـ ولكن .. هل كنت فى انتظارى ؟

تأبط عمر العيار ذراع على الزيبق ، وهو يتجه به إلى باب الحمام قائلا :

ـ بل كنت أتبعك منذ قفزت فى الحارة الجانبية ، فقد قدرت أنك لن تخرج من الباب الأمامى للمنزل ، ولا أكتمك لقد خدعنى تنكرك أول الأمر ،ولكنى سرعان ما تحققت منك وأنت تمر فى النور المنبعث من حانوت الطباخ على ناصية الميدان .

وضحك وهو يقول مهونا :

ـ كنت أريد أن أتأكد أن أحدا لن يتبعك كما حدث فى الصباح . وقف على الزيبق مجفلا وهو يقول :

ـ وهل كنت متبوعا فى الصباح من غيرك ؟ لقد أحسست بك ، ولكنى لم ألحظ غيرك ..

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ كان بالك مشغولا بأشياء كثيرة فلم تلحظ عباس الأشول ، وكنت أنا مشغولا بك فلم ألحظه أيضا ، ولكنى تأكدت الآن ، تعال سأحكى لهم ولك فى وقت واحد حتى لا أكرر نفسى ..

وضحك عمر العيار وهو يدلف من باب الحمام وإلى جواره على الزيبق الذى أدهشه ما سمع من كلام ، ولكنه تحكم فى فضوله ، ومضى إلى جوار عمر إلى داخل الحمام الذى طالعه ببخاره العبق وإضاءته الخافتة ، والبخار الذى يتسرب من

المغطس تخفيه عنهما ستارة مبتلة قد حال لونها، وقال لهما الحمامي، وهو لا يكاد ينظر إليهما:

ـ من هنا ياأفاضل، اخلعا ملابسكما في هذه الدورة وهذه هي البشاكير والمناشف والصابون.

وأزاح الستار يدخلهما إلى جو الحمام الحار المغبش بالبخار... وما أن نزلت وراءهما الستارة المبتلة، حتى أمسك عمر العيار بيد على الزيبق قائلا:

ـ اتبعني وأسرع..

ثم تجاوز المغطس منحرفا إلى اليمين، حيث فتح بابا خشبيا صغيرا ودلف منه، وتبعه على ليجد نفسه في ممر طويل معتم تضيئه شعلة ذابلة ثبتت إلى جانب الحائط يسبق دخانها نورها، وسار عمر العيار إلى نهاية الممر ووراءه الزيبق في صمت، وفتح باب آخر فإذا هما في حجرة واسعة مضاءة بعدة مصابيح وهناك كان حسن شومان يقف منتصبا ويده على مقبض سيفه، ولكنه عندما رآهما قال:

ـ تأخرتما .. هيا فالشيخ في الانتظار.

ومد يده إلى أرض الغرفة فجذب بابا خشبيا، وأخذ ينزل درجا متعرجا، وهما وراءه، ثم جذب عمر العيار الباب الخشبي وراءهم فشملتهم ظلمة كاملة.. ومد على يده يتحسس ما أمامه فوجد يد حسن شومان تمسك به في قوة وتقوده في نزوله الدرج.. وفي نهاية الدرج كانت تلوح أنوار تزداد قوة كلما

اقتربوا منها .. وما أن نزل الزيبق الدرج حتى كادت عيناه تعشيان من شدة الضوء، فأغلقهما .

وهو يستند إلى يد حسن شومان القوية، ثم فتح عينيه ليطالعه منظر لم ير مثله فى حياته من قبل :

كانت القاعة واسعة لاتصل العين إلى نهايتها ، وكانت مليئة بالمناضد العالية التى تكومت فوقها فى نظام عدة أدوات وأجهزة وأنابيق ومواقد غريبة مختلفة، وعلى الأرفف تراكمت زجاجات مليئة بسوائل متعددة الألوان، ومساحيق داكنة وبيضاء وصفراء.. وكانت القاعة تعبق برائحة غريبة حريفة لم يستطع الزيبق أن يحدد كنهها ، وفى نهاية القاعة من بعيد كان شيخ وقور يلبس ملابس ناصعة البياض وتخفى لحيته الشهباء وجهه كله يجلس أمام منضدة عليها كتاب مفتوح . وإلى جواره جلس أحمد الدنف وشحادى أبو حطب فى أدب وصمت وترقب . . . وهمس عمر العيار فى أذن على الزيبق .

ـ هذا هو الشيخ زكى البتوكى يا على .. وهو فى انتظارك . . . فتقدم فى صمت، ولا تتكلم حتى يوجه إليك الخطاب . .

-١٠-

الآن نتعلم

أفاق على الزيبق من ذهوله أمام منظر القاعة الغريب ، على كلمات عمر العيار، فهمس :

ـ أيعيش هنا ... تحت الأرض؟ ..

همس عمر العيار:

ـ قلت لك اسكت وستعرف كل شيء الآن والآن هيا بنا.

وكانت القاعة يسودها صمت مطبق إلا من صوت ماء يغلي في قدر ما في خفوت، وصوت بخار يتصاعد في هسيس مكتوم، وصوت تنفس الرجال ، وحركة صفحات الكتاب يقلبها الرجل الشيخ في رقة ..

وأحس على الزيبق بالرهبة تتملكه وهو يتأمل الكتب العديدة التى ملأت أرففا متعددة تملأ الحائط خلف الشيخ، ولفته صوت غريب خافت فالتفت ناحيته، وإلى جوار الحائط على اليمين لاحظ شباكا ضيقة من حديد تغطى صناديق متينة فى الحائط، وحين أمعن النظر تأكد أن مايراه حقيقة، كانت هناك فئران صغيرة بيضاء تجرى داخل الصندوق وتظهر من خلال فتحات الشباك الحديدية الضيقة، وإلى جوارها أقفاص متشابهة مليئة بحمام صغير، ثم حوض ماء ملىء بالضفادع الحية تجرى وتتقافز داخل الحمام الذى يغطيه زجاج سميك.. وأحس على الزيبق بلمسة على ذراعه فالتفت ليرى عمر العيار يشير إليه بعينيه إلى الحائط المقابل، وارتجف الزيبق وهو يشاهد ما فى صندوق زجاجى مثبت فى الحائط المقابل، وكاد يكذب عينيه، ولكنه سرعان ما تأكد أن الصندوق يحوى عدة أفاع ضخمة، فقد كان النور يلمع على جلدها المرقط لتظهر رغم سكونها فى وضوح لا يدع مجالا للشك فى حقيقتها.. وهمس عمر العيار فى أذنه:

- إنها حيوانات التجارب..

وسمعا تنهد الشيخ فى نهاية القاعة وهو يغلق الكتاب المفتوح أمامه، ويرفع رأسه ليتأمل ما حوله كأنما يفيق من حلم عميق.. وتحرك أحمد الدنف من جلسته، فوقف يشير إلى القادمين بالتقدم نحوه، وهو يقول:

- ها قد وصلوا من كنا فى انتظارهم. وهذا يامولانا الشيخ

هو على الزيبق بن حسن رأس الغول وحفيد صديقك القديم القاضى نور الدين..

أضاء وجه الشيخ زكى بابتسامة عريضة، وهو يمد يده مرحبا، وقال:

ـ أهلا بالرجال، وأهلا بابن الأحبة..

ثم سكت فجأة وهو يقول مقطبا حاجبيه الكثيفين:

ـ ولكنه رجل عجوز، وفقيه أيضا، وما هذا الخرج الذى يحمله على ظهره..

واضطرب على الزيبق، وهو ينزل خرجه من فوق كتفه، ويمد يده يزيل اللحية المستعارة من فوق وجهه، ويخرج زجاجة من جيبه وقطنة يغمسها بالسائل الذى فى الزجاجة، ويمر بها على وجهه وحاجبيه يزيل آثار تنكره، بينما ضحك عمر العيار وهو يتقدم قائلا:

ـ هذه يامولانا ثياب التنكر، فقد خشى أن يتبعه أحد..

ضحك أحمد الدنف وهو يقول:

ـ وقد أجاد التنكر وإن كانت تنقصه لمساتك ياعمر

قال عمر:

ـ أنا هنا لأكمل له مرانه، ولأكمل تعليمه..

وعاد الشيخ زكى البتوكى يتأمل فى على بعد أن أزال تنكره، ويقول:

ـ هكذا يعتدل الحال، فأنت الآن تشبه أباك حسن رأس الغول

كثيرا .. وإن كان فيك من جدك القاضي نور الدين الكثير أيضا.

ثم صمت فجأة وكأنما يتذكر شيئا غاب عن باله، وسأل عليا:

- وكيف حال القاضي نور الدين، وكيف حال أمك فاطمة؟

أحس علي الزيبق بفرحة إذ يذكر هذا الرجل الجليل جده وأمه، وقال:

- هو بخير في دكانه، وهي أرسلت السلام معي عندما عرفت أنني في طريقي إلى لقائك..

وكأنما لم يسمع الشيخ زكي البتوكي كلمات علي الزيبق إذ تعلقت عيناه بصدر المكان، وسهمت نظراته، وتبادل الجميع النظرات المتسائلة إلا أن أحدا منهم لم يقطع على الشيخ تأمله، الذي تنهد بعد حين، وعادت نظراته تتأملهم واحدا إثر الآخر، إلى أن عادت نظراته تستقر على الزيبق، فقال وهو يبتسم:

- دار الزمن دورته، ولم يعد زائري هو القاضي نور الدين بل ابن ابنته غدا شابا يافعا يملأ الدنيا صخبا وحياة، ويحير بملاعيبه صلاح الكلبي وأعوانه..

همس علي الزيبق:

- وتعرف هذا..؟

ضحك الشيخ زكي البتوكي، وقال:

- لا يفوتني مما يحدث في مصر كلها إلا القليل، وحتى هذا

القليل تأتينى أخباره إن آجلا وإن عاجلا .

هناتدخل عمر العيار قاطعا حديثه، قائلا :

ـ فاتنى أن أخبركم أن دكان الأقمشة أصبح غير صالح لنا، وقد نقلت كل ما فيه من أقمشة وأثاث وتركته قاعا صفصفا قبل أن أحضر إلى هنا .

تغير وجه أحمد الدنف الصارم، وظهر عليه الغضب، وهو يقول :

ـ هل عثر عليه جواسيس صلاح الكلبى ؟

قال عمر العيار، وهو يلاحظ الحمرة التى علت وجنتي على الزيبق :

ـ كان على متبوعا هذا الصباح، وقد شغلته عن ملاحظة تابعه، كما شغلنى هو عن ملاحظة أنه متبوع، وبعد خروجنا من الدكان عدت إليه لأغير من تنكرى، فرأيت عباس الأشول يسأل أصحاب الدكاكين حوله عن صاحبه الأصلى، ومتى باعه، ولمن باعه ؟ . . . وأين يسكن المشترون الجدد، بل لقد سألنى وأنا فى زى السقا عن معلوماتى عن الدكان وأصحابه الجدد، فقلت له إنهم من تجار الأقمشة فى الحسين، اشتروا الدكان لفرع جديد لتجارتهم، فمضى يسأل عن الأسماء التى أعطيتها له، وأسرعت أخلى الدكان من كل ما فيه، وتركته قاعا صفصفا .

قال على الزيبق فى خجل :

ـ كنت مشغول الفكر ، فقد حيرتنى المصاعب التى قيلت لى

عن طريق الحصول على النفيلة.

عاد وجه أحمد الدنف إلى سابق عهده، وابتسم وهو يقول:

- لابأس، كلنا نقع فى الخطأ، المهم أن نتداركه، والخطأ أساسا هو خطأ عمر العيار، وقد أصلح الأمر، ولم يعد هناك ما نخشاه..

تنهد حسن شومان وهو يقول:

- كنت أحسب أننى سأستمتع فترة أطول بدور بائع الأقمشة، فهو عمل لطيف وهادىء، ويتيح للإنسان الفرصة للتأمل والتفكير، ومشاهدة الناس.

وأزاحت كلماته الضاحكة شيئا من التوتر الذى كان قد ساد الحديث، فارتسمت ابتسامات على الوجوه، وضحك شحادى أبو حطب، وتأمل على الزيبق الوجوه من حوله، وأحس أنهم قد غفروا له إهماله، فتمالك نفسه، وكاد يتكلم حين فتح أحد الأبواب الجانبية المطلة على القاعة الفسيحة، ودخل رجلان طويلان ملتحيان، يلبسان نفس الملابس الناصعة البياض التى يرتديها الشيخ البتوكى.. إلا أن ملامح الشبه بينهما تنتهى عند هذا الحد، فأحدهما أسمر داكن السمار حتى لتلمع عيناه فى وجهه مع بياض عينيه، والآخر أشقر شديد الشقرة حتى لتبدو عيناه بلا رموش وقد انتشر غس بنى اللون فوق بشرته.. ووقف الشيخ زكى البتوكى لدخولهما، فوقف الجميع تحية لهما... ووضع الأسمر صندوقا كان بيده فوق منضدة قريبة،

ووضع الآخر جهازا عجيبا كان يحمله فوق منضدة أخرى، واتجه كلاهما نحو الجميع وقد مد كل منهما يده لمصافحة رفاق الشيخ زكى البتوكى الذى قال فى صوت خفى:

ـ هذان هما رفيقاى فى دنيا البحث والمعرفة، وقد حان الوقت لأترك لهما القاعة، شغلنى الحديث معكم حتى نسيت موعد انتهاء عملى وبدأ عملهما.. هذا الأسمر هو الشيخ أبو بكر من نسل عالم الطب وطبائع الأشياء والصيدلة شيخنا الأكبر أبو بكر بن زكريا الرازى. وهذه الحيوانات التى ترونها هنا تقع فى دائرة عمله.. وأخذ الشيخ أبو بكر يصافح الجميع حتى وصل إلى على، فصافحه وهو يضحك ويقول:

ـ إذن فأنت الزيبق، سمعنا هنا عن ملاعيبك مع دليلة وصلاح الكلبى الكثير.

واحمر وجه على الزيبق، ولكنه صمت حياء، بينما قال الشيخ زكى البتوكى مقدما الرجل الثانى قائلا:

ـ أما هذا الأشقر فهو الشيخ عبد الله بن براهيم بن سنان عالم الحساب والهندسة وحركة الآلات والفلك، وهو من نسل عالم الحساب والهندسة وحركة الآلات والفلك، وهو من نسل ابراهيم بن سنان وهو ابن سنان بن ثابت، وهذا بدوره ابن عالم العلماء فى الحساب والفلك ثابت بن قرة... وقد ورث كلاهما الفضل والعلم أبا عن جد إلى جده الأكبر..

وصافح الرجل الآخر الواقفين لتحيته واحدا واحدا وهو

يبتسم ، ثم حمل آلته ومضى بها فى صمت إلى آخر القاعة، فقال الشيخ زكى البتوكى وهو يجمع رداءه حول جسده:

نتركهما لعملهما وهيا بنا نخرج من هذا المعمل إلى دنيا الله الواسعة..

وصفق بيديه فظهر فى الحال خادمان من باب آخر غير الباب الذى دخل منه العالمان، وحمل كل منهما مشعلا واتجها إلى باب فى مؤخرة القاعة يتبعهما الشيخ زكى ووراءه المقدم أحمد الدنف ورجاله.. وسار على الزيبق وراءهم وهو مشغول البال بما رأى وبما سمع.. طب وعلوم خصائص الأشياء وحساب وحركة الآلات، وصيدلة وتجارب والرازى وثابت بن قرة... يذكر أنه سمع بعض هذه الأسماء والأشياء من أحاديث متقطعة مع جده نور الدين.. وكلمات سريعة تسقط فى أذنه لتعبره فى جولته القديمة بين أعمدة الأزهر.. عالم يعمل وحده فى صمت، وهو فى صمته يحرك العالم كله من حوله.. دنيا من المعرفة تشكل دنيا الحياة التى يحياها دون أن يحس بها..

وأفاق على الزيبق من تأملاته على صوت عمر العيار الذى كان يهمس فى أذنه قائلا:

ـ حذار، أمامنا سلم سننزله..

ودهش على الزيبق من أنه سينزل مرة أخرى، حين جاء هذه القاعة نزل سلما من خلف الحمام، وهاهو يعاود النزول الآن، ولكنه لاحظ أن الدرج حجرى كأنه نقش فى قلب الجبل وكان

الخادمان ينيران الطريق في المقدمة، ويهتز الضوء مع اهتزاز حركة أيديهما في النزول. ولكن الدرج كان مريحا وواسعا، وكان لوقع أقدامهما فوق الدرجات الحجرية صدى يتردد. وأحس علي الزيبق بازدياد الرطوبة وثقل الجو. ولكن نزولهم لم يطل كثيرا، فسرعان ما وصلوا إلى باحة حجرية مربعة، تركها حاملا المشاعل ودخلا في سرداب طويل مظلم ازداد فيه صدى وقع أقدامهما على الأرض الحجرية، وسرعان ماتبعهما الشيخ زكي البتوكي، وهو يشير إلى أحمد الدنف ورجاله لكي يتبعوه.. وكانت أضواء المشاعل تتراقص فوق الجدران الصخرية، وفوق سقف صخرى يغطي المكان، وسرعان ما أدرك علي الزيبق أنهم يسيرون في نفق تحت الأرض، وربما تحت جبل صخرى من الجبال التى تحيط بالقاهرة .. وتراقصت أشباح الرجال مع تراقص الأضواء فوق الجدران والصخر، وجاءهم صوت الشيخ زكي البتوكي الهادىء يتحدث في صوت خافت، تتردد أصداؤه في النفق الحجرى، قال:

- يمتد هذا النفق حتى الدير الغربي في حضن الجبل، حفره القساوسة الهاربون بدينهم من عسف الرومان قبل الإسلام بكثير، واستعملوه في الهروب من الدير حين يهاجمه جند الرومان، الذين كانوا يقيمون لهم المذابح بلا حساب.

قال أحمد الدنف:

- نحن الآن نتجه إلى الدير؟

قال الشيخ زكى البتوكى:

ـ نعم، أما هذا الطرف، فقد كان هناك خان قديم فى مكان الحمام، قبل أن يجعل المسلمون من هذا المكان قرافة لموتاهم... وقام الحمام مكان الخان القديم، ولم يعرف أحد سر النفق إلى أن هربنا بعلمنا من تعقب جواسيس الفرنجة، وجهل الولاة وغبائهم، وفساد عمالهم الذين أعماهم ذهب الفرنجة عن واجبهم فى حمايتنا.. ووجدنا عند قساوسة الدير الترحيب والمعاونة، فهم مثلنا يشتغلون فى هذه العلوم، ووجدنا فى الدير والنفق وسيلة أمان كاملة، واستعملنا حجرة السرداب كمعمل سرى حتى لا يطلع على عملنا أحد..

خف الهواء ورق، وملأت النفق نسمات ليل ندية، وبدأت الشعلات تضطرب وتتأرجح فأدرك على الزيبق أنهم قد أوشكوا على الوصول إلى نهاية النفق، وسرعان ما تسربت أشعة القمر تملأ المسافة الباقية التى قطعوها مسرعين، وكأنما يدعوهم نداء الهواء الطلق إلى الإسراع نحوه... واستقبلتهم السماء الصافية بنجومها اللامعة وقمرها المضىء... وانبعثت حولهم روائح أزهار وورود، وانساب خرير عذب من نافورة لاحت من بعيد تنعكس على مياهها أشعة القمر الفضية، وانشرح صدر على الزيبق، وهو يستنشق الهواء العذب الندى، بينما قال الشيخ زكى البتوكى ـ أطفئا المشاعل، وأحضرا المساند للجلسة حول الفسقية، وأكرما الضيوف، وأغلقا

المدخل.. وأشار بيده نحو الفسقية فتبعه ضيوفه، وعلى الزيبق يتأمل ما حوله... كان في حديقة غناء عامرة بأحواض الزهور وأشجار الفاكهة، يعبث النسيم الرقيق بأغصان الشجر وأعواد الورود، فتتمايل حالمة في ضوء القمر، وترسل ظلالا شاحبة حولها تهدهد الأعصاب، وتريح النفس... وجاء الخادمان يحملان الحشايا فوضعاها فوق أرائك رخامية بنيت حول الفسقية، وجلس الشيخ زكي البتوكي وجلس ضيوفه... وأسند على الزيبق رأسه إلى الحشية اللينة وأحس بالخدر يتسلل إليه، هنا سكينة وراحة وتأمل... لا صراعات ولا معارك ولا مؤامرات.. وجاءه صوت مضيفهم الشيخ يقول:

حجراتكم تطل كلها على هذه الحديقة، وبعد أن نسمر قليلا سيأخذكم الخدم كل إلى حجرته، وسيجد فيها كل وسائل الراحة، وماليس موجودا يطلبه وسنحضره له في الحال.

ضحك أحمد الدنف وقال:

ـ سبحان الله، ندخل من القبور لنخرج إلى الجنة..

وقال حسن شومان:

ـ والقساوسة، ألن يضايقهم وجودنا؟

قال الشيخ زكي:

ـ هم في حالهم، ونحن في حالنا، ولن تشاهدوا واحدا منهم طوال إقامتكم معنا، فنحن وهم نتعاون في العلم، هم يترجمون من لغات يعرفونها، ونحن نترجم من لغات نعرفها،

ونشترك معا في حل معضلات المعرفة، أما ما بعد هذا فكل منا في حاله... فالعلم عبادة في ذاته ، فنحن من خلاله نعرف قدرة الله، ونكتشف عظمة الخالق..

قال شحادى أبو حطب:

- عرفنا شيوخ صاحبيك في قاعة البحث، ولكن من شيخك يامولانا إن لم يكن سؤالي فضولا؟

قال الشيخ زكي البتوكي وهو يمسح على لحيته:

- في العلم يابني يتلقى التلميذ عن أستاذه الذي غالبا ما يكون أباه، ولهذا فللعلم بيوت مشهورة تتوارث، من جيل إلى جيل، وأنا من نسل أخميم الطالب الحكيم المصرى القديم، أخذت المعرفة عن أبي الذي أخذها عن أبيه وهكذا حتى أخميم، أما أخميم الطالب نفسه فهو من نسل هرمس أشهر من عرفنا من علماء الدنيا، عنه أخذ علماء الاسكندرية، وعلماء الإغريق والرومان، عنهم نقلنا علمه وترجمناه... وعلماء المسلمين اليوم يعرفون هرمس وفضله، ويقولون والله أعلم أنه بنى الهرم الذي عرف باسمه وخبأ فيه كنوز معرفة الأولين، التي نعيد التعرف على أجزاء منها هي قطرة في بحر ، وحبة في كومة..

كانت كلمات الشيخ زكي تأتي وكأنها صادرة من مكان بعيد، فقد فعل الهواء وضوء القمر والجلسة المسترخية جميعا فعلهم فيه، وكان يفتح عينيه بصعوبة بالغة، وانتبه على الخادمين يحملان أكواب الشراب المعطرة والثمر والفواكه..

وأحس بالعطش فمد يده إلى كوب شراب فوجده مثلجا تفوح منه رائحة الورد، وحين ذاق الشراب الحلو اختلطت في فمه وأنفه، طعوم البرتقال برائحة الورد... وسمع من بعيد صوت المقدم أحمد الدنف وهو يقول:

ـ أوشك على أن ينام وهو جالس.. هيا بنا إلى غرفنا بعد إذن مولانا الشيخ.

كان المقدم صلاح الكلبي يصرخ في غضب، وقد تملكه خوف حقيقي لم يستطع أن يخفيه:

ـ لا فائدة، ضاع كتاب الشفرة.. سرق ـ هناك من دخل هنا، إلى القاعة السرية أسفل بيت بير جوان، داخل البير المستور المخفي بمهارة الشياطين.. وجاس في كل ما بالقاعة وفتش كل شيء، وعثر على كتاب الشفرة، وسرقه..

وكان المقدم عثمان مندهشا من علامات الخوف المرتسمة على وجه المقدم صلاح، فما هذا الكتاب وماذا يعني أن يضيع أو لا يضيع، وماذا في أن لصوصا تسربوا إلى الطابق المخفي، وحاول أن يهدىء من ثائرة مقدمه، فقال له:

ـ البيت مهجور، والزقاق كله ليس فيه أحد، ومن السهل أن يدخل لص إلى البيت، وأن يفتشه بحثا عن الأشياء الثمينة فيعثر على الطابق و..

ولم يدعه المقدم صلاح الكلبي يمضي في حديثه، بل قاطعه قائلا:

ـ ويتـرك كل هذه التـحف الثـمـينة ولا يسـرق سـوى كتـاب الشفرة.

قال المقدم عثمان مجادلا:

ـ سرق كتابا، لصوص آخر زمن، أيتـرك كل هذه التحف التى تملأ القاعة ويسرق كتابا؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى حنق:

ـ وهذا الكتـاب أثمن من كل ما فى القاعة من تحف لمن يعرف كـيف يسـتـخـدمـه، ولا أشك أن من سـرقـه جـاء من أجله خصـيصـا.. هذه مصـيبة كـبرى وحلت علينـا، كنت أظن أن أمرنا مستور ولكن هذه السرقة أوضحت الحقيقة أمام عينى.

قال المقدم عثمان:

ـ من القاعة لا يسرق اللصوص سوى رسائل مخبأة، وفى بير جوان لا يسـرقـون إلا كـتـاب الشـفـرة هنا صـاح المقـدم صـلاح الكلبى:

ـ تماما. أنت فهمت إذن..

فغر المقدم عثمان فاه فى بلاهة، وهو يقول:

ـ فهمت.. ماذا فهمت؟

قال المقدم صلاح الكلبى:

ـ قد يستطيع من سرق الرسائل أن يفـهـم سـر مـا فى واحـدة منهـا، ولـكنه سيـعجز عن فـهم الأخريات، ولكن لو كـان معه كـتـاب الشـفـرة لفـهم كل أسـرار ما فى الرسـائل، ولعرف كـيف

يحل رموزها السرية كلها.

أطبق المقدم عثمان فمه فجأة، وقد بدا الخوف يتسلل إليه لأول مرة، وقال:

-إنها إذن الرسائل التى تأتينا من الخارج، أعنى من ... صاح المقدم صلاح الكلبى:

- كفى، إياك أن تنطق بأسماء هنا، أو فى أى مكان، فمن يدرى ، لعل للجدران آذانا..

قال المقدم عثمان وخوفه يزداد:

- ولن يسرق أخذ الرسائل، وكتاب الشفرة إلا رجال الخليفة، ومعنى هذا أن هناك شكا بدأ يحوم حولنا، ومعناه أننا لم نعد نتمتع بالثقة المطلقة التى كانت ممنوحة لنا وكانت تتيح لنا حرية الحركة، والتصرف فى تنفيذ ما يطلب منا.

قال المقدم صلاح الكلبى:

- الشك لا يضايقنى، ولكن أن يصبح الشك يقينا هو ما يرعبنى ، فسيجعل حياتنا فى خطر...

قال المقدم عثمان:

ويوقف سيل الذهب الذى كان يتدفق علينا.

صاح المقدم صلاح الكلبى:

- كفى، أنت تجعل كل شيء يبدو فى غير صورته - نحن نخدم بلادنا بطريقتنا ، وإن كان الخليفة يرى مصلحة البلاد فى الحرب ، فنحن نراها فى إنهاء هذه الحرب، وخلق التفاهم

والمودة بينا وبين كل الناس بمن فيهم الفرنجة.. فنحن نعمل لصالح البلاد، نعم، لا تنسى هذا أبدا نحن نعمل من أجل خير الناس، وخير المسلمين.

ضحك المقدم عثمان وهو يقول:

- ليس المهم أن أنسى أو لا أنسى، المهم أن يصدق رجال الخليفة هذا..

قال المقدم صلاح الكلبى:

- لابد من استرداد هذه الرسائل وكذلك كتاب الشفرة بأى ثمن، هيا بنا إلى القاعة لأرتب الرجال ليحاصروا كل منافذ القاهرة، ولن يخرج أحد إلا إذا فتشناه ... ولنحاول أن نحصر الغرباء فى المدينة ونداهمهم ونفتشهم..

قال المقدم عثمان:

- سيثير هذا ثائرة الناس، ألا يحسن أن نستأذن السلطان.

قال المقدم صلاح الكملبى:

- ما لا يعرفه السلطان لا يقلقه، وهذه أمور أمن، وهو يترك لنا هذه الأمور ولا يحاول أن يعرف ما نفعل لا يشترك معنا بضميره فى المسئولية.

أغلق المقدم صلاح الكلبى باب القاعة السرية، وصعد مع المقدم عثمان إلى الطابق العلوى فى بيت بيرجوان، وقال والمقدم عثمان يتبعه إلى الساحة الخارجية للدار:

- منذ سافر عم شندى إلى بلدهم ليحضر جنازة أبيه، ولا

أمان لهذه الدار.

قال المقدم عثمان :

ـ نعين أحد الرجال ليحرس الدار حتى يعود.

قال المقدم صلاح وهو يدلف إلى خارج الدار ووراءه المقدم عثمان :

ـ لا أحد يعرف سر هذه الدار، أو حتى مكانها إلا أنت وعباس الأشول وعم شندى الذي ينظفها ويحرسها ، ويعتنى بأمر من نخبئهم فيها من ضيوفنا الأغراب.

وأغلق المقدم صلاح الكلبى الباب الخارجي للدار بالمفتاح، ثم وضع على الباب قفلا ثقيلا، ومضى مسرعا وإلى جواره المقدم عثمان يغادران الزقاق المظلم في صمت، قطعه المقدم عثمان عند وصولهما إلى أول الشارع الساكن المظلم قائلا :

ـ صدقت يامقدم لابد من استعادة الرسائل وكتاب الشفرة.

ضحك المقدم صلاح الكلبى ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ الآن أدركت ما أعنى.

ثم صمت وهو يغذ السير وإلى جواره المقدم عثمان، وفجأة وقف وضرب الأرض بقدمه وهو يقول :

ـ قلبى يحدثنى أن للزيبق يدا بطريقة أو بأخرى فى هذا الأمر..

ولم يجبه المقدم عثمان ، بل سارع من خطواته لتوافق خطوات المقدم صلاح الكلبى المهرولة الذى بدا أنه يستعجل

الوصول إلى قاعة الزعر، ومضيا يقطعان الطرقات في سرعة متزايدة حتى وصلا إلى قاعة الزعر فأدهشهما أن وجداها تموج بالرجال وقد أشعلت المصابيح وأضيئت المشاعل في الباحة الخارجية للدار. و،لكن دهشتهما لم تطل حين وجدا المقدم عباس الأشول يقف وسط القاعة وهو يصدر أوامره بصوت حازم إلى الرجال المتحلقين حوله:

وصمت المقدم عباس الأشول حين رأى المقدم صلاح الكلبي، وأفسح له الرجال طريقا وسطهم حتى وصل هو والمقدم عثمان إلى حيث يقف المقدم عباس الأشول وقد بدت عليه علامات الانفعال والقلق، وبادره المقدم صلاح الكلبي سائلا:

ـ ماذا حدث؟ ولماذا استدعيت كل هؤلاء الرجال؟ وماذا تريد منهم في هذه الساعة من الليل؟ قال المقدم عباس الأشول وفي صوته حدة وقلق:

ـ الدكان يامقدم، خالية على عروشها، لا أقمشة ولا أثاث ولا حتى قشة واحدة، ومن كانوا فيها هربوا، استأجروها ودفعوا الإيجار ولم يمضوا فيها سوى ثلاثة أيام، ثم انشقت الأرض وابتعلتهم.. صاح المقدم عثمان في انفعال:

ـ صدق حدسك يامقدم صلاح، الزيبق كان آخر من رأى من فيها.

قال صلاح الكلبي:

ـ هم... ليس غيرهم من سرق الرسائل و... والأشياء

الأخرى... والزيبق على صلة بهم..

ثم صاح يصدر أوامره فى صوت حازم:

- ياعباس أغلق منافذ المدينة كلها، وليفتش كل من يخرج منها بحثا عن الرسائل المسروقة من هذه القاعة. وأنت يامقدم عثمان خذ بعض الرجال واذهب أحضر الزيبق فى الحال.

قال المقدم عثمان:

- أحضره .. من أين؟

صاح المقدم صلاح الكلبى فى صبر نافد:

- من بيته، ومن فراشه، من أى مكان أحضره والسلام

قال المقدم عثمان فى صوت متردد:

- ولكن السلطان أعطاه منديل الأمان يامقدم

صاح به المقدم صلاح الكلبى:

- السلطان نائم.. وأنا أريد على الزيبق لأنه مفتاحى الوحيد إلى سرقة الرسائل، اذهب ولا تعد إلا بالزيبق مكبلا بالحديد.

-١١-

بالعلم نستعد

قال الشبح المتسربل بالظلام في صوت هامس:

ـ أفهمت يافاطمة، هو قد رحل بعد العشاء ليحضر النفيلة، والأقمشية أنت طلبتها منه لتحل محل الأقمشة التى أعطيتها لزينب.

همست فاطمة فى ثبات:

ـ فهمت يامقدم عمر، تعال معى إلى حجرته لتأخذ كل ملابسه وحاجاته حتى لايجدوها حين يفتشون الدار.

وبسرعة قادت فاطمة أم على الزيبق المقدم عمر العيار إلى حجرة الزيبق وهى

تحمل مصباحا مضاء، وقالت وهى تضعه على منضدة صغيرة في وسط الغرفة، وتخرج ملابس الزيبق وحاجياته وتضعها بعناية فى خرج كبير:

- ومتى سيرحل من القاهرة يامقدم عمر؟

قال عمر العيار:

- بعد أسبوع من الآن، ولكن لا تقلقى، هو معنا فى أمان

قالت:

- كنت أحب أن أراه قبل أن يرحل.

قال عمر العيار وهو يساعدها فى ربط الخرج وحزمه:

- لن تتاح لك الفرصة إذا كنت تحبين له النجاة، فقد أطلق صلاح الكلبى كلابه المسعورة بحثا عنه وعنا، وأى خطأ منا هو فرصة لصالحه..

قالت فاطمة وهى تنتهى من ربط الخرج:

- إذن سأراه على الطريق وبطريقتى الخاصة..

ضحك عمر العيار وهو يحمل الخرج على كتفه متأهبا للخروج، وقال:

- أحمد بن البنى، فهو حاضر بسيفه وفرسه ووجوده نفسه.

لم يملك العيار نفسه إلا أن ضحك وهو يقول:

- الأمر لا يحتاج إلى كل هذا..

أسكتته فاطمة بإشارة من يدها، وقالت:

- أنا آمن عليه معكم.. هذا حقيقى، ولكنى - لن أنام - أنا

يقظة عليه ماوسعني الجهد، وما وسعتني الطاقة.. وكلكم شيء، وأنا وجدي -أمه- شيء آخر..

ماتت الضحكة في حلق عمر العيار، وأحس بالخجل يملأ وجوده، فقال مطرقا:

-ما قصدت هذا، ولكني أعني أننا سنحافظ عليه قدر طاقتنا..

فجأة قطع حديثها طرق عنيف على باب المنزل الخارجي، وقالت فاطمة في توفز:

-إنهم هم- جاءوا قبل الموعد الذي توقعناه..

همس عمر العيار وهو يتجه إلى خارج الغرفة حاملا خرج على الزيبق على ظهره:

-بل هم في الميعاد.

وكما دخل من السطح، خرج أيضا من السطح، كان سلم الحبال في مكانه حيث تركه، فعدل وضع الخرج على كتفيه، وأخذ يرتقيه، وهو يسمع وقع أقدام فاطمة وهي تتجه نحو باب المنزل..

ولم تكن فاطمة تخشى أن يحس القادمون بعمر العيار، فهي تعرف مهارته وقدرته على أن يتحول إلى شبح لا يرى حين يريد، بل كانت خشيتها من هؤلاء القادمين الذين لم يراعوا حرمة المنزل ولا توغل الليل، ففتحت الباب وهي تقول في غضب:

-من الذي يطرق الباب بمثل هذا العنف، وفي مثل هذه الساعة؟

وتدافع الرجال إلى الداخل وقد شهروا سيوفهم وعيونهم تتلفت حولهم في ترقب واستعداد، وقال المقدم عثمان:

- أين هو، أين غرفته؟..

رفعت فاطمة يدها محذرة وهى تقول فى تهديد واضح:

- لا يتحرك واحد من مكانه، وأخبرنى ياهذا من تريدون؟

ذهل المقدم عثمان لثباتها ورباطة جأشها، وقال فى تردد:

- أنا من الأصل لم أرحب بهذه المهمة.. أين على الزيبق؟

قالت فاطمة:

- على أنتم أرسلتموه إلى حتفه، ألم تطلبوا منه النفيلة من المدينة المرصودة، ماذا تريدون أكثر من هذا؟

قال عثمان وهو يتنهد فى ارتياح:

هل تقصدين أنه سافر، ترك البلاد وغادرها:

قالت فاطمة بنفس الهدوء:

- تركنا بعد صلاة العشاء حاملا ملابسه وحاجياته رغم كل توسلاتى له أن يترك أمر النفيلة وشأنه، فهذا شرك أعددتموه له..

قال المقدم عثمان:

- لا علم لى بكل هذا، إنما أوامرى أن أحضر على الزيبق.

قالت فاطمة فى حدة:

- لماذا تريدونه، لقد حصل على منديل الأمان، ولم يعد لصلاح الكلبى عليه سلطان.

قال المقدم عثمان وهو يتلفت حوله :

ـلا نريد به شرا ، إنما يريد المقدم صلاح أن يسأله سؤالا أو سؤالين.

قالت فاطمة في سخرية :

ـفي وسط الليل؟

قال المقدم عثمان في حزم:

ـمادام قد سافر فقد وفر على المشقة ، ووفر على نفسه الكثير ، فدعينا نفتش البيت وننظر في غرفته لنؤدى المهمة في سلام ، ولن يضار أحد.

ضحكت فاطمة في سخرية ، وهي تتنحى عن مكانها أمامه ، وقالت وهي تشير بيديها إلى أرجاء المنزل :

ـالبيت أمامكم ففتشوه ، وليس معي إلا الخدم ، فلا تخشوا شيئا . .

وتجاهل المقدم عثمان سخريتها ، وأشار بيده إلى الرجال الذين اندفعوا يجوسون خلال غرف البيت ، ويفتشون كل القاعات بدقة وعناية ، بينما قال لها :

ـاصحبيني إلى غرفته افتشها بنفسي :

ودون أن ترد على حديثه اتجهت فاطمة في ثبات إلى غرفة الزيبق ، وفتحت الباب ، وتنحت له ليدخل ، ولاحظت أن وجهه قد شحب قليلا وهو يتحسس مقبض سيفه ويسبقها إلى داخل الغرفة ، ثم لاحظت حركاته الحذرة وهو يدخل بسرعة

ويلتصق بالجدار ويجول بعينيه في أرجاء الغرفة، فابتسمت ساخرة، وقالت:

ـ قلت لك الحجرة خالية، وعلى قد سافر منذ الأمس، فهل أنت تخاف من شبح على..

تمتم المقدم عثمان بغضب هز شواربه الكثة، وتقدم نحو دولاب الملابس يفتحه ويفتش فيه، وقال:

ـ لا أجد من ملابسه شيئا، حتى الملابس الداخلية... هل أخذ كل شيء معه، أم أنت أخفيت كل الملابس عن عمد..؟

وألجمته نظرتها، فعض على نواجذه في غيظ وقد أدرك أن كلامه لا معنى له، وأنه يشي باضطرابه وقلقه، بل وربما يشي بخوفه.. وكان يعرف أنه يخاف حقيقة، يخاف من الزيبق وملاعيبه التي جعلت منه ومن مقدمه صلاح الكلبي أضحوكة مصر كلها، كما كان يخاف من الأمر كله، فالسلطان قد أعطى على الزيبق الأمان، والخروج عن طاعة السلطان حتى بأمر صلاح الكلبي شيء له عواقبه الوخيمة، كما أن مسألة سرقة الرسائل وكتاب الشفرة، واقتحام قاعة الزعر، وسرقة بيت بيرجوان، وحكاية دكان الأقمشة الذى لم يعد دكان أقمشة، وتبخر من استأجروه، كلها مسائل تثير الخوف. وفي حنق شديد دفع مقعدا كان يعترض طريقه، وهو يخرج من الحجرة مسرعا ويقول:

ـ لو كان قد سافر قبل صلاة العشاء فقد أفلت من الحصار.

وأحس أنه أخطأ للمرة الثانية، فنظر إليها وفي عينيه توسل، ولكنها نظرت إليه بحدة وقالت:

- حصار، أي حصار تعني..؟

هز كتفيه ومضى مهرولا وهو يشير إلى رجاله ليتبعوه، وكأنما يخشى أن تبقيه لتعرف السر الذى كشفته زلة لسانه، ومضى يخرج من باب الدار وهو يلعن في سره اللحظة التي أرغمه فيها المقدم صلاح الكلبى على القدوم إلى هذه الدار. نائب مقدم الدرك، أو حتى مقدم الدرك ذاته، هو لا يحب أن يواجه هذه المرأة أبدا.. فهو يحس أنها تسخر منه بنظراتها التي تعريه وتكشف صغار نفسه.. وأغلقت فاطمة الباب وراءهم، وقد امتلأت ملامح وجهها بالقلق... فما معنى هذا الحصار، وهل يريد صلاح الكلبى القبض على الزيبق حتى قبل أن يبدأ رحلته، وظلت تفكر لحظات؛ ثم انسحبت ملامح القلق تدريجيا من وجهها ليحل محلها عزم وتصميم، ففي الغد لابد أن تسأل السلطان هل هو يعرف أن منديل الأمان الذى أعطاه لعلي الزيبق لا قيمة له... وهل يعلم بأمر هذا الحصار... ومضت بخطو وئيد إلى حجرتها لتدخل فراشها في ليلة مسهدة لا تعرف النوم..

عندما فتح علي الزيبق عينيه أغشاهما ضوء الصباح الوهاج، فهب من نومه مذعورا وهو يحس بالخجل لأنه ترك نفسه للنوم حتى غلبت أشعة الشمس الكون كله وغمرته..

ونظر حوله وهو يطرد النوم من عينيه، كانت نفس الحجرة الصغيرة التى أوى إليها أمس وقد غلبه النوم حتى لم يعد يفهم ما يدور حوله من حديث إلا أنه كان يحس أن هناك شيئا قد تغير فيها... ولم تطل حيرته إذ سرعان ما شاهد ملابسه كلها مكومة فوق مقعد مستطيل، فمضى إليها يقلبها ويتأمل فيها، كانت ملابسه هو لاشك، تلك الملابس التى تركها فى الدار أمس، كيف جاءت إلى هنا ومتى، ومن الذى أحضرها، ولماذا جىء بها إلى هذا المكان.. هل هى أمه استشعرت خطرا يهدده فجاءت بملابسه هنا حتى لا يعود إلى الدار ويتعرض لهذا الخطر الذى طرأ فجأة.. ولكنه تذكر أن أمه لا تعرف هذا المكان، وما تعرفه عن وجهته لن يوصلها إلا إلى أول القرافة، ثم ينقطع الأثر تماما. وهز رأسه فى حيرة، ثم ترك التفكير فى الأمر كله ومضى يغتسل ويغير ملابسه فى سرعة، ثم يفتح الباب الزجاجى الذى كان يتوهج بنور الصباح لتطالعه حديقة الأمس بجمالها ورقتها وهوائها المعطر برائحة الزهور... ومد ساعديه يستنشق الهواء النقى المعطر ويحتويه فى رئتيه فى استبشار وسعادة وإقبال على الحياة... وأمامه عند النافورة كان الشيخ زكى البتوكى يجلس تحت مظلة تقيه لفح الشمس، وفى يده كتاب كبير، وقد استغرق فى القراءة ونسى كل ما حوله من جمال وتفتح وحياة... وتقدم على الزيبق نحوه على استحياء، فأحس الشيخ بوقع أقدامه، فرفع رأسه ينظر إليه بعينيه

النفـاذتين، وتنهـد وأغلق الكتـاب، وأشـار إليـه ليـجلس إلى جواره، وهو يقول:

ـفكرت أن أوقظك قبل هذا، ولكنـى آثرت أن أتركك تنعم بنومك وراحتك..

جلس على الزيبق إلى جـوار الشـيخ زكى البـتـوكى، وهو يتلفت حوله ويقول:

ـوأين الآخرون؟

قال الشيخ زكى وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

ـبعـضـهم عـاد منذ قليل، ودخل حـجـرتـه ليـحظى ببـعض النوم. والبـعض الآخـر ذهبـوا يعـدون العـدة اللازمـة لتنفـيـذ البرنامج الذى اتفقنا عليه لإكمال استعدادك لرحلتك..

رفع على الزيبق رأسه فى حدة، وقـال وهو ينظر إلى الشـيخ زكى:

ـبعـضـهم عـاد منذ قليـل، هل بعـضـهم هذا هو من أحـضـر ملابسى من المنزل؟

ضحك الشيخ زكى، وعبث بيده فى لحيته، وقال:

ـذكاؤك الحاد سيجنبك الكثير من المزالق ياعلى..

قال على رافضا أن ينصرف الشيخ عن الإجابة عن سؤاله:

ـأيهم الذى جاء بالملابس، ولماذا؟ وهل أصاب أمى مكروه..

قـبل أن يـجـيب الشـيخ زكى البـتـوكى على أسـئلة على الزيبق المتلاحقة.. جاءه صوت هادىء من خلفه يقول:

ـ لقد جئت أنا بملابسك وحاجياتك، والسيدة فاطمة بخير، وكانت تود أن تأتي معي لتراك ولكنى آثرت أن لا نخاطر بشيء. التفت على وراءه فوجد المقدم عمر العيار مبتسما، فابتسم لابتسامته، وقال:

ـ كنت أحسبك نائما مثلي..

قتال عمر العيار وهو يأخذ مجلسه إلي جوارهما:

ـ لم ينم أحد منا الليلة الفائتة، فقد كانت ليلة حافلة، اكتشف فيها صلاح الكلبى أننا فى القاهرة، ولو أنه لم يعرف وجودنا بالذات، ولكنه اكتشف وجود أيد تعبث به، واكتشف ملاقاتك بدكان الأقمشة فى الكحكيين، وجن جنونه، فأصدر أمرا بالقبض عليك، كما فرض حصارا كاملا على مداخل القاهرة ومخارجها.

قال على الزيبق فى دهشة:

ـ كل هذا وأنا نائم.

ضحك الشيخ زكى البتوكى ضحكته الهادئة، وقال:

ـ كم يحدث من أحداث ونحن فى غفلة عنها، إما لأننا نائمون، وإما لأننا صاحون، كالنائمين..

شارك عمر العيار الشيخ زكى ضحكه، وقال:

ـ هذا نفس رأى المقدم صلاح الكلبى، فقد أدرك أنه صاح كالنائم، وهذا هو الذى استفزه، ودفعه إلى إجراءات خرفاء تثير حوله الشك.

قال صوت وقور عريض.

- بل هو يؤكد الشك القديم الذى ثار فى نفوسنا ناحيته.

والتفت على خلفه وهو يحس بالضيق، ورأى ما توقع أن يراه، المقدم أحمد الدنف ومعه حسن شومان وشحادى أبو حطب ينظرون إليهم فى هدوء وهم يبتسمون ، فقال فى اندفاع:

- أليس لأقدامكم وقع على الأرض؟

ضحك أحمد الدنف، وهو يشير بيده لأصحابه ليأخذوا أماكنهم مع الجالسين، وقال:

- أتريد أن تكون وحدك الذى لا وقع لأقدامه على الأرض، ألم يسمك الجميع الزيبق لأنه لا وقع لأقدامك ، ولا ظل لجسدك، مهارتك هذه بعض من مهارات نتعلمها كلنا فى البدء، وقد آن الأوان لأن نبدأ فى تعليمك المهارات الأخرى.

قال عمر العيار كأنما يستأنف كلام أحمد الدنف السابق:

- أتشك بأنه يميل للفرنجة... أهذا ما تعنيه؟

قال أحمد الدنف:

- لم يعد الأمر شكا، بل غدا يقينا، فالرسائل التى أخذناها من قاعة الزعر مكتوبة بالشفرة المعقدة، وقد استطعنا حلها كلها عن طريق كتاب الشفرة الذى أخذناه من بيت بيرجوان

قال شحادى أبو حطب متدخلا فى الحديث لأول مرة:

- وهى صلة قديمة جدا، بل أظنه ما حاز مكانه إلا بمؤامرة

الفرنج وعملائهم وعلى رأسهم دليلة، وأعوانها في القاهرة.

قال على الزيبق في دهشة:

- ودليلة هي الأخرى عميلة للفرنج؟

ضحك حسن شومان ضحكة خشنة وهو يقول:

- هذه لا شبهة في أمرها، فهي تلعب لعبة كبيرة ستودى بها كما أودت بغيرها من الخونة..

واستأنف أحمد الدنف حديثه قائلا:

- لقد ورثت الحقد على الإسلام والمسلمين من قومها المجوس، فهي رغم إسلامها لا تنسى أمجاد قومها التي قوضها الإسلام ليبني مكانها صرح التسامح والحب.. في نفوس ورثت أحقادا تفرز الصديد والعلقم داخل قلوب مريضة فيخون أصحابها كل عهد، وكل معنى إسلامي حر... مهما طال الزمن، وتقادمت الأيام وهؤلاء لا يجدون بأسا أن يتحالفوا مع أعداء الدين من الفرنجة الطامعين في أرضنا وعرضنا وثرواتنا.

وسكت أحمد الدنف، فساد صمت عميق، كأنما كلماته - خلال هذا الصمت - تحفر لها طريقا في النفوس التي استمعت إليها... ووجمت لهولها وبشاعتها... وسعل الشيخ زكي البتوكي، وقال:

- نحن نحس هذا الخطر من زمن، ولذا نخفي أبحاثنا عن كل العيون، ولا نرسلها إلا معكم إلى الخليفة في بغداد لتحفظ وتحرس في خزانة الحكمة، ولا يطلع عليها إلا أهل العلم والصناعة الذين يثق فيهم الخليفة، ليحولوها من مجرد أبحاث

علمية إلى آلات تخدم الحياة وتحفظ الوطن وإنسان الوطن..

قال أحمد الدنف :

ـ في خلال هذا الأسبوع أعد كل ما تريد إرساله ، وسأوصله بنفسي إلى خزانة الحكمة .

وقال حسن شومان :

ـ هذه الرسائل أشارت إلى عملاء في جهات من أرض مصر ، أحب أن تسمح لنا أن نكشف أمرهم بأنفسنا ، فقد يكونون مخدوعين بوعود زائفة أو كلمات براقة ، ونستطيع بالإقناع أن نعيدهم إلى جادة الصواب .

قال أحمد الدنف :

ـ في الليل نتدارس كل ما تجمع عندنا من معلومات ، ويقصد أحدكم إلى النوبة ، والثاني إلى الصعيد والثالث إلى الدلتا في نهاية الأسبوع .

قال على الزيبق مندفعا :

ـ ولماذا التأجيل لمدة أسبوع ، لا أحب أن أكون سببا لتعطيلكم عن مهامكم ..

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

ـ تأهيلك لمهمتك الآن هو الشيء الأهم ، أما الباقي فهو عملنا المعتاد ، ونحن نحتاج هذه المهلة لتدارس الأمر ..

ظل على الزيبق في اندفاعه قائلا :

ـ ولكنى جاهز من الآن .

ضحك عمر العيار وهو يقول :

ـ لن تهرب من التعلم أبدا ، ففى عملنا الموهبة والذكاء وحدهما ليسا كافيين.

قال على« الزيبق :

ـ فماذا سأتعلم؟

ضحك أحمد الدنف وهو يقول :

ـ ستبدأ كل صباح معى تتعلم الفروسية والسلاح ، خدع الحرب والقتال راكبا وراجلا ، بالحربة والسيف والخنجر والسهام والدبوس .. ثم تبدأ دروسك مع شحادى أبو حطب فى فنون المصارعة والملاكمة والنزال رجلا لرجل ورجلا لعدة رجال ، وليست المصارعة التى تتعلمها هى مصارعة الرميلة وقرة ميدان ، بل ستتعلم كل ما تفننت فيه الشعوب من ضروب العراك باستعمال المعرفة بمراكز الأعصاب ومواطن الضعف ، والمقاتل فى جسد الانسان ، ثم نتركك للشيخ زكى ورجاله وهؤلاء سيتولون تعليمك العلم والحساب والفلك بحيث توظفهم فى حياتك ومهمتك ، كيف تهتدى بالنجوم فى الصحراء ، وكيف تعرف الشرق من الغرب ، وكيف تستولد النار الحارقة ، والعبوات الناسفة والأبخرة التى تشل الحركة و ،تخدر الجموع الحاشدة ، كيف تستخرج طعامك من الجماد ، وكيف تفرق بين ماهو سام وماهو غير سام من أنواع النبات والحيوان ... دنيا من المعرفة لابد لك منها كإنسان من ناحية ، وكمقدم من مشاديدى من ناحية أخرى.

قال على الزيبق فى ذهول :

ـ كل هذا فى سبعة أيام
استأنف أحمد الدنف حديثه قائلا :
ـ أهم مـا طلبت أن يعلمك إياه هو فنون الآلة ، وأسـرار الحركة ، والمعرفة العلمية التى تتحكم فى الأشياء كظواهر طبيعية وآلات من صنع الإنسان يحرس بها أسراره ، ويبعد بها الفضوليين عن كنوزه ، ويصنع بها آلات المعرفة والحكمة ، وآلات الدمار والحرب ،والمدينة المرصودة ، والشخص النحاسى ، والسيوف المتحركة فى الجزيرة المعزولة .
قال الشيخ زكى البتوكى بصوته الوقور ونبراته الهادئة :
ـ ومن يعرف ماذا ستلقى فى طريقك مما صنع بالحكمة ، واستغلت فيه المعرفة من فخاخ وأخطار تحتاج منك أن تتسلح بما ينير لك طريقك لتجاوزها ، والإفلات منها . .
قال على الزيبق فى سذاجة :
ـ تعلمت أن أدخل على كل خطر بقلب جسور ، وأتصرف بذكائى ، وفهمى ، وبكل ما عندى من أمور العياقة والشطارة فإذا كان خطر يزول ، وتختفى حتى الشياطين من أمامى . .
ضحك الشيخ زكى البتوكى ضحكته الهادئة ، وقال فى تأن :
ـ القلب الجسور مطلوب يابنى فى كل حين ، ولكن الذكاء والفهلوة والشطارة لا تصلح أمام العلم ولا أمام ما صنع بالعلم والمعرفة . . العلم لا يفله إلا العلم . . . وقد آن لك أن تتسلح به إلى جوار الشطارة والعياقة ، فعدونا قد بدأ يستعمله ويسبقنا وكنا السابقين .

ضحك عمر العيار وقال :

ـ هل تهرب من التعلم ياعلى .... ؟

قال على وهو يطرق :

ـ بل أنا مبهور بما أسمع ... وسأكون تلميذا مطيعا .

قال أحمد الدنف :

ـ وبعد العلم يأتى دور الشطارة والعياقة ، فبعد الظهر يعلمك حسن شومان فنون تسلق الجدران ، وفتح ما يستعصى من أقفال ، والقفز من مكان إلى مكان ، وخفة الحركة واليد ، وحدة الملاحظة ، وسرعة التصرف ، أما فى الغروب فمعلمك هو عمر العيار ، ليعلمك فنون التنكر ، واستعمال الشعر والأدهان والأصباغ ، ويعلمك تقليد الأصوات بإتقان ، وكيفية التحكم فى عواطفك لتلبس لكل شخصية تقلدها لبوسها .

ضحك الشيخ زكى البتوكى وهو يقول :

ـ البرنامج حافل يابنى ، وسنبدأ الآن بعد أن نتناول إفطارنا ولأسبوع كامل .

وصفق الشيخ زكى البتوكى ، فظهر خدم الأمس من جانب من الحديقة ، فأشار إليهم بيده ، وسرعان ما امتدت أمام الجميع مائدة إفطار شهية ، تذكر على الزيبق حين رآها أنه جائع ، فنسى هموم اليوم ، والعناء الذى ينتظره خلال أسبوع كامل ، وانقض على الطعام فى رغبة واشتهاء .

- ١٢ -

رياح الخوف

كان جائعا جدا وكأنه لم يأكل منذ زمن طويل، وأخذ يصفق بيده فى إلحاح حتى يأتى الخدم بالطعام، وكان يريد لحما دسما قد تم شواؤه ونضجه وتنزت دهونه حوله، وحول اللحم أرز بالمكسرات ، تفوح منه رائحة التوابل والأفاويه، وكان فى البستان ، حوله أشجار ضخمة، ولكن الزمن كان غريبا، فهو ليل مغبش بضوء شاحب، أهو الغروب، أم هو الشروق ، أم أن البستان يتسرب إليه ضوء مشاعل من ردهة بعيدة، وعاد يصفق من جديد ، فظهرت الجارية من خلف الشجرة، واختفت الشجرة، هل

الجارية هى الشجرة، أم الشجرة هى الجارية، كانت حلوة، قدها مياس، وشعرها طويل أسود كث، واقتربت منه وهى تبتسم، وأشار إليها بيده فوقفت مكانها وهى تنظر إليه، وكان فى نظرتها شىء يبعث القشعريرة فى الجسد، كأنها جائعة، وكأنها تريد أن تأكل، وعاد يشير إليها بيده من جديد، فابتسمت، ورفعت كفيها وصفقت، فبدأ الخدم يتوافدون من كل أنحاء البستان، يحملون الصوانى الثقيلة تفوح منها أبخرة الطعام، ووضع الطعام أمامه، لحم كما أحب فوق أرز بالمكسرات، ودهن كثير، ومد يده يغوص فى الطعام، ويحمل اللحم إلى فمه ويأكل، ويأكل ويأكل، ويحمل حفنات الأرز إلى فمه، ويحطم بأسنانه المكسرات فتحدث صوتا له وقع رقيق فى أذنيه، والدهن يملأ يديه، واللحم لاينفد، وهو لا يشبع، ولكن ما يأكله ليس لحما، هو جلد، هو طين، يملأ فمه ولا يستطيع أن يتخلص منه، ومعدته تمتد أمامه وقد امتلأت، ثم تمتد وقد اتسعت، ويضع يده على بطنه، ولكنه لا يستطيع أن يمنع تضخمها، والمكسرات فى فمه حصى، حين يمضغها تنكسر أسنانه، ويبلع هو أسنانه التى تكسرت، والمرأة تنظر إليه وفى عينيها جوع، ورفع يده ينظر إلى الدهن اللزج يغطيها، ولكن ليس دهنا، هو دم، دم أحمر قان، ثم دم أسود ويتحول لونه إلى الزرقة، وصرخات من الردهة، تعلو تقترب، وتعلو وتقترب، صرخات عذاب، وصرخات احتضار، ووقع سياط

تمزق الظهور، وبكاء طفل، وعويل امرأة.. والمرأة أمامه تقترب منه وتفتح فمها ، أسنانها أنياب ذئبة، وتمد يديها، أظافرها مخالب حدأة. ومد يده إلى سيفه ، كان ثقيلا، وكانت حركته هو بطيئة والمرأة تقترب منه، شعرها لفحة هواء ساخن، ومن عينيها يقدح شرار ملتهب، وضرب بالسيف، واختفى رأس المرأة قطعه السيف، وظهر رأس أفعى، ورفع يده مرة أخرى بالسيف ثقيلا وبطيئا، ثم ضرب رأس الأفعى، وتفح وهو يضرب بسيفه، ويضرب والسيف قبضة بلا حد يسقط فوق الأرض فيحدث خبطات ثقيلة وعالية، وهو يضرب ، والخبط يعود ، خبط ثقيل، وهو لا يستطيع أن يتحرك، سمرته مكانه، عينا الأفعى ولسانها المدلى.. وهى تقترب... وهز نفسه بعنف وانتفض، ثم فتح عينين ذاهلتين حوله، ومضى يجفف عرقا منداحا فوق جبهته وصدره بيد مرتجفة مترددة... وازداد الطرق عنفا، ولكنه كان صادرا من باب الغرفة هذه المرة، كان طرقا حقيقيا، وكان مستيقظا تماما، وإن كانت حواسه مشتتة مضطربة.. وقام عن فراشه متثاقلا، ومضى إلى الباب يفتحه، وطالعه وجه خادمته السوداء التى تعنى بشئون المنزل وهى تقول فى انفعال:

ـ ألا تستيقظ .. نحن الضحى الآن، والناس فى الردهة ينتظرونك..

ومر بيده المرتجفة علي شعره المشعث، وأسرع إلى قلة عند

الشباك فرفعها يشرب ماءها في دفعات متتالية وهو يتركه ينساب إلى عنقه وصدره، وعادت تقول في إلحاح:

ـ مالك، هل أنت مريض؟

لم يجبها، وإنما أخذ يتطلع إلى وجهه في المرآة فهاله شحوبه، فهمس:

ـ ربما كنت مريضا، ولكنه الحلم

صاحت في انفعال:

ـ حلم، خيرا إن شاء الله، احك لي ربما..

صاح المقدم صلاح الكلبي في عنف:

ـ اخرسي واذهبي بسرعة فأعدي حماما ساخنا..

قالت في احتجاج:

ـ والناس الذين ينتظرون في الردهة..

صاح:

ـ قولي لهم ينتظرون... فالعالم لن ينتهي... وأريد حمامي ..وإلا فرأسي سينفجر..

وهرولت المرأة مسرعة تعد له حمامه الساخن، بينما استند المقدم صلاح الكلبي إلى حافة سريره وتأوه في تعاسة وألم... كانت هذه الكوابيس المخيفة تعاوده هذه الأيام كثيرا، حتى أصبح يخشى أن ينام.. نفس الشراهة في أول الحلم، ونفس الطين في فمه في وسط الحلم، ونفس الرعب في نهايته..

كان المقدم عثمان يذرع ردهة بيت المقدم صلاح الكلبي في

قلق وضيق، وقال للمرة العاشرة:

- تأخر المقدم كثيرا... لست أدرى ما الذى جرى له هذه الأيام..

أجابه المقدم عباس الأشول فى ضيق:

- هل جلست فقد داخت رأسى من حركتك التى لا تنتهى هذه .. وأنا قلق مثلك، ولكن كان لابد لنا من الانتظار، فلننتظر فى هدوء يليق بنا، ولسنا صبية صغار يهزنا أى حدث ويذهب باتزاننا..

توقف المقدم عثمان وهو فى وسط خطواته... وحملق فى وجه عباس الأشول المتقع، ثم ابتسم وهو يقول:

- صدقت يامقدم... صدقت.. وماكان لى أن أقلق وكل شىء تمام والحال عال، والسلطان لم يرسل الحاجب ثلاث مرات حتى الآن، مرتين إلى القاعة ومرة هنا فى الدار ليستعجل حضور المقدم صلاح الكلبى إلى الديوان... ولكن لا بأس، علينا أن ننتظر فى هدوء يليق بنا..

قال المقدم عباس الأشول فى حدة:

- كأنك تسخر منى بهذا الكلام يامقدم عثمان..

وتجمع غضب المقدم عثمان فى صدره، وتجمعت إحباطات الأمس كلها وضيقه وغضبه، وكاد ينفجر فى عباس الأشول بما لا يحب من القول، لولا دخول المقدم صلاح الكلبى إلى القاعة، ولولا منظره الشاحب المرهق، الذى ألجم لسانه، وجعله ينظر

إليه فى دهشة وقد نسى غضبه، ومضى يسأله فى اهتمام:

ـ ما الخبر يامقدم صلاح... هل أنت مريض؟

أدار المقدم صلاح الكلبى فى تابعيه عينين محمرتين مجهدتين، وهز رأسه فى ضيق، وقال:

ـ هذه الأيام أصبح النوم عندى عناء وتعاسة..

قال المقدم عثمان فى إشفاق:

ـ أنت تخطف النوم خطفا يامقدم، فأنت لم تدخل فراشك إلا مع فجر اليوم الجديد....

تنهد المقدم عثمان وهو يقول:

ـ ومع هذا لا أهنأ بالنوم، وتنتابنى الكوابيس..

صاح المقدم عثمان فى تعاطف:

ـ كوابيس، أبعد الله الشر عنك يامقدم، هى من عمل الشيطان فاقرأ الصمدية قبل أن تنام وهى تبعد عنك كل رجس... قال المقدم عباس الأشول فى ضجر:

ـ إذا ماانتهيتم من هذا الكلام، أخبرونى متى سنذهب إلى الديوان فالسلطان ينتظر..

انتبه المقدم صلاح الكلبى على نبرات صوت عباس الأشول، فنظر إليه فى حدة وقال:

ـ السلطان ينتظر... ينتظر من؟

قال المقدم عباس الأشول:

ـ أرسل أحد الحجاب إلى القاعة يحسب أنك نزلت إليها

مبكرا كالمعتاد ، فلما أخبرته أنك لم تصل بعد، عاد وأرسله إلى هنا، وهو يطلبك فى عاجل الحال..

قال المقدم عثمان:

ـ قلبى لا يحدثنى بخير، لعل فاطمة ذهبت تشكو هجومى أمس على بيتها بحثا عن الزيبق.

قال المقدم صلاح الكلبى:

ـ أتظن أن على الزيبق له مثل هذه الأهمية عند السلطان..

قال المقدم عباس الأشول:

ـ المهم أن نسرع، ولاتدع السلطان ينتظر، فربما كان الأمر أن أهل القاهرة اشتكوا من الحصار الذى ضربته أمس، ومن أننى كنت أفتش كل الخارجين من أبوابها..

قال المقدم صلاح الكلبى:

ـ ماذا ننتظر؟... هيا بنا إلى الديوان وسنعرف كل شيء هناك، ومواجهة البلاء خير من انتظاره، فلعله كابوس الأمس سيتحقق بشكل أو بآخر.

فوجيء القاضى نور الدين وهو يتابع حركات ذراع عباس المبخراتى تتحرك بالمبخرة فى أنحاء الدكان بفاطمة تقف فى مدخل الدكان وهى تقول:

ـ أريدك معى ياأبى، فاصرف عم عباس، وأغلق الدكان، وتعال معى..

نظر إليها أبوها لحظات متأملا، وقال:

ـ لم أرك في مثل هذا القلق يافاطمة، حتى تحية الصباح نسيت أن تقوليها.

قالت فاطمة في توتر:

ـ أريد أن أذهب إلى الوالى فقد نقض صلاح الكلبي منديل الأمان الذى أعطاه لعلى..

قطب القاضى نور الدين حاجبيه، وقال:

ـ الهدوء يافاطمة... هو والى الخليفة على مصر، ولكن هنا اسمه السلطان، ولن ينفع ذهابى معك إن لم تعدى بالتزام الأدب في خطابه ـ أما على ابنك هذا فلا خير فيه، هذا رأيى فيه منذ طفولته.

قاطعه صوت عم عباس المبخراتي وهو يقول، ويده تروح وتجيء بالمبخرة التى يملأ دخانها الدكان:

ـ حى.. قيوم.. وحدوه.. على ياسيدى القاضى كان زينة الصبيان، وأنجب الفتيان، وهو فخر الشباب اليوم، ألم يحصل على منديل الأمان بالشطارة والعياقة والشجاعة.

ـ صاح به القاضى نور الدين فى ضيق:

ـ تزج أنفك فى كل حديث يامبخراتى، أأنت تنشر البخور، أم تتسمع على ما يقوله الناس، اتق الله فى شيبتك يارجل.

قالت فاطمة وهى تبتسم:

ـ هو رجل طيب ياأبى، وهو يحب ابنى على

تنهد القاضى نور الدين وهو يقول:

- ومن لا يحبه يافاطمة، إنما كنت أرجو له مستقبلا آخر في دنيا العلم والمعرفة، لا دنيا الشطارة والعياقة كأبيه.

قالت فاطمة:

- هذا حديث معاد لا طائل من ورائه، هل ستجيء معي، أم أذهب وحدي إلى الديوان؟

قال القاضي نور الدين وهو يتنهد:

- بل أنا قادم معك، فلا يليق أن تذهبي وحدك أمام السلطان.

ومضى يجمع الأجولة المرصوصة خارج المحل، وهو يقول لعم عباس المبخراتي:

- اترك هذه المبخرة وتعال ساعدني لأغلق الدخان..

ولم يتكلم عم عباس، وإنما ترك مبخرته خارج الدكان، ومضى يحمل مع القاضي نور الدين أجولة التمر والكركديه والخروب إلى داخل الدكان. ولما انتهى حمل مبخرته، واقترب من فاطمة قائلا:

- ابنك منصور ياسيدة فاطمة، ونحن كلنا ندعو له.. سبحان الله.. حي.. قيوم..

ومضى مبتعدا بينما أمسك القاضي نور الدين بعصاه في يد، وبالمسبحة في اليد الأخرى، وهو يقول لابنته في رقة:

- هيا بنا يافاطمة، وليكن اعتمادنا على الله..

ومضى يسير وهي تتبعه، ويده تدور بالمسبحة، وشفتاه تنطقان في همس بتسبيحاته، ولكنه حين التفت وراءه وجد

فاطمة قد تلثمت تخفى وجهها ، فوقف حتى حاذته وسألها :

ـ ولماذا اللثام يافاطمة؟

قالت :

ـ لا أريد لأحد أن يعرفنى فى الديوان قبل أن أعرف ماذا يجرى حولى . .

ـ ضحك القاضى نور الدين ضحكة خافتة ، وهو يقول :

ـ من لم يعرفك من رؤية وجهك ، عرفك بوجودى معك . .

ثم هز كتفيه وتنهد وقال :

ـ ولكن لك ما تشائين . .

ثم مضى إلى الديوان ، وهى تتعقبه فى صمت . .

كان الاضطراب والقلق يسودان الديوان هذا الصباح ، وقد كثر فيه الحراس المسلحون بشكل واضح ، وكان السلطان يجلس ومعه الوزير والقاضى فى صدر الديوان يتحدثون فى همس ، وبين الحين والآخر ينضم إليهم السلحدار والمفتى ، ثم يتركونهم ليفسحوا أماكنهم لقائد الجيش والمحتسب والكاتب ، ويترك هؤلاء أماكنهم بعد حين لغيرهم من رجال السلطة وأعمدة الديوان ، بينما وقف أصحاب الحاجات فى ناحية يتململون فى وقفتهم وهم يتهامسون فيما بينهم . . . وهمست فاطمة فى أذن أبيها القاضى نور الدين قائلة ، وهى تجول بعينيها فى أرجاء القاعة :

ـ إنهم خائفون ياأبى . .

همس القاضى نور الدين مجفلا :

ـ خائفون ؟ ما هذا الكلام يابنتى . . .

همست فاطمة من تحت لثامها :

ـ أحس ريح الخوف يسرى فى هذه القاعة، الوجوه مذعورة، والعيون قلقة، والحركات مضطربة وكأنهم فى انتظار شىء، أو أحد وقبل أن تتم حديثها حدث لغط عند الباب فتطلعت كل الأنظار إليه، ودخل المقدم صلاح الكلبى ومعه المقدم عثمان وعباس الأشول، وكانوا جميعا مدججين بالسلاح، تبدو العجلة والانفعال مع حركاتهم، وهم يتقدمون نحو السلطان الذى التفت من حديثه الهامس مع الوزير والقاضى، ورفع رأسه ناحية المقدم صلاح الكلبى، ورد تحيته فى عجلة، وهو يقول :

ـ تأخرت يامقدم صلاح حتى قلقنا عليك .

قال المقدم صلاح الكلبى وهو يتقدم فى ثقة ناحية السلطان :

ـ إنها أمور الدرك يامولاى، فقد كان الأمس يوما حافلا، أما ليلة أمس فلم أنم لا أنا ولا كل رجالى . .

قال السلطان :

ـ تقصد أن أحدا من رجال الديوان لم ينم فى هذه الليلة الحافلة ؟

قال المقدم صلاح الكلبى فى دهشة :

ـ رجال الديوان ؟ وما دخل رجال الديوان فى أحداث الأمس ؟

التفت السلطان إلى الوزير إلى جواره ، وقال :

أخبره ياوزير .

سعل الوزير ، ولعب فى لحيته ، ثم قال :

ـ سرقت دارى أمس ، دخلها اللصوص وعاشوا فى أرجائها ، ونقبوا فى كل جزء دون أن يحس بهم أحد ، ولولا أرق زوجتى ما أحس بهم أحد ، وقبل أن ننبه الحرس كانوا قد هربوا .

نظر المقدم صلاح الكلبى نحو الوزير فى حدة ، وهو يسأل :

ـ ماذا سرقوا ؟

ضحك الوزير فى ارتباك ، وعاد يعبث فى لحيته من جديد وهو يقول :

ـ هذا هو الشىء المدهش حقا ، لم يسرق شىء . .

فغر المقدم صلاح فاه فى دهشة وهو يردد :

ـ لم يسرق شىء كيف ؟

قال الوزير وهو يضحك ضحكة جوفاء :

ـ أنت تسأل ، وأنا أسأل . . ولا أحد يجيب ، كيف يدخل اللصوص بيتا مليئا بالمال والجواهر والتحف ، ويعبثون بكل شىء ، ويفتشون فى كل مكان ، ويخرجون خاوى الوفاض رغم كل ما عثروا عليه من مال وجوهر ؟

تمتم المقدم صلاح الكلبى لنفسه بصوت مسموع :

ـ الحكاية تتكرر من جديد .

فقال السلطان :

ـ إذن فأنت تعرف ، لقد تكررت نفس الحكاية مع القاضى

والمفتي والكاتب والمحتسب والسلحدار، بل مع كل واحد من رجال الديوان..

صاح المقدم صلاح في ذهول:

- تكررت معهم .... تعني يامولاى أنهم..

أكمل السلطان قائلا:

- نعم تم السطو على منازلهم ولكن لم يسرق شيء.

ووجم كل من في الديوان، وهمست فاطمة في أذن أبيها قائلة:

- ألم أقل إن رياح الخوف تملأ الديوان هذا الصباح.

ثم تقدمت في ثبات إلى ناحية السلطان وهي تقول بصوت جهوري أسكت كل التمتمات في القاعة الواسعة:

- مولاى السلطان، جئتك شاكية إليك نفسك، فأعطني الأمان لأتكلم..

ووجم السلطان وهو ينظر إليها متحيرا، فرفعت فاطمة اللثام عن وجهها، وهمس المقدم عثمان في أذن المقدم عباس الأشول:

- هذه فاطمة امرأة حسن رأس الغول، وأم الزيبق، مصيبة جديدة..

همس المقدم عباس الأشول في أذنه:

- اسكت، وتمالك نفسك، وانتظر..

قال السلطان وهو يعتدل في جلسته:

ـ من السيدة . .

تقدم القاضي نور الدين إلى أن حاذى ابنته وقال :

ـ إنها ابنتي يامولانا زوجة مقدم دركك السابق حسن رأس الغول ، وأم مقدم الدرك القادم على الزيبق الذى وعدته بالمقدمية إن أحضر النفيلة ، وأعطيته منديل الأمان .

واندفع السلطان دون تفكير قائلا :

ـ مرحبا بالسيدة الجليلة ، وما شكايتك ، نحن عند وعدنا

قالت فاطمة :

ـ بل لقد نقضتم الوعد يامولاى حين هاجم رجال دركك داري بعد منتصف الليل بحثاً عن ابني الذى أعطيته في هذا الديوان ، وأمام كل من فيه ، منديل الأمان . .

وارتج على السلطان فالتفت إلى المقدم صلاح الكلبي محرجا ، وقال :

ـ كيف حدث هذا دون علمي يامقدم صلاح . .

شحب وجه المقدم صلاح الكلبي ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

لم يكن هناك وقت لأستئذنكم يامولاى السلطان ، كان لابد من البحث عن هذا السارق الذى أقلق المدينة كلها أمس . . .

قال فاطمة في غضب :

ـ تعني أنك تشك في على ؟

ضحك المقدم صلاح الكلبي ضحكة صفراء ، وقال :

ـ كل لص معرض للشك .

صاحت فاطمة فى غضب متزايد:

ـ ليس على لصا يامقدم، ومنديل الأمان من السلطان يعنى أنه عفا عنه.

استمر صلاح الكلبى فى لهجته المستفزة قائلا:

ـ اللص، لص، أعطى منديل الأمان أم لم يعط.

قالت فاطمة بنفس اللهجة:

ـ أو غدا مقدما للدرك أم لم يغد... أليس كذلك يامقدم صلاح..

قال السلطان منهيا حوارهما الحاد:

ـ هذا يكفى، لقد صدقت السيدة فاطمة لقد أعطينا عليا منديل الأمان، وما كان يجب البحث عنه أو تفتيش داره دون استئذانى. قال صلاح الكلبى وهو ينظر إلى فاطمة نظرات نارية:

ـ هذه ضرورة الأمن يامولاى

وهنا ثارت ضجة بين صفوف أصحاب الحاجيات، فرفع السلطان رأسه ناحيتهم وصاح:

ـ ما هذا؟ ما كل هذه الضجة؟

تقدم الحاجب نحوه وهو يقول:

ـ أصحاب الحاجيات اليوم كلهم من التجار، تجار الأقاليم، وكلهم يروون شكوى واحدة، أن الدرك استوقفهم أمس وفتشهم، ومنعهم من العودة إلى بيوتهم، وهم يريدون عرض

شكاواهم... على مولانا السلطان..

قبل أن يجيبه السلطان أسرع صلاح الكلبى قائلا:

- دواعى الأمن يامولاى، كنا نبحث عن المسروقات..

ضحك القاضى نور الدين وتدخل فى الحديث لأول مرة قائلا:

- ولكن الكل يقول إنه لم يكن هناك مسروقات.

قال صلاح الكلبى فى عناد:

- كنا نبحث عن اللصوص وحاصرنا المدينة حتى لا يهرب واحد منهم..

قالت فاطمة:

- تبحث عن لصوص لا تعرفهم يامقدم صلاح، وتهاجم منزل رجل تعرف أنه قد سافر فى مهمة أنت الذى أرسلته فيها.. كل هذا باسم دواعى الأمن..

وقال القاضى نور الدين:

- مولاى السلطان، لا شيء هناك يبرر ترويع الآمنين، ومهاجمة البيوت بعد منتصف الليل، ومنع العائدين إلى قراهم، وتفتيش المسافرين.

قال المقدم صلاح الكلبى فى عناده:

- أنا أدرى بما يجب فعله لحفظ الأمن..

ضحكت فاطمة فى سخرية وهى تقول:

- تقوض أمن الناس باسم الحفاظ على الأمن... هذا هو

العسف..

قال السلطان في صوت متردد:

ـ الناس لا ذنب لها يامقدم صلاح..

قال المقدم صلاح الكلبي في إصرار:

ـ أنا أعرف ماذا كان هؤلاء اللصوص يريدون، وعم كانوا يبحثون، وهي أشياء لو حصلوا عليها لانكشفت أسرار كبيرة تمس أمن البلاد، وأمن مولاى السلطان..

وتراجعت نظرات السلطان أمام نظرات صلاح الكلبي ذات المعنى، وقال:

ـ لا.. أمن البلاد أهم من كل شيء..

قال فاطمة:

ـ ومنديل الأمان لعلى هل سحبته يامولاى.

أسرع المقدم صلاح الكلبي يقول:

ـ أنت تقولين إنه سافر، غادر البلاد بالفعل، ومادام قد سافر فلن يتعرض له أحد بسوء، ومنديل الأمان كما هو لم يمسه أحد..

قال السلطان:

ـ صدقت يامقدم صلاح... لم يمسسه أحد.

أطرقت فاطمة، وهي تمد يدها إلى كتف أبيها، لتدفعه إلى الخروج معها، وهي تقول:

ـ هذا صلاح ذو حدين يامولاى، فتقويض الأمن باسم الأمن

يضيعه بلا عودة..

قال المقدم صلاح الكلبى فى خبث:

ـ هل تهددين مولاى السلطان

قالت فاطمة وهى تتجه إلى باب الديوان مع أبيها..

ـ حاشا الله أن أفعل ، وإنما هى كلمة أحببت أن أقولها فى حضرته، وليأذن لنا مولاى السلطان... ثم غادرت قاعة الديوان وسط وجوم شامل عم أهل الديوان والعسكر وأصحاب الحاجات ، وألجم لسان السلطان..

- ١٣ -

فى الصحراء

كسر على الزيبق بقية الأغصان الجافة التى كان يحملها معه ورمى بها إلى النيران أمامه، فتوهجت ، وهى تشتعل متكسرة، ودخان باهت يتصاعد منها ودفء يتصاعد إلى جسده المقرور القابع أمام (جورة) النيران عند حنية تل صغير وسط الصحراء الخالية الساكنة الباردة.... ومد يديه المقرورتين تستقطران كل الحرارة المنبعثة من نيرانه الباهتة وهو يتأمل انسحاب الليل فى بطء، وذلك النور الشاحب يبدأ عند الأفق، وهمس لنفسه:

ـ بعد حين قليل ستشويك نيران الشمس

من جديد..

وضحك ضحكة جافة وهو يقول:

ـ قر بارد مخيف طوال الليل، ثم هذه الدقائق المريحة، ثم الحر اللافح اللعين طوال النهار... ترى كيف يمكن للحياة أن تدوم في مثل هذا التقلب بين البرد والحر..

وتلفت حوله كأنما يتوقع أن يسمع جوابا لسؤاله من خلاء الصحراء الممتدة... ثم عاد يضحك وهو يرمي في الإناء أمامه باقي حبات القهوة التي تبقت في جرابه فهو يحتاج إليها ليبدأ رحلة اليوم الجديد، وهز رأسه في أسى، كانت هذه هي آخر حبات القهوة، وكان الماء هو كل ما تبقى لديه، لم يعد يملك إلا جرعات قليلة في اليوم الثالث من أيام رحلته في الصحراء القاحلة. وتذكر تحذير المقدم أحمد الدنف له وهو يودعه:

ـ هذه الرحلة تنتهي في يومين أو ثلاثة، إياك أن تخدعك دروب الصحراء فتبقى فيها حتى اليوم الرابع... وهاهو المحذور قد وقع... هذا هو ثالث الأيام ولايبدو للصحراء من نهاية، لم يخطيء في تنفيذ التعليمات، ولا انتهاج الطريق، ولكن الأيام تمضي والصحراء لاتزال تمتد أمامه..

ورفع بصره إلى نجمة الفجر اللامعة يحدد مكانها في السماء الصافية الداكنة اللون تلوح من بعيد أشباح حمرة شاحبة تريد أن تطل عليها عند الأفق، وحدد وجهته بالنسبة لها، هي هاديته وعليه أن لا ينسى مكانها عندما تفرقها أشعة الشمس وتخفي

بريقها... ومد يده إلى إناء القهوة يمسكه بحذر بين كفيه اللتين ارتاحتا إلى سخونته، ومضى يرشف قهوته في تأن واستمتاع...

بعد قليل يركب ناقته المتعبة، ويأخذ سمته من جديد في اتجاه المدينة المرصودة ، ولم تكن المدينة المرصودة هي بغيته الآن، بل كان هدفه المحدد هو أن يصل إلى الواحة حيث البئر المسماة ببئر النجاة، وابتسم لنفسه وهو يردد اسم البئر (بئر النجاة).. لاشك أن من أسموه بهذا الاسم مروا بمثل ما يمر به الآن من محنة... من يدرى وربما كانت المحنة عليهم أقسى وأمر..

وفرغ من شرب القهوة حتى آخر قطرة في الإناء، ورمى حبات القهوة فوق النار فأحدثت هسيسا خافتا، وانبعث دخان مغبر بينما فاحت في الجو رائحة القهوة المحترقة... وتنهد وهو يجمع حاجياته ويضعها فوق الناقة المنتظرة في صبر، وركزها فقامت به متثاقلة ، ثم حرك مقودها إلى الاتجاه الذى حدده ، ومضت تستقبل رحلة النهار في نشاط وتوثب ... وأدرك على الزيبق سر إصرار المقدم أحمد الدنف أن تكون رحلته بالناقة لا على متن جواد، فالناقة لاشك أقدر، لقد صدق حسن شومان حين قال حين أبدى نفوره من ركوب الناقة: ـ سيأتى عليك وقت في رحلتك هذه تعرف قدر الناقة، وفضلها في مثل هذه الرحلة على أقوى جواد ركبته في حياتك..

وما كان له أن يشك في كلام المقدم حسن شومان... فقد عهده فارسا لا يشق له غبار، وعرف فيه حبه للخيل وعنايته بها، وقد صدق في كلامه... وابتسم على الزيبق لنفسه وهو يذكر هذا الأسبوع الحافل الذى قضاه بين هؤلاء الرجال يتعلم منهم ضروبا جديدة في النزال، وحيلا جديدة في العياقة وفنونا جديدة من الحيل، وعلوما ما كان يعرف عنها شيئا.. لو ترك له الأمر لمد هذا الأسبوع إلى شهور وشهور، فما كان يمر يوم جديد إلا وهو يحس بضآلة ما يعرف وقلة ما يدرك، وصغار ما يتقن... وكان كل يوم يزداد معرفة وعلما، وتتفتح مداركه، ويزداد إتقانه لما يتعلم.. ومر الأسبوع بسرعة غريبة مايكاد يضع رأسه على الوسادة في نهاية كل يوم حتى يروح في نوم عميق لا أحلام فيه ليبدأ اليوم الجديد في إقبال ونشوة... ورغم أهمية كل فترات اليوم الحافلة إلا أن جلسة السمر قبل النوم التى كانوا يتحلقون فيها عند النافورة حول الشيخ زكي البتوكي كانت أهم هذه الفترات عند الزيبق، إذ كان يعرف فيها الكثير عن نشاط أحمد الدنف ورجاله، وعن أسرار ما يجرى في القاهرة ودمشق وبغداد .. كان هذا العالم الرحب بعيدا عنه لا يعرف منه شيئا، عدل الخليفة في بغداد واهتمامه بأمور الرعية وحرصه على تحقيق الأمن لكل مسلم في بقاع ملكه الواسع، ورعايته لحقوق الذميين وحفاظه على أموالهم وكرامتهم وحرياتهم، ربط أجزاء الخلافة بالبريد والطرق المعبدة الآمنة،

الضرب بشدة على أيدى اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون، كل هذا مع الغزو المستمر لبلاد الافرنج، وتأمين الحدود معهم، والتنبيه الدائم لمؤامراتهم ودسائسهم، والقضاء على عدوانهم الذى لا يفتر ولا يهدأ أبدا - فأطماعهم فى بلاد المسلمين شىء فى أعماقهم ، وحقدهم على ثروات الخلافة وازدهارها وتقدمها ينهش قلوبهم. هو شىء مقيم فى أعماقهم ، كان منذ نور الإسلام العالم بوجوده - فكرا وعقيدة وسلوكا وعبادة - ويظل إلى الأبد - هى حرب سجال لا هدنة فيها أبدا - ولا سلام، إلا إذا كان بين الذئب والشاة سلام، أو بين أسد الصحراء والبقرة الوحشية سلام، أو كان بين النسر الجارح وحمامة الأرض المسالمة سلام.

ووقفت الناقة فجأة، فانتبه... كان أمام تل صخرى ناتىء وسط الصحراء، وكان لابد له أن يدور حوله ليجوزه - ولكن كان لابد له أن يفعل هذا فى حذر وتؤدة، حتى لا يفقد توجه طريقه فيضل ويضيع وسط الصحراء.. الناقة نبهته بوقفتها المفاجئة، وهو أفاق من تأمله على العقبة التى تواجهه... وأحس بالعرق ينداح على جبهته ، ويغطى عينيه، ويملأ أعطافه كلها... متى حدث هذا وكيف..؟ استغرقته أفكاره حتى نسى أنه على الطريق... وأن الشمس الحارقة تصب قيظها فى رأسه، فتختلط أفكاره وتضطرب وتوهن من عزيمته حتى لا يستطيع أن يتحكم فى مقود ناقته التى وقفت فى عناد رافضة كل محاولاته

لدفعها لاستئناف السير من جديد... كان التل كأنه حائط من صخر، تنعكس أشعة الشمس على صخوره فينبعث منها شواظ كأنها سياط من نيران تلهب الهواء وتجعله ثقيلا قاسيا على الرئتين، وعلى العينين، وعلى جلد الوجه واليدين... وعاد يحث الناقة على الحركة دون جدوى .. فدفعها لتبرك، ونزل عنها، ثم دفعها من جديد، وأمسك بمقودها ، ومضى يسير أمامها وهو يجرها وراءه جرا، وهي ترفض الانسياق لجذبه في عناد... وفجأة سمع الهسيس ... كان الصوت غريبا عليه، ومع هذا فقد عرفه في الحال... كان صوت أفعى الصحراء السامة المخيفة التي يرتعد من ذكر اسمها أعتى الرجال، والتي تقضي عضتها على الرجل في دقائق، وعلى الدابة مهما كبر حجمها في ساعات... ورفع على الزيبق رأسه يبحث عن مصدر الصوت، كان ساكنا في مكانه لا يتحرك، فقط كانت عيناه تجولان باحثة في الصخور التي تواجهه... وفجأة تجمد في مكانه، وسكتت يده التي كانت تشد مقود الناقة... فقد رآها .. كانت منتصبة ترفع عنقها وتهس في فحيح رتيب وهي تحرك رأسها في كل اتجاه، بينما ارتكزت على باقي جسدها المتكوم.. وكان رأسها عند عنق الناقة تماما... وأدرك سر تجمد الناقة في مكانها ، فقد رأت الحية فسكنت في مكانها، وسكنت الحية هي الأخرى في ترقب وحذر. فلما حاول هو أن يحرك الناقة من مكانها استفزت الحية، واعتبرت هذه الحركة العصبية استفزازا

لها فى خورها، ومد على الزيبق يده إلى سيفه، بينما استندت قبضته الثانية على مقود الناقة يبقيها ساكنة فى مكانها.

إلا أن حركته المفاجئة جعلت الناقة تجفل، وتهز رأسها فى عنف كأنما لتتخلص من قبضته على مقودها... وحدثت الحركتان معا فى وقت واحد وفى سرعة مذهلة... انقضت الحية على رأس الناقة فلدغتها القاتلة تحت الأذن تماما، وانقض سيف على الزيبق يطيح برأس الحية ويجعلها كومة من لحم مختلج اختلاجة الموت الأكيد... وأحس على الزيبق رغم حرارة الجو اللافحة بعرق بارد يملأ جبهته وكفيه، وارتجف جسده وهو يرقب الناقة تقفز عدة قفزات وهى تجرى كأنها أصابها العمى، ثم تنطرح على جنبها علي بعد قليل منه... وبقلب مثقل أخذ يتقدم نحوها، وهو يعرف - حتى قبل أن يفحص الثقبين القانيين تحت أذنها، أنها وصلت إلى نهاية الطريق، وانها تحتضر تحت عذاب السم القاتل. وكان جسدها ينتفض ويتقلص وهو يتقدم نحوها، بينما كانت تحدق فيه بعينين متعبتين ضارعتين، فأغمد سيفه فى قرابه، وأخرج خنجره، وهو يعض على ناجذيه فى تعاسة، فلابد له أن يخلصها من عذابها.. ولابد أن يواجه باقى الرحلة وحيدا..

كان ينقل خطواته فى تثاقل وهو يرغم نفسه على السير إرغاما، كان كتفه ينوء بحمل الخرج الثقيل الذى اضطر إلى حمله بعد أن ماتت الناقة هناك خلفه، وخلف هذا التل

الصخرى اللعين، ومسح جبهته ووجهه بطرف ثوبه ليزيل حبات العرق التى يحس وجودها دون أن تكون هناك، فالشمس تجففها فور انعقادها على جبينه ولا يبقى منها إلا مجرد الإحساس بأنه يعرق وسط هذا الوهج، فتمتص أشعة الشمس كل ما فى جسده من ماء، ويزداد إحساسه بالعطش والجفاف... كان قد اضطر إلى ارتقاء التل، ليجتازه دون أن يفقد اتجاهه، أكثر من مرة كاد ينزلق من فوق الصخور الملتهبة، وأكثر من مرة توهم أن هناك ظلة تحت صخرة ناتئة فأوى إليها، وطرده لهيب الصخر من حوله، واستمر فى طريقه حتى اجتاز التل وتركه وراءه، كما ترك وراءه عند جثة ناقته الصريعة كل أمل فى أن يحقق رحلته فى الوقت المفترض لها ... ومضى يرفع قدما ثقيلة ليضعها، ثم يرفع قدما ثقيلة أخرى ليتحرك فى بطء، ولكن فى إصرار... لم يكن يملك إلا أن يستمر فى السير... فلا تراجع هناك، الأمل أن يصل إلى بئر النجاة قبل أن يفقد قدرته على الاستمرار فى الحركة... والصحراء تمتد ولا شيء يلوح فى الأفق، والأشعة المحرقة تنصب عليه من كل اتجاه، وهو يعرق ، وعرقه يتبخر، وهو يعطش وعطشه يبقى...

ينبغى أن يفكر فى شيء آخر يصرفه عن فكرة العطش ، لو ترك نفسه لما يحس لما احتمل، وربما فقد قدرته على التحكم فرقد وسط الرمال المحرقة واستسلم للأشعة الحارقة تذيب جسده، وتخلط عظمه بالرمال ، وارتجف حين طافت بذهنه هذه

الفكرة، ومضى يحاول أن يسرع في سيره، وأن يجر قدميه جرا فوق الرمال... كان لابد له أن يرغم ذهنه أن يعمل، فنجاته في أن يبتعد عن هذا الواقع القاتل إلى أن يجتازه بسلام..

ووسط الضباب المغبش على ذهنه، بدأت تدريجيا صورة الجلسة المسائية المريحة عند النافورة تعود إليه، ومعها أحس بنسمات رقيقة عذبة تهدىء عقله، فابتسم، ليست هناك كقدرة العقل في استدعاء الأشياء - كانت الهمسات رقيقة وهادئة، ووسطها كان صوت الشيخ زكي البتوكي الهادىء يقول:

- معظم أمراض الجسد مركزها أجزاء دقيقة من المخ، فمداواة الجسم وحده لا تكفي، بل يجب أن يداوى العقل أيضا، وأقصد بالعقل مراكز التوجيه في جسم الانسان، وهي مراكز تمتد من الرأس إلى كل جزء من الجسم حتى أصابع الأقدام.

وضحك المقدم حسن شومان وهو يقول:

- نحن في صنعتنا في المصارعة نعرف مراكز حساسة من جسم الإنسان لو ضغطنا عليها بالقدر الكافي شلت من حركته ووعيه ما نريد، ولو ازداد الضغط تعرض العدو للموت..

وقال المقدم عمر العيار:

- لقد فسرت لي سرا كان يحيرني من زمن، فحين كنت أتنكر في زي رجل عجوز، واستمر على هذا التنكر زمنا سرعان ما كنت أحس بالوهن الحقيقي، والضعف الكامل يحل بأجزاء

جسدي حتى لتصبح حركاتي طبيعية وبلا جهد مني في تمثيل دور العجوز الضعيف الواهن، بل هناك شيء، إذ أنني كنت لو تماديت بالتظاهر بمرض معين أو عجز معين، سرعان ما أحس في جسدي بهذا المرض، وسرعان ما يصيبني هذا العجز، بل تظهر على أعراض طبيعية للمرض والعجز لا تحتاج إلى أصباغ أو أدهنة لإحداثها في مواطن ظهورها..

وضحك المقدم شحادي أبو حطب وهو يقول:

كثيرا ما شاهدت رجلا قد خدشته ضربة سيف في ذراعه يظن أن ذراعه قد قطع فلا يقوى على تحريك أصابع كفه ويسقط السيف من يده، وكثيرا مارأيت رجلا يصاب بسهم قاتل وهو لا يحس به ويمضي يقاتل زمنا طويلا قبل أن يسقط عن جواده... قال المقدم أحمد الدنف في تؤدة:

- صدقت يا شيخ زكي، إن جسد الإنسان مرتبط بعقله، وإذا أراد المخ أن يمرض عضوا أمره فمرض، وإذا استطاع إنسان أن يؤثر على مخ آخر فيوحي له بالمرض مرض هذا الإنسان، وقد رأيت هذه الحيلة يلعب بها من يدعون لأنفسهم السحر والكهانة، بل يلعب بها بعض مدعي الطب، إذ يوحون للمريض أنه شفي فيخرج من عندهم سليما معافى، وسرعان مايعاوده المرض بعد حين..

المرض - المرض - يعاوده المرض - العطش - العطش - يعاوده العطش، التعب، التعب، يعاوده التعب... هو متعب،

عطشـان ـ بل هو أيضـا جـوعـان... ويحس بالغثـيـان ، وثقل رأسه، ويتوقف فى مكانه، ثم يرفع عينيه فيغشيهما ضوء الشمس المتوهج، ويجول بهما حوله فتلهبهما شواظ منعكسة من الرمال المتوهجة ، ويحس بالغثيان من جديد... ثم يتنهد فى إصرار، ويعدل خرجه فوق كتفيه، ويدفع قدميه دفعا إلى السير من جديد... فمضى يسير متثاقلا ورأسه يدور، وكلمات متنافرة متباعدة تدور فى رأسه وتدور..

ـ هم يثيرون العشائر فى كل مكان على الخليفة..

ـ وهم يثيرون الفتن بين المسلمين والأقباط..

ـ وهم ينشرون الدعوة لبنى أمية..

ـ وهم ينشرون الدعوة للشيعة

واعتدلت رأسه على صوت المقدم أحمد الدنف القوى يقول:

ـ أموال كثيرة تبذل فى هذا المجال، وليست المسائل محض صدف، أو مجرد دعوات تخرج ممن يعتقدون بصحتها... نحن أمام مؤامرة ضخمة تبذل فيها أموال ، وتخطط لها عقول..

ويقول الشيخ زكى البتوكى بصوته الهادىء وهو يتنهد:

ـ حكاية قديمة ومعادة... لقد شهدتها قبل هذا وقضى عليها فى مهدها ، وأشهدها الآن وستنتهى بإذن الله كما انتهت سابقاتها، وسأشهدها من جديد... فمادام فى الإنسان حب الظهور، وشهوة المال الرخيص الذى لم يبذل فيه عرق أو جهد، وضيق الأفق الذى لا يجعله ينظر إلا إلى مصلحته الآن،

ومصلحته وحده، فستظهر هذه الدعوات، وتستهوى السذج وضعاف النفوس، والباحثين عن دور يؤدونه في الحياة، والأغبياء، ومن ملأ الجشع قلوبهم فأنساهم مصلحة الأمة، وأمن الناس، ومسئولية الغد.

جاء صوت شحادى أبو حطب يقول في حدة:

- الخطابات التي عثرنا عليها وشت بوجود تنظيم له فروعه ونظامه، فليست المسألة مسألة تحزب لفئة أو تشيع لجموعة. وليست المسألة دينا إسلاميا أو قبطيا، المسألة سياسة من أولها إلى آخرها..

- سياسة، سياسة، المسألة... المسألة، من أولها إلى آخرها، آخرها.. آخرها.

وتوقف الاهتزاز ليسمع صوت حسن شومان وقد غلظ صوته وتضخم:

- صلات بعشائر في الصعيد، وأخرى في الوجه البحرى... وصلات بعشائر في الواحات الغربية، وأخرى مع بدو سيناء وأسر وقبائل، وتجمعات من شباب ومن شيوخ..

جاء صوت الشيخ زكى البتوكى بطيئا متثاقلا متقطعا يقول:

- هذه مؤامرة يلعب فيها الافرنج الدور الخفى، تعمقوا في الأمر ستجدون أصابعهم تلعب في الخفاء، فلهم عملاؤهم وجواسيسهم وعيونهم.

وقال المقدم أحمد الدنف وصوته أكثر بطئا وتثاقلا وتقطعا:

ـ يقولون للقبط سيهدم الخليفة كنائسهم ، ويبطل صلواتكم .. ويقولون للمسلمين، الخليفة يسمح في مقر الخلافة بالمجون ويسمع أشعار أبي نواس ، ويترك شعر عمر بن أبي ربيعة وبشارا يتداول بين الناس، إنهم يشربون الخمر ، لا مفر من الانفصال عن الخلافة، والبدء هنا في مصر من جديد... نبدأ المجتمع الإسلامي الصحيح بعيدا عن الخلافة، نستقل ونتعبد ، ننفصل ونتهجد، ونتحنف..

وكان صوت المقدم شحادى أبو حطب أبطأ من كل ما سمع من أصوات، وأشد تثاقلا وتقطباً، وهو يقول:

ـ وحين تنفصل الأقطار عن الخلافة وتتفرق، يسهل على الافرنج ابتلاع كل قطر على حدة، ونصبح كلنا كمن ضل طريقه في الصحراء..

ـ ضل .. ضل .. ضل في الصحراء .. طريقه.. أين طريقه .. ضل .. لقد ضل... نعم ضل طريقه في الصحراء.. وهو عطشان، لسانه تضخم في فمه من الجفاف والظمأ... كلنا ضل .. لا أنا وحدى ضل... ضل وتاه... تاه...

ومد يديه وبسط ساعديه، وأطبق بكفيه فامتلأتا بالرمال الساخنة، وأدرك أنه سقط فوق وجهه، وأنه لم يعد يسير.. وأحس بالتعب ينتشر في كل أجزاء جسده، وود لو نام... دقائق فقط يسترد فيها قدرته على السير.. ينام... مجرد لحظات... أمامه من بعيد وسط غبش من ضياء، وريح مترية

وقفت أمه تحمل له آنية الماء، يعرف أن هذا الماء بارد وأنه ممزوج بماء الورد ... وضعت هذه الآنية الفخارية فى آخر الشرفة، فى ملتقى ناحيتين يتخللهما الهواء الذى يهب فى ساعات (العصارى) رقيقا حانيا... وعند أذان المغرب فى رمضان، وبعد يوم من الصيام فى صيف خانق ينزل الماء فى حلقه زلالا عذبا شهيا، يتفتح له كل جسده، وتهدأ أنفاسه، ويترطب حلقه... هى تقف هناك رافعة الإناء الفخارى بين يديها، والغبش يحيط بها، إنه الغروب، و أذن المؤذنون لصلاة المغرب ونهار الصيام انقضى... والصبية يتصايحون منفضين من أمام أبواب المساجد حيث تحلقوا من قبل المغرب بكثير، يعلنون إنهاء الصيام، وأن الطعام مباح، وأن الشراب مباح، وأن الماء مباح... موجود، معطر بماء الورد، عذب، زلال... وسيشرب ويشرب، ويشرب، ويشرب...، وهب من جلسته، رقدته، سقطته... أمامه كانت أمه تميل الإناء الفخارى فينزل منه الماء إلى الرمال، ويغمر الرمال، ويستمر سقوط الماء، والرمال تتحول إلى ماء، إلى بقعة من ماء إلى بحيرة من ماء... وهب صارخا وهو يجرى نحوها ضاربا الهواء بذراعيه، سيشرب، سيشرب، وكانت تبتسم، ولكنه حين اقترب منها، تحول وجهها وتغير... إنها دليلة المحتالة تضحك ساخرة وهى ترفع الجرة بين يديها وتميلها، وتنزل الجرة رمالا ناعمة تنصب فوق الماء فتتحول المياه إلى رمال، بحر من رمال يطبق عليه... وكف

عن الجرى ، واختفت دليلة . . .ورفع رأسه ، كان مايزال فى مكانه راقدا فوق الأرض ، وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب ، وبدا ريح بارد يزحف نحو جسده المنهوك فيرجفه ، واعتدل ، وجلس . . . وعاد يحدق أمامه من جديد . . ليس إلا الرمال وقرص الشمس يحترق نحو الأرض التى ابتلعت منه جزءا عند الأفق ، وهو يغوص تدريجيا وفى بطء حزين . . وأنعشه الهواء البارد تحامل واقفا ، ورفع الخرج الذى وقع إلى جواره على الأرض ، ومضى يسويه على كتفه فى عناية واهتمام . . وابتسم لنفسه فى مرارة ، هذا الذى مر به كان جنونا أو قريبا من الجنون . . . وجاءت إلى ذهنه أحاديث طويلة سمعها من شحادى أبو حطب عن مخاطر الصحراء ومخاوفها ، وأن أخطر ما يصيب الإنسان من الحر والعطش والإجهاد والوحدة هو التخيلات ، وأشباح لا وجود لها ، وماء حيث لا ماء - أسماه السراب ، والشيء الخادع الذى يدفع الإنسان نحو الأمل الكاذب والموت أو إلى الجنون الأكيد . . . ونظر إلى قرص الشمس المودع ، وضم ملابسه إلى جسده ، وهو يحسب لليل فضله أن أزاح عنه الوهج المحرق ، ولكنه كان يعرف من تجربة ليلتين سابقتين أن أمامه تجربة مريرة مع البرد القارص . . . فى هاتين الليلتين كانت معه حصيلة من الحطب كفلت نارها له الدفء والأمان . . . أما الليلة ، فهو سيواجهها بلا نار . . . ووثبت إلى رأسه فكرة . . . لماذا لا يقضى هذه الليلة سائرا ،

فالسير سيدفئه، وإغفاءته من لحظات جددت نشاطه... وهب واقفا وحمل خرجه، ونظر إلى السماء يهتدى بنجومها واستأنف السير في سرعة، وقد تجدد أمله في الوصول إلى غايته...

في ليلة مثل هذه خرجوا جميعا بعد أن ودعوا الشيخ زكى البتوكى، وكل واحد منهم يحمل خرجه فوق كتفيه، ومضوا كالأشباح الصامتة يعبرون أزقة ودروبا إلى أن وصلوا إلى حافة النيل، وهناك تسللوا إلى مركب شراعى كبير، وما أن دخل آخرهم جوف المركب، حتى رفع الريس مراسيها وفرد أشرعتها وأبحر بها نحو الصعيد، وحين اختفت أنوار مصابيح القاهرة والمركب يدفعها الريح في سرعة قال حسن شومان:

ـ أتظن صلاح الكلبى مازال يفرض الحصار حول مخارج القاهرة؟ ضحك المقدم أحمد الدنف وقال:

ـ كل مخارجها نحو الشمال محروسة، أما نحن فينتظرنا إخوان لنا عند بني سويف، وهناك نفترق.

وكان يسير وكأنه مازال فوق مركب تتحرك منسابة على سطح النيل، وكل شيء مظلم إلا من نجيمات في السماء تهديهم إلى الطريق كما تهديه الآن، والجو مشبع بالرطوبة، وهو يرتجف، وصور عديدة من حياته تقفز إلى رأسه في اضطراب وقلق، ويريد أن يمسك أى صورة من الطريق ليحتفظ بها معه، وكلها تنفلت لتحل محلها صورة أخرى... فقط هو

يذكر أنهم تركوا المركب عند مدينة صغيرة مظلمة، وعند المرسى كان فى انتظارهم شيخ وقور صحبهم إلى داره حيث قضوا الليل، وفى الفجر صحبهم إلى زاوية صغيرة حيث صلوا الفجر، وتودع كل منهم من الآخر، وقال المقدم أحمد الدنف :

ـ من هنا تبدأ رحلتك ياعلى مع المقدم عمر العيار حتى حافة العمار فيتركك لمهمته فى الصعيد الأوسط، أما حسن شومان فيعود إلى المركب ليواصل رحلته إلى الصعيد الأعلى، ويركب المقدم شحادى أبو حطب إلى الفيوم ومنها إلى الدلتا، أما أنا فأعود شرقا إلى السويس، ثم أترك مصر إلى بغداد... وسنعرف كيف نلتقى ومتى..

وامتطى هجينه ومضى دون كلمة أخرى، وكذلك فعل المقدم شحادى أبو حطب، بينما ركب هو جمله ومعه المقدم عمر العيار، تاركين المقدم حسن شومان مع الشيخ الوقور عند حافة الزاوية الصغيرة.. وتحدث عمر العيار كثيرا، وعبرا ترعا، وأكلا إلى جوار شجيرات، وناما فى مسجد ، ومر يومان ، وذات فجر، ودعه عمر العيار، وتركه وحيدا يواجه الصحراء، والليل ينسحب من سماء صافية، وشبح قرص الشمس يلوح من بعيد وهو يوجه مقود ناقته نحوه، ويسرع فى فرحة الانطلاق إلى عالم جديد .. وقرص الشمس يصعد فى بطء، وهو يتجه نحوه، ولكنه لا يركب ناقته، وهو يسير ، ناقته قتلها الثعبان، وقرص الشمس أمامه... أهو سراب جديد.. لا،

ليس سرابا، هى شجيرات بالفعل تلوح أمامه، والليل انقضى، وهذا فجر يوم جديد... وأسرع يجرى نحو الشجيرات وقد نسى كل عناء... لقد وصل، لقد نجا .. إنه بئر النجاة، وهذه الشجيرات تنمو حوله، فهذا الفجر، لاح الأمل، ومدت الشجيرات الخضرة أفرعها نحوه تدعوه نحو بئر النجاة..

-١٤-

بئر النجاة

لمح على الزيبق فوهة البئر تحت شجرة عالية من الشجيرات التى أحاطت به. فأسرع يرمى بخرجه على الأرض، واندفع نحو البئر. وعند فوهته وجد حبلا طويلا، ولكنه لم يجد دلوا ولا جرة... واحتار ماذا يفعل... وأخذ يبحث خلف الشجيرات وحول البئر عن الدلو الذى كان مربوطا فى نهاية الحبل ولاشك، ولكن لم يجد شيئا، وازداد إحساسه بالعطش، كما زاد إحساسه بالضيق... وفكر أن يربط شاله بطرف الحبل وأن يدليه فى ماء البئر ليبتل فيرطب حلقه الجاف وشفتيه

المتشقـقـتين... ونزع الشال من فـوق رأسـه وبسطـه، وربطه فى طرف الحبل، ثـم أخذ يدليـه فى البئـر فى رفق، وكـان يميل فـوق فوهة البئر متتبعا حركة الشال فى هبوطه التدريجى، حين اهتز الماء الساكن لملامسة طرف الشال له، ثم سكن اهتزازه تـدرجيا، وأمام عينى على الزيبق لاح وجهـان يطلان عليـه من مـاء البئـر الذى يرتج فـى بطء، حـتـى سكن الارتجـاج، فـاتضـح الوجـهـان، وأدرك على الزيبق أنه يرى انعكاس صـورة وجـهين يرقـبـانه من أعلى الشـجـرة خلفـه. وعـاد يدلى طـرف الشـال حتـى مس وجه الماء من جديد، فاهتـز وتذبذب الماء واختفى الوجهان ليعودا إلى الظهور من جديد عندما عاد الماء إلى سكونه وقد وضحت حول الوجهين أوراق الشجرة وغـصـونها... ولم يعد عند الزيبق شك فى حقيقة ما يرى.. فتظاهر بالاندماج فى إنزال الحبل، ومد يده اليسرى إلى نطاقه فأخرج ضد البنج وهو من الأشياء التى زوده بهـا الشـيـخ زكى البـتـوكى فـأخذه، ثم أخـرج (تعـفـيـرة) بنج، ووضـعـهـا فى سـهم نـفط، وأشـعل سـهـم النفط وهو يرمـيـه تحت الشـجـرة... وعـاد ينظر إلى سطح مـاء البئـر فوجـد الوجـهين مكانهـمـا ينظران إليـه دون أن يبـدوا أنهـمـا أحـسـا بما فـعل... وتأمل على الزيبق جـيـدا فى الوجـهين، فلم يتـعـرف على أصـحـابهـمـا، فتـأكـد لديه إحـسـاسـه الفطرى الأول أنهـمـا من الأعداء وتأكـد لديه أنهـمـا سبـقـاه إلى بئر النجاة بتوجـيـه ممن يعـرف أنه لابـد أن يمر من هنا، وأنهـمـا قطعـا الدلو من الحـبل

وكمنا فوق الشجرة حتى إذا ما اضطر تحت ضغط العطش والإجهاد أن ينزل إلى البئر ليشرب من مائها، انقضا عليه وهو عاجز عن الحركة وقتلاه ـ ولمح الوجهين يتحركان حركة عصبية وقد أحسا بالخطر ولكن بعد أن فات أوان تداركه، وابتسم الزيبق وهو يرى الوجهين يختلجان في عنف، ويحاول صاحباهما الحركة، ولكنهما يعجزان عنها، فيهمد الجسمان ويستترا الوجهان في جمود الغيبوبة، وعرف أن البنج قد فعل فيهما فعله الأكيد .. ورفع رأسه من فوهة البئر، ونظر إلى أعلى، وأحس برأسه يدور، فاستند بيديه إلى حافة البئر وانتظر لحظات حتى عادت رأسه إلى اتزانها... لا يدرى أهو فعل ضد البنج الذى أخذه قبل إطلاق سهم النفط، أم هو طول إطراقته عند حافة البئر، أم هو العطش والتعب والجوع... وحين استقر كل شيء حوله تحرك فى حذر نحو الشجرة ونظر إلى جذعها الضخم وغصونها العديدة المتشابكة، وتعجب من قدرة الله، أن تنمو مثل هذه الشجرة وسط كل هذه الرمال القاسية، ولكنه الماء... وعاد يحس بالعطش من جديد... ولكنه كبت هذا الإحساس، وتغلب عليه، فأمامه الآن صاحبا الوجهين... فوق الشجرة... ومضى يرقى الشجرة حيث وجد الرجلين وقد فقدا الوعى، يستلقى كل منهما على وجهه فى همود، فمضى يحملهما واحدا إثر الآخر وينزل بهما من فوق الشجرة إلى الأرض، ولمح الدلو مختفيا وسط أغصان الشجرة، فمضى

يرقاها مرة أخرى ليعود به إلى البئر... وفى لهفة أخذ يعقد الحبل على يد الدلو وقد ملأ العرق يده، وتضخمت أصابعه حتى أصبح لا يحس بأطرافها وهى تعبث بالحبل، وتتعثر فى الإمساك به، وربط عقدة على يد الدلو، ومضى يمسح كفيه فى ردائه، ويمسح بشاله المبتل على وجهه الملتهب، ثم أتم ربط يد الدلو ودلاه فى البئر..

وسمع صوت اصطدامه بالماء فامتلأت نفسه نشوة، والدلو يمتلىء بالماء ويعود به إلى حافة البئر، رطبا عذبا... ومد كفيه يملأهما من الماء ومضى يرشف فى بطء وأناة... وهو يمنع نفسه الاندفاع فى عب الماء دون حذر... ثم مضى يغسل وجهه ورأسه ويديه، وهو يحس بالانتعاش التدريجى، ثم مضى يشرب مرة أخرى فى هدوء وأناة... وكان يهمس لنفسه:

ـ ماء النيل رائع وعذب، ولكن هذا الماء أعذب ما ذقت فى حياتى ..إنه ماء الحياة..

وعاد يملأ الدلو من جديد ليغسل ملابسه التى امتلأت بالرمال، ويغسل شعره ورأسه وجسده كله، وكلما خلا الدلو عاد فملأه من جديد، وقد تملكه إحساس بأنه يولد من جديد، وأنه طفل يلعب فى الماء وليس يعنيه من الدنيا شىء، فلا هم يشغله إلا هم الإحساس بالعودة إلى الحياة..

وانتهى من عبثه على خاطر وثب إلى ذهنه، فهؤلاء الرجال جاءوا على رواحل، فأين هى هذه الرواحل، لو عثر عليها لوفر

على نفسه عناء رحلة شبيهة برحلة الأمس... هما رجلان، تكفيه راحلة واحدة لركوبها أما الثانية... فهو جائع، وهى تكفى لتسد جوعه الآن، وتكفل له الطعام باقى الرحلة... وأسرع يرتدى ثيابه، ويتقلد سلاحه، ويجوس خلال الأكمة بحثا عن الناقتين، كانت الأشجار كثيرة ومتباعدة ، وكانت طويلة فارعة، ولكن أغصانها كانت خالية من الثمار ، فلم يكن الموسم موسم ثمارها. إلا أن الطيور كانت تفزع من حركته، فتغادر أغصان الأشجار التى يقترب منها هاربة... وخشى أن تكون الناقتان غير محكمتى الوثاق، فتجفلا من حركته ويجد نفسه بلا راحلة من جديد، فأخذ يتحرك فى بطء وروية، وهو ينتقل من جذع شجرة إلى جذع شجرة فى حذر، ثم يكمن مكانه فى سكون وهو يجيل عينيه حوله فى سرعة، وكتم أنفاسه حين لمح حركة سريعة بطرف عينه، واعتدل فى بطء وهو يركز بصره حيث لمح هذه الحركة وقد غزت كل أعصابه، وتهيأ جسده للفعل السريع.. وأمامه لمح الغزال الصغير وقد رفع رأسه عن مجموعة الأعشاب الكثيفة التى كان يرعاها بين شجرتين صغيرتين... وكان الغزال لا ينظر نحوه، إنما كان مشرئبا بعنقه إلى الناحية المضادة وقد بدا مجفلا متوترا قلقا... ولم يشغل على الزيبق نفسه بالذى جعل الغزال يجفل، بل أسرع فى خفة يمسك قوسه، ويخرج سهما من قراب السهام فيهيئه ويصوب فى دقة.. ويطلق السهم فى إحكام...

وقفز الغزال في الهواء، ثم هبط إلى الأرض يختلج واندفع إليه الزيبق وقد استل خنجره ، وما أن وصل إليه حتى لف يدا حول جسده، واجتز عنقه بيده الأخرى، ثم أسرع يبتعد عنه حتى لا تلوث الدماء المتدفقة من العنق المذبوح ثيابه وجسده..

كان علي الزيبق يراقب الجسد الصغير المطروح أمامه والحياة تغادره مندفعة مع الدماء السائلة، وهو موزع بين عاطفتين - عاطفة الرثاء للظبي الصغير، وعاطفة الرغبة المتجددة في الحياة، فالآن سيسد جوعه ، بل وسيحمل معه من الطعام ما يكفيه باقي رحلته... وحمل الظبي بين يديه إلى البئر، وهناك وضعه على الأرض، فالتقت عيناه بجسدى الرجلين المخدرين وابتسم لنفسه في مرارة وهو يدلى الدلو في البئر ليملأه بالماء من جديد، لو لم يلتفت إلى صورة الوجهين على ماء البئر لكان الآن مكان هذا الغزال، مجزور الرأس هامد الجسد، غارقا في دمائه... واقشعر جسده، وكاد الدلو يسقط من يده، فتماسك ووضعه على فوهة البئر، ثم أنزله في بطء إلى الأرض... ومضى نحو الرجلين المجهولين يربط أيديهما وأقدامهما ربطا محكما... ثم أعطاهما ضد البنج... وتركهما لينهمك في سلخ الغزال وتنظيف جوفه، سيمضي وقت طويل حتى يعود كل منهما إلى وعيه، وله معهما بعد هذا حديث طويل... وما أن انتهى من عمله حتى مضى يغسل لحم الغزال بالماء، ثم حفر حفرة وضع فيها كل المخلفات وردمها وسواها، وعاد يغسل يديه

ومـا تلوث من ثيـابه... ونظر إلى الرجلين ، كـانا مـازالا فى غـيبـوبتـهـمـا وإن انتظمت أنفـاسهـمـا مما يشى ببـدء زوال أثر البنج... وتلفت حوله يبحث عن حطب يشعل به نارا يشوى عليها صيده... وكانت الأشجار حوله كبيرة سامقة، ومن بعيد كانت تلوح أشجار صغيرة، وأكمات مليئة بالعشب الجاف، والأغـصـان المتسـاقطة، واتجـه على الزيبق نحـو هذه الشـجـرات وهو يحمل بلطته، ومضى يضرب الأغصان الجافة ويقطعها ثم يكومها إلى جواره، وأحس بالعرق يملأ وجهه، فمسحه بشاله، وغيـر مكانه إلى مكان ظليل، ومـضى يختـار الأغـصـان الجـافـة القـريبـة منه وينظفـهـا بحـد البلطة، ثم يقطعـهـا ويكـومهـا من جـديد، وحين اكـتـفى بما حـصـل عليـه من حطب يسـوى عليـه صـيده ويدفىء ليلتـه التى اعتـزم أن يقـضـيـهـا إلى جـوار البئـر ليعوض سهـر الأمس المتواصل ، حمل الكومة الثـانية، وذهب بهـا إلى حـيـث الكومـة الأولى، ومـضى يربط الكومـتين بحبل ورفع الحمل على كاهله، ومضى به وئيد الخطو نحو البئر..

وحين وصـل على الزيبق إلى البـئـر وهو يحلم بغـذاء طيب ونوم هنىء وقف ذاهلا وقد طارت كل الأحلام من رأسـه.. فلا الظبى المسلوخ فى مكانه، ولا الأسيران المقيدان حيث تركهما .. ورمى بحـمله فـوق الأرض وهو يحـدق أمـامـه فى ذهول... وفـرك عـينيـه بكفيـه كأنما يزيد من قـوة إبـصـارهمـا... ولكن الحقيـقة بقيـت كـما هى، اختـفى الظبى كـمـا اختـفى الرجـلان

المقيـدان... وأحس بالخوف يتسلل إلى قلبه، وامتدت يده بحركة تلقائية إلى سيفه فجرده من قرابه، ووقف شاهرا إياه، وهو يجيل بصره حوله فى حذر وترقب فقد أدرك أنه ليس وحده فهو لم يغب عن البئر مدة كافية لكل هذا ... وتذكر الظبى ووقفته الجفلة ورأسه الذى يتجه فى ترقب إلى الناحية الأخرى... ولعن نفسه لإهماله .. فقد كان فى حركة الظبى هذه الإنذار الكافى له لينتبه لوجود غرباء غيره وغير الرجلين الأسيرين فى المكان. ولكنها لهفته إلى اقتناص الظبى، وجوعه، وتعبه، كلها تضافرت لتجعل تفكيره مشوشا وغير واضح، ولجعل ردود أفعاله لا تتناسب مع ما ينبغى لها من حدة وسرعة، ويقظة حذرة دائما.

وطالت وقفة على الزيبق المتحفزة حتى أحس بالسيف ثقيلا فى يده، فرده إلى قرابه، وقد بدأ يستجمع رباطة جأشه، وسكون نفسه فليس هذا وقت الهلع أو ترك الذعر يذهب نفسه شعاعا وفرقا... وتقدم ناحية المكان الذى كان الظبى فيه يتأمل الأرض حوله فى عناية .. وسرعان ما رأى ما كان يتوقعه، آثار أقدام رجلين حول المكان، أحدهما ثقيل تغوص أقدامه فى الرمال بوضوح، والثانى خفيف تمس أقدامه الرمال مسا دون أن تحفر لهما مكانا عميقا... ثم تقدم ناحية المكان الذى ترك فيه الرجلين المقيدين، وهنا زاد تأكده مما يرى، نفس الآثار لنفس الرجلين، مجموعة من الآثار قادمة نحو المكان، ومجموعة

أخرى تغادر المكان، ومع المجموعتين، آثار حفرتها أعقاب الأسيرين وهما يجران جرا خلف القادمين الجديدين... وبدأت الصورة تتضح أمامه تماما جاء غريبان وهو منهمك في قطع الأحطاب إلى البئر، وحمل أحدهما الظبي المسلوخ، ثم اتجها إلى الأسيرين، وجر كل واحد منهما أسيرا وراءه... وقد غطى صوت البلطة وهي تقطع الحطب على كل ما أحدثاه من أصوات، إن كانا قد أحدثا أصواتا ما، فما يحسب على إلا أنهما كانا على غاية الحذر والحرص... وتمكنا من سرقة غنيمته وأسيريه قبل أن ينتبه إليهما.... بل لعله ساعدهما بتوغله في الأكمة بحثا عن ظل يحتمي به من وطأة الشمس وهو يقطع الحطب... ولكن من هما.؟ وأين اختبآ؟ وهل كانا هنا قبل أن يجيء إلى بئر النجاة لو حدث هذا لكانا من زملاء أسيريه...ولما كان الأسيران يكمنان له وفي نيتهما الغدر به، فهذان الشخصان الجديدان إذن من الأعداء الذين يتربصون به شرا، وعليه أن يحذرهما حتى لايوقعا به... وعاد يتأمل الآثار الواضحة، كانت تتجه مبتعدة عن البئر ومتجهة إلى الأكمة حيث تخفيهما منطقة من الأعشاب الجافة التي برزت وسط الرمال... واتجه على الزيبق نحو هذه المنطقة، وهو يركز كل حواسه فيما يرى، فقد تعلم اقتفاء الأثر من أساتذة لا يجارون، واستطاع أن يتابع المجموعة المتراجعة من خلال تقوس العشب في ناحية أو خروجه من مكانه لاحتكاك كعب أحد الأسيرين

اللذين يجران منه... وكان يسير ويده على مقبض سيفه، وعيناه تنتقلان بين العشب الجاف أمامه، وبين الأشجار التي يمر بها في سيره البطيء، بينما كانت أذناه يقظتين لأى صوت يصدر من أى ناحية حوله... ولهذا فحين جاء صهيل الحصان المفاجيء، سمعه على الزيبق بوضوح رغم أنه كان يصدر من بعيد، ووقف على الزيبق في مكانه جامدا للحظات، ثم انطلق يجرى صوب مصدر الصوت الذى سمعه، وقد نسى كل شيء عن آثار الأقدام أو جر الاسيرين فوق العشب الجاف... وكان يجرى وأذناه مرهفتان عله يسمع صوت الصهيل من جديد، ولكن الذى سمعه بوضوح ومن مسافة أقرب بكثير من المسافة التي صدر منها صوت الصهيل، صوت حصان يجرى خببا، وضاعف الزيبق من سرعته وهو يتتبع هذا الصوت الواضح الأكيد والقريب، وهو يتوقع أن يرى الحصان وراكبه بعد قليل.. ودفعته رغبته في مواجهة هذا العبث الذى يستهدفه هو وحده، إلى الإسراع في جريه، ولكنه سرعان ما لاحظ أن صوت وقع أقدام الحصان تحول إلى جرى سريع، فلما زاد من سرعته أكثر وأخذ يجرى بكل قوته، تحول صوت وقع أقدام الحصان إلى جرى سريع .. ووقف فجأة والعرق يتصبب من كل جزء في جسده، وأنفاسه تتردد في صعوبة في صدره، وتهاوى إلى جذع شجرة متعبا مكدودا، وجلس ... وأحس أن جسده كله ينحط على الأرض تدريجيا وهو ينزلق من استناده إلى جذع الشجرة

حتى يستقر تماما فوق الأرض الصلبة، وفى ذهنه ركض الجواد المسرع يتلاشى من بعيد، حتى ينتهى تماما إلى لا صوت.. فقط أنفاسه اللاهثة تملأ أذنيه، ومعها وجيب قلبه المسرع الخفقان كأنه طبول تدق فى غابة .. والتف ذهنه وتوقف عند هذا المعنى... طبول تدق فى غابة... ترى ماذا يعنى هذا له، إنه شىء مهم لا ينبغى أن يفلته... ينبغى أن يعرفه، ينبغى أن يعيشه، هو يغيب فى تلافيف عقله المكدود المتعب، ولكنه لابد أن يستدعيه، وأن يفهمه... وفجأة استقر كل شىء فى ذهنه وهدأ... وتنهد ، وهو يريح ساقيه إلى الأرض، ويزيح العرق المنداح فوق جبهته.. لقد أدرك الأمر الذى كان يحيره، لقد كان يظن أنه فى واحة معزولة، إذا ما غادر هذه الاشجار المحيطة بالبئر عاد إلى الصحراء من جديد، بينما هو كلما توغل فيها زادت كثافة، وتحولت إلى دغل يزداد فيه عدد الأشجار وترتفع فيه الأعشاب، ويختفى منه كل أثر للرمال أو الصحراء هو فى بداية غابة إذن، وقد انقطعت صلته بكل ما يمت للصحراء منذ لحظة وصوله إلى بئر النجاة... ولابد أن هذا هو السر وراء تسميته بئر النجاة ، فمن هنا لا عناء ولا عطش ولا قيظ، من هنا تبدأ النجاة الحقيقية من أخطار الصحراء ومخاوفها ... ولكنه وحيد، عاد الظمأ يلح عليه، وعاد الجوع يفرض نفسه، لقد نسى متى أكل آخر مرة، وهو جوعان ومتعب، وجوعان والظبى راح، ولا ناقة هناك، ولا شىء إلا الجوع. والشجرات حوله بلا

ثمار... وهو وحيد... أين دفء القاهرة ومائدة العشاء فى بيت أمه، ورائحة البخور تملأ البيت كله، رائحة.. نعم رائحة.. هو يشم رائحة واضحة تتسرب إلى أنفه، ومنها إلى أمعائه لتعيد إحساسه بالجوع.. هو متأكد أنها رائحة شواء... نعم لحم يشوى فوق نار... فرائحة الشواء تختلط برائحة احتراق خشب نعم.. وأعشاب اختلطت بدهن متساقط.. هناك من يشوى لحما فوق نار هادئة... هذا أمر لاشك فيه... واستند إلى جذع الشجرة وهو يقف متثاقلا بطيئا، وأنفه يتحرك حوله حتى حدد مصدر الرائحة التى تثير جوعه، وتكاد تدفع الجنون إلى عقله ووعيه... ومضى يسير فجأة يتبع أنفه، والرائحة، رائحة الشواء التى استهوته... كان يسير مترنحا من ساق شجرة إلى ساق شجرة، يكاد يقع، ليستند إلى جذع متاح، ثم يستمر فى سيره، وهو يقع فيصطدم جسده بأغصان جافة ميتة، وبقايا أعشاب جافة، ورمل وطين، وهو يسير، ويسير... أهو سراب ما يقصده... فى الصحراء عرف سراب العطش، وبشاعته وكذبه، هل هو فى الغابة، سيعرف سراب الجوع، وهل سيكون بشعا وأكذوبة... وسار وتحامل ووقع، ثم سار، كان يسير حيث يهديه أنفه، لم يعد من فائدة أن يبحث عن آثار الأقدام فوق عشب جاف ميت، كل شىء تركز فى الرائحة، هو يسير نحوها، وقد اختلطت أمامه الأشياء وهو جائع، وحيث يسير سيصل إلى حيث يأكل اللحم المشوى فوق أغصان جافة

تحترق... هناك الأمان والشبع، وهناك سيشرب من ماء بئر النجاة، ويأكل من هذا الشواء... وينام ..وينام... كلا ليس هنا، فلو نام هنا لمات لابد أن يسير، ويسير نحو الرائحة، فهناك النجاة، والشبع، و،الري. والنوم. والراحة وهناك الأمان.. ووقع، وقاوم رغبته في النوم، وقام، ومضى مرة أخرى يسير، وأمامه لاحت الباحة أمام البئر... نار موقدة، وفوقها الظبي يدور حول عصا، يشوى في هدوء، وقد قارب لحمه على النضج ..وأمامه رؤى مختلطة منبعثة عند حافة النار، الأسيران مقيدان، ملقيان إلى جوار حافة البئر كما تركهما منذ زمن طويل... والسكون يعم الكون كله حوله، وهو يتقدم متعثرا نحو الماء والطعام، والأمان.. ولكن صوتا داخليا فيه كان يصيح بالتحذير بأن ينتبه، بأن ما أمامه فخ، بأنه نسى كل الحذر لحظة ترك لمعدته أن تسوقه إلى حتفه... ووقف مترنحا مترددا، ثم مد يده إلى مقبض سيفه، وهو يترنح متقدما ومتعثرا في آن واحد... ثم جرد جزءا من السيف في محاولة بائسة، ولكن السيف ثقيل، ولكنه لابد أن يتأهب، وجر جزءا آخر من السيف، وهو يتقدم ويتعثر، وجرد السيف كله... لم يكن يعرف أن السيف ثقيل ثقيل، وسقط السيف من يده، وهو يرى حول النار شخصان انتصبا، أحدهما يمتشق سيفا، والآخر يفوق سهما، وهما ملثمان... وهو لا يستطيع أن يرفع يده الخالية من سيفه، وهو ينزل إلى الأرض، هو يتمدد، غمامة تحيط

بوجوده. وشيء مر يرتفع إلى حلقه، ضعفه هزمه، وأنه جائع، وأنه عطشان. وأنه متعب، وتمدد إلى الأرض وعيون الشخصين تحاصرانه وهو يبتسم في مرارة، هزم نفسه وهزمه ضعفه... وتمدد على الأرض، وراح في غيبوبة عميقة..

- ١٥ -

عد ظافرا

كانت السحابة سوداء كثيفة، وكان يريدها أن تمطر، ولكنها تركزت حول رأسه، لا تتحرك، ومن خلالها تمر الأشعة قائظة لشمس لافحة، تركز كل أشعتها على مخه.. وهو يذوب، ويذوب .. عقله نفسه يذوب، ويده ثقيلة لا تتحرك، وساقه استقرت كجذع نخلة قطعه الحطاب واستقر فوق الأرض فهو لا يتحرك... ولسانه متضخم ملأ فمه كله، فهو لا يستطيع أن يحركه، جفاف مخيف في حلقه وفمه، وهو جائع، جائع، كما لم يجع من قبل. وهو يشعر أن رأسه ثقيلة، لا

يستطيع أن يحركها . . .زينب تلوح له بابتسامتها المشرقة تحمل له الأمل والحياة، وتختفي زينب وتظهر دليلة بابتسامتها البشعة، متشفية قاسية ... وتحرك شفتيها في كلمات لايدركها ولا يعرفها ، ولكنها لاشك كلمات تحمل له اليأس والهزيمة، ويضحك صلاح الكلبي في تشف مقيت ويرفع يده ليرد الضحكة، ولكن كفيه يذوبان . . . لا كف عند آخر ساعده . . . لا شيء . . ساعده ثابت في مكانه، وهو يتلقى ضحكات صلاح الكلبي الساخرة كأنها الصفعات - ولا يدرى من أين يظهر وجه المقدم عثمان. ماله المقدم عثمان؟ ما دوره؟ . . . فقط هو ينظر إليه في إشفاق . . . نعم في إشفاق ورحمة - المقدم عثمان؟ من كان يظن أن عنده القدرة أن تكون في عينيه هذه النظرة الحانية المشفقة . . . كان يريد أن يقول له شيئا، ولكن الغيمة تحط على رأسه، ويضيع ، لا يحس بشيء . . هو مستريح إلى النهاية المقبلة - ويبتسم.

كان هناك شيء بارد عند جبهته، والماء يقطر في فمه، وكان الهواء حوله رطبا، وكان كل شيء عذبا - هادئا . . بلا مرارة ، ولا تعاسة، ولا تعب . .

أراد أن يفتح عينيه، ولم يحس ثقلا، فتح عينيه في راحة، ولاح أمام عينيه ضوء غروب هادىء لا يتعب عينيه، بل يهدهدهما ، ويهدهد وجوده كله - وقال صوت حبيب ملهوف:

- أفق ياعلى . . أفق

ورد صوت آخر أكثر لهفة وحنانا..

-أثقلنا عليك، ولكن انظر ياعلى انظر .. نحن حولك الآن..

ومس الصوت قلبه -هو يعرف هذا الصوت وسط آلاف الأصوات، يحلم أو لا يحلم، هذا صوت أمه... فاطمة.. وهمس:

-أمي..

وسكت .. وعاد الصوت الملهوف:

-ياحبيب أمك، أفق، وأجبنى.

وقال:

-وكأنى أحلم من جديد.

قال الصوت:

-بل أنت صاح يابنى، أنت صاح يابنى... أنت صاح ياعلى..

وهمس وهو يحس الكلمات تتعثر بين شفتيه:

-بل أنا ضعت ياأم، تهت في الصحراء، ثم تهت في الغابة، ثم قتلنى الظمأ والجوع... ثم

وأحس بيد تمس جبهته، تمسها في قوة وحنان وحزم... فسكت بينما عاد الصوت يقول:

-أفق ياعلى

وماء بارد فوق جبهته من جديد، وكل التعاسة تغوص بعيدا:

فهذه أمه، ولم يعن نفسه بأن يسأل، كيف ولماذا؟ هذه أمه وكفى وبللت شفتيه قطرات رقيقة عذبة، ومر الماء فى حنجرته إلى جوفه، وسكت الظمأ، وعاد الصوت يقول:

ـ أنت وسط أصدقاء أحبه... أفق يابنى، وأسمعنى صوتك وقل إنك عدت حيا.

هل يفتح عينيه ليجد أنه لا أم هناك، أم يظل يغلقهما ليسمع هذا الصوت الحنون، الدافىء بالحب والعطاء... ولكن كان يحس أن الحياة تدب فى جسده من جديد، أنه مرتاح.. وأنه مرتو، وأنه يريد الحياة من جديد فتح عينيه ونظر حوله.

فارسان مقنعان أمامه، ولكن لا سيف مشهر، ولا سهم مفوق، فقط ينظران إليه فى اهتمام وعناية... وحول بصره عنهما، الأسيران مقيدان، مكممان على الأرض، والغزال يشوى فى هدوء على نار متوهجة حرى ـ أراد أن يضحك ـ ولكن الضحك وقف فى حلقه، وتحركت أحشاؤه جوعا، ودارت رأسه تعبا وعناء... وقال الصوت:

ـ اجتاز حدود الخطر، وعاد إلى الأمان

فقال فى ضعف:

ـ ولكنكما شبحان، أنتما سراب الغابة، لستما حقيقة..

ومال الفارسان فوقه، ومد كل منهما يده إلى لثامه يرفعه.. وطالعه وجه أمه بابتسامتها الحانية ـ الملهوفة، ووجه عمر العيار المشفق الباسم. وقالت أمه:

ـ لسنا شبحين ياعلى بل نحن حقيقة..

قال على وهو يجيل بصره بينهما:

ـ أحمد بن البنى، وعمر العيار.

ضحك عمر العيار وهو يقول:

ـ صدقت ونحن صحبة قديمة... والآن اشرب هذا الماء حتى أعد لك نصيبك من الشواء ثم ابتسم وعاد يقول:

ـ نصيبك من صيدك..

قال على وهو ينقل بصره من وجه أمه إلى وجه عمر ثم يعود به إلى وجه أمه مرة أخرى:

ـ ولكن لماذا؟

قالت فاطمة فى مرارة وهى تعض شفتها السفلى:

ـ بدأ الأمر كله من أجل سلامتك... وما كنا نظن أن ما بدأ من أجل سلامتك كاد فى النهاية أن يهلك. ومد على يده إلى قدح الماء الذى يحمله عمر العيار فمضى يشرب منه فى بطء، وقد بدأت أنفاسه تنتظم، كما بدأ ذهنه يعود إلى صفائه، وقال عمر العيار:

ـ لقد أدركتنى السيدة فاطمة بعد أن تركتك مباشرة، وقبل أن أذهب إلى المهمة التى حددها لى المقدم أحمد الدنف..

وأكملت فاطمة كلام عمر العيار قائلة:

ـ أكلنى قلبى عليك يابنى منذ أخذ عمر العيار ملابسك، وأخبرنى أنك سترحل فى موعد لا أعرفه. وازداد إحساسى

بالقلق لما أثاره صلاح الكلبي من ذعر في المدينة، ثم جاءني من أكد لي أنك في خطر داهم، وفي هذا المكان بالذات - بئر النجاة. فعرفت أن قلب الأم لا يخطيء إحساسه أبدا..

وغلبها انفعالها، وتندت عيناها بالدموع، فسكتت ، وناول على الزيبق قدح الماء إلى عمر العيار... وهو يقول كأنما ليشغل أمه عن خواطرها التي دفعت الدموع إلى عينيها:

- أين هذا الشواء، فأنا أتضور جوعا.

ضحك عمر العيار، وهو يقول:

- لقد تم نضج غزالك ياعلي، كانت إصابة مباشرة ورائعة رغم تعبك وإجهادك ، ولكنك رام ماهر... سأذهب لأحضر لكل منا نصيبه..

وتمالكت فاطمة نفسها، وجففت عينيها، وهي تقول:

- لو عرفت من الذي أخبرني بالخطر المحدق بك هنا ياعلي، ما صدقتني..

ووثب إلى ذهن علي رؤيته الغامضة في سراب الغابة الذي أفقده وعيه، وهمس دون أن يحس:

- المقدم عثمان..

أجفلت فاطمة، وقالت في دهشة:

- كيف عرفت؟

قال علي وهو يعتدل في جلسته، وقد أحس بالنشاط يدب في جسده:

ـ إنه سراب الغابة يا أم، بدا لى وجهه وفيه تعبير غريب كله حنان، وكله رقة..

أطرقت فاطمة وهى تقول:

ـ بل إنه استشراف الروح... وإلا فقد صدمت حين رأيته يطرق بابى ذات مساء، ويدخل على استحياء ويقول:

لم يكن بينى وبين المقدم حسن رأس الغول عداء، ولا بينى وبينك يامقدم أحمد بن البنى، وما فعله ابنك الزيبق معى ومع صلاح الكلبى نحن نستحقه... ولكنه لا يستحق أبدا النهاية التى تدبر له .. وقد جئت لأحذرك، ولكنى لا أستطيع أن أخون مقدمى ـ فقط التفتى لابنك فهو فى خطر ـ والتفتى له عند بئر النجاة، وهذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لك ـ وصمت، وحاولت أن أعرف منه تفاصيل هذا التحذير عبثا، التزم الصمت، ثم مضى... ومن ساعتها وأنا لا أستطيع أن آكل أو أنام أو أعيش... فلبست زى أحمد ابن البنى، وتبعتك إلى بئر النجاة، وعند حافة الصحراء التقيت بالمقدم عمر العيار..

وقطع عليهما الحديث صوت المقدم عمر العيار وهو يقول:

ـ هذا الشواء سيعيد إليك ما ذهب من قواك... فاعتدل فى جلستك وخذ الصحن فى يدك..

وتناهت إلى أنفه رائحة الشواء، فأحس بالجوع الشديد، ومد يده يتناول الطعام الساخن، ويدفع قطع اللحم إلى فمه وهو لا يبالى بسخونتها التى كانت تلسع شفتيه ولسانه...

وضحكت فاطمة وهى ترى لهفته على الطعام، وقالت:

ـ للكلام أوان، وللطعام أوان... أين نصيبى يامقدم عمر...

وناولها المقدم عمر العيار طبقا مليئا باللحم المشوى، فأخذت تلتهم قطع اللحم الساخنة وكأنما تقلد ابنها فى لهفته على الطعام، وأقعى عمر العيار إلى جوارهما وهو يأكل من صحن فى يده فى تأن وتؤدة، وقال:

ـ بعد أن تكسرا حدة الجوع، عودا إلى التأنى فى الطعام، فالأكل بهذه الطريقة سيؤدى بكما إلى المرض، وسأجد نفسى أمام مشكلة العناية بمحمومين... وليس هناك وقت لكل هذا الترف... قالت فاطمة وهى تبتلع ما فى فمها، وتتنهد وتبعد الصحن عنها قليلا:

ـ صدقت يامقدم عمر... ولكنى حين شاهدت الطريقة التى يأكل بها على، أحسست بجوع ولهفة على الطعام، قال على وفمه مملوء بالطعام..

ـ لم أذق طعاما منذ يومين، ورائحة الشواء هذه تثير كل كوامن الجوع، وكل ما فعلتموه بى زادنى جوعا على جوع.

قال المقدم عمر العيار:

ـ لم نقصد بك سوءا ياعلى، وأنت تعرف هذا، لقد اقتحمنا الصحراء وراءك ونحن نعرف أنك مستهدف لخطر عظيم... وحين أوصلتنا آثار راحلتك إلى حيث ارتمت مسمومة مذبوحة... وإلى جوارها جسد الحية مقطوع الرأس تأكد لنا أن

الأخطار التى تتعرض لها أكثر مما قدرنا... فحثثنا الخطى وراءك عسى أن نوفر السير فى الصحراء المهلكة، ولكنك كنت تسبقنا بزمن ، فلم نلحق بك إلا وأنت على بئر النجاة تربط شالك بحبل البئر بحثا عن قطرات ماء تأتيك بها بلل الشال...

تنهد على الزيبق، وهو يستأنف طعامه فى تأن وهدوء، وقال:

- كنت أرى وجهيهما فى ماء البئر.

قالت فاطمة:

- ونحن وجدنا راحلتيهما ، فأخفيناهما وراء الدغل، ثم عدنا إليك فوجدناك قد أسرتهما بعد أن بنجتهما.

ضحك المقدم عمر العيار، وهو يقول:

خدعة سهم النفط هذه هى بداية استفادتك من دروسك الجديدة..

وقالت فاطمة:

- وانتهزنا فرصة اشتغالك بالحطب لنأخذ الأسيرين والغزال بعيدا حتى تحاول أن تتعقبنا فتبعد عن هذه المنطقة التى رأينا أنها مركز خطر يتهددك.... ليسهل لأحدنا أن يفتشها جيدا ويتأكد من أن أسيريك جاءا وحدهما.. بينما يحاول الثانى إبعادك أطول مسافة ممكنة باستعمال حيلة الفرس..

قال على الزيبق فى مرارة:

ـ كاد يبعدنى عن الحياة نفسها..

قال المقدم عمر العيار:

ـ ما كنا نقدر أنك وصلت إلى هذه المرحلة من التعب والإجهاد.

وعاد يأكل في صمت، بينما استأنفت فاطمة طعامها فى فتور، وضحك على الزيبق فجأة وهو يضع صحنه على الأرض، ويقف محركا عضلات يديه وساقيه، وقال:

ـ كفت الأرض عن الاهتزاز وعرفت رأسى أخيرا مكانها، وأنها فوق كتفى، لا وراءهما ولا أمامهما ولا على أحد جانبيهما... كما كانت تصر نهار أمس بطوله، وليل أمس كله..

قالت فاطمة:

ـ فعل الطعام والشراب فعلهما، ولو أخذت قسطا وافرا من النوم لتمت عودتك إلى حالتك الطبيعية.. بينما قال المقدم عمر العيار:

ـ يعجبنى فيك أنك تأخذ كل المصاعب بضحكة ساخرة، وتعليق ضاحك .. هذا بالفعل يهون الأمور..

قال على الزيبق:

ـ العويل والبكاء لن يصلحا شيئا فسد، أو يعيدا شيئا فقد... قال المقدم عمر:

ـ آن الأوان لنسأل أسيريك عن سر الكمين الذى نصباه

لك... قالت فاطمة:
ـ يحسن أن يتكلما، ولا يبقيا عندهما ما يهمنا معرفته...
واتجه الثلاثة نحو مكان الأسيرين اللذين حدقا فيهم في جمود، وقد اكتسبت ملامحهما تحديا وعنادا واضحين..
وقال علي الزيبق:
ـ مرحبا بالطائرين المهاجرين عبر الصحراء... كيف وقعتما من عشكما الدافيء الأمين فوق الشجرة؟
وظل الرجلان يحدقان فيه في صمت، بينما قال المقدم عمر العيار وهو يعبث بخنجر في يده:
ـ لقد كمنتما لعلي هنا بعد أن أخفيتما دلو البئر، حتى يضطر أن ينزل بحثا عن الماء ويفقد أي قدرة على مواجهتكما .. كانت نية القتل واضحة في تصرفاتكما، ولذا فلا تنتظرا منا أن نظن فيكما حسن النية..
تغير وجه الرجلين، وقال أحدهما في صوت أجش:
ـ هذا مجرد ظن لا دليل عليه..
وقال الآخر:
ـ ولا أحد يأخذ الناس بما يظن أنهم يبيتون عليه النية.. قالت فاطمة في صوت متوتر:
ـ نحن نعرف من أرسلكما.. ولم؟
قال الأول في تحد:
ـ أنت لا تعرفين شيئا، فلم يرسلنا أحد..

قال على الزيبق فى سخرية:

ـ ولم يضعكما أحد فوق الشجرة، فقط تعبتما من الطيران، فاستقر بكما الرحال فوق الأغصان..

نظر إليه الرجلان في جمود، بينما قال المقدم عمر العيار:

ـ لا فائدة من الحديث العاقل أو الحديث الساخر معهما، هذان رجلان عاشا والعنف هو تجارتهما، وهما لهذا لا يفهمان إلا حديث العنف..

شحب وجه الرجلين، وقال الأول:

ـ ماذا تعنى يامقدم؟

هز المقدم عمر العيار الخنجر فى يده، ولوح بحده نحو الجمرات المتوهجة تحت الظبى المشوى، وقال:

ـ هذا الظبى عرف ملمس خنجرى، كما عرف ماذا تفعل النار بالجلد واللحم..

ازداد شحوب وجهى الرجلين، واهتزت شفتا الرجل الثانى وهو يقول:

ـ ليس لدينا ما نخفيه، اسأل ونجيب..

قالت فاطمة:

ـ ألم يرسلكما صلاح الكلبى؟

كان السؤال مفاجئا للاثنين، فنظر كل منهما إلى الآخر، وقال الأول:

ـ لقد طردنا المقدم صلاح الكلبى من القاهرة، وحرم علينا

دخولها..

قال علي الزيبق:

ـ إذن فأنتما تعرفان صلاح الكلبي، فمن أنتما من رجاله؟

قال الثاني:

ـ لقد طردنا من خدمته شر طردة كما قال المقدم حسن ابن الحصري:

قال عمر العيار:

ـ آه، عرفنا الآن أحدكما ، المقدم حسن بن الحصري الفاتك، قاطع الطريق، وعميل صلاح الكلبي في سرقة القوافل، وسلب التجار والمسافرين .

صاح الرجل في بلاهة:

ـ ماذا؟ كيف عرفت كل هذا؟ من أنت ؟

ضحك عمر العيار وهو يقول:

ـ وزميلك عرفته أيضا... وسجله في اللصوصية لا يقل إظلاما عن سجلك..

صاح الثاني في ذهول:

ـ أنا ، ما هذا الكلام؟

قالت فاطمة:

ـ لقد وعدت أن تقول الصدق، وقلت إننا إن سألنا أجبت، والآن نسأل، ولانريد أكاذيب في الإجابة.

هز الرجل رأسه في حيرة وقال:

ـ ألم تسمعى ماقاله، أهو يعرفنى حقا؟

عاد عمر العيار يضحك وهو يقول:

ـ المقدم على بن البيطار إن لم تخنى الذاكرة، صاحب الرحلات الدائمة بين بلادنا وبلاد الافرنج.. والذى اشتكى من جبروته وسطوته التجار هنا وهناك..

قال الرجل:

ـ هذه أكاذيب ووشايات... فلم أكن أبدا فى خدمة الافرنج.... قالت فاطمة:

ـ لماذا اختلفتما مع صلاح الكلبى؟ ولماذا طردكما من خدمته. قبل أن يجيب أحدهما عن سؤالها ، قال المقدم عمر العيار:

ـ من قال إنهما اختلفا معه، أو إنه طردهما من خدمته... هما إلى الآن فى خدمته، ومهمة القضاء على الزيبق عند بئر النجاة هى آخر مهمة كلفهما بها رئيسهما صلاح الكلبى.

قالت فاطمة:

ـ هذا ما أكده لى الرجل الذى زارنى فى الفجر.

قال حسن بن الحصرى:

ـ مهلا ، مهلا ... من هذا الذى زارك عند الفجر؟

ضحكت فاطمة فى سخرية وقالت:

ـ أحد المقدمين أمثالك استيقظ ضميره، ورأى أن قتل إنسان برىء أعطاه السلطان منديل الأمان جريمة.

قال على بن البيطار، وفى صوته رنة صدق:

ـ وكان هذا رأيى منذ البداية، وتأكد هذا الرأى حين رأيت الشاب على الزيبق عرفت أنه ليس الشقى الغليظ الذى صوره لنا المقدم.. أعنى رسول صلاح الكلبى.

قالت فاطمة فى إصرار:

ـ ومع هذا كنت تنوى قتله؟

أشاح على بن البيطار بوجهه، وهو يقول:

ـ لن تصدقينى لو قلت لك الحقيقة، فما الفائدة..

قالت فاطمة:

ـ لست أفهمك يامقدم على... ماذا تريد أن تقول؟

ضحك المقدم عمر العيار، وهو يقول:

ـ هو يعنى أن ضميره استيقظ، ولكن بعد أن تورط فى عفن صلاح الكلبى.

بسرعة قال على بن البيطار:

ـ هذا صحيح... صدقتمونى أم لا... فالمسألة أننى أنفذ الأوامر حقا، ولكنى فى بعض الأحيان أحس بالضيق عند التنفيذ، وبالندم بعده..

قال على متدخلا فى الحديث:

إذن فأنتما لا تنكران أنكما دسيسة صلاح الكلبى؟

قال المقدم حسن بن الحصرى:

ـ ولماذا الإنكار... أنتم تعرفون كل الحقائق بالفعل، والإنكار

لن يجدى، بل سيزيد موقفنا سوءا.

وقال المقدم على بن البيطار وهو يشير برأسه إلى الغزال المشوى:

ـ حتى لو كنتم تريدون قتلنا، ألا نأكل شيئا من هذا الشواء حتى نموت على شبع..

ضحك على الزيبق، وقال:

ـ عرفنا ما نريده منكما، ولست أحبذ أن يعانى أحد من الجوع بعد ما مررت به منذ قليل..

قال المقدم عمر العيار وهو يعيد خنجره إلى قرابه:

ـ أنتما مجرد أدوات لا قيمة لها، ولا تهمنا فى شىء..

قال المقدم حسن بن الحصرى وهو يحرك يديه المقيدتين:

ـ وإذن..

قال على:

ـ سأفك قيودكما وتأكلان، ثم تنصرفان بلا عودة، ولو رأيت وجهيكما بعد هذا فلوما أنفسكما..

قالت فاطمة:

ـ وستتركان راحلتيكما معنا فعلى يحتاجهما فى طريق العودة إلى الوادى:

قال على:

ـ ولكن ياأم..

قالت فاطمة:

ـ كفاك ما حدث حتى الآن، لن يطمئن قلبي إلا بعودتك معنا إلى القاهرة..

قال عمر العيار وهو يشهر خنجره ويقترب من الأسيرين:

ـ لقد قرر على أمركما، وحياتكما ملكه فلا ينس أحدكما ذلك، ولكن هيا إلى الطعام.

-١٦-
المدينة المرصودة

كانت الشمس تختفي وراء الأفق، وقد بدأت نسمات الغروب الرطبة تحرك أغصان الأشجار عند بئر النجاة، ووقف علي وأمه وعمر العيار يرقبون الرجلين المبتعدين في سرعة، لايتلفتان خلفهما، وكأنما لايصدقان أنهما نجوا من موت محقق، وتنهدت فاطمة وهي تقول:

- لن يتوقفا قبل أن يصلا إلى الوادي.

ضحك عمر العيار وهو يقول:

- أمرهما لايعنينا الآن، المهم هو أن ينام علي في أمان هذه الليلة ولا يستأنف رحلته إلا في الصباح..

قال على فى دهشة :

ـ سأكمل رحلتى إذن

قالت فاطمة فى حزم :

ـ أنت خرجت فى مهمة ياعلى ولابد لك من إتمامها ، وعندما تستيقظ فى الصباح لن تجدنى ، ولن تجد المقدم عمر العيار، وإنما ستجد فرسا كريما عند حافة البئر .

صاح على فى دهشة :

ـ فرسا ... ولكن الصحراء ؟

ضحك المقدم عمر العيار وهو يقول :

ـ ليس هناك بعد بئر النجاة صحراء، بل بداية الغابات الكثيفة ولذلك سمى المكان باسم بئر النجاة فمن وصل إليه كتبت له السلامة الكاملة ..

قال على :

ـ والمدينة المرصودة فى الغابة ..

قال فاطمة :

ـ المدينة المرصودة على حافة بحيرة ضخمة وسط الغابات ، وجزيرة صندوق التواجيه ليست بعيدة عنها .

قال على :

ـ تعنين أنها جزيرة وسط البحيرة ..؟

قال المقدم عمر العيار :

ـ لقد قطعت أخطر مراحل رحلتك بسلام .. وأحسبك

ستوفق ياعلى..

قالت فاطمة:

- والآن جسدك محتاج إلى كل الراحة، فنم إلى جوار راكية النار هذه وسنترك لك جزءا من الشواء لإفطارك، وأستودعك الله يابنى .. عد ظافرا فلن يرضينى إلا هذا.

ورقد على إلى جوار الركية وهو يريد أن يحتج على تركه وحيدا، ويريد أن يقول لأمه أن تبقى، ويريد أن يظل مستيقظا حتى يعرف ماذا ينتويان... ولكن لم يقدر مدى الإرهاق الذى تحمله جسده، فما أن وضع رأسه على جرابه إلى جوار الجمرات المتوهجة حتى راح فى نوم عميق..

كان شىء ما يأكل ذراعه، وكأن الذراع كله قد غدا مضغة فى فك حيوان مفترس، وعند أنفه تصاعدت روائح لحم محترق... وتحرك، وأحس أنه يرفع يدا ثقيلة، وأنه يحرك قدما أكثر ثقلا... وحاول مرة ومرة ثم استطاع أخيرا أن يفتح عينيه، وطالعته السماء وهى تشرق بالنور الوليد ، ونظر إلى ذراعه فأجفل، كان ذراعه العارى يرقد فوق جمرات النار الملتهبة، وأسرع يرمى بنفسه بعيدا عن راكية النار، وارتجف حين أدرك أن رائحة اللحم المحترق التى كان يشمها فى نومه كانت رائحة لحمه هو... وكان ذراعه قد مسته الجمرات فى أكثر من موضع بدت لعينيه ملتهبة محمرة، وتذكر (حرندان) الأدوية الذى أعطاه له الشيخ زكى البتوكى، فمضى إلى حيث ترك جرابه ،

وأخرج الحرندان، وجعل يبحث في محتوياته حتى عثر على وعاء صغير مكتوب عليه (مرهم الحروق)... وفتح الوعاء، ومضى يدهن مواطن الالتهاب في ذراعه، وسرعان ما أحس بالبرودة تسرى في مكان الالتهاب في ذراعه، وبالألم يزول تدريجيا فأعاد الوعاء إلى مكانه، وهو يبتسم ... في هذا الحرندان أوعية مختلفة تحوى أدوية من كل نوع، تعالج كل مرض، الحروق والجروح، والتسمم، وآلام المعدة، ولدغة الثعبان ولسع الحشرات والهوام. حتى أمراض البرد وأوجاع الرأس، لم يترك الشيخ زكي البتوكي شيئا من علمه وطبه لم يضع له منه ما يكفيه... أعاد الحرندان إلى مكانه في الخرج فاصطدمت يده بحرندان آخر، وأخرج الحرندان إلى مكانه في الخرج فاصطدمت يده بحرندان آخر وأخرج الحرندان ومضى يتأمل مافيه،-زجاجات النفط، تشعل الفتيلة في مقدم الزجاجة فإذا هي جيش كامل يقضى على عشرات من الآخرين. ثم ملاعيب الصين هكذا أسماها الشيخ زكي البتوكي، تخرج أضواء وأصواتا وألوانا، لحظة أن تشعلها.. وابتسم الزيبق، وهو يعيد كل شيء إلى الحرندان

وسمع صهيل جواد، قطع عليه تفكيره - وقام منتصبا يبحث عن مصدر الصهيل... وهناك عند حافة الدغل، وجد جوادا أصيلا، يقف قلقا، يضرب الأرض بحوافره - وأحس منذ اللحظة الأولى بعشق للجواد، وبإشفاق عليه، فلاشك أنه

جـوعـان، فـمـا حـوله من العـشب قـد أكل كله، ولاشك أنه عطشان، ولاشك أن قيده طوال الليل قد ضايقه، وأضجره.. وتقدم من الجواد الذى أجفل لمقدمه، ولكنه همس إليه بكلمات مطمئنة وهو يمد يده بحذر إلى عنقه، ليربت على عرفه، وسيل الهمسات المطمئنة ينثال من فمه... واستكان الجواد إليه وهز رأسه، وهو يتشمم على الزيبق، الذي حله من وثاقه، وأخذ يقوده إلى البئر، وما أن وضع الدلو المملوء أمامه حتى أخذ يشرب في شراهة وظمأ.. وهمس على الزيبق فى أذن الجواد:

ـ لم نخلق أنا ولا أنت لهذا التيه من الرمال، ورحلتنا من الآن ستكون تحت ظلال أشجار الغابة..

وكأنما فهم الجواد حديث الزيبق، فرفع رأسه من دلو الماء لحظات ليصهل ويهز جسده كله، كأنما يؤمن على كلام الزيبق... وفى هدوء حمل عليه السرج، وأعد الجواد وثبت لجامه، ثم وضع عليه خرجه وجرابه وما به من حرندانات، وتلفت حوله فوجد إلى جوار راكية النار بقايا شواء تركتها له أمه وعمر العيار ـ فمضى يأكل على مهل وهو يتأمل الدغل حوله، كان كل شيء ساكنا حوله فى هذه اللحظات الأولى من النهار، وكانت تأتيه من أعماق الدغل أصوات طيور مبكرة، وحيوانات تتحرك فتحرك معها العشب النامى، وتشكل فيما بينها مجموعة من النغمات الرقيقة لمعنى الحياة الآمنة الوديعة، وارتد بصره إلى الصحراء القاحلة تمتد من الناحية الأخرى،

فارتجف وهو يتذكر معاناته المميتة فيها، وعاد يرد بصره إلى الدغل، هنا حياة، وهنا موات، والفيصل بينهما هذا البئر... مجرد نبع ماء... وتنهد وهو ينهى طعامه، ويطوى ما تبقى منه بعناية ويضعه في الخرج، ثم يملأ قربة الماء من ماء البئر، ويشرب كفايته، ثم يقود جواده عبر الباحة التى تحيط بالبئر فإذا ما وصل إلى حافة الدغل امتطاه، وهو يمضى في طريقه على مهل، فهو لايريد أن ينهك الجواد، كما لايريد أن يضل طريقه فيجد نفسه مرة أخرى وسط الصحراء.

مع أشعة نفس الفجر استيقظ رجلان منهكان كانا ينامان فوق كثبان رملية ناعمة، على أصوات وصهيل وضجة.. وهمس حسن بن الحصرى فى أذن زميله:

ـ لا تحدث صوتا، فلم نعد وحدنا في هذه الصحراء اللعينة... اعتدل على بن البيطار فى انبطاحه على الأرض، وحاول أن يجلس فامتد ساعد حسن بن الحصرى يعيده إلى الأرض من جديد، وهو يقول فى صوت هامس كالفحيح:

ـ قلت لا تحدث صوتا، فلسنا فى حالة تسمح لنا أن نلفت إلينا الأنظار...

وزحف على بطنه كالثعبان يتطلع إلى مصدر الصوت الذى كان يزداد اقترابا طول الوقت، وتبعه على بن البيطار حتى حاذاه من جديد وقال فى صوت هامس ملىء بالقلق:

ـ أتحسب أنهم تبعونا، ورجعوا عن الأمان الذى أعطوه

لنا..؟ ضحك حسن بن الحصرى ضحكة خافتة وهو يهمس:

-هذه الأصوات لم تصدر عن فارسين أو ثلاثة، هذه أصوات قافلة كاملة، سارت طول الليل وتريد أن تختار مكانا تلقى فيه رحالها بالنهار لتتجنب وهج الشمس الحارقة في هذه الصحراء.

ساد بين الاثنين صمت طويل، وقد أرهفا آذانهما تتبع حركة القافلة، وقد بدأت تتناهى إليهما أصوات الرجال يتنادون، وأصوات الحيوانات المجهدة من طول السير... وهمس على بن البيطار:

-إنهم لا يتحركون نحونا... بل أحسب أنهم استقروا على مكان يتوقفون فيه..

شدد حسن بن الحصرى قبضته على ساعد على بن البيطار وهو يقول هامسا:

-لا ترفع صوتك، هم هناك بعد هذه الرابية، وهم يقيمون الخيام ويربطون مامعهم من حيوانات... مازال الحظ فى جانبنا، وكنت أظن أننا استنفدنا آخر فرصة حسنة حين وقعنا فى يد الزيبق...

كشر على بن البيطار عن أنيابه، وهو يهمس فى صوت يقطر بالحقد والمرارة:

-خدعة البنج الذي يطير إلى أعلى الشجرة هذه، خدعة جديدة، وراءها سر لانعرفه، ولكنه يعرفه، ولولا هذه الخدعة لتمكنا منه وقتلناه، ونفذنا أوامر المقدم صلاح الكلبى.

ضحك حسن بن الحصرى، وهو يقول:
- لا تخدع نفسك، لقد سمعت من ألاعيب الزيبق ما يجعلنى مشتاقا أن أنازله، ثم جاءت هذه الوقعة، فتأكدت مما سمعت... ولكن وصمت لحظات فى وجوم، وعاد يقول:
- ولكن لابد لى أن أهزمه، وأتفوق عليه..
ضحك على بن البيطار وقال فى مرارة:
- تتحدث عن التفوق، ونحن هنا جوعانان، عطشانان، هدنا التعب، ومازالت الصحراء أمامنا على اتساعها، وإن لم يقض علينا الجوع والظمأ قضت علينا رحلة النهار فى شمس الصحراء القائظة...
قال حسن بن الحصرى، وهو يزيد قبضته انطباقا على ذراع على بن البيطار:
- ألم أقل لك إن الحظ مازال إلى جانبنا..
قال على بن البيطار:
- كيف، ونحن راجلان بلا رواحل، وأمامنا هذه الصحراء القاتلة؟
قال حسن بن الحصرى:
- لم نعد راجلين، ولا جائعين ولا ظامئين... فهذه القافلة ستحل كل مشاكلنا..
ارتفع صوت على بن البيطار رغما عنه وهو يسأل فى حدة:
- أتظن حقا أنهم سيقبلون إعطاءنا الطعام والماء، وراحلتين

لرحلتنا عبر الصحراء.

ضحك حسن بن الحصرى ساخرا وهو يقول:

ـ هل تعتقد أنهم من المجانين ليتخلوا لاثنين لايعرفون عنهما شيئا عن ماء وزاد فى مثل هذه المرحلة من الرحلة.. أو أن يتخلوا عن دابتين قد يكونان الفيصل لهما بين الحياة والموت فى هذه الصحراء المخيفة القاسية؟

صمت على بن البيطار لحظات يفكر فى كلام حسن بن الحصرى ثم قال فى بطء:

ـ إذا كنت تعنى ما فهمته من كلامك... فلن ننتظر دعوة من أحد ترك حسن بن الحصرى ذراع رفيقه، وهو يقول:

ـ هناك لحظات فى حياتك أحس فيها أن لك مخا فى رأسك ومنها هذه اللحظة.

قال ابن البيطار فى تردد:

ـ ولكنها دقائق وتظهر الشمس وتكشف كل تحرك لنا فلا نستطيع أن نتسلل إلى المضارب، أم تريد أن نقود هجوما مباشرا عليهم نحن الاثنان فقط وليس معنا سلاح ولا خيل.

ضحك ابن الحصرى وقال:

ـ سأحسدك لو استمرت هذه الموجة من الذكاء تعتريك طويلا.

قال ابن البيطار فى ضيق:

ـ وما أقوله تقرير لواقع لا يحتاج إلى ذكاء..

قال ابن الحصرى :

ـ تقرير الواقع شيء، والاستفادة منه شيء آخر، وما تقوله معناه أننا إذا أردنا أن نحصل على ما نريد فعلينا أن نتحرك الآن وفي الحال.

نظر إليه على بن البيطار، وقال في تردد :

ـ تعنى أن نهاجمهم الآن

تنهد ابن الحصرى وهو يقول :

ـ بل أعنى أن نتسلل إلى المخيم الآن، وفي غبش الفجر المخيم، وعلينا بسرعة فائقة أن نحصل على راحلتين، وعلى الطعام والشراب في وقت واحد، وأن نختفي كالأشباح مع آخر أشعة الظلام حتى يهزمها الفجر الآن..

وجم ابن البيطار ثم قال هامسا بعد لحظات صمت طويلة :

ـ المغامرة محفوفة بالمهالك، فنحن لا نعرف عددهم، ولا حقيقة قوتهم، ولست أحب أن أتسلل إلى مكان لم أدرسه من قبل ولم أعرف عنه كل كبيرة وصغيرة.

قال حسن بن الحصرى في إصرار :

ـ للضرورات أحكام ياصاحبى..

قال ابن البيطار مترددا :

ـ قد يكون في هذا هلاكنا..

أمن حسن بن الحصرى على حديثه قائلا :

ـ نعم قد يكون هذا وقد يكون فيه نجاتنا، ومثلنا لايعرف

طعما للحياة إلا إذا اقتربت من خطر الموت . .. ماذا قلت ؟

ضحك علي بن البيطار في استهتار ، وقال :

- صدقت ، ليس مثلنا من يتحدث عن الموت ، ونحن الذين نزرعه في طريقنا . . عليك أنت بالماء ،والزاد ، وسأتولى أنا أمر الرواحل . . . قال حسن بن الحصرى :

- ولماذا الرواحل ؟

ضحك علي بن البيطار وقال :

- لا تنس أننى بيطار بن بيطار ، ولى مع الدواب صحبة طويلة . . .

وفى صمت تسلل الرجلان نحو المخيم تحميهما أشعة الفجر المريضة ، وتحكم حركاتهما خبرة طويلة فى عالم اللصوصية ، ومهاجمة القوافل الآمنة .

أحس على الزيبق بالنشاط يدب فى أعطاف الحصان فجأة ، وأنه بدأ يسرع فى مشيته وهو يرفع رأسه يتشمم الهواء أمامه وربت على الزيبق على عنق جواده ، وترك له الحبل على الغارب ، ورفع رأسه هو الآخر وقد أحس بنسمة منعشة تملأ الهواء حوله ، وعرف أنهما مقبلان على نبع ماء ، وكانت الرحلة طوال الصباح قد أنهكته ، وكان الحر رغم أشجار الغابة وخضرتها قاسيا ، وفجأة ازدادت سرعة الجواد ، وتطلع الزيبق أمامه ليجد غديرا وسط الحشائش والأشجار ، يلمع ماؤه تحت أشعة الشمس المتوهجة ، فتنهد فى ارتياح وهو يسرع بجواده

إلى حافة الغدير، وهناك ترجل، ورفع عن جواده أحماله، وسرجه ولجامه، وتركه يندفع إلى الماء ليشرب، ويغوص برأسه في الماء، ويبعد عن حافة الغدير، ثم يصهل في سعادة وهو يهز جسده المبلل هزا... ومضى على الزيبق يخلع ملابسه، ويدفع بنفسه إلى الغدير يستحم في مائه، وقد نسي نفسه، و،نسي متاعبه وهمومه، وكان ماء الغدير عذب المذاق يروى العطش، كما كان باردا يزيل الحر ويرفع عن الجسد الإحساس بالتعب، ولم يخرج على الزيبق من الغدير إلا إحساسه بالجوع فمضى إلى حافته، وساق حصانه معه، ومضى يزيل عن جسد الجواد الأتربة والماء، ويجففه في عناية، ثم ساقه إلى الحشائش يرعى وجمع الزيبق حطبا جافا، وأوقد نارا يطهو عليها طعامه، ويأكل في استمتاع... ثم ارتدى ملابسه، وأسرج جواده، ورفع عليه الأحمال من جديد، ومضى في طريقه، وهو يحس أنه يزداد اقترابا من هدفه..

خلف الكثبان الرملية التي افترقا عندها، التقى اللصان من جديد، وقد غمرت أشعة الشمس الكون، وبدأت حرارتها تثقل جسديهما .. ونظر كل منهما إلى ما جاء به زميله وعلى شفتيه ابتسامة رضا عريضة، وقال حسن بن الحصرى وهو يتأمل الجوادين اللذين ساقهما زميله وقال:

ـ لقد أحسنت الاختيار، وحقا أنك ياعلى بيطار ابن بيطار... هز على بن البيطار كتفيه في استخفاف وهو يقول:

ـ الخيل تعرفني وتعرف رائحتي، ولا تنفر مني أبدا، والحراس اكتفوا بربط أقدامها بحيث ترعى ما تجد من عشب جاف، فقد كان الحراس متعبين، ولا طاقة لهم بالبحث عن مرعى، وكان الأمر بالنسبة لي سهلا فقد رقدت بجسدى وسط أقدام الخيل، والخيل لا تطأ جسداً فوق الأرض، حتى أخذت هذين الجوادين، وظللت أهمس لهما بحديث تعرفه الخيل حتى تمكنت من ربطهما بحبل، وأخذت أتحرك ببطء، وهما يتبعاني وباقى الخيول تفسح لنا مكانا، وأى مراقب لهما كان سيظنهما يبحثان عن بقايا العشب الجاف وسط هذه الصحراء القاحلة، وما أن ابتعدت عن حافة المضارب حتى أسرعت بهما إلى هنا .. ألا ترى ، كان الأمر سهلا بالنسبة لى، فقد قمت به في زمانى عشرات المرات..

وضحك وهو ينظر إلى الأحمال التى ينزلها حسن بن الحصرى من فوق كتفيه، وقال:

ـ وأنت ماذا أحضرت؟

قال حسن بن الحصرى:

ـ مهمتى كانت أسهل من مهمتك بكثير. فواضح أن القافلة تضم عدة مجموعات اجتمعت متوحدة لضمان الأمان فى العدد، فأخذت أنتقل بينهم ومعهم في ثقة وهدوء وكأنى واحد منهم، وكل مجموعة تظن أننى أنتسب للمجموعة الأخرى، وحملت معهم أحمالهم، ونصبت معهم الخيام، ومن خلال

حركتى، أخذت زقين من الماء ومجموعتين من الزاد ، لك ولى..

قال على بن البيطار فى دهشة:

- جئت بزقين ومجموعتين من الزاد، لماذا؟

ضحك حسن بن الحصرى وهو يحمل نصيب ابن البيطار ويضعه أمامه:

- ربما أكملنا الطريق معا، وربما كان لك رأى آخر...

ثم مد يده يتناول الحبل الذى يقود أحد الفرسين، ومضى يربت على ظهره فى إعجاب وهو يقول:

- أنت فعلا تفهم فى الخيل ياابن البيطار.

قال على بن البيطار متجاهلا كلمات المديح:

- ألن نعود إلى مصر معا..

قال حسن بن الحصرى:

- بل أنا عائد إلى على الزيبق، أعرف الآن أنه يتجه إلى المدينة المرصودة ، وسأسبقه إليها، فالأمر بينى وبينه لم ينته بعد..

قال على بن البيطار:

- ولكنك قلت:

قاطعه حسن بن الحصرى قائلا:

- أعرف ما قلته من قبل، ولكن الآن هذا قرارى، فإذا كان هو قادرا على إحضار صندوق التواجيه، فأنا قادر على هذا أيضا...
ولا تنس أن أوامرنا هى أن نقضى عليه.

هز علي بن البيطار كتفيه، وقال:

-لك طريقك ولي طريق، أنا عائد إلى مصر وكفاني مالاقيت من ملاعيب الزيبق، ولا تنس أن بيننا خائنا أفشى سرنا، ولابد أن يعلم المقدم صلاح الكلبي بالأمر حتى يأخذ حذره..

ضحك حسن بن الحصري وهو يقول:

-إذن الأمر كما قدرت أنا... لك من الآن طريق، ولي طريق... وفي صمت حمل كل منهم نصيبه من الزاد والماء فوق جواده، دون كلمة وداع، أخذ كل منهما طريقا غير طريق الآخر، واحدا إلى مصر ليشي بما يعرف لصلاح الكلبي، والثاني إلى المدينة المرصودة رسول موت وخطر لعلي الزيبق.

قبل الغروب بقليل خرج علي الزيبق من الغابة ليجد نفسه في منطقة صخرية تتخللها الأعشاب والأشجار، وما أن سار فيها قليلا حتى وجد أمامه تلا عاليا. ووقف يتأمل التل ويريح جواده من سيره الطويل، فلاحظ قطعان الماشية التي ترعى في سلام في مناطق متفرقة من منطقة الأعشاب، وتلفت حوله بحذر باحثا عن راع مع الماشية، فلم يجد أحدا، وتأكد أنه وصل إلى منطقة آهلة بالسكان، وحدثه قلبه أنه اقترب من غايته، إن لم يكن قد وصل إليها بالفعل، وقرر أن يتوخى الحذر في كل ما يفعل من الآن، فترجل عن جواده وقاده إلى التل، وظل يبحث بعينيه وهو يصعد التل حتى وجد مدخل مغارة فقاد إليها

الجواد، وربط قدميه حتى لايبتعد ، ثم تخفف من ملابسه وتقلد سيفه، ومضى يصعد التل فى حذر... وكلما ازداد صعودا كلما ازدادا تأكدا من وجود بشر يستوطنون المنطقة، فهناك آثار قطع الحجارة لبناء المنازل، وهناك أشجار كثيرة مقطوعة ، وهناك آثار قطعان من الأبقار مرت من جانب التل إلى جانب...

وحين وصل إلى قمة التل تأكد من ظنونه كلها، فأمامه تمتد منطقة واسعة من الأعشاب تليها أسوار مدينة ضخمة وكبيرة، وكان يستطيع أن يرى شوارعها خلف السور تموج بالحركة والنشاط ، كما استطاع أن يميز بيوتها المصنوعة من الحجارة على نمط واحد، ولونها كلها بلون تراب التل الأحمر... واختبأ خلف صخرة ناتئة وهو يتابع بعينيه سورالمدينة الذي يحيطها كلها، إلى أن وصلت عيناه إلى البوابة الضخمة المفتوحة والتى لا تكف عنها حركة الدخول والخروج، وارتفعت عيناه فوق البوابة ليجد تمثالا ضخما لرجل نحاسي يمسك بوقا نحاسيا... وخفق قلبه، فهذه لاشك بغيته.. المدينة المرصودة ، وهذا هو الرصد حارسها الذى ينفخ فى البوق إن دخلها غريب.. وظل على الزيبق فى مكانه يشاهد الحركة الحية فى المدينة إلى أن بدأت الشمس فى المغيب وأخذ الظلام يطبق تدريجيا على الوادى تحته.

- ١٧ -
بنت السلطان

كـان الرعـاة يعـودون بقطعـانهـم إلى المدينة، ومن ناحية الجنوب أقبلت قافلة من الجمال تدخل من البوابة المفتوحة، بينما خرجت كوكبة من الحراس راكبي الخيول يطوفون بسور المدينة من الخارج، وبدأت أضواء المشاعل والمصابيح تلمع في شوارع المدينة، ومن نوافذ منازلها... وظل على الزيبق في مكانه يرقب الحركة عند البوابة حتى بدأت تبطيء من إيقاعها، وعادت كوكبة الحراس من جولتها، ودخلت من البوابة، ثم تصاعدت نداءات الحراس هنا وهناك، وأغلقت البوابة في بطء، وسكن

حولها كل شيء.. وأدرك على الزيبق أن المدينة تستعد لقضاء ليلة هادئة، لا أحداث فيها .. فعاد منسحبا إلى الكهف الذى ترك فيه جواده وقد قر قراره أن يريح جسده حتى منتصف الليل حتى تنام المدينة تماما، وتطفأ الأنوار فى منازلها وشوارعها، فيفكر فى حيلة يدخل بها المدينة متخطيا عقبة الرصد صاحب البوق... وحين وصل إلى الكهف حياه صهيل الجواد، فربت على رقبته يطمئنه، ثم رقد عند مدخل الكهف، ووجهه إلى خارجه، ويده على سلاحه، وسرعان ماراح فى سبات عميق...

فتح الزيبق فجأة عينيه، وإن ظل جسده ساكنا فى مكانه لا يتحرك، فرغم عمق استغراقه فى النوم إلا أن حواسه كلها كانت متيقظة، ولهذا فقد أحس بالحركة التى تدور على مقربة منه... وظل فترة يتتبع هذه الحركة بأذنيه، وإن كانت عيناه لا تستطيعان اختراق الظلام الذى يحيط بمصدر هذه الأصوات الخافتة التى كانت تبدو وكأنها وقع أقدام عديدة حذرة تسير فوق الصخور على مقربة منه... واستجمع الزيبق حواسه، ثم نهض حذرا، وتسلل إلى خارج الكهف، ثم سار قاصدا مصدر الصوت وهو حريص على أن تكون كل حركاته بلا صوت يشى بوجوده، ودلت أذناه على أن هذه الأصوات تتجه إلى مكان ما على يمينه، فتحسس طريقه بأقدامه قبل أن يخطو ناحيتها، وهو يمد يديه، يتلمس صخور التل، ويحمد الله أن القمر هذه الليلة سيتأخر طلوعه، فلا شيء إلا الظلام الحالك يستر حركاته، ولا

يعكس له ظلا.. وفجأة توقفت الأصوات ، وكفت الأقدام عن الحركة، وكأنها تلاشت فى السماء، أو ابتلعها جب فى الأرض، وابتسم لنفسه، وهز رأسه، لابد أن أصحاب الأصوات التى سمعها دخلوا كهفا عميقا أخفى أصواتهم عن أذنيه.. وأحس بفضول حاد يدفعه إلى أن يكشف سر هذه الأصوات ومصدرها، فلا نجاح لمهمته إلا إذا كان يعرف كل مايدور حوله، وكل من يتحركون مثله حول المدينة، فمضى يتحرك بحذر وقد أرهف أذنيه، إلى أن التقط أصواتا خافتة مكتومة تصدر من مكان أمامه تماما ... وفجأة لمح ضوءا ذابلا يتذبذب، ولكنه يلمع وسط الظلمة الداكنة، وحين ازداد اقترابه لمح ضوءا ثانيا ثم ثالثا، ثم رابعا.. وأدرك الزيبق أن هذه الأضواء تصدر عن مشاعل مضاءة فى الكهف الذى استطاع أن يحدد مكانه، وأن يرى فتحته من مكانه بوضوح.. ثم بدأ يستمع همهمة أصوات تتبادل الكلمات فى صوت مرتفع، تتخللها ضحكات خشنة فيها نشوة، وفيها قسوة فى آن واحد.. وأدرك على الزيبق أن الكهف الضخم يضم مجموعة كبيرة من الرجال، وأنهم تسللوا فى الظلام حتى لا تشعر بهم المدينة، وأنهم وجدوا الأمان فى الكهف فأضاءوا المشاعل، وتركوا لأنفسهم الحبل على الغارب مطمئنين إلى أن باب المدينة مغلق، ولن يخرج منها أحد حتى الصباح... ولم يسترح على الزيبق لما أوصله إليه تفكيره، فهناك رائحة شر تفوح من الأمر كله، وتؤكدها هذه

الضحكات الخشنة العربيدة المتصاعدة من الكهف.. وتقدم في حذر إلى حافة الكهف، ثم انبطح على وجهه، ومضى يزحف في سكون حتى وصل إلى الفوهة، ثم سكن في مكانه تماما... ولما لم يصدر أي صوت يشي بأن أحدا قد أحس به، ازداد جرأة، ودخل إلى داخل الكهف، واختار مكانا لا تصل إليه أضواء المشاعل، ثم سكن يرقب ما أمامه في صمت وترقب... وأصابته رؤيته للفتاة المقيدة بصدمة كادت تدفعه إلى حركة تكشف وجوده، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وعاد ينظر إليها بإمعان ، كانت بارعة الجمال، ترتدي ثيابا غالية، واسعة العينين، سمراء البشرة، غزيرة الشعر... وكانت عيناها مليئتين بخوف واضح، جعلهما يبدوان أكثر اتساعا وجمالا ..وكان شعرها قد فقد نظامه، وتساقطت جدائله المضطربة فوق كتفيها ، وكانت تجلس في وسط الكهف تنعكس على شعرها وعينيها أضواء أكثر من مشعل، وكانت يداها وقدماها مقيدة بحيث تعجز عن الحركة، ولكنها كانت تدور بعينيها الواسعتين المذعورتين في الرجال العديدين الذين جلسوا يأكلون ويشربون ، ويتبادلون النكات والضحكات في مجاميع متناثرة من أنحاء الكهف... ولاحظ على الزيبق أن جميع الرجال كانوا سود البشرة تسود بشراتهم حمرة تجعلها تبدو كالنحاس ، بينما كانت ملامحهم تنطلق بالشر والإجرام والقسوة وكان هناك اثنان ينتقلان بينهم بأوعية الطعام، وآنية الشراب. بينما

جلس وحده في ناحية من الكهف رجل ضخم الجثة، شرس الملامح، يعبث بسوط ضخم في يده اليسرى، بينما يلتهم قطع اللحم المكومة أمامه في شراهة، وبين الحين والحين يرفع زق شراب وضعه إلى جواره، ويشرب منه حتى يتدفق السائل من فمه إلى ذقنه وصدره العارى... وحين أعاد الزق إلى مكانه، مسح فمه بظهر كفه اليمنى.. وقال في صوت جهورى أجش، وعيناه مثبتتان في شراهة على الفتاة المقيدة المذعورة.

ـ هل رأى أحدكم من قبل مثل هذا الجمال المتكبر.. أليس خسارة أن يصبح كل هذا الجمال ملكا لرجل واحد يغلق عليه الأبواب، ويخفيه وراء الستر.

توقف أحد الرجلين المتحركين بالطعام بين الرجال، وحدق في العملاق الأسود، وقال:

ـ ولكن يامونجو هذا الرجل سيكون ملكنا سلطان، ملك بحر الغزال..

ضحك مونجو في وحشية، وهو يمسك بعظمة ثرية باللحم الذى يكسوها، يمزقه بأسنانه ويلوكه ثم قال من فمه المحشو بالطعام:

ـ قد يكون ملكك أنت يالومبا فأنت من رجاله، أما أنا فأعمل له بالأجر، ومن وراء الظهور، وفى مهماته القذرة التى لا يستطيع أن يكلف بها رجاله المعروفين مثلك..

قال لومبا وهو يضع صحاف الطعام على الأرض، ويتوجه

إليه بكليته :

ـ قد تكون ياموبجو فاتكا وقاطع طريق لا ولاء لك لأحد، ولكنك في هذه المهمة بالذات تعمل من أجل الملك وبأجر مجز، وعلى وعد بعفو عام عن كل جرائمك السابقة، فلا تنس هذا أبدا، وإلا جلبت على نفسك وعلى رجالك غضب الملك سلطان وحنقه..

ضحك موبجو، وأشار بالعظمة في يده إلى الرجال المتفرقين في نواحي الكهف، وقال :

ـ هؤلاء الرجال لايعرفون معنى العفو أو الأمان، نحن نأخذ مانريد ولا نبالي... وليس لهم ولاء إلا لي أنا وحدى، فأنا الذى أقودهم إلى المال والمتعة، وأنا الذى أخرجهم من المأزرق وأنقذهم من الأخطار..

وضع الرجل الثاني حمله من صحاف الطعام على أرض الكهف، وانضم إلى لومبا في وسط الكهف وهو يقول :

ـ لم أرتح منذ الأصل إلى المهمة التي كلفك بها الملك سلطان أنت ورجالك، فهي مهمة غادرة وخسيسة، أن تخطف بنت سلطان المدينة المرصودة التي رفضت الزواج به لفارق السن بينهما، ولما تناهى إلى سمعها من أعمال تصدر عنه ولا ترضاها هي. ولكنه الملك، وأمره مطاع، ومادمنا قد قبلنا أمره فعلينا أن ننفذه كاملا. عاد موبجو يضحك من جديد، وهو يضرب فخذيه بكفيه، كأنما يجد متعة فيما يحدث، ثم سكت عن ضحكه

فجأة، وضرب الأرض أمامه بسوطه في قسوة، وقال في صوت مدو:

- اسمعني يامافي، وأنت يالومبا.. لقد أرسلكما الملك سلطان معي لكي تراقباني أنا والرجال، فهو لا يثق بي منذ البداية... وأنا أشاركه عدم الثقة هذه، فمن أين لي أنه سيفي بوعوده بعد أن أسلمه بنت السلطان.. ولماذا أسلمها له هي الآن في يدي، أستمتع بها أنا والرجال، ثم نبيعها فتأتينا بأضعاف أضعاف ما وعدني به الملك..

وأشار بيده، فإذا بالرجلين وسط الكهف محاطين بسيوف عديدة مسلولة متهددة . ووقف الرجلان يتبادلان النظرات في وجوم، وعاد مونجو يقول آمرا:

- جردوهما من السلاح، وقيدوهما حتى ننظرا ما نفعل بزوجة ملكهما المنتظرة ، وبعد هذا نستمتع بعذابهما وقتلهما... فأنا لا أحب الجواسيس، ولا رجال الدرك المغرورين بقوتهم..

وأدرك على الزيبق خطورة ما سيحدث ، فانتهز فرصة الهرج الذي ساد الكهف، والرجال يتدافعون نحو لومبا ومافي لتقييدهما ، ونزع سلاحهما، فانسل خارجا من الكهف، ومضى يجري نحو الكهف الذي أخفى فيه جواده..

قبل أن يصل علي الزيبق إلى الكهف توقف فجأة، فقد ارتفعت حوله ضجة كبيرة، ولمعت من ناحية المدينة أضواء

مشاعل متعددة، وانتهك صمت الليل صخب ونداءات ، وصهيل خيل، وأصوات جريها بسرعة، وتوقف في مكانه حائرا، ثم بدأ يرقى التل إلى مكانه الأول الذى كان يرقب منه المدينة أول وصوله. وما أن وصل إليه حتى تكشف له الوادى المؤدى إلى المدينة وقد امتلأ بالحركة والنشاط ، كما تبدت له المدينة وقد فتحت بوابتها الكبيرة، وأعداد كبيرة من الفرسان تخرج منها مسرعة إلى كل نواحي الوادى، وهم يحملون المشاعل، ويهزون فى أيديهم الرماح والسيوف... ولم يفهم على الزيبق السر فى كل هذه الضجة أول الأمر، ولكنه سرعان ما تذكر الفتاة المقيدة فى الكهف ـ بنت السلطان ـ فأدرك أن اختطافها قد اكتشف ، وأن البحث عنها وعن مختطفيها قد بدأ.. وأدرك أن الخطر الذى يحدق بالخاطفين يحدق به هو أيضا، وأنه ينبغى عليه أن يسرع بالعمل إن كان يريد النجاة، فلو استطاع إنقاذ بنت السلطان من أيدى مختطفيها لفاز برضاء السلطان عنه، ومن يدرى ربما كانت هذه خطوته الأولى نحو الفوز بصندوق التواجيه... وأسرع يغادر مكانه إلى كهفه من جديد..

اطمأن على الزيبق على جواده، وربط مقوده بصخرة ناتئة داخل الكهف حتى لا يدفعه الجوع إلى الخروج منه فيكتشف أمره، وأخذ من جرابه ما يحتاج إليه من ذخيرة، وتقلد سلاحه، وعاد يتسلل من جديد إلى كهف اللصوص وبنت السلطان ،

وكان يسير مسرعا متنقلا من صخرة إلى صخرة كالشبح لا يعنيه أن يخفى وقع أقدامه على الصخور، فالضجة الآتية من ناحية المدينة كفيلة أن تبتلع داخلها أى صوت آخر، وحين وصل إلى الكهف وقف متحيرا ، فقد كان مظلما تماما وقد أطفئت كل المشاعل التى كانت تنيره منذ حين.. ووجف قلبه حين خطر له أنه وصل متأخرا، وأن اللصوص قد قتلوا الفارسين من بلاد الغزال لومبا ومافى وهربوا بالفتاة إلى حيث لا يعلم أحد... ولكن هناك غمغمات من أعماق الكهف كالفئران فى جحر من الجبل... وحين تسلل على الزيبق إلى مدخل الكهف ليكمن خلف الصخرة التى كمن وراءها أول مرة، سمع صوت ما فى الهادىء يقول فى سخرية :

ـ وكنت تظن أنك ستفلت بغنيمتك دون أن يشعر بك أحد.

قال مونجو فى صوت أجش:

ـ لابد أنهم يبحثون عن الغريب الذى دخل المدينة فنفخ الرصد النحاسى فى البوق.

ووجف قلب على الزيبق، وكتم أنفاسه فى ترقب ودهشة، وسمع لومبا يقول :

ـ البحث عن الغريب بدأ منذ أول الليل، وقد أشرت عليك ساعتها أن تنتهز فرصة انشغالهم فى تفتيش المدينة بحثا عنه لكى نتسلل إلى القصر ونخطف الفتاة... وكانوا حريصين على أن يظل باب المدينة مغلقا حتى لا يتسلل الغريب هاربا منها..

ـ نحن تسللنا من النفق الخلفي الذي حفرناه لندخل إلى المدينة ، ولم يشعر بنا أحد..

ضحك مافي في تشف وهو يقول :

ـ هذا ما أريد أن أفهمك إياه ، لو كانوا يبحثون عن الغريب لظلت بوابة المدينة مغلقة فهم لا يعرفون عن أمر النفق شيئا ، أما وقد فتحوا الأبواب ، وخرج الحراس إلى الوادي فمعنى هذا أن طلبتهم الآن ليس الغريب وإنما طلبتهم بنت السلطان ، ومن اختطفت بنت السلطان :

قال مونجو ، وقد بدأت نبرات الخوف تتسلل إلى صوته :

ـ هكذا بسرعة ، لقد قدرنا أنهم لن يكشفوا غيابها إلا في الصباح .

ضحك مافي في سخرية وقال :

ـ لاشك أن ضجة البحث عن الغريب أيقظت الجميع ، وأن الفضول دفعهم إلى قاعة السلطان ، ولاشك أنهم لاحظوا أن الأميرة ليست بينهم ، ولعلهم اندهشوا أن الضجة لم توقظها ، وأن الفضول لم يدفعها لأن تلحق بهم ، فبحثوا عنها في غرفتها ، وهناك :

صاح مونجو في عصبية :

ـ كفى ، أنتما تحاولان بث الرعب في قلوب الرجال ... وهذا لن يجديكما ..

وتحدث أحد رجاله لأول مرة فقال في صوت مرعوب :

- نحن محاصرون يامقدم في هذا الكهف، وفرسان السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة تحاصر الوادى والجبل، وحين يعرف الملك سلطان ملك بحر الغزال أننا غدرنا به، وأخذنا الفتاة لأنفسنا سيندفع إلى مطاردتنا بكل رجاله، فلا نخرج من هذا الوادى - إن خرجنا منه - إلا إلى سيوف سلطان ورجاله..

صاح مونجو في حنق:

- ومن الذى سيخبر الملك سلطان أننا استحوذنا على الفتاة، حين تغيب عنه سيظن أننا فشلنا في مهمتنا .. صاح نفس الرجل في عصبية بالغة:

- هذان الرجلان يامقدم، أليسا من رجال الملك سلطان؟ أليسا من رجال الدرك.

ضحك مونجو في وحشية وهو يقول:

- أشعلوا أحد المشاعل، ومزقوهما بسيوفكم..

وأفاق على الزيبق من ذهوله، فأسرع يخرج سهم النفط بحمولته من البنج، وأطلقه فجأة في سقف الكهف... وتوهج السهم كالشهاب، ثم سقط منطفئا وهو يصدر هسيسا كالفحيح.. وساد الوجوم الكهف لحظة، تعالت بعدها صيحات مذعورة هنا وهناك، وحركة مفاجئة، وكأنما يريد الرجال أن يندفعوا هاربين إلى خارج الكهف، وجاء صوت مونجو آمرا في عصبية واضحة:

- ليثبت كل منكم في مكانه، لعلها حيلة لإخراجنا من

الكهف حيث تنالنا سهام مجهولة تقتلنا جميعا..

قال الرجل الذى تحدث من قبل فى ذعر واضح:

-إنه الشيطان يامقدم، أرسل شرارة من جهنم لتحرقنا حيث نحن..

ومن الظلام جاء صوت لومبا المتهكم الهازىء يقول:

-الشيطان يحرق أعوانه.. حتى الشيطان سيدكم ومولاكم انقلب عليكم...

صاح مونجو:

-اسكت فى الكهف أفعى، ولعلها قفزت إلى داخل الكهف فلمع جسدها فى ضوء القمر وحسبناه شرارة من نار... وعاد الوجوم يسود الكهف من جديد، بينما سكت صوت الهسيس فجأة، فارتفعت أصوات خائفة، وهمهمات مرعوبة، وحركات مضطربة -وعاد مونجو يصيح:

-كفوا عن الحركة حتى يتضح لنا صوتها، فإن سمعتموه من جديد، مزقوها بسيوفكم..

وعاد الهدوء القلق يسود الكهف من جديد، بينما انسحب على الزيبق فى هدوء إلى خارجه، حيث طالعه ضوء القمر الذى طلع متأخرا هذه الليلة، فاستنشق على الزيبق هواء الليل النقى، وحبسه فى صدره طويلا، ثم زفره فى راحة، وهو يتحرك نحو قمة التل حيث مكمنه الذى يراقب منه الوادي والمدينة...

وجلس على الزيبق خلف الصخرة يتأمل الحركة المتزايدة التى

أصبحت واضحة فى ضوء القمر . . . وأدرك أن استنتاج لومبا وما في كان في محله، فهؤلاء قوم يبحثون عن هاربين ، أحسبوا أنهم أفلتوا بأميرتهم من أسوار المدينة وبابها المغلق، وكان واضحا من حركاتهم المضطربة أن القلق بدأ يغزو قلوب قادتهم، كما كان واضحا أنهم ينتظرون نور الصباح ليبدأوا حملة منظمة للبحث في كل مكان في هذا التل . . . ولا يدرى علي الزيبق كيف طالعه وجه زينب الجميل المبتسم، ماذا كان يفعل لو كانت هى المختطفة بدلا من هذه الأميرة السمراء، وذهب من قلبه كل تردد أو رحمة بالمختطفين . . . هؤلاء ينبغى أن يلقوا عقوبتهم كاملة، فما أقدموا عليه جرم لا يغتفر . . . وازداد حنقه حين تذكر الكلمات الداعرة التى رددها مونجو فى الاستحواذ على الفتاة، وإباحتها لرجاله، ثم بيعها في سوق النخاسة،وحين اتجه آخر الأمر إلى الكهف كان يرتجف حنقا وغضبا على مونجو ورجاله فاقدي الضمير والخلق - وكان متأكدا من أن البنج قد فعل فعله في شاغلى الكهف، فمد يده فى الحرندان وأخرج ضد البنج وتناوله، ثم دخل الكهف فى هدوء ليطالعه صمت مطبق، وعلى ضوء القمر المتسلل من مدخل الكهف رأى أحد المشاعل المطفأة، فتقدم منه وأشعله ، وأسنده إلى جوار صخرة بالكهف، وانبعث من المشعل ضوء خافت كشف عن أجساد الرجال ملقاة، وقد تمكن منهم البنج هنا وهناك حيث كانوا يجلسون أو يرقدون من قبل، واتجه نحو

الفتاة فحملها إلى خارج الكهف، ثم مضى يخرج مجموعة من الحبال من الخزنداق، ويقيد بها مونجو ورجاله قيدا وثيقا، يقيد ذراعي كل واحد خلف ظهره، ثم يقيد قدميه خلف ظهره ويتركه ملقى على الأرض ووجهه إلى أرض الكهف... وحين انتهى من مونجو ورجاله، اتجه إلى لومبا ومافى فقيد أيديها أمامهما، وقيد قدميهما بحيث يستطيعان الوقوف فوقها، وتحريكها فى نطاق ضيق، ثم حملهما واحدا واحدا إلى خارج الكهف ووضعهما إلى جوار الجارية المقيدة.. ثم انطلق يبحث عن صخور كبيرة يسد بها مدخل الكهف... فدحرج الصخرة الأولى فسدت نصف فتحة الكهف، ودحرج صخرة ثانية سدت نصف الفتحة الثانى، ثم دحرج صخرة ثالثة أسندها إلى الصخرتين السابقتين، وجمع بعض الأعشاب والأغصان الجافة فرماها فوق الصخور وحولها وأمامها... ونظر إلى ما فعل فى ضوء القمر، فاطمأن أن مدخل الكهف قد اختفى تماما، وأن أحدا لن يدرك أن هناك كهفا فى هذا المكان إلا إذا كان يعرف مكانه من قبل...

حمل على الزيبق الفتاة فى رفق، ومضى يسير بها نحو الكهف الذى أخفى فيه جواده، فوضعها برفق فوق الأرض، ثم فك قيودها، وأخرج ملاءة فرشها فوق أرض الكهف، وأرقدها فوقها، ومضى يدلك قدميها ويديها فى رفق حتى عادت الدماء تجرى فى عروقها، وأعطاها ضد البنج، وخرج إلى حيث ترك

رجلي الدرك من بلاد بحر الغزال فحملهما واحدا إثر الآخر إلى داخل الكهف وتركهما فوق أرضه مقيدين كما كانا... ثم عاد إلى جرابه يخرج طعاما منه، ومضى يجمع حطبا جافا، ويوقد نارا يضع عليها الطعام لينضج فقد كان قد ابتدأ يحس بالجوع، كما أنه توقع أن تكون الفتاة جائعة إذ لم يقدم إليها الرجال فى الكهف أى طعام..

جلس على الزيبق القرفصاء يرقب اللحم وهو ينضج وأفكاره تعود به إلى زينب، لابد أنها وصلت إلى بغداد الآن، وأصبحت هناك آمنة عند أمها... وربما كان المقدم سالم يستعد للعودة إلى القاهرة من جديد... ترى هل تذكره زينب كما يذكرها، وانتبه من أفكاره على صوت تنهيدة تصدر من الفتاة، ثم عطست، وهمست فى صوت خافت لا يكاد يبين:

-أين أنا..

وقام على الزيبق من جلسته، واتجه إليها، فرآها تتطلع إليه بعينيها الواسعتين وقد ملأتهما دهشة وذعر واضحان، وقال في صوت رقيق:

-أنا صديق، انتهى أسرك، وأنت الآن حرة..

مضت تدلك رسغيها من آثار القيود، وتجيل بصرها فى الكهف، وهى تقول:

-هذه روائح شهية، هل تطهو طعاما.

ضحك وقال:

ـ الطعام جاهز، ومرحبا بك لتشاركيني فيه..

وفجأة صرخت في ذعر وهي تشير إلى الرجلين المقيدين، وهبت من جلستها تتراجع بعيدا عنهما في الكهف، فضحك علي الزيبق مطمئنا وهو يقول:

ـ عرفت صديقيك لوميا ومافي، لا خطر منهما فهما مبنجان ومقيدان أيضا..

قالت وهي تحدق بعينيها فيهما:

ـ كانا مع من أسروني، وفهمت أنهما من رجال الملك سلطان ملك بحر الغزال..

قال علي الزيبق:

ـ أحكي لك من أمرهما ما لا تعرفين، وتحكين أنت لي حقيقة ما مر بك.

قالت في دهشة:

ـ أنت تعرفهما..؟

قال وهو يشير إلى الطعام الذي تفوح منه روائح شهية:

ـ عرفتهما منذ ساعات، وعرفت أنهما كانا سيدفعان حياتهما ثمنا لإنقاذك من مصير مخيف.. هيا إلى الطعام.

نقلت بصرها بينه، وبين الطعام، ثم اتجهت إليه، وجلست مترددة، وهي تقول:

ـ لقد سمعت كل شيء، ورأيت كل شيء، فرغم كل ما كنت فيه من عذاب القيد، ورعب توقع المصير المخيف، كنت أعي كل

ما حولى :

قال الزيبق وهو يجلس إلى الطعام قبالتها :

ـ إذن فأنت تعرفين ، وفرت على الحديث الطويل الذى لا داعى له .. هيا إلى الطعام .

ولم يطل ترددها ، بل مدت يدها إلى الطعام فى لهفة الجائع ، وقالت له :

ـ من أنت ؟ وماهى حكايتك مع هؤلاء اللصوص ، فليس فيك ما ينبىء بأنك منهم ..

قال لها الزيبق :

ـ ستعرفين من أنا ولماذا جئت إلى مدينتكم ، ولكنى أريد أن أعرف ما اسمك .

قالت :

ـ أنا بنت سلطان المدينة المرصودة ، واسمى زينب ...

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ زينب ، ما أعجب هذا ..

ونظر إليها ... ثم مضى يضحك من جديد ..

-١٨-

حديث فى الكهف

توقفت يد بنت السلطان وهى تحمل قطعة اللحم إلى فمها، ونظرت إلى على الزيبق فى دهشة وهى تقول:

- ما الذى يضحكك، هل فى اسمى ما يضحك؟ اسم زينب اسم شائع ومعروف في بلادنا، وأنا زينب بنت السلطان قاسم سلطان المدينة المرصودة..

توقف على الزيبق عن ضحكه، وأمسك بقطعة لحم، ومضى يأكل منها فى نهم، وهى تنظر إليه فى قلق ودهشة، ولما انتهى من مضغ قطعة اللحم وبلعها، ابتسم فى وجهها، وقال:

ـ ليس في الاسم ما يضحك، ولكن في الأمر ما يحير، فمنذ بدأت رحلتي إلى هذه البلاد أنستني المخاطر وجها حبيبا إلى، لصيقا بقلبي. ولكن منذ رأيتك مقيدة في الكهف، وهذا الوجه يطالعني بإلحاح، وهو يطالعني مرتبطا بك كأنما يدفعني إلى إنقاذك دفعا... فإذا عرفت أن صاحبة هذا الوجه اسمها زينب، عرفت سر حيرتي ودهشتي، وسر ضحكي حين سمعت اسمك...

نظرت إليه في هدوء، ومدت يديها تعيد ترتيب شعرها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة، وهي تسأله:

ـ أهي جميلة؟

ضحك في حرج تحت وقع نظراتها المعابثة، وقال:

ـ هي في مثل سنك، وهي.. أيضا جميلة..

ضحكت في مرح، وقالت وهي تعود إلى الطعام من جديد:

ـ إذن فأنا جميلة مثلها، وأذكرك بها، وهي التي دفعتك إلى إنقاذي رغم بعدها... هل هي حبيبتك..؟

قال علي وهو يغض من بصره محرجا:

ـ سنتزوج، وأنا هنا لأتم مهمة، لابد منها قبل أن أتقدم إليها... صفقت بيديها، وقالت في مرح:

ـ الفارس النبيل يثبت جدارته بأميرة قلبه.. ما أجمل هذا، كأنني أسمع قصة من قصص الحب التي كانت تحكيها لي جدتي وأنا طفلة..

ظل علي الزيبق يرقبها وهى تأكل فى صمت وقد أحس بعزوف كامل عن الطعام، وأخذ يقلب النار التى أخذت تخمد بقطعة حطب في يده، وانتبه علي صوتها وهى تقول مشيرة للرجلين المقيدين فى ناحية من الكهف :

ـ وماذا تنوى أن تفعل بهما . . ؟

تنهد علي الزيبق، وهو يتابع حركة يدها، وقال :

ـ سأرسلهما إلي والدك ليعيدهما إلي ملك بحر الغزال، ليحكيا له كيف كان رجاله المأجورون ينوون بك . . . وليؤكدوا له خطأ الملوك حين يلجأون إلي قطاع الطرق واللصوص لأداء مهمات قذرة كهذه . . .

ضحكت بنت السلطان وقالت :

ـ سيقتلهما أبى فور رؤيته لهما، فقد كانا ضمن الوفد الذى أرسله الملك سلطان لخطبتى ،وقد فهما ردى ورد أبى وهو الرفض ، فلو عرف أنهما شاركا فى خطفى، ومحاولة إرغامى على ما لا أحب ، فلا جزاء لهما عنده إلا القتل.

هز علي الزيبق رأسه وهو يقول:

ـ إن كان متعطشا إلى القتل فعنده مونجو ورفاقه فليفعل بهم مايروقه، لكن لومبا ومافى ليسا من سفاكى الدماء . . وموقفهما الشجاع ضد مونجو يغفر لهما . .

قالت فى حنق :

ـ لا . . هما شريكان فى جريمة اختطافى . .

هز على الزيبق كتفيه، وهو يقوم من مجلسه، ويتجه إلى ناحية الرجلين المقيدين الغائبين عن الوعى فقالت زينب بنت السلطان فى انزعاج:

- ماذا ستفعل؟

مد على الزيبق يده فى حرندانه وأخرج ضد البنج، وأعطاه لهما وقال دون أن يبالى لهجة الاحتجاج فى حديثها:

- أعطيهما ضد البنج ليفيقا، ويسمعا منك أنت الحكم بإعدامها، صاحت زينب بنت السلطان فى غضب، وهى تترك الطعام، وتهب واقفة:

- من قال إننى أوافق على عودتهما إلى وعيهما، الأفضل أن نسلمهما إلى جند أبى السلطان وهما غائبان عن الوعى، حتى لايقاوما .. قال على الزيبق فى سخرية:

تقصدين نسوقهما إلى الذبح كالنعاج، وهما غارقان فى غيبوبتهما ..

وقبل أن ترد زينب بنت السلطان عطس لومبا عدة مرات، وفتح عينيه، ثم عطس مافى عطسات متكررة وفتح عينيه، وقالت زينب بنت السلطان فى غضب:

- لقد تسرعت، لقد أمرتك أن تتركهما كما كانا...

ضحك على الزيبق وهو يقول:

- أنا الذى أسرتهما، وأنا الذى أقرر ما يتم فى أمرهما، وأجلى إصدار الأوامر حتى تصلى سالمة إلى قصر أبيك

السلطان، وتصبحي الآمرة الناهية في رجاله... أما هنا فأنا صاحب الأمر والنهي ، أفعل ما أراه صالحا.

وتدافعت الكلمات الغاضبة إلى شفتي زينب بنت السلطان ، ولكنها وقفت عند شفتيها جامدة حين تنهد لومبا وقال :

- أين أنا ؟

فالتفتت أنظار على الزيبق والأميرة زينب إليه، وكان يجيل حوله عينين زجاجيتي النظرة، تتحركان في محجريهما دون أن تريا شيئا.. وانتبها على آهة تصدر من مافي، وسؤال هامس يند عنه قائلا :

- أين أنا... ؟

قالت الأميرة زينب في سخرية :

- أليس على لسانهما سوى هذا السؤال : أين أنا ؟

ضحك الزيبق وهو يقول :

- لو سمعت نفسك حين أفقت من البنج لما سخرت منهما..

قالت في تردد ودهشة :

- هل سألت نفس السؤال؟

ردد لومبا سؤاله من جديد في صوت ضعيف، وقد بدأت نظراته تصفر ، وبدأ الإدراك يدب فيهما وهو يدير عينيه في المغارة ، وفي الواقفين أمامه، حتى استقرتا على رفيقه المقيد مثله، فقال على الزيبق للأميرة :

- نعم نفس السؤال . .يبدو أن كل من غاب عن الوعي يسأله

حين عودته إلى وعيه..

ثم التفت إلى لومبا وهو يقول:

ـ أنت فى مكان أمين يالومبا بعيدا عن مونجو وأعوانه..

حرك لومبا رأسه ليستطيع أن ينظر إلى على الزيبق، وأجال فيه عينيه، ثم قال:

ـ لم أرك من قبل... ومع هذا فأنت تعرف اسمى..

قال على الزيبق، وهو يتقدم نحوه، ويجلس قبالته:

ـ اسمى لا يهمك، ولا يهم أحدا فى هذه النواحى، فأنا قادم من بلاد بعيدة، ولكنى أعرف اسمك واسم مافى.

فقد سمعت مونجو فى الكهف يخاطبكما باسميكما..

جاء صوت مافى الخافت الملىء بالخوف يقول:

ـ مونجو الخائن الملعون... ولكن.. لكنى مقيد...مازلت مقيداً كما قيدنى رجال مونجو..

عاد لومبا يقول، وقد استرد صوته وهدوءه:

ـ اهدأ يامافى، نحن حقا فى الأسر، ولكننا لسنا فى خطر الموت، وأسرنا فارس كريم..

ثم التفت إلى على الزيبق وهو يبتسم ويقول:

ـ ألست أنت مطلق ذلك الثعبان الذى أنار حين اصطدم بجدار الكهف، ثم أخذ يفح حتى أرعب كل عصابة مونجو... وحين كف عن الفحيح كنا جميعا فى سبات عميق؟

ضحك على الزيبق وهو يقول:

ـ يعجبني ثباتك، وذكاؤك، لقد وصلت إلى لب الحقيقة برميتك... عاد مافي يقول، وقد بدأ الخوف يزايل صوته:

ـ ولكن إذا كنت صديقا فلماذا القيد..؟

قال على الزيبق وهو ينهض من جلسته ويسير إلى مدخل الكهف فيطل منه، ويعود إليهما ليواجههما من جديد:

ـ أمركما موكول إلى سلطان المدينة المرصودة..

شحب وجهاهما وارتجف صوت لومبا وهو يقول:

ـ أتريد أن تسلمنا إليه..؟

تدخلت الأميرة زينب بنت السلطان فى الحديث لأول مرة قائلة:

ـ هما يعرفان ماذا ينتظرهما على يدى أبى..

ازداد شحوب وجهيهما، وتبادلا نظرات يائسة، وقال مافى:

ـ ولماذا أنقذتنا من مونجو إن كنت تريد أن ترمى بنا إلى السلطان قاسم؟

قال على الزيبق:

ـ لقد سمعتكما وأنتما تدافعان عن الأميرة، بل لقد سمعتكما هى أيضا بنفسها..

ضحك لومبا فى سخرية وهو يقول:

ـ كنا سندفع حياتنا ثمنا لألسنتنا الطويلة.

قال على الزيبق:

ـ ونحن نعرف هذا أيضا، ولذلك فلست أظن أن السلطان

قاسم يقتلكما.

قال لومبا فى مرارة:

ـ لقد كنا نؤدى واجبا، وننفذ أوامر الملك سلطان ملكنا، ملك بحر الغزال.

صاحت الأميرة زينب وهى تضرب الأرض بقدمها:

ـ هل تعترفان أنه هو الذى أمر باختطافى؟

نظر لومبا إليها طويلا، ثم هز رأسه وقال:

ـ لقد عرفت الحقيقة كلها أيتها الأميرة مما سمعت فى الكهف، فلماذا السؤال:

قالت فى إصرار:

ـ لابد أن يعرف أبى حقيقة الملك سلطان، ويعرف أيضا أن حسى كان صادقا حين رفضت الزواج منه، فهو ليس أكبر من أبى وحسب بل هو قاس لا يرحم، ومتغطرس مغرور، لا يكبح جماح شهواته، ولا نزواته ولا شره..

أطرق لومبا ولم يجب، بينما قال مافى:

ـ نحن نخدم بلادنا بأن نخدم الملك، وعلينا الطاعة وعليه الأمر.

قبل أن تجيبه الأميرة زينب بنت السلطان، قال على الزيبق:

ـ ولاؤك لمليكك يامافى لم يمنعك من الدفاع عن الأميرة، ومقاومة مونجو حين ظهرت نواياه الخبيثة القذرة..

قال مافى وهو يتنهد:

ـ نحن فرسان أيها السيد، ولسنا لصوصا مأجورين، فنحن في درك الملك..

وقال لومبا مكملا حديث رفيقه:

ـ وعلينا حماية زوجة الملك المستقبلة مهما كلفنا الأمر.

قالت الأميرة زينب في مرارة:

ـ زوجة الملك المستقبلة التي يحظى بها الملك بالخطف والقسر، وعن طريق لصوص وقطاع طرق لا ضمائر لهم.

لم يجب الرجلان، بل تبادلا النظرات في صمت... قال علي الزيبق وهو يعود إلى مدخل الكهف ينظر من خلاله من جديد، ثم يعود ليواجههم جميعا:

ـ أين يضعكما كل هذا..؟ في كفة الشر أم في كفة الخير؟

ضربت زينب أرض الكهف بقدميها وهي تقول في حنق:

ـ بل في كفة الشر... منذ البدء وهما قد مهدا للصوص خطفي..

قال مافي مستسلما:

ـ كانت أوامرنا أن ننتهز غفلة من الحرس ونحضر الأميرة للملك ليرغم سلطان المدينة المرصودة على الموافقة على زواجه من ابنته، زواجا حقيقيا وشرعيا، ولم نجد غضاضة في هذا، فقد كان تصورنا جميعا أن الذي رفض هو السلطان، وأنه يترفع عن مصاهرة ملكنا، وهذه إهانة للملك ولنا، ولمملكة بحر الغزال كلها، فليست المدينة المرصودة من القوة والثقل بحيث

ترفض مصاهرة مملكتنا والارتباط بها مثل هذا الرباط المشرف.
صاحت الأميرة زينب في غضب:
بل نحن أكفاء له، ولو تعرض لنا بقتال لهزمناه..
ضحك لومبا، وصمت لحظات، ثم قال:
ـ هذا ما كنا نحاول أن نتجنبه.. الحرب بين البلدين، فقد كانت هذه الحرب ضرورية يوم رفضت أيتها الأميرة يد الملك، وجاء هذا الحل الوسط، أن نأسرك، فيرغم السلطان على الموافقة على مصاهرة الملك، وتتجنب البلدان حربا ضروسا، يسقط فيها شباب البلدين صرعى، بلا مبرر حقيقي.
قالت الأميرة زينب بنت السلطان:
ـ من أجل كرامتي وحرية اختياري تقوم الحروب... لماذا لا..؟ ضحك علي الزيبق ضحكة خففت من التوتر في جو الكهف، وقال:
ـ هذا حقك أيتها الأميرة، ولكن من حق شباب البلدين أن يتمتع بحياته ومستقبله، ولا يهدرها من أجل لا شيء.
صاحت الأميرة وهي تضرب أرض الكهف في غضب فائق:
ـ وهل أنا لا شيء..؟
لم يفقد علي الزيبق هدوءه، بل قال في بطء:
ـ لو نجح مونجو فيما انتوى عليه لكنت لا شيء الآن، وغدا، وكل غد مقبل..
أفحمت الأميرة، فصمتت، ثم جلست إلى أرض الكهف، وفي عينيها ألم وتعاسة، وضحك مافي وهو يقول:

ـ أنت تفهم أيها الفارس موقفنا، فلماذا القيد..؟
قال علي الزيبق:
ـ حتى أحتفظ بكما هنا إلى حين أقدمكما للملك.
قال لومبا فجأة:
ـ لك هدف.. أقسم أن لك هدفا تريد أن تحققه.
قال علي الزيبق مبتسما:
ـ بالطبع، فقد جئت إلى المدينة المرصودة لهدف معين، وساقت إلى الظروف وجودكما، والأميرة، وموبخو ـ ليسهل كل هذا إلى السبيل إلى حصولي على هدفي.
ساد الصمت الكهف فترة، وفجأة ضحك لومبا وقال:
ـ صندوق التواجيه... ليس من هدف لمغامر من الخارج إلا الصندوق، فكم تكسرت عليه رغبات المغامرين.. أنت تريد صندوق التواجيه..أليس كذلك..
وصمت الزيبق، فقد أذهله أن يصل لومبا إلى لب القضية بهذه السهولة.. ثم قال:
ـ وماذا في أني أريد صندوق التواجيه.
فوجيء الزيبق بضحك يملأ الكهف،ضحكت الأميرة زينب، وضحك لومبا، وضحك مافي..حتى امتلأ الكهف بالضحك وأحاطه ودار به،كل الموجودين يضحكون، ويضحكون، كأنهم يخرجون من أعماقهم كبتا مخيفا خيم عليها زمنا، ووجد في كلماته ما ينفس عنه، فانطلقوا يضحكون ـ ووجد نفسه بعد حين يضحك معهم، ويضحك وهو لا يدرى لماذا يضحك

..وقال لومبا :

ـ هذا شيء معجز لا طاقة لبشر به.

وقال مافى :

ـ لقد أحببتك أيها الفارس فاصرف النظر عن هذا الهدف المستحيل وضحكت زينب بنت السلطان ، وقالت :

ـ كم من الفرسان قتلوا إما داخل المدينة حين دل عليهم الرصد وبوقه ، أوعندما دخلوا الجزيرة فقتلتهم السيوف المسحورة.

قال على الزيبق :

ـ إذن فقد تجاوز بعض الفرسان الرصد وبوقه..

قالت زينب :

ـ من تجاوزوه تجاوزوه بإذن أبى ، ولم يفلح أحد منهم أبدا ، بل من غادر مدينتنا بعد أن دل عليه الرصد ، تلقفته السيوف فى الجزيرة فقتلته..

ونظرت إليه طويلا تتأمله ، ثم قالت :

ـ أنت حرام على الموت فمازلت صغيرا :

ضحك لومبا فجأة وقال :

ـ المدهش أن خطتنا لخطف الأميرة ما كانت لتنجح لولا أن طفيليامثلك حاول أن يدخل المدينة ، فأحس بها التمثال الراصد ونفخ فى البوق ، واستفر كل فرسان المدينة المرصودة للبحث عنه داخل المدينة المغلقة ، وكنا قد تسللنا من نفق حفرناه تحت سور المدينة ، فسهل علينا وسط هرج فرسان المدينة بحثنا عن

الغريب الذى دل عليه بوق الرصد، أن ندخل مخدع الأميرة ونأسرها.. والكل مازال يبحث عن الغريب المقتحم... ولو وجدوه لأوسعوه طعنا وقتلا، حتى لينسوا أمر وجودنا.

قال على الزيبق متسائلا:

ـ بالأمس دخل غريب إلى المدينة..من هو؟

ضحك لومبا وقال:

ـ من يدرى لعله أنت.

قال الزيبق فى جدية:

ـ لا لست أنا، ولكنه بالقطع أحد الذين يتعقبون خطواتى.

قال مافى:

ـ هم فى بحث عنه منذ الأمس داخل أسوار المدينة، وهم لم يفتحوا باب المدينة إلا حين عرفوا بغياب الأميرة.

قالت زينب بنت السلطان

ـ لابد أنهم أمسكوه وأعدموه.

ضحك على الزيبق وهو يعود مرة أخرى إلى فوهة الكهف ينظر عبره، ثم يعود فى سكون، ويقول:

ـ لم يعدموه بعد... ولم يعثروا عليه بعد.

قالت زينب:

ـ ماذا تعنى ياهذا..؟

وضحك لومبا ضحكته الهادئة وهو يقول:

ـ هذه هى العقدة، واحد هارب يطاردونه، والثانى هنا يمسك رهينة سلامته.

قال الزيبق :

ـ لم أقصد هذا أبدا، ولكنى لن أترك الآخر يموت ، كما لم أتركما لمصيركما المظلم .

قال مافى :

ـ تعنى مصير مونجو وعصابته.

قال الزيبق :

ـ هؤلاء لابد أن أسلمهم إلى سلطان المدينة لإعدامهم ، أما أنتما فأحسكما جديران بالثقة ، سأطلق سراحكما ، على وعد منكما أن تتعاونا معى بلا سؤال .

تبادل الاثنان النظرات لحظات ، ثم قال لومبا :

ـ أيها الفارس لقد كنت شهما معنا ، ونحن نعدك أن نكون معك .

اتجه على الزيبق إليهما يحل قيودهما ، وصاحت الأميرة :

ـ سيغدران بك

قال الزيبق ، ،وهو يحررهما تماما من قيودهما :

ـ أنا أثق فيهما . . والآن امكثا هنا مع الأميرة حتى أعرف ما يحدث خارج هذا الكهف . . . فمنذ حين والحركة والأصوات تعنى أن شيئا ما يحدث فى الوادى عند أطراف المدينة .

قال لومبا وهو يدلك رسغيه :

ـ لك وعدنا . . وسنظل هنا حتى تعود .

- ١٩ -

ملاعيب الصين

كان على الزيبق قد لاحظ هذه الضجة في الوادى منذ فترة، وخرج أكثر من مرة من الكهف يستطلع أمرها، فلا يطالعه إلا صوت معركة ضارية تدور فى الوادى. وكان لابد أن يعرف معنى هذه الأصوات ومغزى هذه المعركة، فتسلل فى حذر حتى لا يكشفه ضوء القمر الذى يغمر التل والوادى، ومضى يتسلل متنقلا من صخرة إلى صخرة، وهو يقترب تدريجيا من حافة الوادى، وكلما ازداد اقترابه، علت إليه أصوات تحدد مكان المعركة الضارية التى تدور هناك أسفل التل وعلى مشارف الوادى

ـ ولكن حين أشرف من أعلى التل على مكانها كان كل شيء قد انتهى أو كاد.. فارس واحد كان يذود عن نفسه ببراعة وشجاعة فائقتين، وكانت الأعداد التى تهاجمه من الفرسان تفوق الحصر، ولكنه كان يدفعهم عن نفسه، ويصد ضربات سيوفهم بسيفه وخنجره، ثم يقفز من وسطهم فى خفة ليصبح بعيدا عن متناول أيديهم وسيوفهم، وسرعان ما يحاصرونه من جديد.. وكان من الواضح أنه مثخن بالجروح فقد كانت ملابسه ملوثة بدماء غزيرة، إلا أنه كان مضرجا بالدماء، كما كانت الدماء تقطر من خنجره كذلك... وعجب على الزيبق من سير المعركة، فقد كان الإجهاد يبدو واضحا فى حركات الفارس الوحيد الذى بدا فى غاية التعب، وكان واضحا أن قواه قد خارت، وأن الإرادة وحدها هى التى تبقيه واقفا على قدميه، إلا أنه زال عندما أدرك أن المهاجمين لايريدون قتله، وإنما هم يريدون أسره ربما ليلقى مصيرا أتعس من الموت السريع بطعنة سيف وتسلل على الزيبق عائدا إلى الكهف بسرعة، وبادرته الأميرة بسؤال ملهوف:

ـ ماذا يحدث، هل فك مونجنو قيوده، وهرب من الكهف الذى حبسته فيه، هل هذه المعركة تدور بينهم وبين فرسان أبى؟

لم يرد عليها على الزيبق فى الحال، وإنما أخذ يعبث فى جرابه حتى أخرج جرندانا خاصا فحمله فى رفق ورفع رأسه قائلا:

-إنه فارس وحيد، وليس مونجو ورفاقه فهم مايزالون يغطون في نومهم في الكهف، ابق هنا يامافي، وتعال معي يالومبا فأنا سأحتاج مساعدة منك...

هب لومبا واقفا، بينما اعترضت الأميرة زينب طريق الزيبق قائلة:

-هل ستذهب لتقابل رجال أبي..

ضحك على الزيبق وهو يقول:

-إن عددهم يفوق الحصر، وسأكون مجنونا لو فكرت في الاشتباك معهم، ولكني أريد أن أخلص الفارس الذي يهاجمونه منهم... فأظن أنني أعرفه..

قال لومبا:

-ولكنك قلت إنك غريب عن هذه الديار.

قال الزيبق:

-وهو أيضا غريب عن هذه الديار.

-قال لومبا:

-غريب، لعله إذن الذي صرخ عليه الرصد، ونفخ في البوق حين دخوله المدينة، فهاجت المدينة وماجت، وتمكنا وسط هذا الهرج أن نأخذ الأميرة من حجرتها دون أن يتعرض لنا أحد.

قالت الأميرة في غضب:

-سيمزقونه بسيوفهم.

قال الزيبق:

ـ الغريب أنهم لايريدون قتله، واضح أنهم يريدون أسره حيا، وهذا هو الذى أبقاه قادرا على مقاومتهم حتى الآن.

قال مافى:

ـ واحد ضد هذا الجمع لابد أنه فارس ماهر شجاع.

ضحك على الزيبق وقال:

ـ لو أنه كان من أظن، فسيدفعون ثمن أسره غاليا..

قال لومبا:

ـ لعلهم يظنون أنه واحد من الذين اختطفوا الأميرة، ويريدون بأسره أن يدلهم على مكانها.

قال على الزيبق وهو يتأهب لمغادرة الكهف:

ـ هذا ما أظنه أيضا، هيا يالومبا اتبعنى عن كثب.

حين وصل على الزيبق إلى المكان الذى كان يطل منه على الوادى، وجد أن ما توقعه قد حدث بالفعل، فقد سقط الفارس فوق الأرض واحتاط به جنود المدينة المرصودة يقيدونه وهم يركلونه ويلطمونه ويصفعونه ويسبونه فى آن واحد، وسمع لومبا إلى جواره يتحرك فى قلق، فأشار إليه بالصمت، وقال لومبا هامسا:

ـ سيموت تحت وطأة غضب الجنود الذين أثخنوه بالجراح قال على الزيبق:

ـ امكث مكانك، وسأعود إليك حالا..

وحمل الجرندان وانطلق حتى إحدى الصخور، فكمن وراءها

وأخرج من الجرندان شيئا ثبته بحبل إلى الصخرة، ثم انتقل إلى صخرة أخرى بعيدة عن الصخرة الأولى، وعاد يعبث في حرندانه ليخرج منها شيئا يثبته إليها، ثم انتقل إلى صخرة ثالثة وأخرى رابعة وخامسة، وفي كل مرة كان يخرج من حرندانه شيئا يثبته إلى الصخرة ثم عاد وهو يلهث إلى مكان لومبا، الذى نظر إليه متسائلا، فقال له على الزيبق:

ـ قف متحفزا فسأعود لأشعل هذه الأشياء واحدة إثر الأخرى، وعندما تنطلق سترى الهول بعينيك فلا تخف، وتمالك نفسك، وأسرع إلى حيث يرقد الفارس الأسير فاحمله وعد به رأسا إلى الكهف، واتركه مقيدا كما هو..

قال لومبا متسائلا:

ـ والجنود الذين يحيطون به..؟

ضحك على الزيبق، وربت على كتف لومبا وهو يقول:

ـ لن يبقى منهم أحد في مكانه... وما أظنهم سيكفون عن الجرى إلى أن يدخلوا منازلهم ويغلقوها عليهم..

والآن تذكر، إياك أن تفقد رباط جأشك، وإياك أن تفك قيود الفارس..

وقبل أن يجيبه لومبا كان على الزيبق قد انطلق إلى الصخرة الأولى فكمن وراءها ولمح لومبا من مكمنه وراء الصخرة لهب نار، ورأى الصخرة، وفجأة انطلق هذا الشيء الأسطوانى إلى السماء محدثا دويا مخيفا ثم انفجر في السماء ليتحول

الظلام إلى نور براق وهاج وألف شهاب يندفع إلى السماء، وكل شهاب في لون، ثم يتحرك في السماء في شبه دائرة ليندفع إلى الأرض متوهجا . . . وارتفعت صرخات حادة من الوادي، وصهيل خيول، واندفاع أقدام . . وأفاق لومبا من ذهوله على صيحة علي الزيبق وهو يقول له :

ـ لومبا أفق، ولا تلق بالا إلى ما يجرى، أسرع إلى الفارس المقيد ثم انطلق يجرى إلى الصخرة التالية والمشعل في يده . . وما أن مسه حتى انطلق مارد من ضوء وصوت يرج السماء رجا ليرسم دوائر زرقاء وحمراء وصفراء كأنها أذرع تنين مخيف تتعقبه من السماء . .

وهز لومبا نفسه لينتزعها من حالة الذهول التي أصابتها ونظر إلى الوادي فإذا هو يخلو من الرجال وقد أسرعوا إلى المدينة يتدافعون ليسبق كل منهم الآخر، يدوسون من سقط، وهم يصرخون في ذعر وهلع . . ولم ينظر لومبا إلى السماء وإنما اندفع منحدرا من الجبل في سرعة نحو جسد الرجل فاقد الوعي، مقيد اليدين والقدمين الراقد مضرجا بدمائه فوق الأرض .

وحمله فوق كتفه، وانتصب . . ولكنه سرعان ما تجمد مكانه وقد شل الرعب حركته، وانداح العرق من جسده المرتجف كله، ففي السماء اندفعت ثعابين ملونة، تدور وتدور، وهي تطلق أصواتا أبشع من أصوات الرعد القاصف، ثم تتحرك وكأنما

ستتجه نحوه لتبتلعه .. وصاح لومبا رعبا وهو يجرى نحو الكهف كأنما يلتمس النجاة منه، من شياطين الضوء المجهولة التى ملأت السماء بصراخها، وحركاتها الخيفة وعيونها اللامعة وذيولها المضيئة، والهول الذى تهدد به الأرض ومن عليها..

لم يتوقف لومبا فى جرية حتى وصل إلى الكهف، وهناك وجد مافى والأميرة زينب يقفان فى فتحته وقد تجمدا من الرعب، ونظراتها الخائفة مثبتة فى السماء، بينما كان الحصان داخل الكهف يصهل فى صوت مذعور، ويضرب الأرض بحوافره كأنما يريد أن يتخلص من قيده ليجرى بكل قوته بعيدا عن هذا الهول المرعب... ورمى لومبا حمله على الأرض،ولم يلتفت إليه أحد، ووقف مثبتا عينيه فى السماء وسرعان ما دوى القصف من جديد وامتلأت السماء بنجوم لامعة ملونة، كل نجمة ما أن تلمع حتى تنفجر إلى مئات النجوم التى تندفع نحو الأرض كالشهب الحارقة، وجرى لومبا إلى الكهف يحتمى به، يتبعه مافى، وتتبعهما الأميرة التى جلست منهكة إلى الأرض وهى تخفى عينيها فى كفها، وجسدها كله يهتز فى عنف، ثم انخرطت فى بكاء مرير...

وفجأة ملأ مدخل الكهف ظل كثيف، فانتبه الكل فى ذعر، وتقاربت أجساد لومبا ومافى والأميرة والحصان... واشتعل ضوء، ثم خفت، ولمع ضوء المشعل فى يد الزيبق وهو يثبته إلى

نتوء صيخرة بارزة فى الكهف، وقال الزيبق:

ـ انتهى المهرجان، فكفى ذعرا وخوفا ـ سيهدأ كل شيء الآن، وتعود السماء صافية تحت ضوء القمر، ولاخوف علينا أن أشعلنا هذاالمشعل فلن يراه أحد، فكل أهل المدينة فى بيوتهم مذعورون وأسوار المدينة خلت من الحرس، وبوابة المدينة أغلقت .. والكل يلجأ إلى ما يعصمه من الهول الذى رآه.

قال الزيبق:

ـ إنه العلم، هذه ملاعيب الصين، ذخيرة أعطانيها الشيخ زكى البتوكى تنفع حين يخرب الأمر، وحين لاتريد أن تريق دماء لا داعى لإراقتها..

تحرك لومبا فى حذر، وهو يتحسس أعضاءه ليتأكد أنها فى مكانها الذى اعتاده منها، ثم قال:

ـ أنت ساحر قدير، ولم أشهد ساحرا مثلك، يطلق أعوانه من الشياطين فيدمرون كل شيء، ويردعون كل إنسان كما فعلت وليس فى بلادنا ساحر مثلك، ولاكبير السحرة وعظيمهم.

وقال مافى:

ـ أنا لم أشهد مثل هذه الدروع أبدا، إن شياطين الجن كلها تأتمر بأمرك أيها الفارس، مرة ترسل ثعبانا مضيئا يصطدم بسقف الكهف ثم يفح، فالكل بعد حين ينام، ومرة ترسل هذه الشياطين إلى السماء فالكل يهرب وإذا أنت تنال مبتغاك،

وتخلص فارسك من أسر أكيد.

ضحك على الزيبق وهو يقول:

ـ افهما ما تشاءان؛ المهم أنك فى منجاة من كل شىء، وإن فارسا نجا من الأسر، والموت البطىء، هاته يالومبا

نظر لومبا فى حذر إلى على الزيبق، بينما اتسعت عينا الأميرة زينب وهى تنظر إليه، وقال لومبا:

ـ هل أخرج من الكهف فى أمان..

ـ قال على الزيبق:

ـ اخرج.. وهاته، فأنت تركته مربوطا عند مدخل الكهف.

قال لومبا وعيناه تدوران فى محجريهما:

ـ ولن تصعقنى صاعقة من السماء؟

ضحك على الزيبق وهويقول:

ـ انتهت الصواعق، فلا تخف، اخرج، وهاته

قال مافى فى صوت مذعور:

ـ حذار يالومبا، إن السماء تمطر شياطين.

قال الزيبق:

ـ قلت انتهت كل صواعق السماء، اخرج يالومبا ولاتخف.

قالت الأميرة زينب:

ـ كيف فعلت هذا، هل أنت ساحر، أم حكيم تسخر الشياطين؟

ضحك الزيبق وهو يقول:

ـ ليس فى الأمر سحر ولا شياطين، ومع هذا، فأنا أعطيكم كلمة الأمان.. اخرج يالومبا ولن يحدث لك شىء.

واتسعت حدقتا لومباحتي بدت عيناه واسعتين،تتحركان فى كل اتجاه،وتلمعان فى وجهه الأسود،وقال:

ـ سأخرج، فأنا لست جبانا،ولكنما فعلته كثير، ومخيف.

قال الزيبق:

ـ أعطيك الأمان، اذهب وأحضر الفارس المقيد.

ثم مضى الزيبق إلى الجواد ، يربت على عرفه وعنقه ، ويهمس له كلمات رقيقة حانية، وهدأ الجواد ، وكف عن صراخه وقلقه... وحين هدأ الجواد خرج لومبا من الكهف، وعاد يجر وراءه جسد الفارس المقيد، ووضعه فى وسط الكهف، وقال:

ـ لم أشهد فعلا كقتال هذا الفارس، وأنت تقول أنك تعرفه، هل أحل قيوده.

قال الزيبق،وهو يفحص الفارس المقيد الذى لطخته الدماء:

ـ سأداوى جروحه أولا، ثم نتكلم بعد هذا.

ومضى على الزيبق إلى جرابه، يخرج حرندانا جديدا، وجعل يبحث فيه حتى وجد بغيته، فأخرج أوعية، ومضى يدهن جراح الفارس الغائب عن الوعى بعد أن يغسلها وينظفها جيدا، ثم مضى يربط الجراح بعناية ودقة، وحين انتهى من عمله تنهد وهو يعيد كل الأوعية إلى مكانها، وقال:

ـ سيشفى من جراحه بسرعة، فكلها جراح سطحية لا قيمة لها. ثم جمع حرنداناته وأعادها إلى جرابه، والتفت إلى رفاقه في الكهف وقال:

ـ لنهدأ ونتكلم بلا رعب ولا ذعر.

قالت الأميرة زينب بنت السلطان:

ـ أنت ساحر، وسحرك فوق كل سحر عرفناه.

قال الزيبق وهو يتحسس ذراعه حيث الحرق القديم:

ـ ليس في مداواة المرض سحر، إنما هو دواء، قد يشفى، وقد لا يشفى.. ولكنه الشيخ زكى البتوكى أعطانى ما يشفى فعلا، فذراعى رغم الحروق التى عاناها قد شفى، وأعتقد أن جراح هذا الفارس ستشفى بفعل هذه المراهم والأدوية كما شفيت جراح يدى من قبل.

قال مافى وهو ينظر إليه فى إكبار ورهبة:

ـ أنت تملك سر الموت وسر الحياة معا، هذا شيء يدعيه سحرتنا ولكنهم لم يوفقوا إلى إثباته كما فعلت أنت اليوم.

قال الزيبق:

ـ مالايعرفه الإنسان يظن أنه السحر، ولكنه يا صديقى حقائق وعلم، ولست فى مجال الشرح والإبانة يكفى أن تعرف أن فارسنا سينجو من جراحه كما قلت لك.

وكأنما كان حديثه على موعد مع إفاقة الفارس الجريح، الذى اهتز فى رقدته، وتنهد ثم همس:

ـ ماء أريد ماء .

وتحرك الزيبق إلى حيث رقدت قرب الماء ، وانتقى واحدة ، وفتح فوهتها ، ثم سكب قطرات فى فم الفارس ، الذي ابتلعها فى شوق ، ثم انتظر غيرها . . وقال الزيبق :

ـ حذار ياصاحب ـ اشرب فى بطء حتى لا يضرك الماء .

ثم قرب من فمه الماء . . . فمضى الفارس يشرب فى بطء وهدوء ، وحين رفع الزيبق قربة الماء ، قال الفارس :

ـ شكرا ياعلى ، كنت أريد قتلك فكنت حياتى .

وذهل كل من كانوا فى الكهف ، وقالت زينب بنت السلطان :

ـ أتسمع ، كان يريد قتلك .

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ هذا حسن ابن الحصرى ، الذى كلفه رئيس درك مصر بقتلى فكمن لى عند بئر النجاة ليقتلنى ، ثم تبعنى إلى هنا ليكمل ما طلبه منه مقدمه ، صمت حسن بن الحصرى لحظات ، وهو يجيل بصره فى المتحلقين حوله وقال :

ـ نعم كمنت لقتلك فى بئر النجاة ، وأردت أن أسبقك إلى المدينة المرصودة لأدبر لقتلك ، فاكتشفنى الرصد وأنجيتنى أنت . . وكنت كريما مرتين ، ومن هنا وإلى الأبد لا عداء بينى وبينك يازيبق ، فأنت خلقت لأن تكون الفارس والقائد والمنتصر ، وأنا أسلم لك بكل هذا ، صدقنى ، أو لا تصدق ،

ولكن هذه هى حقيقة ماأحسه وأنتويه، وافعل بى ماتشاء.

التفت الزيبق إلى لومبا وقال:

ـ فك قيوده فهو من الآن منا، وليس علينا.

صاحت الأميرة زينب في انفعال وغضب:

ـ ألم تسمع؟ هو أراد قتلك

قال الزيبق وهويضحك:

ـ أنا أثق في صدق كلماته ـ ففارس مثله قاوم كل رجال المدينة المرصودة جدير بالثقة.

قال لومبا:

ـ هو فارس مجيد.

وقال الزيبق: ـ وهو حليفى منذ الآن لو أراد

قال حسن بن الحصرى:

ـ من الحقد يتولد الحب ـ وأنا منذ الآن رجلك، فافعل بى ماتشاء قال على الزيبق:

ـ قلت لك يالومبا: حل قيوده، فهو من الآن منا.

-٢٠-

رجال الأقدار

قالت زينب بنت السلطان وهى تتأمل في حسن بن الحصرى، مقيدا وملقى فى أرض الكهف:

- تثق فيه، ومع هذا تتركه مقيدا.

ضحك الزيبق، وقال:

- فك قيوده ياماقى، فهو منذ الآن واحد منا.

ضحكت زينب بنت السلطان في ازدراء وقالت:

- واحد منكم..؟ ومن أنتم؟

نظر على الزيبق إليها طويلا، ثم أطرق برأسه وقال:

ـ نحن رجال غرباء، كل منا لم يكن يعرف الآخر، حتى ألقت بنا الأقدار لنلتقي في هذا الكهف، لاندرى ماذا تريد بنا القدرة، ولا ماذا تريده منا..

نهض حسن بن الحصرى، وهو يزيل القيود الممزقة عن رسغيه،ويدلكهما بيديه في شدة:

ـ لن تندم على هذه الخطوة أبدا يا على.

قال لومبا:

ـ مازلنا حيث بدأنا، وإذا كانت ملاعيب الصين المخيفة هذه قد أرست الرعب في قلوب أهل المدينة المرصودة، فسرعان ما سيتصورون أن الشياطين التي تهددهم قد انصرفت عن مدينتهم، ويعودون إلى البحث عنا من جديد..

قال زينب وهي تنقل ببصرها بين الرجال المحلقين حولها في الكهف:

ـ لن يحميكم شيء من غضب أبي وانتقامه..

قال على الزيبق:

ـ غضبه، لقد أنقذناك من أسر سلطان، ومما هو شر من أسر الملك سلطان، ذلك المصير المخيف الذى كان ينتظرك علي يد مونجو ورجاله...

قالت زينب، وهي تشير بأصبع الاتهام إليهم واحدا أثر الآخر:

ـ هذان لومبا ومافى أدخلا رجال مونجو إلى المدينة عبر النفق

السرى وكمنا لى،لايريدان بى إلا الشر . . . وهذا الذى أطلقت قيوده تسلل إلى المدينة لايريد خيرا لأحد،ولو كان ينتوى خيرا لاستسلم لرجال أبى كما فعل الدرويش الصالح حين دخل المدينة ونفخ عليه التمثال بالبوق المرصود . .

صاح على الزيبق وهو ينتبه فجأة :

ـ الدرويش الصالح . . ؟ أى درويش صالح ؟

تحول أصبع زينب ليستقر فى اتجاه الزيبق،وهى تقول متجاهلة سؤاله :

ـ وأنت أيضا لم تكشف عن نواياك ، حاربت أعداء أبى ، ولكنك حاربت رجال أبى ، وحررتنى من الأسر ، ولكنك مازلت تحتفظ بى أسيرة . .

قال على الزيبق فى اهتمام :

ـ أنت لست أسيرة أيتها الأميرة ، بل سأصحبك إلى أبيك فى الحال ، ولكن ما أمر هذا الدرويش الذى حدثتنى عنه منذ حين ؟

تأملته الأميرة زينب ، وقد ظهر التردد والحيرة على وجهها ، وقالت :

ـ الدرويش الصالح . . إنه رجل طيب لايعرف إلا العبادة والصلاة ، ولايأكل إلا الخبز الجاف ، ولا يعرف إلا ترديد التسابيح ، ولا يقيم إلا فى الزاوية الصغيرة فى نهاية المدينة ، ليفرغ لعبادته وصلاته .

لا يدرى على الزيبق لماذا انقبض قلبه عند سماعه لحديثها ،

ولكنه عاد يسألها :

ـ وهو غريب عن المدينة المرصودة ؟

قالت الأميرة زينب وقد أذهشها اهتمام الزيبق بأمر الدرويش : ـ منذ أسبوع تقريبا صاح بوق الرصد، فخرج الحراس ليجدوا هذا الدرويش جالسا في مدخل البوابة وهو يتلو تسابيحه ، وعندما سألوه، قال إنه ضل عن طريقه،وإنه غريب من بلاد بعيدة يحج إلى الأرض الحرام ماشيا ، وقاده الحراس إلى أبي الذي أعجبه صلاحه وتقواه ، فعرض عليه الطعام فرفضه مكتفيا بكسرة خبز ، وازداد اعجاب أبي به ، فلما عرض عليه أن يرتاح بالمدينة ليسترد قواه ، ويعاود السفر إلى بلاد الحجاز ، وافق على أن يقيم في الزاوية المتواضعة الصغيرة وينام على الأرض دون فرش تحته أو غطاء فوقه ، فآمن أبي بصلاحه وأصبح يستشيره في أموره ، ويقربه في مجلسه ، وكان دائما صاحب رأى سديد في كل ما يشير به عليه . قال علي الزيبق مكررا كلامها كأنما يريد أن يفهم وراءه شيئا خفيا :

ـ يسير إلى أرض الحجاز من بلاد مجهولة ، ويضل طريقه إلى هنا في المدينة المرصودة ، ولا يريد فيها إلا الراحة حتى يستأنف الرحلة . .

صاحت زينب بنت السلطان في غضب وهي تضرب الأرض بقدمها :

ـ لماذا تردد كلامي ،كأنك لا تصدقني .

هز الزيبق رأسه، ثم ابتسم وهويقول:

- كيف لا أصدقك وأنت أميرة البلاد، وأدرى الناس بمايحدث فيها.

ضحك حسن بن الحصرى ضحكة خشنة وهو يقول:

- تحيرك الصدفة. ثلاثة غرباء فى خلال أسبوع واحد يقصدون المدينة المرصودة، أنت ومهمتك لابد أن تمر عبر المدينة المرصودة، وأنا وتعرف أننى أتعقبك لقتلك، أماهذا الثالث فيحيرك أمره..

صاحت الأميرة فى إصرار:

- قلت إنه درويش صالح لا شأن له بأطماعكم وأحقادكم...

تنهد على الزيبق، وهو يلوح بيده منهيا الأمر، وقال:

- سنعرف كل شىء عنه فى حينه، أما الآن، فسأحملك على جوادى إلى المدينة.

قال لومبا:

- ونحن ؟

قال الزيبق:

- ستنتظرنى أنت ومافى وحسن هنا حتى أسوى الموقف بالنسبة لكم، وأعود إليكم..

قال حسن بن الحصرى:

ولكن لو فشلت، ولم يصدق السلطان أنك أنقذت الأميرة فيقتلك باعتبارك واحدا ممن اختطفوها..

ضحك الزيبق في استخفاف ،وهو يفك قيود جواده، ويسوقه إلى خارج الكهف، وقال:

ـ لن تعرف الأميرة الطريق إلى هذا الكهف، أما أنا فلم أدل عليكم، ولو تأخرت عنكم إلى نصف النهار، ساعتها تعرفون أنني فشلت ، وأنني أسير ، فليذهب كل منكم إلى حاله..

عاد حسن بن الحصرى يضحك ضحكته الخشنة، وهو يقول:

ـ تعجبنى رباطة جأشك ياعلى، وأعرف الآن أنني لم أخطىء حين انحزت إلى صفك..

ثبت على سرج الجواد ولجامه، وهو يربت على عنقه وكتفيه، والجواد يتواثب تحفزا، ورغبة في الانطلاق والجرى بعد سجنه الطويل في الكهف، وقال:

ـ حتى الظهر، بعد هذا كل في طريقه... والآن أيتها الأميرة، ستركبين أمامي فوق الجواد حتى المدينة.. وتقدم إليها وحملها، وكأنها طفلة صغيرة، ليضعهافوق السرج، ثم قفز وراءها، ولوح بيده للرجال الواقفين ينظرون إليه عند فوهة الكهف، وقال:

ـ أستودعكم الله..

وأخذ الجواد طريقه بين الصخورحتى ابتلعه الظلام.

كانت أشعة الفجر تزيل من أمامه فلول العتمة، والجواد يخب خبا براكبيه الصامتين متجها إلى بوابة المدينة المغلقة،

وفجأة مزق هدوء الفجر بوق ينفخ في صوت صاخب، وارتفعت الصيحة في المدينة، وقالت الأميرة بنت السلطان:

ـ لقد استدل الرصد عليك، ووشى بوجودك.

قال الزيبق وهو يعدل من وضعه على الجواد لتصبح يده اليمنى قريبة من مقبض سيفه:

ـ سنستمر ولنر ما سيحدث..

ضحكت الأميرة زينب، وهي تسوى خصلاتها التي تداعبها نسمات الفجر، وقالت وهي ترمق يد الزيبق القريبة من مقبض سيفه:

ـ لن ينفعك هذا في مواجهة فرسان أبى..

قال الزيبق في هدوء:

ـ لست أعتمد عليه إلا من اندفاعات الحمقى، إنما أنت تذكرة أماني.. أما لو حوصرت فأنت تعرفين ماذا أستطيع أن أفعل بفرسان أبيك، لقد جروا منذ قليل مذعورين أمام واحدة من ملاعيبي.

ارتجف جسد الأميرة وهي تقول:

ـ هذه الشياطين الملونة التي تقافزت عليهم من السماء.. كيف فعلت هذا؟

ربت الزيبق على كتفها يهدىء خوفها، وهويقول:

ـ هذا سر من أسراري، ولعبة من ملاعيبي، وهي هذه المرة لم تضر أحدا، فقد اكتفيت لإخافتهم وتفريقهم، أما لو حاولت

إيذاءهم وقتلهم، فسترين العجب..

ارتجفت الأميرة زينب، وارتجفت شفتاها وهي تقول:

ـ تريد أن ترعبني..

وقبل أن يرد عليها الزيبق، انفتحت بوابة المدينة الضخمة، وخرجت منها كوكبة من الفرسان المدججين بالسلاح، وما أن رأوا جواد الزيبق، حتى صاح قائدهم ملوحا بسيفه، فتحركوا بسرعة مشكلين قوسا يواجه الفارس الوحيد، وأخذوا يتقدمون في بطء وسيوفهم مشرعة، وخيولهم تتحرك ببطء وحذر، وقالت بنت السلطان في دهشة:

ـ لا أظنهم يخافون منك، وأنت فارس وحيد.. لماذا يتقدمون في حذر؟

ضحك الزيبق وهو يمتشق سيفه في يده ويلوح به، وقال:

ـ لقد تعلموا الدرس منذ الليل، فالفارس الوحيد الذي ظنوا أنهم تمكنوا منه ظهرت شياطين السماء والأرض لإنقاذه من بين أيدهم.

ثم قال في جدية:

ـ ناد عليهم وعرفيهم من أنت حتى لا يتهور أحدهم فتسيل دماء لا نريد لها أن تسيل.

ولم تنتظر بنت السلطان كلمة أخرى، فرفعت رأسها في كبرياء، ثم رفعت يدها وكفها مفتوح وموجه إلى الفرسان القادمين ،وصاحت في صوت جهوري آمر:

ـ اخفضوا سيوفكم، أنا زينب بنت السلطان أعود سالمة بفضل هذا الفارس إلى أبى ومدينتى..

وتوقف الفرسان إثر إشارة من قائدهم الذى وقف وسطهم حائرا، ثم صاح بجنوده أن يقفوا حيث هم، وأغمد سيفه، ومضى مندفعا بجواده نحوهما، فتنهد الزيبق فى راحة وأغمد سيفه، وهمس للأميرة:

ـ يبدو أن الأمر سيمر بسلام، فهذا الرجل عاقل ولاشك، ابتسمت بنت السلطان،وداعبت شعرها الذى يعبث به النسيم وقالت:

ـ هذا باسم قائد الفرسان، وهو يظن أنه يكن لى معزة خاصة، وما أظن أنه نام هذه الليلة بحثا عنى، وقلقا على.

ضحك على الزيبق، وهو يلكز جواده ليزيد من سرعته، فيقابل الفارس المتقدم فى نصف المسافة التى تفصل بينهما وقال:

ـ هذا ضمان أكيد لى..

قال باسم وهو يوقف حصانه فجأة ويمشق سيفه:

ـ كفى إلى هنا أيها الفارس، قف وحرر الأميرة، وأفصح عن هويتك..

أوقف على الزيبق جواده، ثم حمل الأميرة وأنزلها إلى الأرض، وترجل إلى جوارها وهو يمسك بمقود فرسه، وقال:

ـ هذه هى الأميرة زينب بنت السلطان، قاسم سلطان المدينة

المرصودة تعود آمنة سالمة إلى بلادها ومدينتها ،وقومها وفرسانها ، بعد أن تم إنقاذها من شرذمة اللصوص بقيادة الفاتك اللص مونجو ، ورجال الملك سلطان ملك بحر الغزال بقيادة فرسانه لومبا زمافى .

استندت الأميرة زينب إلى عنق الجواد ، وقالت :

ـ صدق هذا الفارس فلولاه لكنت جارية تباع فى الأسواق إن شاء مونجو ، أو زوجة ذليلة فى بلاط الملك سلطان أو لجح لومبا ومافى .

ترجل الفارس باسم ، وأعاد سيفه إلى قرابه ،وتقدم حتى اقترب منهما ، فانحنى أمام الأميرة زينب وهويقول :

ـ حمدا لله على سلامتك أيتها الأميرة ، لقد أزعجنا غيابك ، وأسعدنا الآن أن تعودى إلى ديارك . .

ثم التفت إلى الزيبق ، وقال :

ـ أيها الفارس الغريب ، نحن نرحب بك فى المدينة المرصودة ، منقذا لأميرتنا وسيدتنا ، ورمز سعادتنا كلها . .

قال على الزيبق وقد هز وجدانه إخلاص الفارس وصادق مشاعره :

ـ أيها الفارس ، أميرتكم تعود إليكم عالية الرأس مرتفعة الجبين ، أما اللصوص فهم فى أسرى ، ولم يستطع كل منهم أن يؤذيها بشيء رفع الفارس باسم رأسه متطلعا إلى على الزيبق ،وظل يتأمله لحظات ثم قال :

ـ لو صدقت فيما قلت أيها الفارس لكنت قرة عين السلطان ،ولكنت في نفس الوقت أخي .

امتشق على الزيبق سيفه ، فأجفل الجميع ،وتحركت الخيول براكبيها في قلق ، ولكنه قدمه إلى الفارس باسم ، ومقبضه يتقدمه وقال :

ـ أسلم نفسي إليك أيها الفارس ، فتقبل سيفي .

ونظر إليه الفارس باسم لحظات ، ثم تقدم نحوه في تؤدة ، وأخذ السيف وهو يقول :

ـ أيها الغريب أنت في حمايتي .

قالت زينب بنت السلطان في صوت غريب :

ـ وأنتما معا أيها الفارس تحميانى أميرة لهذه المدينة من كل شر . .

نظر إليه باسم في دهشة ،بينما ابتسم الزيبق وصمت ، واستمرت الأميرة زينب تقول في لهجة آمرة :

ـ قدنا أيها الفارس باسم إلى السلطان ،واحفظ حياة هذا الفارس كما تحفظ حياتي إلى أن نصل إليه .

ردد الفارس باسم بصره بين الأميرة زينب بنت السلطان ، وبين على الزيبق ، أكثر من مرة ، وأحس بشيء مر يملأ قلبه وصدره ، ولكنه لم يسعه إلاأن ينحني أمامها ويقول :

ـ تفضلا أمامنا .

وتحرك الزيبق يقود حصانه وإلى جواره الأميرة زينب ، ووراءه

الفارس باسم عابسا مفكرا، ووراءهم كوكبة الفرسان التى خرجت من المدينة عند الفجر، عندما أطلق التمثال المرصود صيحته المزعجة الصارمة فى بوقه.

كانت فرحة المدينة بدخول الأميرة غامرة، ففى كل مكان كان الموكب يدركه كانت زغاريد النساء تنطلق فرحة ملعلعة فى السماء، وكانت صيحات الرجال عالية مرحبة بالأميرة المحبوبة وموكبها، وكانت فرحة الصبيان والبنات غامرة فقد انطلق الجميع فى أهازيج فرحة تتعقب الموكب ناثرة الزهور، ومرددة كلمات الحب والوفاء... وقال الزيبق وهو يسير إلى جوار الأميرة:

- هم يحبونك أيتها الأميرة..

قالت زينب فى جمود:

- لأننى أحبهم أيها الفارس..

قال الزيبق:

- فرحتهم بعودتك ،أنستهم أننى غريب دل على الرصد..

قالت زينب فى نفس الجمود:

- أنت لاتعنى عندهم شيئا الآن أيها الفارس.

قال الزيبق:

- بل أعنى الكثير، فأنا الذى أعدت الأميرة المحبوبة إلى مدينتها. ضحكت الأميرة زينب بنت السلطان ضحكة جافة وقالت:

ـ سنرى رأى السلطان فى هذا..

ونظر إليها الزيبق، ولكنهارفعت رأسها فى أنفة ومضت فى طريقها تتلقى تحية الجماهير فى ابتسامة عريضة، وقد نسيت كل شيء عن على الذى يسير إلى جوارها إلى أن وصل الجمع كله إلى بيت السلطان.

فى القاعة الكبيرة المليئة بالناس المزركشى الأزياء، قال السلطان وهو يحتضن الأميرة:

ـ مرحبا بك أيتها الأميرة زينب، أزعجنا غيابك، حتى ظننا أننا لن نراك، ولكن شعب المدينة المرصودة الآن يحتفل بعودتك سالمة إلينا ،وأنا أيضا أعلن فرحتى وسعادتى بعودتك.

وأحس الزيبق أن فى هذا الإعلان شيئا غريبا وغير طبيعى، فالأب لايقول كل هذا الكلام احتفاء بابنته.. ولكنه سكت وهو يرى ماحوله..

كان مجلس السلطان منيرا فى هذه اللحظات الأولى من النهار، وكان الرجال المتحلقون حوله ينظرون إلى الأميرة فى انبهار وفرحة .. وكان الفرسان يتحلقون حول الفارس باسم فى ولاء واضح لقائدهم، وحب حقيقى لأميرتهم... وقال السلطان وهو يأخذ مجلسه فى صدر القاعة فوق كرسى سلطنته:

ـ ولكن هذا الغريب حكايته لاتعجبنى ، فقد دل عليه الرصد، ولا أطمئن إلى صدق نواياه، تقدم أيها الفارس حتى

أراك . . .فقد تنبأ الدرويش الصالح أنك ستظهر وسط النار، والدخان ،لتكون إيذانا بانهيار ملكنا فهل أنت هو هذا الفارس الذى يحمل سيفه النار والدخان.

سكت الزيبق ولم يجب بينما قالت الأميرة زينب :

- ياأبى لقد أنقذنى هذا الفارس من فرسان الملك سلطان ملك بحر الغزال الذين كانوا يريدون أسري وتقديمى إليه زوجة طائعة دون إرادتى . .

قال السلطان وهو يهز رأسه فى تؤدة:

- أحقا . . ؟

قالت الأميرة زينب بنت السلطان :

- لقد أسر مونجو وعصابته الذين أرسلهم ملك بحر الغزال لأسرى ، كما أسر لومبا ومافى سفيرى الملك الذين تقدما إلي خطبتى ، ثم سافرا مقهورين إلى ملكهما ،وعادا مع عصابة مونجو لاختطافى وإعادتى إليه أسيرة وغنيمة باردة . .

ضحك السلطان ، ثم سعل وقال :

- هل سمعتم ، أنا وافقت على زواج زينب بسلطان ملك بحر الغزال وهاهى تسمى رجاله عصابة ، ومحاولته الحصول عليها أسرا - وجريمة . .هى لاتفهم ولا تريد أن تفهم . .

ووجم البلاط كله ، ولم يجبه أحد ، وتلفت حوله ، فإذا الصمت يحيطه ، فاهتز فى مكانه ، وقال :

- هى ابنة متمردة حقا ، ولكننا نرحب بها ، فهيا نرحب

بعودتها سالمة إلينا .

وارتفعت الصيحات .. من كل مكان فى القاعة، مرحبة بعودة الأميرة التى أخذت مكانها فى هدوء إلى جوار السلطان والرجال جميعا يصيحون ويحيون .. والزيبق فى مكانه يرقب ويحاول أن يفهم فى صمت ..

-٢١-

الدرويش الصالح

جعل على الزيبق يتأمل الموجودين فى قاعة السلطان حوله، وسرعان ما أحس أن هناك شيئا غير طبيعى يحيط بالجو كله... فالذى لاشك فيه أن الفرحة تعم الجميع لعودة بنت السلطان سالمة، إلا أن هناك من ينظرون إليه نظرات كلها ترحيب وود، وهناك من ينظرون إليه بعداء وكراهية. وتذكر كلمات السلطان، وبدت له غريبة، فالسلطان رغم احتفائه بالأميرة ليس سعيدا بعودتها ، وكلامه كله لا صدق فيه ولاحرارة، بل بدا فى بعض عباراته لائما لها، متهما إياها، بعصيان أمره،

ورفض موافقته على زواجهامن ملك بحر الغزال.

وسمع الزيبق صوتا هادئا وقورا يقول له:

- مرحبابك في بلادنا أيها الغريب، لست أعرف كيف نشكرك على إعادتك الأميرة بنت السلطانة إلينا.

والتفت على الزيبق إلى مصدر الصوت الوقور.. ووجد كهلا يرتدى ثوبا أبيض وقد غزا الشيب شعره، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية رقيقة، وكان يمد إليه يدا رقيقة، فصافحها الزيبق وهويحس بارتياح إلى الرجل والصوت، ولمسة اليد جميعا... وعاد الرجل يقول بنفس صوته الهادىء الوقور:

- أرجو ألا تؤثر فيك لهجة السلطان، فهو لا يقصد إلا خيرا...

قال الزيبق:

- لا أكتمك أنها حيرتنى، ولكن من أنت أيها السيد الطيب.. ضحك الرجل الوقور ضحكة هادئة،وقال:

- أنا الوزير مروان، كنت وزير هذه السلطنة منذ تكونت واستقلت عن مملكة بحر الغزال، ومازلت وزيرها إلى الآن.

قال الزيبق وهويتنهد في مرارة:

- ترحيبك بي أيها الوزير ينسينى لهجة السلطان العدائية، ولكن لحظة، من هذا الرجل الطويل المتسربل في الخرق البالية الذي يرحب به السلطان؟

تابع الوزير مروان نظرات الزيبق حتى وقعت عيناه على

الرجل الطويل الذى يتقدم فى بطء ناحية مجلس السلطان، وتغير وجهه، وقال فى لهجة ساخرة:

ـ هذا غريب وفد إلى المدينة ولم يقتل.

وضحك، ومس ذراع الزيبق بيده مسا رقيقا وهويقول:

ـ ولن يقتل فقد آمن به وبورعه وتقواه السلطان، وهناك غريب آخر دخل مدينتنا أمس ولم يقتل، حين حاصره فرساننا، انطلقت قوى الجن فى السماء فزلزلت الأرض وتوهجت فى السماء منذرة مرعدة، فارتد عنه فرساننا بعد أن قيدوه، وحملته قوى الجن خارج المدينة.. وأنت الغريب الثالث الذى لم يقتل فأنت عدت إلينا بابنة السلطانة.

التفت إليه الزيبق وقال وعيناه تتابعان حركات الدرويش والسلطان:

ـ هذه هى المرة الثانية التى تسمى فيهاالأميرة زينب بابنة السلطانة، أليست هى بنت السلطان؟

ضحك الوزير مروان وقال:

ـ هذه مسألة بسيطة، فالأميرة زينب بنت السلطانة كوثر التى كانت تحكمنا وتزوجت من السلطان قاسم، وحين ماتت السلطانة كوثر، تولت بعدها الأميرة زينب، ولكنها كانت صغيرة جدا حين ماتت السلطانة كوثر فتولى مكانها زوج السلطانة كوثر حتى تصل الأميرة زينب إلى سن الرشد.

قال على الزيبق فى دهشة:

ـ فهى ليست ابنته اذن . .

ضحك الوزير مروان وقال :

ـ هى فى حكم ابنته ، وهو يظل يحكم حتى تبلغ سن الرشد فينتقل حكم السلطنة إليها .

صاح الزيبق دون أن يدرى أن صوته قد علا ،وقال :

ـ لهذا كان يريد تزويجها من ملك بحر الغزال رغم إرداتها .

تلفت الوزير مروان حوله محاذرا ، ثم همس :

ـ خافت من صوتك أيها الغريب ، فليس هذا الكلام مسموحا به هنا .

وصمت الزيبق واجما وعاد يتأمل الدرويش والسلطان وهما فى جوارهما الهامس البعيد . . . وعاد الوزير مروان يقول :

ـ وقد اقتربت الأميرة من سن الرشد ، وآن الأوان أن تشهد المدينة المرصودة سلطانة جديدة . . .

وهمس صوت رقيق على يمين الزيبق قائلا :

ـ بل هذاهو العام الذى يجب أن تعلن فيه الأميرة زينب سلطانة على المدينة المرصودة ، أيها الفارس الغريب .

التفت الزيبق فإذا بعينى الفارس باسم تطالعانه فى ضحكة مرحبة ، فقال :

ـ أهلا بك أيها الفارس ، كأنك تتابع حوارنا .

ضحك الفارس باسم وهو يقول :

ـ نحن فداء الأميرة أيها الغريب ، نفديها بأرواحنا ـ فنحن

فرسانها..

نظر على الزيبق إلى عينيه اللامعتين ، وقال:

ـ لم تحسنوا حراستها حين خطفت.

شحب وجه الفارس باسم وقال:

ـ من كان يدرى أن هناك نفقا يدخل منه المختطفون..

قال الوزير مروان:

ـ النفق لا يعرفه إلا الأميرة والسلطان.

قال الزيبق:

ـ أحدهما إذن هو الذى دل مونجو ولصوصه عليه.

قال الوزير فى تؤدة:

ـ أو دل فرسان ملك بحر الغزال.

قال الزيبق:

ـ تعنى لومبا ومافى؟

قال الوزير:

ـ أنالا أعنى أحدا.. فهذان الفارسان كانا ضمن سفارة دولة صديقة، ولست أستطيع أن أتهمهما بشىء.. إنماهو مجرد كلام..

قال الفارس باسم فى اندفاع:

ـ والكلام يتحول إلى همس يتناقله الجميع، وكلنا لا نعرف ماذا نقول، وماذانصدق؟

وفقد على الزيبق اهتمامه بكلام الفارس باسم والوزير

مروان ، إذ تحول الدرويش بوجهه ناحيته فى هذه اللحظة، فأحس الزيبق بيد قاسية تقبض على قلبه حتى ليكاد يكف عن الخفقان، لعله واهم، ولعل الخيال يلعب به، ولكنه واثق أنه يعرف هذا الوجه كل المعرفة، فلو رفعنا اللحية الكثة، وأزلنا الشعر الكثيف من فوق الحواجب، وأزلنا اللون الشاحب فوق جلد الوجه، والغضون... لكان هذا الوجه، هو وجه..

وقطع عليه وجومه صوت الوزير مروان وهويهز كتفيه هزا:

ـ لعلك فهمت مانريد أن نقوله لك فهو يعنى أنك وقفت دون أن تدرى فى وجه طموحات بعض الناس..

والتفت إليه الزيبق شاحب الوجه وهويقول مشيرا ناحية الدرويش والسلطان:

ـ منذ متى وهى هنا؟

تتبع الوزير إشارته،وهز كتفيه فى دهشة وهو يقول:

ـ هى، من تعنى ، لاأحد حيث تشير إلا السلطان والدرويش الصالح..

وهمس الدرويش فى أذن السلطان وهو يتابع همساته بحركات يديه، وهز السلطان رأسه ثم أشار إلى رئيس الحرس الذى تقدم نحوه وانحنى أمامه يسمع أوامر السلطان الذى كان يهمس بهاوهو يشير بيده إلى حيث وقف الزيبق، وردد رئيس الحراس كلام السلطان كأنما فى استفسار ، وعاد السلطان يردد أوامره الهامة فى صرامة، وهز رئيس الحراس كتفيه فى

استسلام، واتجه إلى حيث وقف الحرس، بينما ارتسمت ابتسامة مقيتة على شفتي الدرويش ، فندت عن الزيبق آهة لا إرادية وقال:

- هي دليلة لاشك.

قال الوزير مروان وهو يتابع حركة رئيس الحرس بعينيه:

- أنا لا أرتاح إلى هذا ، هناك شيء يدبر.. وشيء شرير لاشك..

همس الزيبق:

- حيث توجد دليلة لا يوجد إلا الشر..

قال الفارس باسم:

- إن الحرس يتجهون نحونا..

بينما قال الوزير مروان:

- عن أي دليلة تتحدث أيها الفارس الغريب.

وكانت كوكبة من الحرس تتجه إليهم، وفي مقدمتها رئيس الحرس، وأيادي الرجال على مقابض سيوفهم... بينما علت همهمات بين الموجودين في القاعة، وهم يفسحون للحرس طريقا للمرور... وصاح الفارس باسم وهو يشير بيده في انفعال:

- الأميرة..

ولفتت صيحته الجميع، لتتجه الأنظار إلى الأميرة التي كانت تقف، فوق خشبة عالية وتصيح في صوت

منفعل ،وعيناها الواسعتان تديران نظرات واجفة في وجوه الجميع:

ـ اسمعوني جميعا... أنا سعيدة بحفاوتكم بي، وبسعادتكم لعودتي سالمة إلى بيتي ورعيتي... ولكن يجب أن تعرفوا أنه لولا هذا الفارس ما عدت حية ومصونة إليكم..

وأشارت بيدها إلى حيث وقف الزيبق، فاتجهت الأنظار كلها إليه، بينما تردد قائد الحرس ووقف مرتبكا في مكانه، وتابعت الأميرة حديثها المتحمس قائلة:

ـ لولاه لفقدت ماهو أغلى من حياتي، كرامتي وحريتي، وقد كان مونجو وعصابته يدبرون لي ما هو أسوأ من الموت، ولولاه لتمكن رسولا ملك بحر الغزال لومبا ومافي من حملي إلى ملكهم سبية لا تملك من أمرها شيئا.. وارتفعت الهتافات بحياة الفارس الغريب، وارتفعت الدماء إلى وجه الزيبق حرجا، بينما لم تترك عيناه موقع الدرويش والسلطان، وعادت الأميرة تقول في حزم:

ـ أنا أعرف أنه على موعد عند الظهيرة، فاتركوه يمضي إلى موعده بسلام.

وتعالت الصيحات تحيي الزيبق من جديد، بينما أخذ السلطان والدرويش يتبادلان الهمسات، وقال الوزير مروان إلى جوار الزيبق:

ـ لقد آمنت لك طريق الخروج.. فاخرج الآن ولا تتردد

وامتشق الفارس باسم سيفه، وهويقول:
ـ سأصحبك لأؤمن لك مع رجالى طريق الخروج..
وقال الوزير مروان فى إلحاح:
ـ هيا تحرك، اخرج الآن أيها الفارس الغريب، فهذه فرصتك
وكانت عينا الزيبق معلقتين بالسلطان، فرآه يهب واقفا فجأة وهو يهز رأسه كأنما يوافق على ما يقوله له الدرويش، ورفع يده طالبا الصمت من الجميع، وقال:
ـ مامعنى هذا .. أيتها الأميرة لقد تجاوزت الحد فى الكرم والاعتراف بالجميل..
ووجم الجميع، واتجهت الأبصار إلى السلطان الواقف أمام مقعده في صدارة القاعة، بينما ابتسم الدرويش ابتسامة خفيفة، واتجه متسللا إلى خارج القاعة، وعاد السلطان يقول:
ـ الأميرة طيبة صدرت فيما قالت عن طيبة قلبها، وهى أيضا قليلة التجربة لاتعرف من أمر الرجال وخبثهم شيئا.. وعندى أن هذا الفارس جزء من المؤامرة التى استهدفت خطفها، وإلا كيف يتغلب وهو فرد على مونجو وعصابته، وهي العصابة التي دوخت كل رجال الدرك فى كل بلدان منطقتنا..
وتبادل الجميع النظرات الحائرة، بينما اهتزت رءوس توافق السلطان على حديثه ،وهمس الوزيرمروان فى حنق:
ـ إنه يهيج الجميع ضدك...ويقلب الحقائق لتعود كلها أصابع اتهام تشير إليك..

وعاد السلطان يقول فى ثقة وحزم:

- ولومبا ومافي وهما من أقدر فرسان الملك سلطان ملك بحر الغزال كيف نجا منهما إلا إذا كان شريكا معهما من أول الأمر.. وسكت وهو يجيل نظرة منتصرة بين الجموع في القاعة، ونظر إلي قائد الحرس منبها، ثم أشار إلى الزيبق قائلا:

- لقد حذر الحكيم من زمن أن الغريب الذى يدخل مدينتنا ويدل عليه الرصد بالنفخ في البوق، عدو لنا لابد من قتله في الحال. وهذا الرجل دل عليه الرصد، وسمعنا هذا الصباح نفخة في البوق وهو على مشارف المدينة، فكيف نعتبره صديقا وهو عدو دل عليه الرصد؟

ولم ينطق أحد ممن فى القاعة حرفا... وأحس على الزيبق بنظراتهم تتحول إليه فى اتهام، بل فى كراهية، كانوا جميعا ينظرون إليه، وهو لايرى منهم أحدا، وكلما تجول بعينيه فيهم لم يجد إلا نظرات حانقة تستعد للوثوب عليه، والاقتصاص منه لما حدث لأميرتهم... وهو وحده وسط بحر من الكراهية، وأحس الزيبق أنه محاصر.. وأنه وحيد.. ومد يده إلى مقبض سيفه، فهذه معركة لا مهرب منها..

وأشار السلطان إلي قائد الحرس وهويقول بلهجة آمرة:

- اقبضوا عليه.. واندفع الحرس نحو الزيبق، وانفجرت الجماهير تفسح لهم طريقهم إليه، بينما امتشق الفارس باسم سيفه، وصاح فى رجاله:

ـ إلى يارجال، فهذا منقذ الأميرة زينب بنت السلطانة...

واندفع نحوه نفر قليلون يمتشقون سيوفهم، ويحيطون بالزيبق، بينما تقدم الوزير مروان رافعا يده نحو قائد الحرس، وقال:

ـ انتظر لحظة أيها القائد..

ثم التفت إلى السلطان قائلا:

ـ ماتعودنا أن تصدر أحكامنا دون أن نسمع كلام من نتهمهم، والأمر في هذه الحالة بالذات يتعرض لحياة إنسان، وإنسان أسدى للسلطنة خدمة كبيرة حين أنقذ الأميرة، فلابد أن نسمع دفاعه قبل أن نسرع إلى إدانته..

وارتفعت صيحات ثانية ضعيفة، بينما ارتفعت صيحات استنكار جارفة، وصاح السلطان وقد أحس أن مد الجماهير معه:

ـ هل نسمعه؟..

وارتفعت كلمة:

ـ كلا.. كلا..

من كل مكان في القاعة، بل اندفع نحو الزيبق مجاميع من الناس يحيطون به وبكوكبة الفرسان شاهري السيوف الذين يحيطون به لحمايته، وكأنما يريدون باندفاعهم أن يخترقوا حاجز السيوف إليه ليمزقوه، وعاد الوزير مروان يرفع ذراعه وهو يقول في صوته الهادي الوقور:

ـ ألا يجوز أيها السلطان أن يكون قادما إلينا برسالة من قبل خليفة المسلمين في بغداد..

وتوقفت الصرخات، وسكنت حركة المندفعين نحو الزيبق، بينما كان على نفسه يفكر في هذا الموقف الغريب من السلطان وشيء في أعماقه يردد دائما اسم دليلة.. دليلة..

وضحك السلطان، وجاءت كلماته التالية فأكدت شكوك الزيبق، إذ قال:

ـ الخليفة في بغداد، ومالنا والخليفة في بغداد وهوبعيد عنا مشغول بقهر دويلات العجم التي تريد أن تتحرر من بطشه وجبروته ..وأين هو خليفة بغداد وهو لايكاد يقوى على صد حملات الافرنج التي سرعان ما ستقوض عرشه، وتحرر أمثالنا من حكمه..

وهمس الزيبق لنفسه وهو يذكر كلام أحمد الدنف:

ـ دليلة.. دليلة..

وصاح الوزير مروان:

ـ ما هذا يامولاي، نحن من رعايا الخليفة هارون الرشيد، وهذا الكلام يعرضنا لعقابه..

عاد السلطان يضحك في وحشية، وهو يلوح بيديه، ويقول:

ـ لن يصلنا الخليفة إلا عن طريق الوالي، وأنا معي حجة بولاية السلطنة من والي مصر، وهو الذي يريد منا أن نكف

أيدينا عن أعداء الخليفة، فلا نحارب حروبه، ولا نضحى بأموالنا وأولادنا من أجله، ومن أجل أن يزداد ثراء وسطوة وفجورا..

قفز الزيبق فجأة من وسط الدائرة التى تحيط به حتى واجه السلطان وصاح فيه:

- خسئت أيها الكاذب الفاجر..

ووجم السلطان، وارتبك الحرس، وساد الصمت القاعة، وقبل أن يدرك أحد ما ينتويه، كان الزيبق يعتلي عرش السلطان وهو يسل سيفه ويضع ذبابة السيف على عنق السلطان، وقد أمسك به بيده الأخرى بحيث قيد ساعديه جميعا... وجال ببصره بين المتحلقين حوله، وقال فى صوت مهدد آمر مخيف:

- لو اقترب واحد منكم خطوة واحدة، نفذ حد سيفى فيه إلى أن يحز العنق، وأرمى لكم الرأس القذر تحت أقدامكم.

ارتجف السلطان بين يدى الزيبق، بينما تراجع رئيس الحرس وحرسه، وتقدم الفارس باسم ورجاله فأحاطوا بالزيبق، الذى قال:

- هذه كلمات خائنة لايقولها إلا عملاء الافرنج الذين يريدون تمزيق وحدتنا، حتى نتفرق شيعا وأمما، وممالك فينشبوا أظافرهم فى كل جزء على حدة... وهذا السلطان خائن، وعميل للافرنج، ولممالك العجم التى انقضت على سلطة الخليفة بتحريض خبيث من الافرنج... أين هذا الدرويش القذر

اللئيم، فهو رسول والى مصر الخائن إلى عميله الخائن فى المدينة المرصودة، هذا الكلب الذى يرتجف بين يدى أمامكم.

وتلفت الجميع يبحثون عن الدرويش الذى اختفى ، وكأنما انفتحت فتحة فى الأرض وابتلعته ، بينما كان السلطان يصدر أصواتا غير مفهومة وهو بين ذراعى على وذبابة السيف مسلطة على عنقه، وقال الزيبق:

ـ أين هذا الدرويش المدعى، ابحثوا عنه فهو سبب كل هذه المصائب...

ولا أثر للدرويش وهاتف فى أعماق الزيبق يقول:

ـ آه يادليلة... دليلة

وقال قائد الحرس وهو يتقدم مع رجاله نحو الزيبق فى شجاعة:

اترك السلطان، وإلا مزقناك بسيوفنا وسهامنا.

ضحك الزيبق فى استهتار وقال:

ـ أول حركة تعنى موته.

وهنا وقفت الأميرة زينب فى مكانها السابق وهى ترفع ذراعيها وتقول:

ـ اسمعونى قبل أن تهجموا عليه لتخلصوا السلطان.

وسكت الجميع وهم يتطلعون إليها، فابتسمت وهى تقول:

ـ أمس حاصرتم أحد الفرسان الذين دخلوا المدينة، ودل عليه الرصد، وكدتم تصلون إليه، بل لقد أسرتموه وقيدتموه، ثم ماذا

حدث؟.. انطلقت شياطين الجحيم تملأ السماء بأيدى المردة وألوان عذاب الجحيم. أنا كنت هناك، هذا الفارس هو الذى أطلق كل هذا العذاب عليكم ليخلص الأسير دون أين يريق قطره من دماء فرسانكم ..وهو الآن أمامكم... من يريد أن يتعرض له فليتذكر جحيم الأمس.

وملأ الخوف قلوب الجمع، ونظر الكل إلى الزيبق فى ذهول وروع... وقال الزيبق:

ـ سأخرج الآن بالسلام.. ولن يخرج أحد من أسوار المدينة وأبوابها حتى أخبره بذلك، وإلا ضاع السلطان وضعتم جميعا... وفى وجوم شاهد الجميع سلطانهم وهو يساق أمام الزيبق وحوله كوكبة فرسان الفارس باسم ومعهم الوزير مروان والأميرة زينب وهم ينسحبون جميعا من القاعة، ثم من المدينة بأسرها..

-٢٢-

دليلة المحتالة

تلقى حسن بن الحصرى على الزيبق وأسيره عند باب الكهف، ولاحظ على الزيبق أنه يمتشق سيفه هو ولومبا ومافى، فدفع إليه السلطان قاسم أسيره وهو يقول له:

ـ تأكد أنه مقيد قيودا لافكاك منها، واحتفظ به داخل الكهف. قال حسن بن الحصرى متسائلا:

ـ من هذا؟ ملابسه تدل على أنه إنسان غير عادى.

ضحك لومبا ،وقال:

ـ هذاهو السلطان قاسم سلطان المدينة المسخورة.

صاح حسن بن الحصرى فى ذهول :

ـ أسرت السلطان ، تدخل وحدك إلى المدينة ، وتخرج وسلطانها أسير بين يديك ، حقا ياعلى لا نهاية لملاعيبك .

قال مافى متدخلا فى الحديث لأول مرة ، وهو يبتسم :

ـ لعله استعمل الثعبان النارى الذى يطير ، أو لعله استعمل الشياطين الغاضبة التي تلون السماء . .

قالت الأميرة زينب :

ـ بل استعمل سيفه وذكاءه هذه المرة . .

وكان على الزيبق قد نسى الأميرة والوزير مروان وباسم قائد الفرسان ، ومن تبعه من فرسان لحمايته من غضب جنود السلطان ، فالتفت إليها وهو يقول :

ـ لا مكان لك هنا أيتها الأميرة ، فمكانك فى مدينتك وقصرك . . قال الوزير مروان :

ـ أنت محق لابد أن نعود ، ونعلن بلوغ الأميرة سن الرشد ، وحقها فى أن تتولى مكان أمها السلطانة الراحلة . .

قال الفارس باسم :

ـ دون هذا معركة حاسمة مع رئيس حرس السلطنة ورجاله فهم من أتباع السلطان قاسم . .

قال على الزيبق فى حسم :

ـ السلطان فى يدى الآن ، وأنا أريده لأعرف أبعاد تآمره على الخليفة ، أم أنتم فمدينتكم ملككم أنتم ، وأميرتكم مسئوليتكم أنتم . مدت الأميرة زينب يدا لتضعها على كتف على الزيبق

وهي تقول:

ـ لقد رأيت من أفعالك ما يجعلني أعرف أنني سأحتاج إليك حتى يستقر لي الأمر في المدينة..

ربت على الزيبق على يد الأميرة في رقة وهو يقول:

ـ لن أتوانى عن تقديم أي عون يطلب مني... ولكن ابتعادك أنتم المخلصين من أتباع أمك الراحلة وأتباعك أنت خطر وخطأ..

تنهد الوزير مروان وهز رأسه الأشيب الوقور وهو يقول:

ـ كلامك عين الصواب، وأرجو أن نعود قبل أن يزيف رجال قاسم الحقائق أمام أهل المدينة... هيا أيها الفارس باسم، ولنصحب الأميرة إلى المدينة المرصودة..

نظرت الأميـــرة زينب طويلا إلى على الزيبق، وأطرقت برأسها وهي تقول:

ـ ألن تعود معنا..

وشحب وجه الفارس بسام وهو يرى هذه النظرة، وكان الزيبق يراقبه فشاهد النظرة الحزينة التي ملأت عينيه، وسعل الزيبق، ثم قال:

ـ أيتها الأميرة نحن من عالمين مختلفين، وعندما تنتهي مهمتي هنا لابد أن أعود إلى عالمي..

وعادت الدماء إلى وجه بسام، بينما ضحك الكهل الوقور ضحكة العارفين، وقال:

ـ كلما ازددت معرفة لك أيها الفارس الغريب ازددت إعجابا بك .. سنعود الآن إلى المدينة، وسأخطرك ما يحدث هناك إن

كنت ستظل هنا..

قال على الزيبق:

- سأستأذن الأميرة حين تصبح سلطانة المدينة فى قضاء حاجتى، وقبل هذا أنا أعد أمورى، وأرقب نجاحكم فى تثبيت عرش السلطنة لها، ولكن هناك شيئا لابد أن أحصل عليه فى الحال...

قالت الأميرة فى لهفة:

- لو استتب لى الأمر فى المدينة فهيكلها وما يتبعها يدين لك دينا لا وفاء له أبدا، وإن ترد الحصول عليه الآن فأمرك مجاب..

عاد الشحوب إلى وجه الفارس بسام، بينما قال الزيبق:

- دليلة؟

صاح الوزير مروان:

- دليلة؟ أتبحث عن امرأة؟

ضحك على الزيبق فى خشونة وهو يقول:

- بل أبحث عن أفعى سامة..

صاح حسن بن الحصرى فى دهشة:

- دليلة المحتالة هنا، وسط الغابات؟... الذى أعرفه أنها فى بغداد..

قال على الزيبق:

- بل هى هنا، ولابد من القبض عليها لنتجنب شرورها، أريد الدرويش الصالح..

قال الوزير مروان:

ـ أذكر حديثك عن هذا الدرويش وأنه همزة الوصل بين الوالي وبين السلطان ولكن ما علاقته بدليلة هذه التي تتحدث عنها؟

قال الزيبق في إصرار:

ـ هاتوا لي هذا الدرويش أكون قد حصلت على دليلة عدوتي وعدوة بلادي كلها..

قالت الأميرة في حماس:

ـ الدرويش الصالح في المسجد المنعزل عند آخر المدينة، ولابد أنه هناك يمارس صلاته وعبادته، وسآتيك به بمجرد دخولي المدينة..

ضحك الزيبق ضحكة جوفاء، وقال حسن بن الحصري:

ـ لو كان ما يعنيه الزيبق صحيحا، فلن تجدو لهذا الدرويش الصالح أثرا..

قالت الأميرة في ثقة:

ـ سنجده لك..

وقال الفارس بسام وقد تمالك نفسه:

ـ وسآتي به إليك بنفسي..

قال الزيبق:

ـ أمامكم في المدينة مهمة شاقة فهيا إليها، وإن احتجتم لي، فأنا موجود هنا أنهي حديثي مع سلطانكم..

كانت الشمس قائظة من جديد، تلفح الوجوه والأجساد بحرها، وتعصر الأجساد لتمتص مايخرج منها من قطرات

عرق، والزيبق وإلى جواره حسن بن الحضرى، ولومبا ومافي، يرقبون جميعا نزول كوكبة الفرسان تحيط بالأميرة ومتجهة نحو المدينة، وقال لومبا:

- ألم يكن من الأوفق أن نصحبهم فهم سيلقون مقاومة عنيفة في المدينة؟

قال الزيبق:

- هم يؤمنون بالحق الشرعي لأميرتهم، وسينجحون يالومبا، فلا يقف أمام الايمان بحق والدفاع عنه شيء.

قال مافى:

- إن قائد حرس المدينة شرير، ومعه أتباع كثيرون، وقد أقصى السلطان قاسم قائد الحرس الأصلى، وعينه فى مكانه، وجمع له مجموعة ممن لا ضمير لهم لمعاونته، وهم يركبون المدينة بالقسوة والعسف منذ تولى السلطان قاسم مقاليد المدينة.

قال الزيبق فى إصرار:

- لست أحب أن يقال إنها عادت إلى عرشها بمعونة من الخارج.. فهذا سيخلق لها الأعداء من داخل مدينتها.. لا، نحن سنرقب من بعيد، ولن نتدخل إلا إذا ساءت الأمور، وسترى يامافى أن أصحاب الحق حين يؤمنون به ينتصرون دون معونة أحد..

تنهد حسن بن الحضرى وهو يقول:

ـ أما آن لنا أن نعود إلى هذا الأسير الذى ينتظر داخل الكهف..

قال الزيبق فى غضب :

ـ قل هذا الخائن الذى تجمعت عنده شبكات الخيانة والتآمر.

قال حسن بن الحصرى :

ـ إذن هيا بنا

حين دخلوا الكهف الذى أضاءته أشعة الشمس المتسللة من الخارج، كان السلطان قاسم حزمة من الثياب الفاخرة المتكومة فى رعب عند نهاية الكهف.. وعندما شاهدهم السلطان قاسم يدخلون عليه، ازداد تكوما على نفسه، ورفع ذراعيه أمام وجهه كأنما يحمى نفسه من هجوم متوقع، وقال فى صمت مرتعش :

ـ أنا أخطأت فى حقك أيها الفارس ، وأنا أعفو عنك، وأجيبك إلى كل ما تطلب..

ضحك لومبا وقال :

ـ من يره الآن لا ير تغطرسه على عرشه..

وقال مافى :

ـ ينبغى أن أقول لك الآن وأمامه، هو الذى دلنا على النفق السرى الذى يسمح لنا بدخول المدينة دون أن يشى الطلسم صاحب البوق بوجودنا كأغراب..

اتسعت حدقتا السلطان فى رعب، وأخذ يجيل بصره بين الواقفين أمامه، وقال فى صوت متخاذل :

ـ كان هذا في صالح السلام بيننا وبين ملك بحر الغزال، الملك سلطان كان يريد الأميرة، وهي رفضته، وهدد بشن الحرب إن لم يتزوجها، وقد دللتكم على النفق حتى يحصل الملك سلطان على عروسه فتنتهي الحرب بيننا..

قال الزيبق:

ـ هي رفضته، ولا تريده، هو رجل عجوز، وهي صبية في أول شبابها، كيف سولت لك نفسك أن تسلمها أسيرة ذليلة إليه وهي الأميرة بنت السلطانة، وصاحبة الحق الشرعي في السلطنة.

بدا الذعر جليا في وجه قاسم، وتراجع بجسده حتى التصق بجدار الكهف، وقال:

ـ هي لا تعرف مصلحتها، وهي كابنتي..

قال الزيبق في حسم:

ـ هي ليست ابنتك..

ابتلع قاسم لعابه بصعوبة وهو يقول في اندفاع:

ـ لقد منحتها كابنتي ـ أحسن تربية، أحسن ملابس، كل طلباتها، كل التعليم والرحلات، وكل.. كل كل ما تريد..

قال الزيبق في قسوة:

ـ بل قل كنت تريد أن تتخلص منها، فتكسب شيئين معا، السلطنة خالصة لك، ورضا جارك القوى ملك بحر الغزال..

وازداد انكماش قاسم، وبدأ يرتجف، كل جسمه يرتجف،

كل وجهه يرتجف، كل عضلات شفتيه ترتجف.. وأشار بيديه، وقد احتبس الكلام في حلقه، واتسعت عيناه، وبدأ الزبد يغطى شفتيه..

قال حسن بن الحصرى في ازدراء:

ـ من أى معدن صنع هذا الرجل؟

قال لومبا في تشف:

ـ من المعدن الذى يدفع رجلا أن يتزوج من السلطانة فيدس لها السم ليصبح سلطانا، ثم يتآمر على ابنة السلطانة ليسلمها جارية لملك عجوز طامع في شبابها ليغدو له الجو خاليا، ليمارس شهواته ونفوذه وعظمته..

قال الزيبق:

ـ هو معدن العملاء، لقد عرف الفرنج كيف يدسونه في الوقت المناسب، ليكون المرشح للزواج من السلطانة، وليكون أداة عمالتها باقى عمره في السلطنة بعد ذلك..

صاح قاسم السلطان:

ـ لقد راعيت مصلحة شعبى، كانت السلطانة تفرض عليه الفقر، فأتحت له الثراء، أعطيته الأمن والأمان، وعلمته الطريق إلى الربح، يأخذ بقدر ما يشاء ولى أنا نصيبى، وللسلطنة نصيبها.. وقد أنهيت الحرب بينى وبين ملك بحر الغزال فلا حرب بيننا منذ توليت إلا حربا حررت فيها منطقة الأمان بيننا، فماذا تريدون .. أعطيت قلبى وعقلى وعبقريتى ووجودى

لصالح شعبى..

قال لومبا:

ـ وأسلمته منطقة الأمان يحكم فيها ويتحكم.

صاح السلطان:

ـ لا، بل نستثمرها معا، ونزرعها معا، وتعود عليه وعلينا بالخير والسعادة، ومن حق كل رجل فى شعب المدينة المرصودة أن يستثمر ماله فيها.. وأن يثرى ويسعد، فقط يعطينى حقى، ويأخذ حقه..

قال حسن بن الحصرى:

ـ والأميرة زينب أيها السلطان أكانت جزءا من الصفقة؟

شد قاسم من قامته ووقف مستندا إلى حائط الكهف، وهو يلوح بيديه المقيدتين، وقال:

ـ هى لاتعرف مصلحتها، كانت ستغدو ملكة مملكة بحر الغزال، و،تغدو المسيطرة على كل الأمور هناك، فالملك كان سيعطيها كل ما تتمنى ويجعلها سيدة قصره وبلاده... هل أخطأت.. لا... بل أنا فعلت الصواب لها، وضمنت وجود قوة تساندنى، وتقف إلى جوارى ضد كل أعدائنا، أعداء المدينة المرصودة، وأعداء مملكة بحر الغزال أيضا..

قال الزيبق وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

ـ ومن هم الأعداء أيها السلطان؟

وجم السلطان، وأجال عينيه المذعورتين فى الرجال المتحلقين

حوله ثم تمالك نفسه وقال :

ـ أعدائي .. أنا سلطان المدينة المرصودة، وكل عدو لي هو عدو للمدينة المرصودة ..

قال الزيبق :

ـ حتى الخليفة هارون الرشد .

صاح السلطان قاسم دون أن يتلبث :

ـ بل هو عدوى الأول ... يأخذ مني الخراج بدعوى حرب الافرنج، وليس بيني وبين الافرنج عداوة، مالي أنا والافرنج ... ويأخذ مني الأموال ليحارب الخارجين عليه من العجم ... مالي أنا والعجم .. لا .. هو طاغية مستبد، يريد أن يقيم العداوة بينه وبين دول العجم .. ولكن مالي أنا وهذه العداوات كلها، أنارجل أريد السلام ... وأريد لبلدى السلام.

قال لومبا :

ـ السلام مع ملك ملك بحر الغزال عبث، فهو يريد المدينة المرصودة كلها وما يتبعها وخاصة الجزيرة المسحورة، فالسلام معه يعني أنك تعطيه كل شيء حتى الجزيرة المسحورة ..

قال قاسم السلطان وهو يتمالك نفسه :

ـ أنا لا أسمح لكم أن تحاكموني، من أنتم، من تكونون، ليلتزم كل منكم مكانه، أنا السلطان .. أفهمتم؟

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ أنت لا تدرك أنك لم تعد السلطان ، أنت أسير ..

صاح السلطان فى عنف وهو يشير بيديه المقيدتين فى حركات عنيفة:

ـ بل أنا السلطان شئتم أم أبيتم؟ فعندى براءة من والى مصر، وعندى تأييد من الافرنج، وعندى موافقة من العجم، وعندى اتفاق مع ملك بحر الغزال... فما أنتم إلا قطاع طرق وسفلة... أنا السلطان..

قال الزيبق فى صوت هادىء:

ـ أيها السلطان.. هل والى مصر موافق على ما تقول من مواقف مع الافرنج والعجم الغازين، وملك بحر الغزال المتربص بك وبشعبك..

اندفع السلطان قائلا:

ـ حمل لى الدرويش الصالح براءة ولايتى وسلطتى على المدينة المرصودة من والى مصر وسلطانها.. فماذا تقولون فى هذا؟...

قال الزيبق:

ـ أتعنى والى مصر ضد الخليفة، هذه دسيسة لا أصدقها.

صاح السلطان:

ـ الدرويش الصالح قال لى هذا:

قال الزيبق:

ـ الدرويش الصالح ليس إلا دليلة عدوة المسلمين وعدوة الخلافة الإسلامية كلها..

سكت السلطان قاسم لحظات يتأمل فيها الزيبق وقال:
ـ لم تقل لى حتى الآن من أنت؟ ما اسمك؟
قال الزيبق:
ـ اسمي علي الزيبق..
صاح السلطان وهو يضرب بقيوده الجدران والأرض:
ـ لقد حذرنى الدرويش الصالح منك، وقال احذر هذا الغريب فهو عدوك، وهو بألف جيش، وألاعيبه تفوق قدرة الفرسان والجيوش المجيشة، إذن فأنت عدوى.. أنت الزيبق...
وهنا صاح صوت من باب الكهف، فالتفت الجميع نحوه ودخل الفارس بسام وهو يقول:
ـ لقد اختفى الدرويش الصالح أيها الفارس الغريب، ولم نعثر له على أثر..
قال الزيبق:
ـ كنت أتوقع هذا، وماذا عن معركتكم داخل المدينة.
قال الفارس بسام:
ـ أيدنا الشعب كله، ومازلنا نحاصر قائد الحرس ورجاله الذين يقاتلون فى ضراوة... ولكننا سننتصر..
قال الزيبق:
ـ لن تحتاجوا لنا..
قال الفارس بسام:
ـ نحن كفيلون بأعدائنا، وسننتصر، فقط جئت أخبرك أن

كل المحاولات التى بذلت للبحث عن الدرويش الصالح باءت بالفشل.

قال الزيبق:

ـ هذا ماتوقعته.. امض الآن إلى مدينتك، وأخبرنى بكل ما يستجد من أحداث..

ثم التفت إلى لومبا قائلا:

ـ اذهب وأحضر مونجو ورجاله من الكهف المغلق عليهم..

انصرف الفارس بسام مسرعا نحو المدينة، بينما قال الزيبق:

ـ طالما دليلة طليقة، فنحن بعيدون عن أى نصر.

وقال السلطان قاسم:

ـ الدرويش الصالح وعدنى بالنصر وهو كفيل بإحرازه رغم كل القيود التى يحيطونى بها هنا..

وفجأة عاد لومبا صارخا وهو يقول:

ـ لقد اختفى مونجو وعصابته، الصخور حول الكهف اختفت، وحين دخلت الكهف وجدت قيودهم ممزقة، ولم أجد واحدا منهم.

صاح الزيبق:

ـ هذه دليلة.. دليلة المحتالة، أطلقت سراحهم.

-٢٣-

كان يعرف أنك الزيبق

ساد الصمت الكهف، والكل قد وجم في ذهول، وقطع الصمت ضحكة السلطان قاسم، وهو يقول:

ـ قلت لكم نحن لانقهر، أنتم كتبت عليكم الهزيمة، نحن لنا الغلبة..

صاح لوميا:

ـ اسكت.. ولا تتكلم..

بينما قال مافى:

ـ كيف تخلصوا من قيودهم، هذا شيء محير..

قال حسن بن الحصيرى فى تؤدة:

ـ مادامت دليلة فى هذا المكان، فلا شيء

مستبعد، فلا يعرف أحد كيف تعرف دليلة الحقائق، ولاكيف تنفذ دليلة مآربها من خلال الحقائق، فتفعل ماتشاء.

قال الزيبق:

ـ ماذا ياحسن؟ هل فقدت ثقتك فى؟

قال حسن بن الحصرى:

ـ أذهلنى خلو الكهف من المأسورين فيه.

قال الزيبق:

ـ لقد جعلنا هذا نعرف عن يقين أن عدونا هو دليلة المحتالة وليس غيرها..

فجأة ارتفعت ضحكات السلطان قاسم ترج الكهف كله ـ ووجم الجميع، وصمتوا ثم قال السلطان:

ـ أنتم مجرد أفراد لا قيمة لكم... أما دليلة فهى القوة فوراءها الافرنج ووراءها العجم معا نعم هى دليلة... لو أنا منكم لاستسلمت، وطلبت النجاة والسلامة، وأنامستعد أن أتوسط لكم لتنجوا بأعناقكم وعاد يضحك من جديد حتى هب حسن الحصرى من مكانه فى عصبية وهو يقول:

ـ سأسكت صوت هذا الكلب.

قال الزيبق:

ـ بل اتركه فنحن نعرف منه، ومن عوائه الكثير.

ثم التفت إلى قاسم السلطان فى قيوده وتعاسته، وسأل:

ـ وإلى أى حد سيساندك والى مصر أيهاالسلطان قاسم.

ضحك السلطان قاسم فى عصبية وهو يقول :

ـ ألم يقل لى الدرويش الصالح ، الوالى سيساعدنى إلى أبعد حد ، فهو ليس وحده فى هذا ، هناك ولاة كثيرون معه . ويوم ننقض كلنا على الخليفة لن يبقى لبغداد أحد ، حتى بغداد نفسها فيها من سيقوض تماسكها من داخلها نفسه . . . كل شىء محسوب وموقوت . . وأنتم تلعبون فى الوقت الضائع ، استسلموا تسلموا ، وسأقودكم إلى النصر .

ونظر كل منهم إلى الآخر فى حيرة ـ هذا رجل مهزوم ، مقيد ، محاصر داخل كهف فى الجبل ، ومع هذا فهو يتحدث عن النصر ، ويحلم أن يقودهم . . . وهو حتى لا يعرف من هم . . قال حسن الحصرى وهو يتنهد :

ـ كلهم من عجينة واحدة . . القصور فى النظر . . . والفائدة الشخصية ، وتضخم الذات وإحساس العظمة والسيطرة .

ثم توقف عن حديثه ، والتفت إلى الزيبق فى عنف وهو يقول :

ـ متى تتركنى أجز رقبته ؟

قال الزيبق :

ـ حتى نسترد مونجو وعصابته ، ونعرف أين دليلة ، وحتى ندبر تحقيق الأمان للمدينة المرصودة ولأميرتها زينب بنت السلطانة .

قال لومبا :

ـ وكلنا سنتعرض لخطر الموت . . . ولكن دليلة التى أخرجتهم من الكهف لن تقف عند هذا الحـد ، فلهـا خططها الأخرى ،وأخشى أن يكون فى مخططها خطف الأميرة زينب بنت السلطانة ، وحملها إلى الملك سلطان .

قال حسن بن الحصرى :

ـ لقد قال هذا السلطان كل ما نود معرفته حتى دون كلمة تهديد واحدة منا وهو يعنى أن المؤامرة كبيرة ، وإن معرفتنا بها خطر علينا وعليهم فنحن أيضا مستهدفون ـ فنحن نعرف أكثر مما ينبغى . .

قال لومبا :

ـ الملك سلطان ملك بحر الغزال لن يهدأ له بال حتى يقضى علينا أنا ومافى لأننا فشلنا فى مهمتنا ، ولأننا نعرف أكثر مما ينبغى كما تقول أيها الفارس لا عن وضاعته الشخصية وحسب ، وإنما عن تآمره على الإسلام والمسلمين كذلك .

قال الزيبق :

ـ بعد اختفاء مونجو ورجاله لا بقاء لنا هنا ، فلنحمل أمتعتنا ونرحل إلى مكان آخر .

قال حسن بن الحصرى :

ـ إلى أين ياعلى . . ؟

وقبل أن يكمل سؤاله . . .قطع عليهم الحديث صوت صادر من فتحة الكهف ينادى عليهم . . . وحين اندفعوا إلى خارج

الكهف، كان الوزير مروان يركب على فرس أشهب، ووراءه كوكبة من الفرسان، وكان يشير إليهم إشارة الأمان ويقول:

ـ لقد استتب لنا الأمر فى المدينة المرصودة أيهاالفارس، وهرب قائد الحرس ورجاله، وترجو الأميرة أن تحضر أنت ورجالك إلى المدينة لتشهدوا الاحتفال بأعياد تنصيبها سلطانة على المدينة.

وصاح مافى فى فرح:

ـ إذن انتصر الحق.

وقال لومبا:

ـ ستغفر لنا السلطانة دورنا فى مؤامرة خطفها؟

قال الوزير مروان:

ـ لقد أصدرت عفوا عنكما.. وعن كل من أساء إليها ـ والآن هيا معى إلى المدينة..

قال الزيبق:

ـ نذهب معك، ولكن السلطان يبقى هنا.

قال الوزير مروان:

ـ بل لابد لنا من السلطان قاسم لمحاكمته أمام الجماهير، وإعدامه ضحك على الزيبق وقال:

ـ إن ما لدى السلطان من معلومات تهم الخليفة فى بغداد أكثر مما تهمكم هنا، أمامسألة إعدامه فهى متروكة لعدالة الخليفة وحكمته... آخر الأمر أيها الوزير مروان لا سلطان

لكم عليه طالما هو أسيرى ، فأنا من رجال الخليفة، وأسيرى هو أسير الخليفة.

قال الوزير مروان محتجا :

ـ لقد ارتكب من الجرائم ما لابد من محاسبته عليها فى المدينة المرصودة..

قال الزيبق :

ـ هذا صحيح، ولاينكره أحد ـ ولكن لو أسلمناه إليكم لا نستطيع بعدها أن نعرف منه حقيقة التآمر على الخلافة وعلى وحدة المسلمين وأمنهم، وكذلك نحن نريد باقى الشركاء، أسماء باقى المتآمرين، فإن كان هذا السلطان قد وقع فى أيدينا وعزلتموه، فإن غيره من الخونة مازال يرتع فى بحبوحة من السلطة والنفوذ.

تنهد الوزير مروان وهو يحرك مقود فرسه ويومىء برأسه الأشيب إلى حيث تكوم الاسير، وقال :

ـ سأترك هذا الأمر للأميرة تقرره معك، وهوالآن على عهدتك، وستقدمه إليها إن أرادت وقت أن تريد.

قال الزيبق فى ارتياح :

ـ نعم القرار أيها الوزير مروان..

قال حسن بن الحصرى :

ـ ومن الذى يبقى معه لحمايته، فبعد سرقة مونجو وعصابته من الكهف الآخر لا أمان هنا.

قال لومبا :

ـ سأحرسه أنا ومافي ،فوجودنا في المدينة سيذكر الأميرة بالأوقات السوداء التي قضتها في صحبتنا وصحبة مونجو ورجاله ، وكفى أنها عفت عنا ، فلاداعي لنعكر صفوها في يوم نصرها بوجودنا .

قال علي الزيبق وهو يتجه إلى جواده يسرجه :

ـ إذن أذهب أنا والمقدم حسن بن الحصرى .

وهنا أشار الوزير مروان إلى أحد الفرسان فترجل عن جواده ، وقدمه إلى المقدم حسن ، بينما ركب هو خلف أحد الفرسان الآخرين جواده ... وقال الوزير مروان :

ـ هيا بنا فالمدينة المرصودة تريد أن تشرككما معها في أفراحها .

كان دوى الطبول يصلهم من بعيد ، مصحوبا بدق الدفوف ، وصليل الصنج ، وصيحات الأبواق ، وضجة الجماهير وصخبهم ... وكانوا كلما ازدادوا قربا من المدينة ازدادوا إدراكا لمدى الفرحة التي عمت أهالي المدينة المرصودة .. وحين ازداد اقترابهم من الوادى شاهدوا الزينات والأعلام وهى تعلو سور المدينة وتبدو من البوابة المفتوحة تزين الدور والمباني ، وقال حسن بن الحصرى وهويخب بجواده إلى جوار الزيبق والوزيرمروان :

ـ هذه فرحة حقيقية ، هل يحب أهل المدينة الأميرة زينب كل

هذا الحب..

قال الوزير مروان وهو يعبث في لحيته الشهباء:

ـ هذا جانب، والجانب الآخر أنهم كانوا يكرهون السلطان قاسم كراهية عميقة، ولكنها كانت مكبوتة في الصدور، محبوسة في القلوب، فلما زال سلطانه، انفجرت هذه الكراهية تعبر عن نفسها في هذه الفرحة الغامرة..

وقال الزيبق، وهو يجيل بصره حوله:

ـ وما أخبار دليلة، أعنى الدرويش الصالح..

ضحك الوزير مروان وهز كتفيه، وهو يقول:

ـ مازال البحث دائرا عنه، أعنى عنها، فلم يجدها الفرسان في المسجد الصغير في نهاية المدينة ولا في أى مكان آخر، والفرسان ينقبون المدينة كلها بحثا عن درويشك الصالح هذا.

قال حسن بن الحصرى في مرارة، وهو يربت على عرف جواده:

ـ ولن يعثروا لها على أثر، فإذا كان الزيبق اشتهر بإفلاته من الشراك، فدليلة لا تقل عنه مهارة وحيلة.

قال الوزير مروان:

ـ الزيبق..؟ وأين منا الزيبق الآن..؟

التفت حسن بن الحصرى إلى الوزير مروان في دهشة وهو يقول مشيرا إلى على:

ـ كل هذا ولا تعرف إن هذا الفارس هو على الزيبق؟

وجم الوزير مروان، وأوقف حصانه ، فتوقف الركب كله، وجعل يتأمل فى الزيبق وعلى وجهه ترتسم تغييرات مضحكة..ثم قال في تردد:

-أنت .. الزيبق؟... كان يجب أن أعرف، فهذه أعمال لا يستطيع الإتيان بها إلا الزيبق نفسه..

ثم ضحك فجأة، وهو يهز رأسه فتهتز معها لحيته، والكلمات تتلاحق على شفتيه وهو يقول:

-إذن فهذا هو السر... إذن فهذا هو السر... كان السلطان يعرف، مؤكدا كان يعرف..

عبس الزيبق، وهو يهدىء من حركة جواده الذى يريد أن يعاود السير ، وقال:

-أى سر، وماذا كان السلطان يعرف؟

قال الوزير مروان، وقد تمالك نفسه:

- كان هناك من حذر السلطان قاسم بأن عيارا من مصر اسمه على الزيبق شديد الحيلة والخطورة سيأتى إلى المدينة ليحصل على صندوق التواجيه .. وقد حذر قائد حرسه منه، وبث العيون والأرصاد لترقبه ، فقد كان المطلوب منه أن يقضى عليه فور اكتشاف أمره، ولا يمهله لكى يمارس حيله وملاعيبه..

قال حسن بن الحصرى:

-لعلها دليلة أو الدرويش الصالح كما تسمونها.

هز الوزير مروان رأسه نافيا وهو يقول:

ـ لا، كان هذا قبل وصول الدرويش الصالح إلى البلاد.. ولكن المؤكد أن الدرويش دله على حقيقة شخصيتك يوم غدت بالأميرة، ولهذا فقد حاول بكل الوسائل أن يقلب الناس عليك، وأراد اعتقالك رغم ماقدمت للأميرة من خدمات، وقد أدهشنى موقف السلطان غير المفهوم يومها.. أما الآن فقد ظهر السبب، فقد كان يعرف أنك الزيبق...

وتذكر الزيبق تلك الهمسات التى كان الدرويش والسلطان يتبادلانهايومئذ، وفهم سر إشارات الدرويش الغامضة، وسر موقف السلطان المحير، فهز رأسه وقال:

ـ صدقت فى هذا أيها الوزير مروان، السلطان كان يعرف أخبرته دليلة يومها.

هز الوزير مروان لجام فرسه، واستأنف السير وإلى جواره الزيبق وحسن بن الحصرى ووراءه الفرسان عابرا الميدان الصاخب بالمبتهجين الفرحين من أهل المدينة، ومقتربا من سور المدينة وبابها المفتوح ... وتعرف الكثيرون على الوزير مروان فصاحوا يحيونه، وتعرف آخرون على الزيبق وعرفوا فيه منقذ ملكتهم فتعالى الهتاف تحية له، وتعرف بعضهم على حسن بن الحصرى باعتباره الفارس الذى دوخ رجالهم فى قتال مر، انتهى بانطلاق الشياطين المضيئة الملونة فى السماء... وكان الركب كلماتحرك ازداد المنضمون إليه والسائرون وراءه، كما ازداد صياح أهل المدينة وجلبتهم حتى تحول الركب إلى مظاهرة

حماسية صاخبة... وضحك الوزير مروان وهو يقول مبتهجا:

ـ لم يحدث فى حياتى قط أن حظيت بمثل هذا الاستقبال الحماسى..

قال الزيبق وهو يضحك:

ـ لم يحدث قط أن كنت بطلا شعبيا قبل الآن.

وكانوا يجتازون البوابة وسط الجمع الملتف حولهم، فعاد الزيبق يضحك وهو يقول:

ـ لم ينفخ الطلسم فى البوق، ونحن غريبان..

ابتسم الوزير مروان وهو يقول:

ـ لم تعودا غريبين على الطلسم فقد سبق لكما دخول المدينة.

ثم لوح بيده ناحية القصر وقال:

ـ الأميرة تنتظرنا، لابد أن كل هذه الضجة قد أنبأتها بقدومنا..

والتفت الزيبق ليرى الأميرة زينب فى أحسن زينة، وقد عقصت شعرها الكث فيما يشبه التاج ووضعت فوقه حلية مذهبة مليئة بجواهر لامعة، وكانت تنظر نحوه بعينيها الواسعتين العميقتين، وفيها تلك النظرة التى أصبح يخشاها، والتفت على صوت الوزير مروان وهو يقول:

ـ وعلى كل حال فالرصد مشغول هذه الأيام، وبالأمس فقط نفخ فى بوقه من جديد.

نظر إليه الزيبق في حدة وقال:

ـ معنى هذا وجود غريب جديد في المدينة.

قال الوزير مروان، وهو يوقف جواده ويترجل، إيذانا بوقوف الجميع وترجلهم:

ـ نعم، يزورنا هذه الأيام طبيب أفريقي..

قال حسن بن الحصري وهو يربط مقود جواده إلى المربض العام الذي أقيم إلى ناحية من مدخل القصر:

تعني ساحرا..

ضحك الوزير مروان وهو يقول:

ـ الساحر الافريقي يقوم هذه الأيام بمهمة الطبيب بعد أن بدأ الناس يستغنون عن خدمات السحرة..

وترجل الجميع عن جيادهم وربطوا خيولهم إلى المربض، بينما قال الزيبق:

ـ حدثني عنه..

وقبل أن يجيبه الوزير مروان ارتفع صوت الأميرة بالترحيب، واندفع الفارس بسام يصافح الزيبق ويرحب به وبالمقدم حسن ابن الحصري، وتقدمتهم الأميرة إلى القاعة، فاضطروا إلى السير وراءها في صمت... ولاحظ الزيبق تغيرا كبيرا في القاعة التي سبق له أن دخلها، فقد ازدانت، وامتلأت بالورود والرياحين، وظهرت مجموعة من الوصيفات يحطن بالعرش الذي وضعت أمامه منضدة صغيرة فوقها وسادة من

المخمل الأحمر، عليها صولجان ذهبى مرصع بالدرر واليواقيب، وكان الرجال يرتدون أفخر الملابس، وبدا القاضى بينهم يختال بعمامته الضخمة وجبته الواسعة وهو يحمل فى يده لفافة كبيرة مربوطة بشريط حريرى، وقد أحس بأهميته فى هذا اليوم المميز، وحين دخلت الأميرة ومن معها القاعة ساد الصمت لحظة، ثم اندفع الجميع بصوت هادر يحيون الأميرة وينادونها بلقب السلطانة، واصطف الفرسان صفين مرت من بينهما الأميرة ومعها الوزير مروان ـ ويتبعها الزيبق وحسن بن الحصرى، فأشارت إلى الوزير مروان ليكون إلى يمينها، كما أشارت إلى الزيبق ورفيقه ليكونا إلى يسارها، ووقفت هى أمام العرش فى صدارة القاعة... ثم رفعت ذراعها، فعاد الصمت ليسود من جديد... وقالت:

ـ ياأهلى وأحبتى منذ توفيت أمى وأنا أتوق إلى هذا اليوم الذى أجلس فيه مكانها، لأحكم كما كانت تحكم بالعدل والمحبة، ولأحقق لكم الرخاء والأمان، ولأثبت معكم معنى العزة والكرامة التى هى سمة أهل المدينة المطلسمة التى لايدخلها غريب حتى لا يفسد فيها، وحتى لا يفسد على أهلها ماتعودوه من تسامح ومحبة.

وعادت القاعة تهدر بالتصفيق والهتاف، وعادت الأميرة ترفع ذراعها ليسود الصمت مرة أخرى، والتفتت إلى يمينها مشيرة إلى مروان، وقالت:

ـ منذ شببت وكان الوزير مروان نعم الأب لي ، وبديلا عن الأب الذى لا أذكره إذ مات قبل أن أعرف التمييز بين الناس والأشياء ، ثم تولانى برعايته بعد أن ماتت أمي السلطانة كوثر رحمها الله، ولا أعرف ماذا كنت سأفعل، وماذا كان سيكون مصيرى لو لم يكن الوزير مروان إلى جانبي يجنبنى مؤامرات السلطان المغتصب الذي كان يتظاهر برعايتي بينما هو يسعى لإبعادي عن عرشي، واغتصاب حقوقي..

وارتجفت كلماتها، وغصت بالدموع... وكادت تبكي، فمد الوزير مروان يده القوية يمسك بيدها ويربت عليها فى حنان، بينما تعالت الهتافات فى القاعة بحياته... ثم التفتت الأميرة إلى يسارها، وأشارت إلى الزيبق قائلة:

ـ وهذا الفارس الغريب تعرفون جميعا فضله على، وقد أخبرتكم من قبل أنه حمانى من مصير رهيب كان يعده لى مونجو وعصابته بالتآمر مع ملك بحر الغزال الملك سلطان، وبالتآمر مع السلطان الغادر المخلوع..

وارتفعت الهتافات من جديد لعلى الزيبق وللأميرة التى قالت:

ـ أحببت أن أذكر لكم فضل أصحاب الفضل قبل أن تبدأ مراسم تنصيبي على عرشي..

ثم أشارت بيدها إلى القاضي... الذى تقدم مسرعا حتى وقف أمامها وبسط اللفافة التى كانت بيده بعد أن أزال شريطها

الحريرى، ومضى يقرأ منها بصوت جهورى رتيب، وكان ما يقرؤه سلسلة نسب السلطانة منذ البداية البعيدة لعرش السلطنة وحق أمها السلطانة كوثر.. .ومضى على الزيبق يدير عينيه حوله يتفحص الوجوه، ولا يدرى عمن كان يبحث ،ولكنه مضى يقف عند كل وجه متأملا.. سائلا نفسه هل هو من وجوه أبناء المدينة المرصودة، أم أن ملامحه تشي بأنه غريب . .وأدرك أنه يبحث عن وجه دليلة بين هذه الوجوه المحتشدة، وفجأة وقف عند وجه في آخر القاعة، شديد السواد ، غريب الملابس، كثيف الشعر متهدله فوق الكتفين، وعلى الصدر قلادة من عظام، وفي اليد صولجان غريب الشكل، وعلى الصدغ وشم لثعبان، وعند الشفتين أصباغ قاتمة.. ولكزه حسن بن الحصرى وهمس في أذنه، وعيناه على نفس الوجه:

ـ الساحر الافريقى..

هل هو وجه دليلة، ولكن دليلة أطول قامة من هذا الرجل، حقا فى الملامح شيء مألوف، ولكنه بالقطع ليس وجه دليلة .. وأفاق على صوت القاضى الرتيب وهو ينهى حديثه قائلا:

ـ والآن يا سليلة ملوك وسلاطين وملكات وسلطانات هذه المدينة وقد بلغت سن الرشد آن الأوان لتتحملى مسئولياتك، وتقومى بواجبك الذى أهلك ميراثك الشرعى أن تقومى به... فأقسمى هنا على هذا المصحف الشريف أن تطيعى الله والرسول، وأن تحكمى بما أنزل الله، وأن تراعى الله فى رعيته،

وهم أمانة فى عنقك إلى يوم الدين.

ومد يده بمصحف صغير فوضعت الأميرة يدها عليه، ومضت تردد القسم حتى إذا ما انتهت منه، صاح القاضى:

ـ الآن أعلنك سلطانة على المدينة المرصودة باسم السلطانة زينب بنت السلطانة كوثر والله شهيد على ما أقول، واقرأوا الفاتحة..

ومضى يردد آيات سورة الفاتحة، والأميرة ترددها وراءه، ومن فى القاعة كلهم يرددونها وراءها حتى إذا ماانتهى منها وصاح:

ـ آمين..

تعالت الهتافات بحياة السلطانة، ومد القاضى يده إلى الصولجان الذهبى فأسلمه إلى الأميرة، التى تناولته من يده وجلست على عرشها فى وقار وتؤدة.. وهمس حسن بن الحصرى فى إلحاح فى أذن الزيبق:

ـ قلت لك هذا هو الساحر الافريقى.. أليس هو دليلة؟

همس الزيبق قائلا:

ـ لا، ليس هو دليلة، ولكن لا تدع عينك تفارقه لحظة فقلبى يحدثنى أن وراءه أمرا هاما..

وقالت السلطانة زينب للزيبق:

ـ والآن أيها الفارس الغريب تمن ما تشاء فمن سلطاتى الآن أن أنفذ لك ماتطلب.

قبل أن يجيبها الزيبق، ضحك الوزير مروان وقال:
ـ الفارس الغريب، ألا تعرفين من هو هذا الفارس الغريب.
قالت السلطانة:
ـ أعرفه منقذا لى وفارسا شهما.
قال الوزير مروان:
ـ هذا على الزيبق الذى حذرنا السلطان قاسم منه، ورصد الحراس للبحث عنه والتربص به.
صاحت السلطانة زينب:
ـ الفارس على الزيبق المصرى، كان يجب أن أعرف هذا وحدى.
ثم أطرقت برأسها لحظات، وعادت تقول:
ـ فطلبك أيها الفارس الجزيرة المسحورة، وصندوق التواجيه؟
قال على الزيبق:
ـ لقد عرفت ما جئت به من أجله.
قالت السلطانة زينب وهى تتنهد:
ـ إن كان هذا هو كل ما تريده من بلادنا، فلك ما تريد، وقد سمحت بعبور بلادنا إلى الجزيرة أمنا، فإن نجحت فى الحصول على بغيتك فهى لك لا يعارضك فيها أحد..

-٢٤-

الفارس الوحيد

قال الوزير مروان معقبا على كلام السلطانة زينب لعلى الزيبق:

ـ نعم الموقف ما ارتأيته أيتها السلطانة ، فالزيبق قد اكتسب حق الحصول على مايريد، حين أنقذك من غائلة المتآمرين واللصوص..

وامتلأت القاعة بصيحات التأييد والموافقة، وابتسمت السلطانة زينب ابتسامتها الغامضة وقالت:

ـ نحن نوافق على طلبات الزيبق بشرط.

وساد الوجوم لحظات، حتى عادت السلطانة زينب تقول:

ـ حين يعود الفارس على الزيبق من الجزيرة المسحورة سالما ومعه صندوق التواجيه، يظل هنا فى المدينة المرصودة شهرا كاملا ، حتى نتمتع بالصندوق قبل مغادرته بلادنا إلى الأبد..

ودهش على الزيبق من هذا الطلب الغريب، وأحس حسن بن الحصرى يلكزه في جنبه وهو يهمس له:

ـ ما معنى هذا؟

وقبل أن يجيب الزيبق التقت عيناه بعيني الساحر الافريقى القاهرتين، كانتا تبحثان عن عينيه عن عمد.. ووجد على الزيبق نفسه منجذبا إلى هذه القاهرة، وكان فى العينين رسالة تحاول أن تصل إليه.. ولم تكن الرسالة عدائية، ولم يكن الزيبق يحس بكراهية أو عداء تجاه هذا الإنسان الشديد السواد، والكثيف الشعر، صاحب القلادة المليئة بالعظام، والصولجان الغريب المزركش المليء بالأشياء الصغيرة المعلقة فيه، فقط كانت هناك رسالة، وكان لابد أن يفهمها.. وعاد حسن بن الحصرى يلكزه فى جنبه مرة أخرى وهو يهمس:

ـ انظر السلطانة والوزير يتهامسان، لا أظن همسهما هذا سينتهى على خير لنا..

هز الساحر الافريقى رأسه.. وفجأة فهم الزيبق الرسالة، إنه يحثه على الموافقة، ولكن لماذا؟ وماذا يهم هذا الساحر الافريقى من أمره؟ وكيف يحس بإلف غريب نحوه..؟ من هو؟ ومارسالته هنا.. وسمع نفسه يقول فى صوت مرتفع:

ـ أوافق أيتها السلطانة على شرطك، يبقى صندوق التواجيه بعد حصولى عليه فى مدينتك شهرا، فهذا حقك، وحق المدينة التى حرسته كل هذه الأعوام..

وابتسمت السلطانة، ونظرت حيث يقف الزيبق وقالت:

ـ حسن هذا أمر انتهينا منه، ولكن بقى لى طلب آخر..

وأحس الزيبق بلكزة حسن بن الحصرى تكاد تخترق جنبه، وسمعه يهمس فى إلحاح:

ـ فى الأمر شىء ياعلى فانتبه..

قال على الزيبق همسا:

ـ بعد كلمات السلطانة، واضح أن في الأمر شيئا..

قال حسن بن الحصرى بنفس الصوت الهامس:

ـ إنه الوزير مروان، كان يهمس لها طول الوقت..

قال على الزيبق فى حيرة:

ـ ولكن الوزير مروان فى صفنا ياحسن..

قال حسن بن الحصرى فى إلحاح:

ـ لا يعنينى من فى صف من؟ ولكنى الذى يعنينى أنه لم يرد بهمساته للسلطانة خيرا، وأظنك تذكر جدله لك فى الكهف حول قاسم السلطان السابق..

وكأنما كان حسن بن الحصرى يقرأ ما فى ضمير السلطانة ووزيرها من كتاب مفتوح، إذ سرعان ما زادت كلمات السلطانة شكوكه ومخاوفه، إذ قالت:

ـ نريدك أن تسلم لنا سلطاننا المخلوع ليحاسب على وحشيته وقسوته، وخيانته للأمانة ومؤامراته العديدة على، والتى كان آخرها ما دبره هو والملك سلطان ملك بحر الغزال لإبعادى عن سلطنتى إلى الأبد.

قال حسن بن الحصرى:

ـ ماذا قلت لك؟

قال الزيبق همسا لحسن بن الحصرى:

ـ كان علينا أن نتوقع هذا.

ثم قال بصوت عال موجها حديثه إلى السلطانة والوزير:

ـ ولكن السلطان السابق أسيرى، وأنا وحدى أملك الحق فى تحديد مصيره.

وثب الفارس باسم، فإذا هو أمام عرش السلطانة،وكانت يده على مقبض سيفه وهو يقول:

ـ وأنت وصديقك الآن أسيرا السلطانة.. لا تنس هذا.. ولن تستطيع هذه المرة أن تقفز لتضع سن سيفك على رقبة أحد..

مد حسن بن الحصرى يده إلى مقبض سيفه، فامتدت يد الزيبق لتستقر فوق يده مانعا إياه من سحب سيفه من قرابه، وقال فى هدوء موجها حديثه إلى السلطانة:

ـ لست أظن أن المسألة قد وصلت بنا إلى هذا..

ثم نقل بصره بين السلطانة والوزير والفارس باسم، وقال فى لهجته الهادئة:

- نحن أصدقاء فيما أحسب، ولسنا أعداء.

قالت السلطانة وقد احمر وجهها خجلا:

- صدقت أيها الفارس علي، نحن أصدقاء.. ونحن لا ننسى فضلك..

ثم التفتت إلى الفارس باسم غاضبة وهي تقول:

- مامعنى هذا أيها الفارس باسم؟

في صعوبة شديدة تملك الفارس باسم نفسه، وببطء شديد أعاد سيفه إلى قرابه، وهو لا يحول نظره عن الزيبق الذي كان يبتسم ابتسامته الهادئة... بينما قال الوزير مروان، وهو ينتقي كلماته في بطء وعناية:

- هذه المدينة لاتستطيع أن تتنازل عن ضرورة محاكمة الطاغية. لقد ساهمت حقا في خلعه ولكننا أيدناك وحميناك... ولن نأمن على أنفسنا إلا إذا أحكمنا قبضتنا عليه... وليس هناك عداء بيننا وبينك.. فأسلمنا السلطان المخلوع تسلم، وتحصل على صندوق التواجيه وترحل في سلام..

وكانت عينا الزيبق تجولان في الجموع بحثا عن الساحر الافريقي، ولكن لم يجده، كان قد ذاب في وسط الجموع واختفى .. وهز كتفيه في حيرة... بينما شعر بحسن بن الحصري يطلق زفرة ارتياح طويلة وسمعه يهمس في أذنه:

- كنا قريبين جدا من النهاية، وما كانت ملاعيبك تفيدنا هنا

فى شىء..

همس الزيبق وهو ما يزال يبتسم:

ـ صدقت، ولكنهم لايعرفون هذا..

وعاد الوزير مروان يقول فى نفس الصوت المتئد:

ـ نحن لا نقصد إغضابك أيها الفارس على، أم أسميك بالمقدم الزيبق..؟

وضحك ضحكة مفتعلة لم يشاركه فيها أحد.. وسعل عدة مرات وهويتلفت حوله فى حرج، ثم عاد يقول:

ـ لو كنا نريد مضايقتك لاحتجزناك هنا بينما نقبض على السلطان، ونأتى به من الكهف الذى قيدته فيه، ولكننا كما ترى نحاول أن نقنعك بتسليمه بنفسك لنا..

وهمس حسن بن الحصرى:

ـ إن هذا الكهل الأشيب ملىء هو نفسه بالملاعيب والخدع.

قال الزيبق موجها حديثه للسلطانة زينب:

ـ لم يكن قصدى تحدى إرادتك أيتها السلطانة، ولكن ماقاله قاسم من معلومات تهمنى وتهم رجال الخليفة، فهو قادر على أن يكشف لنا خيوط مؤامرة دنيئة هو أحد أطرافها، ونريد أن نعرف باقى الأطراف قبل أن يستفحل الأمر، ويخرج عن طاقة ردعه..

ابتسمت السلطانة لأول مرة، ولمعت عيناها الواسعتان الجميلتان وقالت:

ـ نعدك أن تحصل على ماشئت من معلومات، قبل أن ننفذ حكم العدالة فيه.

هز الزيبق كتفيه استسلاما، وقال:

ـ لم يعد أمامي الآن خيار، سأذهب أنا والمقدم حسن لإحضار السلطان المخلوع.

تقدم الفارس باسم إلي الأمام خطوة، وقال في تحد:

ـ بل سأذهب أنا والفرسان لإحضاره.

قال الزيبق محتجا:

ـ ولكن مافي ولوما سيقاومانكم لوذهبتم من غيرى..

ضحك الفارس باسم في استهتار وقال:

ـ وهل نخشى بأس فارسين اثنين؟

تدخل الوزير مروان قائلا في صوته الوقور التأني:

ـ لسنا نريد سفك الدماء... فلو أعطيتنا سيفك لنريه لهما لاقتنعا أنك تريد تسليم السلطان المخلوع لنا، ولسلماه دون قتال...

ضحك الزيبق في سخرية وهو يقول:

ـ لا أظن أنني سأسلمك سيفي أيها الوزير الطيب.. ولكن ما تقوله صحيح، ولهذا سأعطيك صديقي المقدم حسن ليذهب مع فرسانك، وهو كاف ليبلغهم رسالتي بتسليم قاسم..

صمت الوزير لحظات يعبث فيها في لحيته، ثم قال:

ـ لا أظن أنني أحبذ ذهاب المقدم حسن، فسيصبحون ثلاثة

في مواجهة فرساننا لا اثنين، وضحك ضحكته الجوفاء، وعاد يقول:

ـ ثم إننا رأينا قتاله، ولسنا نظن أننا نحب أن نتعرض له مرة أخرى، وخاصة وأنه ينهي معاركه باستدعاء البرق والرعد، والشياطين الملونة تملأ السماء وتتساقط فوق الجنود كالشهب اللامعة.. لا ... يامقدم علي... ابحث عن بديل آخر..

توترت عضلات حسن بن الحصرى، وعاد يمد يده إلى مقبض سيفه، وعاد الزيبق يضع قبضته فوق كفه يمنعه من تجريده، وتنهد وهو يقول:

ـ أنت لا تترك لى خيارا أيها الوزير... وأنا لا أستطيع أن أعطيك سيفي، ولكنى سأعطيك خنجرى بدلا منه فهما يعرفانه، إذ به قطعت قيودهما، وقيود السلطانة..

واحمر وجه السلطانة، وهو يخرج خنجره ويسلمه إلى الوزير مروان، الذى أسلمه بدوره إلى الفارس باسم، قائلا:

ـ حاول أن تحضر السلطان المخلوع دون معركة، فليس بيننا وبين الزيبق دماء مسفوكة حتى الآن..

تحدث حسن بن الحصرى لأول مرة بصوت عال قائلا:

ـ لو سفكت أى دماء فلن نكون نحن السبب فيها، وعلى من يؤدى إلى سفكها أن يتحمل تبعتها وحده، ولا يلومنا أحد..

احمر وجه الفارس باسم وقال فى غضب:

ـ هل هذا تهديد؟

قال الزيبق فى ابتسامته الهادئة التى أصبح الكل يعرفونها، ويخشونها معا:

ـهو تحذير أيها الفارس باسم... هو تحذير..

وضحكت السلطانة وهى تصفق بيديها، وتقول:

ـهذا حفل فرح وبهجة، فهيا أيها الفارسان خذا أماكنكما أمام الطعام، وليبدأ العزف والغناء احتفالا بتتويجى على عرش السلطنة..

وبينما انصرف الفارس باسم ورجاله، انطلقت فى القاعة أصوات عزف موسيقى بديع، وخرجت فتيات يحملن الورود والرياحين، ويرقصن على الإيقاع، بينما دخل القاعة مجموعة من الخدم يحملون أوانى الطعام يضعونها أمام مجالس القوم فى أنحاء القاعة المختلفة.. واختفى الجو القلق المتوتر من القاعة، وتعالت الضحكات هنا وهناك، وأشارت السلطانة إلى مكان قريب منها زخر بأطايب الطعام والفاكهة وزين بالورد ليجلس الزيبق وصديقه، وأخذ الاثنان مجلسهما فى صمت، وهما يدوران بأعينهما فى أرجاء القاعة، وكل مافيها من مظاهر البهجة والفرح لايدخل الطمأنينة إلى قلبيهما.

قال حسن بن الحصرى وهو يمد يده إلى الطعام الشهى أمامه.

ـلقد تذكرت الآن أننى لم آكل من زمن طويل،وهذه فرصة لن أدع القلق يحرمنى فيها من سد جوعى وإشباع معدتى..

ضحك الزيبق وهو يمد يده بدوره إلى الطعام:

ـ الدرس الأول الذى تعلمته فى دنيا «الفتوة» أن تأكل حين يتاح لك الأكل فلست تدرى أين ولا متى ستجد الطعام، ولا الوقت الكافى لالتهامه.

قال حسن بن الحصرى، وهو يبتلع ما فى فمه، ويمد يده إلى الصحون مرة أخرى:

ـ هذا درس مفيد لم يلقنه لى أحد من قبل، ولكنى سأحفظه عنك من الآن.

ضحك الزيبق وهو يرفع كوبا مليئا بالعصير فيفرغه فى جوفه وقال:

ـ وستجد أنه درس عام حين ينسيك الخطر مجرد التفكير فى البحث عن الطعام.

قال حسن بن الحصرى:

ـ كنت أظن الوزير مروان فى صفنا:

ضحك الزيبق وقال:

ـ هو فى صفنا..

كف حسن بن الحصرى عن التهام طعامه، وقال فى دهشة:

ـ كيف يكون فى صفنا، وهو يكاد يسلمنا إلى الموت حديثه الوقور الخبيث؟

عاد الزيبق إلى ضحكه، وقال:

ـ هو فى كل صف يحفظ له نفوذه ومكانته، كان فى صف السلطانة كوثر حتى ماتت، فغدا فى صف السلطان قاسم حتى

بلغت الأميرة زينب سن الرشد، وهو فى صفنا حتى أزحنا له السلطان قاسم وملكنا للسلطانة زينب، وهو فى صف السلطانة زينب ليؤكد نفوذها وحدها، ويضخم لها فى ذاتها، وفى أهميته لحفظ هذه الذات .

أفاق حسن بن الحصرى من دهشته، وضحك ، ثم ضرب بيديه فخذيه، وهو يقول :

ـ لقد فهمته تماما يامقدم علي . . وأحسب أنك مصيب فيما تقول عنه .

قال الزيبق :

ـ لقد شككت فى حقيقته منذ لقائنا الأول إذ أخذ يلمح فى كلامه بما يشتم منه انتشار حالة التذمر من قاسم، كما أخذ يصرح بأنه مغتصب لحق زينب، وإنها قد بلغت سن الرشد وأصبح العرش من حقها . .ورغم براءة الكلام فى ظاهره إلا أننى أحسست فيه قطرات دهاء، وتخطيط مقصود . .

قال حسن بن الحصرى وهو ينقض على الطعام من جديد :

ـ هذا رجل لا صديق له إلا نفسه . .

قال الزيبق :

ـ هو صديق النجم الصاعد، أما إذا أوشك النجم على الأفول فالويل له . .

قال حسن بن الحصرى، وكلامه لايكاد يبين من فمه المحشو بالطعام . .

ـ وكنت أظن الفارس باسم في صفنا . .

ضحك الزيبق، وهو يعود إلى تناول طعامه وقال :

ـ هو في صف السلطانة زينب . . . فهو يضحي بحياته نفسها من أجلها .

قال حسن بن الحصرى وهو يبتلع طعامه :

ـ ولكن السلطانة في صفنا فلماذا يعادينا ؟

مضغ الزيبق الطعام الذى في فمه، ثم ابتلعه في تؤدة، وشرب جرعة ماء، ثم قال :

ـ أنت لم تر نظرة السلطانة . . . ولذا ، فأنت لا تعرف شيئا عن الموضوع كله .

فتح حسن بن الحصرى فاه في دهشة وقال :

ـ نظرة السلطانة ؟

قال الزيبق :

ـ لقد استهواها أننى أنقذتها من هذا الكهف المظلم الكئيب، وأننى أخرجتها من أسر مونجو وعصابته . .

قال حسن بن الحصرى :

ـ معنى هذا نظرة متطلعة إلى شيء لا علاقة له بالأحداث والناس . .

قال الزيبق في جدية :

ـ ماذا تعنى ياحسن ؟

قال حسن وهو يتجاهل الطعام أمامه لأول مرة :

ـ أعنى ياعلى أنها تريدك أنت ـ والفارس باسم قد فهم هذا، ومن هنا كانت عداوته لك، ولنا جميعا... فهو لايريد للسلطانة أن تنظر إلى غيره... وغيره هو أنت.. وهى بالفعل تنظر إليك.

أطرق الزيبق مفكرا لحظات، ثم رفع رأسه وقال:

ـ لقد لاحظت هذا، وهو ما أرقنى، وذهب بسلام نفسى فى هذه القضية كلها..

قال حسن بن الحصرى:

ـ هو يريد أن تؤيدها بسيفك، وأن تنصرها بملاعيبك... ولكن هذا هو الحد عنده، بعد هذا أنت فى دنياك وهى فى دنياها، ولا علاقة بين العالمين.

قال الزيبق فى ضجر:

ـ ماذا تريد أن تقول بحديثك الطويل هذا؟

قال حسن وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ أريد أن أقول إن السلطانة تريد منقذها لا حاميها... آسف أعنى السلطانة تريد الرجل الذى أعادها إلى العرش.

ترك الزيبق ما بيده من طعام، والتفت إلى حسن بن الحصرى فى اهتمام، وقال فى تؤدة:

ـ تعنى أن السلطانة..

قال حسن بن الحصرى:

ـ نعم أعنى، أن السلطانة تريد فارسها شريكا لها فى عرشها.

قال الزيبق فى ضيق :

ـ لقد أفهمتها منذ الدقائق الأولى أن قلبى معلق بزينب أخرى .

ضحك حسن بن الحصرى وهو يقول :

ـ كل فتنتها وجمالها وعينيها وشعرها ، وأنها سلطانة ... وأنت تائه عربيد لا يعرف له قرارا ... هى تحس أنها صاحبة الكلمة الأولى فيك .

صاح الزيبق :

ـ ولكنى كنت حاسما فى هذا الأمر من البداية .

ضحك حسن بن الحصرى فى سخرية ... وسكت لحظات يتأمل فيها الزيبق ويجول ببصره فى القاعة المليئة بالحركة والحياة ، ثم قال :

ـ قل ماتشاء ، لكن مثلك لايخطىء ما فى عينيها وهى تنظر إليك ، ثم أنت تتبع حركاتها ... الفارس باسم رجل من لحم ودم ، وهو قد قضى عمره يتعبد فى سيدته السلطانة ، فلا تأت أنت آخر الأمر وتصبح الفارس الوحيد .

ضحك الزيبق فى مرارة وهو يقول :

ـ الفارس الوحيد ؟

قال حسن بن الحصرى ، وهو يوجه كل انتباهه إلى الزيبق :

ـ فى قلبها ... الصراع عند الفارس باسم موهوم كله ، ولكنه عنده حقيقة مجسدة ، من هنا جاءت كل تصرفاته العدوانية

الأخيـرة تجـاهك، لابد أن يزيحك، ليظل هو ـ لا أنت ـ الفـارس الوحيد.

لم يجبه الزيبق،وإنما أخذ ينظر حوله في قلق، وقد نسى أمر الطعام والشراب، والحديث والجدل ـ وهمس في صوت يحمل نذير الخطر.

ـ هناك شيء غريب يجرى حولنا ياحسن، فانتبه.

كان حسن بن الحصرى قد استهواه الحديث عن غرام السلطانة بالزيبق، كما استهواه الطعام والشراب حتى نسى كل حذر، فجاء تحذير الزيبق فوق أرض باردة، إذ ضحك وقال:

ـ نحن في أمان هنا يامقدم علي، وتذكرتنا إلى الأمان هو حب السلطانة لفارسها الوحيد علي الزيبق، فلا أحد هنا يخالف رغبات السلطانة.

قال الزيبق في صوته المتوفز:

ـ إنظر حولك، أين السلطانة؟ وأين الوزير مروان؟

قال حسن بن الحصرى وهو يجيل حوله نظرة غير مبالية:

ـ هما غير موجودين في القاعة، وماذا في هذا..؟ مالك يازيبق تتوجس الشر في لاشيء... هذا احتفال، وهذه سلطانة، وهو وزير، ومهام كل منهما كثيرة ومتعددة. قال علي الزيبق في صوت حذر:

ـ هاهما يعودان، فاحترس في حديثك.

ورفع حسن بن الحصرى بصره، فإذا بالسلطانة تعود ووراءها

مروان ،وهمس:

ـ انظر ما أروع هذا الجمال ياعلى.

بالفعل .. كانت السلطانة تعود إلى القاعة امرأة أخرى..

ارتدت ثوبا جديدا يكشف عن مفاتن جسدها الرائع التكوين، وكانت قد بسطت شعرها الكث لينسدل فوق كتفيها فى ثراء، والتاج على مفرقها يلمع بجواهره، وابتسامتها المشرقة تثير القاعة كلها، وكانت تتقدم نحوهما، ووراءها خادم يحمل إناء فوق صينية مفضضة وعلى الصينية أكواب... وحين وصلت إليهما ابتسمت فلمعت الدنيا وابتهج العالم، وقالت فى صوت سحرى مسكر لعلى الزيبق:

ـ هذا شراب الزهر، نخلطه بمقطر الزهر، زهر اللارنج الذى يملأ حديقة القصر، وأحب أن تشرب منه أنت وصاحبك، تحية ود ومحبة منى لكما..

ودارت بجسدها الملفوف اللدن، فملأت كوبين من الإناء، ومدت بيدها الرقيقة كوبا لكل واحد منهما، وقد انحسر الثوب عن ذراعها البض الملىء المهتز.. وقال حسن بن الحصرى:

ـ هذه رعاية لم أحظ بمثلها فى حياتى كلها.

ومد يده فتناول كوبه وشربه حتى الثمالة وهويبتسم، بينما مد الزيبق يده إلى الكوب، وشممه فى حذر، وكانت رائحة الزهر تضفى منه على كل رائحة، وقالت السلطانة:

ـ ألاتشرب من يدى أيها الفارس.

ولمعت فى ذهن الزيبق كلمة حسن بن الحصرى عن الفارس الوحيد ـ فابتسم ومد يده إلى كوبه ،ونظر إلى العينين الواسعتين وتاه فيهما، ثم رفع الكوب إلى فمه وشرب مافيه من ماء معطرا فى جرعات متتالية. وفجأة انتبه فمع رائحة الزهر كانت هناك رائحة شىء آخر، ونظر فإذا حسن بن الحصرى متكوم إلى جواره كالجثة، ومد يده يحاول أن يلمسه ،ولكن خدرا مخيفا كان يمس يده وجسده كله، وكانت رأسه تثقل وتثقل، وشىء كالدوامة يحيط به،ويرج وجوده كله رجا... وأراد أن يتكلم، ولكن لسانه كان مثقلا.. ومد يده ولكن يده لا تمتد... وأمامه كانت العينان الواسعتان تتسعان وتتسعان، لتحتوياه كله.

ولم يعد يعى شيئا، فقد راح فى ظلام كثيف، وثقل لسانه، ووعيه، وضاع فى غيبوبة عميقة، كأن شيئا لزجا يمتص جسده وعقله، ويبتلع كليهما تدريجيا فى إصرار، وفعل أكيد... ولم يعد يقاوم وإنما ترك نفسه يمتص ويضيع، وينسى، ويروح فى سبات عميق.

-٢٥-

الساحر الأفريقى

كانت أمه غاضبة :

ـ قلت لك ياعلى لاتهرب من الكتاب .

وكـان جـده القـاضى نور الدين يمسك بمقرعته يضربه بها بين كتفيه وهويصيح :

ـ هذا الولد لا يصلح لشيء، لن يتعلم شيئا أبدا .

وكان خاله منصور، يصيح وهو يتعذب في برميل القار :

ـ اقتلنى ياعلى، لا أحتمل هذا القار، لا فائدة، أنا ميت ، لقد خدعونا بهذا البرميل الملىء بالقار المغلى .

وكان المقدم عباس يقول فى هدوء وثقة :

ـ في الرميلة وقرة ميدان، ستتعلم دروس الفتوة الصحيحة ياعلي،ولكن لا ينبغي أن تعرف أمك شيئا عن انقطاعك عن درس الكتاب، وانصرافك إلى دروس المصارعين والرماة بالأقواس والرماح.

وتقول أمه فاطمة، ووجهها قريب جدا، مليء بالفزع،والحب معا:

ـ وضعوك على المشنقة ياعلي، لن تبقى عليها طويلا، فأنا أحمد بن البنى فارسك وصاحبك.

ويصيح المقدم صلاح الكلبي والماء المغلي ينهال على جسده.

ـ هذا ليس حانوتيا ومغسلا، هذا على الزيبق.. .أمسكوه، أمسكوه.

وكان صوت أليف يصيح:

ـ ياعلي.. ياعلي..

وكان وجه أمه حزينا وهي تقول:

ـ ذهبت إلى حيث صلب خالك وبكيته فنحن لابد أن نبكي موتانا..

وكان وجه زينب أليفا حيا، وهي تبكي... وكانت تقول:

ـ خدعتك ياعلي وسقتك إلى المشنقة..

وصلاح الكلبي يضحك، وسيوف تلمع، ومعركة، وأحدهم يخطفه فوق فرس ويهرب به من فوق حبل المشنقة، وصوت ملح يصيح:

ـ ياعلى . . ياعلى . .

• وديك يصيح عند الفجر ، ومؤذن يؤذن فيرج صوته سكون الفجر الساجى ، ويلف حول المئذنة وهويؤذن ، وصوته مرة يأتى خافتا من بعيد ، ومرة قريبا قويا كأنه عند رأسه تماما ، وصوت يلح :

ـ ياعلى . . ياعلى . .

واهتز جسده مرة ، ومرات ،وانزاحت عن رأسه غمامة مخيفة كأنها صوان أصم . . وهز رأسه فاهتز ، وحرك جسده فتحرك ، وفتح عينيه فى صعوبة بالغة ، وأمامه كان المقدم حسن بن الحصرى ، فى عينيه لهفة ، وفى وجهه رجاء ، وكان يقول :

ـ ياعلى . . ياعلى استيقظ يا على . . أفق ياعلى . .

دوامة ، ظلام ،وظلام ،وعطش فى الصحراء ،وجوع عنيف عند البئر ، ورأسه يدور ، وهو يستحم فى ماء عند نهر والحصان يصهل ، والصوت الملح يقول :

ـ أفق ياعلى . . ياعلى . . ياعلى . .

وخرج من دوامة ، إلى دوامة ، ومن طبقة زيت معتمة ،إلى طبقة زيت معتمة أخرى ، وابتدأ الهواء يرق ويصفو ، وفتح عينيه . . . وأمامه كان وجه المقدم حسن بن الحصرى عريضا ، طويلا ، متجهما وهو يقول فى إلحاح :

ـ أفق ياعلى . . أفق ياعلى .

وتنهد فانزاح عبء عن صدره ، وتمطى ، فانزاح عبء عن

كاهله، وهمس في صوت ضعيف:

ـ أين أنا؟

ضحك المقدم حسن بن الحصرى، وهو يقول فى مرارة..:

ـ أنت هنا معى... فى الأسر..

أحدثت هذه الكلمات أثرها فى الزيبق، فإذا برأسه تستقر فوق كتفيه، وإذ بعقله يصفو تدريجيا، ويخرج من الدوامة الكثيفة التى كانت تدور به، واعتدل الزيبق فى جلسته، ونظر حوله، فإذا هو فى قبو مظلم وأمامه حسن بن الحصرى مقيد اليدين والقدمين، وأراد أن يحرك يديه فمنعهما القيد، ونظر إليهما الزيبق، ثم نظر إلى قدميه فإذا هما مقيدتان أيضا، وقال فى تؤدة.

ـ نحن إذن فى الأسر..

قال حسن بن الحصرى فى مرارة:

ـ دست لنا السلطانة المخدر فى شراب ماء الزهر، وأخفى الزهر رائحة المخدر.

فجأة ضحك الزيبق، كانت ضحكته جوفاء لا معنى لها، كانت مجرد صوت يصدر عن حنجرته فيهز جسده كله هزا..

وقال حسن بن الحصرى فى ضيق:

ـ أتضحك ، أفى هذا ما يضحك، أنت وأنا تضحك علينا طفلة كهذه؟

كف على الزيبق عن ضحكه، وهز قيود يديه، وتأملهما

لحظاتٍ قبل أن يقول :

ـ لقد ضحكنا نحن على أنفسنا يامقدم حسن ... ظننا أن جميلنا على السلطانة يكفل لنا الترحيب والأمان، وظننا أن كل ما تريده منا هو السلطان قاسم، وأننا حين تركناهم يحضرونه من أسره في الكهف قد دفنا كل عداء بيننا وبينهم... ولكننا كنا واهمين..

قال حسن بن الحصرى فى ضيق:

ـ ولكن لماذا ؟ لمذا هذا الغدر؟

قال الزيبق وهو يختبر قيود قدميه بصعوبة بالغة، إذ كانت قيود يديه تجعل الأمر متعسرا :

ـ أنا لا أحب هذه القصور، فهى مليئة بالدسائس والتيارات الخفية، ففيها ليس كل ما يقال لك هو الحقيقة، وفيها ليس كل ما يعلن هو الصحيح .

قال حسن بن الحصرى :

ـ ليس كلامك هذا إجابة عن سؤالى..

قال الزيبق:

ـ لقد أحسست فى لحظة بأن الماء الذى قدمته السلطانة فيه شيء غريب، لعلها رائحة خفية، ولعلها النظرة فى عين السلطانة، ولعله هذا الجو القلق المتوتر الذي ساد القاعة فجأة، ولكنى ماكدت ألتفت إلى هذا الإحساس إلا وكان الأمر قد خرج من يدى فقد كنت قد شربت الكوب كاملا بالفعل،

وراحت شياطين الأمس تجول فى رأسى، الأحياء والأموات معا، الناس والأصوات معا، الحلو والمر معاً..

كان حسن بن الحصرى يستمع إليه فى ذهول وقال فى تخاذل:

- هل مسك الخدر فى رأسك إلى هذه الدرجة.. هل أنت بخير..؟

ضحك الزيبق ضحكته الخشنة التى لا معنى لها، وقال:

- نعم أنا بخير يامقدم حسن، ولكنى لم أعد واثقا أن الناس بخير..

قال المقدم حسن:

- قد أستطيع أن أفك قيودك، أو لعلك أنت تستطيع أن تفك قيودى، فنحن مانزال نتمتع بحرية الحركة، ولو قفزا بالقدمين المقيدتين معا.

قال الزيبق:

- هم يظنون أننا مازلنا تحت تأثير الخدر وإلا ماتركونا هكذا.. اسمع..

وسكت حسن بن الحصرى، وقد التقطت أذناه أصوات وقع الأقدام التى سمعها الزيبق قبله، فتبادل الاثنان النظرات، وتراجع كل منهما إلى الحائط خلفه، وجلسا القرفصاء فى سكون يرقبان الأقدام التى توقفت عند مدخل القبو... وارتفع صوت الوزير مروان فى لهجة آمرة، وفتح باب القبو فى ضجة،

ودخل الوزير مروان يتقدمه الفارس باسم ووراءهما مجموعة من الحراس شاهرى السيوف .. وساد الصمت القبو، والزيبق يجيل النظر في الداخلين في صمت، وقد تلاعبت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وأخيرا تحدث الوزير مروان في صوته الوقور فقال في تؤدة:

ـ أين هو؟ وكيف أخفيته وأنت معنا لم تغادر أبصارنا منذ خرجنا من الكهف سويا..

قال الزيبق في هدوء:

ـ تعنى أن السلطان قاسم قد هرب..؟

صاح الفارس باسم في انفعال، ويده فوق مقبض سيفه:

ـ لم يهرب قاسم المخلوع وحده، لقد جرجر بقيوده إلى خارج المغارة، وكذلك لم يذهب معه فارسا بحر الغزال بإرداتيهما، فواضح من الآثار أنهما قد جرا أيضا إلى خارج المغارة حيث ظهرت آثار خيول حملتهما ومعهما السلطان إلى مخبأ جديد... وستخبرنا الآن بمكان هذا المخبأ شئت أم أبيت..

تنهد حسن بن الحصرى، وسعل،وقال:

ـ وضح الآن كل شيء.. إذن فهذا هو السر في الخدر وهذا القبو، وهذه القيود..

قال الوزير مروان:

ـ ليس في الأمر سر فأنتما تعرفان كل شيء.

قال الفارس باسم:

ـ وستخبرانا بمكان السلطان قاسم، وإلا لن تغادرا هذا القبو وأنتما من الأحياء..

ضحك الزيبق في استخفاف، وقال:

ـ لو كنا نعرف لأخذنا حذرنا ولما جازت علينا خدعة ماء الزهر المليء بالبنج..

قال الوزير مروان في هدوء:

ـ لقد كنت واثقا من نفسك ثقةزائدة، ومن هذه الثقة أخذت..

قال الزيبق بنفس اللهجة المتسخفة:

ـ بل كنت واثقا في العرفان بالجميل،وفي كلام الصداقة المعسول، وفي كلام الشهامة والفروسية.

صاح الفارس باسم في غضب وقد أحس أن الزيبق يعرض به:

ـ إنه يراوغ، ولا يريد أن يتكلم ، اتركني معه وسأعرف كيف أفك عقدة لسانه..

ضحك المقدم حسن بن الحصرى فجأة، وقال وهو يقف مستندا إلى الحائط خلفه:

ـ أنت ؟ أنت تفك عقدة لسان الزيبق..؟

اندفع الفارس باسم وقد أعماه الغضب عن كل حذر نحو حسن ابن الحصرى ليلطمه، فكشف ظهره للزيبق الذي استند إلى الحائط بظهره ودفع بقدميه المكبلتين في ظهر الفارس باسم

الذى سقط إلى الأرض وقد طار السيف من يده... وانقض حسن بن الحصرى بركبته فوق ظهره، بينما أنشب يديه المقيدتين فى عنقه من الخلف، وارتمى الزيبق ناحية السيف الساقط فوق الأرض، ولكن الوزير مروان كان أسرع منه، فضربه بحذائه ليبعده، وانقض الجنود على الزيبق يشلون حركته، بينما انقض آخرون على حسن بن الحصرى يرفعونه من فوق الفارس باسم رافعا... وضحك الزيبق فجأة، وقد وقف ساكنا بين من يشلون حركته من الجنود، وقال:

-أنت ترى أننا لا نخشاكم.. مقيدين أو غير مقيدين لستم من رجالنا..

نظر إليه الوزير مروان فى صمت، بينما وقف الفارس باسم يلهث وقد احمر وجهه انفعالا، ثم ذهب إلى حيث سقط سيفه فاستعاده، وجعل يجيل بصره بين على الزيبق، وحسن بن الحصرى، ثم قال من بين أنفاسه اللاهثة:

-من الآن ستقيدون إلى الجدران، وسنضع فى أيديكم القيودالحديدية ..وسنمنع عنكم الماء والطعام حتى تتدلى ألسنتكم من أفواهكم كالكلاب العطشى..

قال على الزيبق فى هدوء:

-يدهشنى هذا التحول فيك أيها الفارس باسم... عندما التقيت بك لأول مرة كنت مثال الفارس الشهم الكريم، أما الآن فصورتك غدت شوهاء وكريهة..

وجم الفارس باسم وتخاذلت يده التى تقبض على السيف، وتدخل الوزير مروان في الحديث فقال في صوته الهادىء المتزن النبرات:

- لقد كان هو وأنا من أصدقائكم حتى ظهر عداؤكما: ما لنا وللسلطانة، فلم يعد للصداقة معنى..

ضحك حسن بن الحصرى،وقال في صوت ساخر:

- نحن لم نعاد السلطانة، ولا نحن عاديناكما، ولانحن عادينا المدينة المرصودة.

قال الوزير مروان:

- أنتما رفضتما تسليم السلطان المخلوع، ثم هربتماه منا ومن العدالة، وهذا تآمر علينا كلنا..

قال الزيبق:

- تعنى أنك لا تأمن على حياتك بعد موقفك الأخير منه إلا بموته..

وقال حسن بن الحصرى:

- ويعنى أنه لم يعد يأمن على نفسه منا، فنحن أصبحنا نعرف عنه أكثر مما يجب..

وقال الزيبق:

- أما الفارس باسم فهو أسير حماسه للسلطانة، ولذا فهو ألعوبة في يدك أيها الوزير..

وقال حسن بن الحصرى:

ـ وماأسهل أن توهمه أن وجود الزيبق خطر يتهدد مكانته عند السلطانة..

وقال الزيبق:

ـ لقد أفهمت السلطانة بعد أن حررتها من مونجو وعصابته أن لى خطيبتى تنتظرنى فى بلادى، واسمها أيضا زينب، وهى جزء من الحوافز التى دفعتنى إلى هذه الرحلة الخطيرة.

صاح الفارس باسم وقد ساءه أن تنكشف عواطفه أمام الغريبين بهذه الصورة:

ـ لقد زادت وقاحتكما عن حدها، السلطانة مليكتى، ولها على حق الولاء..

قال الزيبق:

ـ وهل من الولاء أن تفقدها حليفا لها ومنقذها من الأسر، وهى تحتاج الآن إلى كل من يقف إلى جوارها، أم هل تظن أن الملك سلطان ملك بحر الغزال سيقف مكتوف اليدين بعد خلع حليفه عن العرش، أم أن دليلة ستكتفى بالاختفاء من المدينة دون انتقام ممن دمروا خططها الخبيثة والتى كان السلطان قاسم يمثل عنصرا رئيسيا فيها..

قال الوزير مروان:

ـ قل لنفسك يازيبق هذا الكلام، لو كان السلطان المخلوع فى أيدينا لأمكننا أن نحدد خططنا فى مواجهة أعدائنا ونحن مطمئنون أعده إلينا، تنضم إلى صفوفنا..

وصاح الفارس باسم ، وهو يستعيد رباطة جأشه :
ـ لو ظننت لحظة واحـــدة أنك تتطلع إلى السلطانة زينب لقتلتك على الفور . .
ثم أشار بيده إلى الجنود فربطوا الزيبق وحسن إلى وتدين متباعدين فى الحائط ، ثم ذهب بعض الجنود وعادوا يحملون القيود الحديدية والسلاسل الحديدية ليعيدوا ربط الزيبق وصاحبه بها . . وقال الزيبق وهو يجلس إلى الأرض :
ـ في يوم ما ، سيدفع إنسان ما ، ثمن حماقته .
ثم سكت ، لايرد على سيل السباب الغاضب الذى انثال من فم الفارس باسم ، بينما قال الوزير مروان فى صوته الهادىء الوقور :
ـ في أحوال ما ، تصبح تهديدات العاجزين إعلانا واضحا عن عجزهم . .
ثم انحنى لهما ، وأمسك بذراع الفارس باسم يقوده إلى خارج القبو ، والحرس يتبعونه في جلبة ، وأصوات وقع أقدامهم ، وقعقعة سلاحهم تصل إلى الأسيرين الذين أطبق الباب السميك عليهما ليتركهما فى شبه ظلام . .
وتنهد حسن بن الحصرى وهو يقول :
ـ هل كان لابد أن تستفزهما إلى هذا الحد ؟
قال الزيبق وهو يتحسس قيوده :
ـ كان لابد للفارس باسم أن يعرف حقيقة دوافعه ، إن غيرته على السلطانة أعمت بصيرته ، وأبرزت أسوأ ما فيه من خلق ،

أما الوزير مروان فكان يجب أن يعرف أنني أفهمه على حقيقته، وأن لحيته الكثة ،وشكله الوقور، وصوته الهادىء لم تعد كلها تخدعني..

قال حسن بن الحصرى في ضيق:

ـ والنتيجة هي القيود الحديدية والجنازير، والربط إلى الحائط.. أيعجبك هذ..؟

ضحك الزيبق، وهو يقول في مرح:

ـ طبعا يعجبني، لعلي سعيت إليه بنفسي، فأنا قد تعلمت من زمن كيف أتعامل مع القيود الحديدية وعندما أهتدي إلى الحيلة الصحيحة سأحرر رسغي من القيد..

صمت حسن بن الحصرى لحظات، ثم ضحك وهو يقول:

ـ نسيت أن قيود الحبال لابد أن تقطع بسكين، أما قيود الحديد فتفك بالحيلة والصنعة، أنا أيضا تعلمت شيئا من هذا، ولو أني لم أجرب الفكاك من قيد حديدى من قبل، وسأحاول..

وصمت، وصمت الزيبق، ولم يعد يتردد في القبو إلا صوت أنفاسهما المترددة وهما يحاولان معالجة القيود الحديدية، وأصوات هذه القيود وهي ترتطم وتحتك في عنف مرة، وفي حذر مرة، وفي يأس مرات، وتنهد حسن بن الحصرى، في مرارة وهو يقول:

ـ أما أنا فقد عجزت، فلا قبل لكل ماتعلمت بمعالجة هذه القيود.. وأملنا فيك أنت .فجأة قال الزيبق في صوت حذر:

ـ اصمت، وكف عن الحركة، لسنا وحدنا في هذا القبو..

وأطبق حسن بن الحصرى شفتيه، وكتم أنفاسه، وسرعان ما أدرك ما يعنيه الزيبق حين أحس بجسد يلمس جسده بسرعة ويتجه ناحية الزيبق، وجمد فى مكانه وهويسمع صوتا غريبا يقول فى همس:

ـ لا تتحرك ياعلى، وسأفتح قيدك فورا..

ثم سمع عبثا بقفل القيد الحديدى، وصوت انفتاحه ،وصوت وقوع السلاسل فوق الأرض، وميز شبحا ينحنى إلى جوار الزيبق يعبث بقيد السلاسل التى تربط الزيبق بالوتد المثبت بالجدار وراءه... وسمع صوت الزيبق وهو يقول فى مرح:

ـ لا أزعم أننى عرفتك من أول وهلة ياعمر... ولكن قلبى دلنى عليك، فرغم تنكرك البارع نفذ حبك إلى فجعلنى أحس بوجودك وقال صوت الغريب مرة أخرى فى همس:

ـ اسكت ياعلى، ولاتتحدث حتى تخرج من هنا بسلام.

ثم اقترب الشبح الغريب من حسن بن الحصرى وأخذ يعبث فى قيد يديه حتى فتحه، ثم فتح قيد القدمين،وأزاح السلاسل وهمس:

ـ اتبعانى..

وعندما تسللوا جميعا من باب القبو لمع ضوء مشاعل بعيدة فهمس حسن فى دهشة وقد كشف الضوء الضئيل ملامح الشبح:

ـ الساحر الافريقى.

ضغط الساحر على كتفه فى عنف وهو يهمس فى غضب :

ـ مزيد من الصوت وينكشف أمرنا . . . اتبعانى فى صمت كامل . .

وأطبق حسن بن الحصرى فمه ، ومضى يتبع الزيبق والساحر الافريقى ،وهو يجيل فى خاطره أن الزيبق لا تنتهى ملاعيبه أبدا أبدا فمنذ التقى به عند بئر النجاة ، وكل لحظة يلقى مفاجأة جديدة ، تزيد عن سابقاتها غرابة ، وقد كان يظن أن إطلاق الشياطين الملونة فى السماء يفوق كل أعجوبة ، ولكن أن يفك الساحر الافريقى الذى لايعرفانه قيودهما بهذه السهولة ، ويخرج بهما من هذا القبو الملعون رغم أنف القيود الحديدية والسلاسل والحراس ، فتلك أعجوبة تفوق كل ما سبقها ، وابتسم لنفسه وهو يقول :

ـ لا عجب أن أسموه الزيبق . . فمن يستطيع أن يمسك هذا المفلات العجيب . .

وقطع عليه تأملاته توقف الساحر الافريقى عند ناصية القصر ،حيث همس لهما :

ـ هذه المنطقة مكشوفة لحراس القصر ، ولسكان المدينة على السواء ، ولابد أن نقطعها لنصل إلى هذا الدغل الكثيف فى مؤخرة المدينة حيث النفق الذى نفذ منه مونجو وعصابته يوم اختطفوا الأميرة ، وسنسلكه الآن فى الخروج منها . .

قال الزيبق فى همس :

ـ يمكننا أن نزحف فى بطء ولن يحس بنا أحد .

قال الساحر الأفريقي

ـ يزحف واحد أمامي ،وواحد خلفي ،وأسير أنا وسطكما ، فلا أحد يشك في ولا في أني أريد الهرب من المدينة، ولو لمحكما أحد لظن أنه ظلي إما أن يتقدمني أو يتبعني..

ضحك الزيبق وقال في مرح:

ـ ويسمونني أنا الزيبق..؟ هذه حيلة شياطين..

قال حسن بن الحصري:

ـ أناوقعت في غابة من الشياطين.. تقدم أنت يازيبق، وسأتبع هذا الساحر الافريقي زاحفا، وسأحاول أن أتحول إلى ظل أمين.. ظل زاحف على بطنه..

وضحك الساحر الإفريقي، ثم انتصب واقفا وأخذ يسير في بطء وتؤدة، وأمامه كان يزحف الزيبق على مهل ووراءه كان يزحف حسن بن الحصري في بطء، ولوح الساحر بصولجانه لبعض الجنود، فهللوا يحيونه، وهو يسير ويسير، خطوة، خطوة، إلى أن وصل إلى أول الدغل فتوقف، وزحف الزيبق حتى اختفى داخل الدغل في صمت، ثم زحف حسن بن الحصري متسللا كالأفعى بين شجيرات الدغل... ورفع الساحر الأفريقي ساعديه يحيي القمر في ابتهال صامت، كان كل من يرقبه يحسبه صلاة إفريقية مخلصة، تستمد جذورها من أعماق شعائر الغابة.. ثم اختفى بدوره في صمت داخل الدغل.

- ٢٦ -

فى الغابة

ضـــحـك الزيـبق ضـــحـكة طـروب وهويقول:

ـ بودى أن أرى وجـه الوزير مـروان حين يكتـشف القبـو الخالى وضـحك حـسن بن الحصرى وهو يقول:

ـ وبودى أن أرى وجـه الفـارس باسم وهو يرى قـيوده الحديدية وسـلاسله ملقـاة على الأرض، وقد طارت العصافير من القفص.

قال الطبيب الافريقى في تؤدة:

ـ لا تسلخوا الغزال قبل أن تصيدوه..

قال الزيبق:

ـ ماذا تعنى بهذا..؟

قال الطبيب الافريقى :

- لقد نجوتما الآن لأن هربكما لم يكتشف بعد، أما لو بدأ البحث عنكما فلست واثقا من الإفلات، فهم أدرى بممرات هذه الغابة ودروبها هنا..

وكانوا يسيرون سيرا حثيثا متوغلين فى الغابة، يشقون طريقهم على ضوء القمر المتسلل من بين الأشجار وقال الزيبق فى قلق :

- هل تعرف المكان الذى خبأت فيه السلطان المخلوع ؟

تنهد الطبيب الافريقى وهو يقول :

- لقد عثرت على مكان مثالى داخل شجرة ضخمة مجوفة، ولكن كان هذا فى نور النهار، أما الآن فأنا أعتمد على الحدس، وحاسة التوجه.

ضحك الزيبق وهو يقول :

- لن تخطىء طريقك ياعمر.

صاح حسن بن الحصرى فى حنق :

- منذ رأيت هذا الرجل وأنت تناديه بعمر... فمن عمر هذا وكيف يكون عمر ساحرا إفريقيا..

قال الزيبق :

- ألا تعرفه حقا ياحسن..

وقال الطبيب الإفريقى :

- أنسيت خنجرى عند بئر النجاة ياحسن يوم كنت مقيدا

كالشاة المذبوحة أنت وعلى بن البيطار..؟!

كان صوت حسن بن الحصرى مترددا، ونبرات التفهم تدب في كلماته تدريجيا وهو يقول:

ـ أنت الفارس الذى سرقنا من أمام البئر؟ وهددنا بخنجره، ثم أنقذنا من غضب الزيبق حين أمرنا أن نمضى ولا نعود.

ثم صمت فجأة وعاد يقول فى حذر:

ـ لقد توعدتنى بالموت لو وقع بصرك على مرة أخرى... وهاأنت ترانى هنا فى هذا الجانب من الصحراء..

ضحك عمر العيار وهو يقول:

ـ لم تعد عدوا للزيبق، بل أنت حليف مخلص له، فأنت منى فى أمان..

تنهد حسن بن الحصرى فى اطمئنان وقال:

ـ ولكن كيف غدوت ساحرا إفريقيا، ولم يمض على مغادرتك لنا فى بئر النجاة زمن طويل.؟

ضحك عمر العيار وهو يقول:

ـ أنا هنا من زمن طويل، وحين أكون الساحر الإفريقى، وحين أغادر هذه المنطقة أعود عمر العيار... وتنكرى كطبيب جوال أو كساحر عالم بأسرار الأمراض والأرواح، وقادر على طرد الشياطين من أجساد المرضى والممسوسين، وصنع الأدوية والعقاقير والأحجبة الواقية، يسمح لى بالتجول فى كل مكان، والظهور متى «أشاء، والاختفاء متى أريد..

قال على الزيبق:

- كنت أظنك تعيش فى بغداد مع أحمد الدنف وحسن شومان. قال عمر العيار، وهو يزيح أغصانا متدلية تعوق طريقهم:

- نحن ننطلق من بغداد لنتحرك فى كل مكان من أرضنا الإسلامية نستطلع الأخبار، ونتتبع جواسيس الفرنج وعملاءهم، ونحبط كل غدر يراد ببلادنا قبل وقوعه إن أمكن.

قال حسن بن الحصرى:

- أنتم.. من أنتم..؟

قال على الزيبق:

- إنه يعنى عصبة الفتوة، وأنا منهم الآن..

قال حسن بن الحصرى:

- ومتى أكون أنا منهم، وكيف؟

- منذ الآن وأنت تحت الملاحظة والاختبار، وحين يحين الأوان

. ضحك عمر العيار وهو يقول:

ستنضم إلينا كما تحب، ولكن لابد أن تعرف أنك فى وسط الخطر دائما وحدك، وأن أسرارك يجب أن تموت معك، وأن أجرك هو رضاك عن عملك ونجاحك فيه.

قال حسن بن الحصرى:

- آن الأوان أن أعمل شيئا نافعا فى حياتى بدلا من اللصوصية والعيارة وقطع الطرق..

وقال علي الزيبق مكملا :

- وتنفيذ أوامر صلاح الكلبي ومهماته الدنيئة . .

فجأة وقف عمر العيار، وأشار إليهما بالوقوف وهو يقول :

- هذا هو المكان، لقد وصلنا إليه دون عناء كبير . . . انتظراني هنا حتى لا تصيبكما سهام الحراس وحرابهم .

وفجأة مضى يغني ويرقص وهو يلوح بالصولجان في يده، ويهتز العقد حول عنقه فيصدر أصواتا عالية، ومن جوف الظلام، صاح صوت :

- أهذا أنت أيها الطبيب ؟

توقف عمر عن رقصته ، وصاح صيحات غريبة وهو مستمر في حركاته الإيقاعية، ثم انحنى كأنما يقبل الأرض، ورفع يديه كأنما يحتضن السماء، وقال :

- نعم هذا أنا . . . السلام عليكم . .

وجاء الصوت يقول :

- وعليكم السلام . . . تقدم، من معك ؟

قال عمر :

- أصدقاء . . مؤمنون بروح الكون العظيم، مبدع أشجار الغابة ووحوشها وطيورها وزواحفها . . الله الواحد الأحد . .

صاح الصوت :

- أصدقاؤك أصدقاء لنا، فليتقدموا معك

قال عمر :

ـ تقدموا فلا خوف فهذا سوهى الرئيس ، وهو رئيس قبيلة البونت ، وهو صديق قديم ، وهو وقبيلته كلها تركوا الوثنية إلى الإسلام من زمن . . . وولاؤهم لهذا مع الخليفة فى بغداد . .

قال على وهو يتقدم خلفه :

ـ لك صداقات عجيبة فى أماكن غريبة ياعمر . .

وفجأة بدأت المشاعل تلمع ، وهى تشعل ويرفعها رجال عديدون تنير الطريق للقادمين ، وقال حسن بن الحصرى :

ـ هؤلاء مجموع المقاتلين من أبناء القبيلة ، وهم لحسن حظك ياعلى سكان الجزيرة المسحورة ، جزيرة صندوق التواجيه .

صدرت من على الزيبق آهة ارتياح عميقة وقال :

ـ أخيرا ألتقى بوجوه صديقة لاتبادر بالعدوان فى هذه الرحلة المضطربة . .

قال عمر العيار وهو يدخل إلى دائرة الضوء حيث وقف سوهى رئيس القبيلة .

ـ لا تقفز إلى الاستنتاجات المتسرعة ياعلى . . . واحكم على كل شىء بعد حدوثه . .

وشاهد على الزيبق أجسادا أبنوسية فارعة تحمل المشاعل التى تعكس أشعة نيرانها على الأجساد الشديدة السمرة فتلمه فى الظلام ، ومع المشاعل كان الرجال يحملون الحراب والقسى والسهام ، وقد زينوا الملابس القليلة التى يرتدونها بالنقوش الجميلة الزاهية ، بينما كان الرئيس يزين جيده بقلادة غريبة

الصنع تتوسطها جوهرة ثمينة تنعكس عليها أشعة المشاعل فتلمع وتخطف الأبصار ، وهمس حسن بن الحصرى مبهورا :

- انظر إلى هذه الجوهرة ، إنه يحمل ثروة طائلة فوق صدره... قال على الزيبق :

- إنها جوهرة تليق بتاج الخليفة هارون الرشيد نفسه..

وتقدم عمر العيار من سوهى فصافحه وهو يقول :

- هذا هو المقدم على الزيبق الذى حدثتك عنه.

تراجع سوهى إلى الوراء خطوات، فدهش على الزيبق، بينما حدق فيه سوهى فى انبهار وقال :

- الرجل الذى أخرج الشياطين الملونة الصارخة إلى السماء... ازدادت دهشة على الزيبق وقال :

- هل رأيتها..؟

فجأة أخذ الرئيس سوهى يتقافز وهو يصرخ مقلدا أصوات الصواريخ الصينية، ويحرك يده وأصابعه مقلدا حركات تساقط الألوان المنحدرة من السماء.. ثم قال :

- لقد أصابت القبيلة كلها بالرعب، وأخذنا نجرى نحو معابدنا القديمة لنسترضى آلهة الشر التى عبدناها من قبل حتى ترفع عنا هذا الغضب المخيف المجنون، لولا أن تصدى لنا صديقنا الطيب العالم بالأرواح، فأخبرنا أنها ليست شياطين، وليست من غضب أرواح شريرة، وإنما هى من صنع الإنسان، وأن رجلا مهما وكبير المقام هو المقدم الزيبق، هو الذى أطلقها ليخيف

رجال السلطان المجنون قاسم ويبعدهم عن صديقه ومعاونه المقدم حسن الذين حاصروه وكادوا يفتكون به..

وأشار الرئيس سوهى إلى على الزيبق وحسن بن الحصرى، وهو ينقل بصره بينهما، ثم قال موجها حديثه إلى عمر العيار:

- هل يستطيع إنسان أن يطلق هذه الشياطين الملونة بإرادته هو وحده..

قال عمر العيار:

- بل بإرادة الله أيها الرئيس، فهذا خادم من خدمة الدين، وخدمة المؤمنين، زوده الله بنتائج المعرفة وللعلم ليحقق ما كتبه له من فوز ونجاح..

قال الرئيس سوهى وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- لهذا نجح فى هزيمة رجال قاسم، والقبض عليه وأسره وتكبيله ونجح فى هزيمة رجال سلطان والقبض على كبار معاونيه...

ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة عالية، وهو يمد يده الضخمة يحتوى فيها كف الزيبق وهو يصافحه فى حرارة، ويقول:

- أهلاً بك، لقد أرسلك الله لتخلصنا من أعدائنا كلهم... وهم الآن أسرى بين أيدينا، تعال أريك السلطان المغرور قاسم، وأعوان الملك سلطان المتكبرين..

واتجه بالزيبق إلى ناحية شجرة ضخمة، وأشار بيده، فاندفع رجلان إلى داخل تجويف واسع فى الشجرة، وعادا يسوقان

أمامها السلطان قاسم الذاهل النظرات، المنهار القوى، ووراءه لومبا ومافى وقد قيدت أيديهما، وبدا عليهما الإنهاك والتعب... وهمس حسن بن الحصرى:

-ماذا فعلا بهما..؟ ولماذا هما أصدقاء..؟

همس على الزيبق:

-يبدو أنهما ليسا من أصدقاء الرئيس سوهى... فلنصبر ولننتظر..

حين رآهما الأسرى، لمعت عينا لومبا ومافى بالأمل، ولاحت على شفتيهما ابتسامتان فرحتان، وهز كل منهما رأسه تحية فى صمت، بينما لمعت عينا السلطان قاسم فى جنون، وبدأ الرعب على وجهه، وأخذ يصيح:

-الزيبق.. لا، لا أريد الزيبق، افعلوا بى ما تشاءون فقط، لا تسلمونى إلى الزيبق، لقد حذرنى منه الدرويش الصالح... قال هو السم الناقع، وأننى لو تهاونت معه لكانت نهايتى على يديه.. صدق الدرويش الصالح.. صدق الدرويش الصالح..

قال الطبيب الإفريقى وهو يهز صولجانه فى وجه السلطان المخلوع:

-أنت تعنى دليلة المحتالة..

صاح السلطان قاسم وهو يلوح بيديه المقيدتين:

-أنا لا أعرف دليلة أو غير دليلة، أنا أعرف الدرويش الصالح ومن كان يبعثهم من رسل قبل أن يجىء إلينا بنفسه، لقد قال إن

الزيبق موت وهلاك... وهو بالفعل موت وهلاك لى ولشعبى.

ضحك الرئيس سوهي، وهو يقترب من السلطان الأسير حتى كاد يلتصق به، وقال:

ـ الهلاك لك نعم، ولكن الهلاك لشعبك لا، هل الخلاص لشعبك منك ، ومن ظلمك وجبروتك، ومن خيانتك هلاك، لشد ما أنت مغرور..

صاح السلطان قاسم:

ـ أنا المدينة المرصودة، وكل من يسبنى يسب المدينة المرصودة وكل من يهاجمني يهاجم شعب المدينة المرصودة. فهو خائن ودسيسة لأعداء المدينة المرصودة.

قال الطبيب الإفريقى، وهو يلوح بصولجانه أمام عينى السلطان

ومن هم هؤلاء الذين يخونون المدينة المرصودة أيها السلطان... توقف السلطان عن صياحه، وأخذ ينظر إلى الطبيب الإفريقى فى إمعان، ثم قال فى بطء:

ـ أنا أعرفك.. رأيتك قبل هذا مرارا، وأنت ترقص رقصات المطر رأيتك والناس يلتفون حولك يوم تدخل مدينتنا لتعالج المرضى وتصلح الخلافات... رأيتك من قبل ولم أرتح إليك أبدا... وسأصدر أوامرى أن تمنع من دخول المدينة، وتعامل معاملة الأغراب فيها..

فتقتل فى الحال لو دخلتها..

قال الطبيب الإفريقي :

- الأمر أمرك أيها السلطان، ولكن لماذا تعتبرني من أعدائك.. لماذا لا ترتاح إلي..

ازداد السلطان تأملا في الطبيب الإفريقي، ثم قال :

- أحس أنك لا تحترمني كما يجب نظراتك ليس فيها علامات الخضوع والطاعة التي ينبغي أن تظهر في كل عين تنظر إلي... بل نظراتك في بعض الأحيان تحمل معنى التعالي كأنك تعرف شيئا عني... كأن سرا من أسراري مفضوح أمامك..

ابتسم الطبيب الإفريقي أنا أقدرك، وأعرف أنك محور حركة ضخمة تريد أن ترفع عنا في إفريقيا يد السلطان هناك في بغداد.. لمعت عينا السلطان، وصاح:

- أنت تعرف، إذن أنت تدرك مدى قوتي ونفوذي، غدا أحكم القارة كلها... ويركع الكل تحت أقدامي، حتى أنت أيها الساحر... بل وأولهم أنت يامن تعرف هذه الثروات الهائلة التي تعيش فوقها هنا، نبيع بعضها للافرنج ونعيش كأروع ما يكون العيش بالدخل الوفير، ونصبح أصدقاءهم لا أعداءهم.. وتتوقف الحرب بيننا وبينهم إلى الأبد..

قال عمر العيار:

- لقد بلغت براعتك حدها الأقصى حين أقنعت بهذا الملك سلطان ملك بحر الغزال..

ضحك السلطان قاسم وقال :

ـ هو عجوز مخرف، كل ما يهمه هو الحصول على زينب، وما أن لوحت له بها حتى انضم إلى، إنما المهمة الصعبة كانت مع سلطان الاستواء. وملك البحر الأزرق، ووالى السودان.

سأل عمر العيار فى عدم اهتمام:

ـ ووالى مصر..

ضحك السلطان قاسم وقال:

ـ وتزعم أنك ساحر، وأنك تعرف كل شىء..؟ والى مصر يظن نفسه الرأس الكبير، وهو واهم، كل فائدته أن مقدم دركه صلاح الكلبى همزة الوصل بينى وبين الفرنج، ويوم نحقق انفصالنا، سنقصيه..

ضحك عمر العيار وقال:

ـ كل هذا خططته أنت والدرويش الصالح..؟

عاد السلطان قاسم يضحك ضحكته العصبية العالية، وهو يقول:

ـ الدرويش الصالح مجرد رسول ينقل الأخبار، وهو الذى كشف على الزيبق لى، وهو الذى يحمل لى المال أوزعه على الرجال... سأل عمر العيار وكأنما عفوا:

ـ والوزير مروان؟

استمر السلطان فى ضحكه العصبى وهو يقول:

ـ إنه يظن نفسه ذكيا، ولكن دوره انتهى بمجرد أن أوصلنى إلى أول الخيط، لقد حاول مع السلطانة كوثر، ولكنها رفضت

قالت إنها مسلمة لا تعصى سلطان المسلمين، فانتهت السلطانة كوثر، أما أنا فأفهم أكثر منه، فأنا السلطان، والسلطان على حق دائما، أما هو فوزير، أغيره متى شئت.. ألم أقل لك إنك لا تقدرني حق قدرى والآن أرنى هذه النظرة المتعالية في عينيك أيها الساحر الجاهل، ماذا تعرف أنت سوى التمائم والتعاويذ والرقى... اعرف قدرك، والزم مكانك..

جال عمر العيار بعينيه في الوجوه المتطلعة إليه، وتوقف بصره عند الزيبق، وقال وهو يهز كتفيه:

-أنت ترى، هو على شفا الجنون..

قال الزيبق:

-جنون العظمة، والإفراط فى حب الذات..

قال عمر العيار:

-لقد قال كل ما عنده، ولم تعد لى به حاجة..

ثم التفت إلى الرئيس سوهى، وقال:

-أيها الرئيس إن منظر هذا الرجل يذكرنى بكل ما أكره من صفات، هل أعدته إلى محبسه.

أشار الرئيس سوهى بيده، فدفع الرجال السلطان قاسم ومافى ولومبا إلى داخل الكهف والسلطان يصرخ ويتخبط بعنف بين أيدهم وهو يتوعد ويهدد، ويبكى ويتوسل فى وقت واحد، بينما انساق لومبا ومافى لآسريهم فى هدوء.. وقال الرئيس سوهى:

ـ سننفذ فيهم حكم عدالتنا . .

كاد على الزيبق يحتج، لولا أن لكزه عمر العيار بيده فى جنبه فأطبق فمه، وهمس حسن بن الحصرى إلى جواره قائلا :

ـ لومبا ومافى معنا، ويجب إنقاذهما، فكلام هذا الرئيس صاحب الجوهرة لا يبشر بخير . .

همس على الزيبق وهو يضحك قائلا :

ـ لن يتركهما عمر العيار فهو يعرف أنهما معنا وانس مسألة الجوهرة هذه . .

قال حسن بن الحصرى هامسا :

ـ كيف أنساها ، وهى تكاد تعمى عينى . . قلت لك هى جديرة بتاج الخليفة هارون الرشيد .

قال الزيبق فى حسم :

ـ وأنا قلت لك أن تنساها تماما .

قال عمر العيار للرئيس سوهى :

ـ والآن أيها الرئيس سوهى لنا حديث معا حول الأسرى الذين أسلمتهم إليك ، فأنا أعطيتك إياهم لحراستهم لا للانتقام منهم . .

هز الرئيس سوهى رأسه فى عنف فلمعت أشعة المشاعل على الجوهرة التى كان سناها يخطف الابصار وقال :

ـ فضلك أيها الطبيب لا ننكره ، فلولاكما لماوقع أشد أعدائنا عداء لنا فى أيدينا ، ولكن هذا هو كل ما ستناله،منا ومنهم ،

الشكر منا والكراهية والسخط منهم..

وضحك، وكأنما أعجبته كلماته ومضى يتمايل ويهتز وكأنما استجابة لموسيقى داخلية تطربه وتهز أعطافه، وفجأة دوت طبول في الغابة... طبلة تدق دقات معينة لفترة، ثم تتوقف وتعود لتدق من جديد، ثم تجاوبها طبلة أكثر قربا لتدق نفس الدقات وتتوقف لتعود فتدق من جديد، وتتلقف الدقات طبله ثالثة ورابعة، في دق مستمر ومتشابه ومتصل.. وساد الوجوم الجميع.. وهمس عمر العيار في حدة:

- طبول الغابة... لقد اكتشفت المدينة المرصودة هربكما...

قال الزيبق في دهشة:

- تعنى

قال عمر العيار مقاطعا إياه فى انفعال:

- أعنى أن الوزير مروان أطلق رجاله ككلاب الصيد تجوب الغابة بحثا عنكما... ولن يطول بهم البحث كثيرا، فهذه الطبول تنبه كل من فى الغابة من رجال المدينة المرصودة إلى ضرورة العثور عليكما..

تحدث الرئيس سوهى الذى أصابته أصوات الطبول بالوجوم فكف عن رقصه وطربه، وقال فى صوت جاد وحازم:

- لن يستطيع أحد العثور عليهما، فرجالى سيقومون بالتمويه اللازم، هيا إلى جوف الشجرة وبسرعة..

ثم صاح فى رجاله فأطفئت المشاعل، وساد الصمت، ولم

يبق إلا مشعل واحد تقدم حامله إلى جوف الشجرة يتبعه الرئيس سوهي والطبيب الإفريقي، وعلى الزيبق، وحسن بن الحصري، الذى همس فى قلق:

ـ لو وقعنا فى أيديهم هذه المرة فلن تجدى ملاعيبك يازيبق..

همس الزيبق فى حسم وهو يدخل إلى جوف الشجرة مهتديا بالمشعل الذى يتقدمه حامله:

ـ فى مهمتنا هذه يامقدم حسن، لا نعرف اليأس إلا مع آخر أنفاس الحياة.

-٢٧-

فى قلب الشجرة

وقف حارسان إلى جوار فوهة التجويف الكبير فى الشجرة، بينما قال الرئيس سوهى:

ـ سنظل هنا بعض الوقت حتى يضلل رجالى المطاردين... ولن يطول الأمر حتى يبتعدوا عن هذه الناحية من الغابة تماما.

وضحك ضحكة خشنة، ثم أشار بيده، فأطفأ حامل المشعل مشعله، وساد ظلام مخيف، صاح وسطه السلطان قاسم:

ـ أخرجونى من هنا، لابد أن أعود إلى مدينتى ـ أنا السلطان وسأعاقبكم جميعا.

قال عمر العيار:

ـ لابد من تكميمه وإلا نبه المطاردين إلى مكان وجودنا بصياحه. قال الرئيس سوهى فى ضراوة:

ـ بل نقتله هو ورجال الملك سلطان وننتهى منهم جميعا...

وصدرت من ناحيته مجموعة أصوات دلت على تحركه، وتحرك سلاحه فى يده، فجأة قال على الزيبق فى صوت محذر:

ـ مكانك أيها الرئيس سوهى وإلا ندمت..

ساد الصمت مكان الرئيس سوهى، وجاء صوته غاضبا وهويقول:

ـ أنا هنا الرئيس، ولا أحد يقف أمام إرادتى..

قال الزيبق فى صوت بارد كحد السيف:

ـ وأنا هنا الزيبق أيها الرئيس، وإياك أن تنسى عناقيد الغضب الملونة التى ارتسمت فى السماء تمطر اللون والنار والنور، وتصدر البرق والرعد... ولاتنس أننى أطلقتها لتخليص صديقى هنا المقدم حسن بن الحصرى، وأستطيع أن أطلقها لأشتتك أنت ورجالك، وكل رجال الوزير مروان، ورجال الملك سلطان بحيث لا يعرفون أين هم ولامن هم، فهؤاء الذين فى يدك أسراى أنا، وأنا وحدى صاحب الحق فى تحديد مصيرهم، فأبعد يدك عنهم، وإلا لا تلومن إلا نفسك.

فجأة صاح السلطان قاسم فى صوت مذعور:

ـ أبعدوا عنى الزيبق، افعلوا بى ما تشاءون ولكن أبعدوا الزيبق أبعدوا الزيبق.

وجاء صوت الرئيس سوهى مترددا وهو يقول:

- أيها الطبيب، أنت صديقنا..

قال عمر العيار:

- لقد أخبرتك منذ البدء أنهم أسرى الزيبق ... والزيبق لا يتخلى عن أصدقائه، ولا يترك أسراه لغيره..

وأحس الزيبق بحركة خفيفة إلى جواره، ولكنه لم يلتفت إليها فقد كان سمعه كله مركزا بمكان الأسرى والرئيس سوهى، وعاد عمر العيار يقول:

- ولقد أمكننى أن أتحكم فى غضب الزيبق حتى الآن لينسى إعلانك الدائم أنك تريد قتل أسراه، أما وقد هممت بقتلهم فعلا، فقد تفجر غضب الزيبق، وحين يتفجر غضب الزيبق فلا أحد يستطيع أن يقف فى طريقه... فحذار أيها الرئيس حذار..

صاح الرئيس سوهى فى غضب:

- لا يحذرنى أحد، أنا بين رجالى، وأعدائى بين..

وفجأة انقطع صوته، وارتفع صوت خبطة، ثم وقوع جسم فوق الأرض، مع آهه عميقة... وتحرك الحارسان فى مكانهما فى قلق .. وتسلل شبحان نحوهما، وصدر صوت خبطتين وصدر صوت وقوع جسدين على الأرض وآهتين عميقتين...

وساد الصمت جوف الشجرة من جديد... وقال الزيبق:

- أحسنت ياحسن.

قال حسن بن الحصرى فى صوت طروب :

ـ أسعدنى أن أسكت صوته بضربة من مقبض سيف فوق رأسه وأسعدنى أن أسكت حركة أحد الحارسين ، وتولى صاحبك عمر العيار أمر الحارس الثانى .

ـ لقد أرغمتمانى على أن أشارككما هذا العدوان مع الرئيس سوهى ورجليه ، وبهذا أنا أدمر جهد أعوام وأعوام من العمل المتصل لكسب ثقته ، وثقة رجاله .

قال الزيبق :

ـ لن تخسر شيئا ، فسنعيد الأمر إلى نصابه فى الحال . .

وتحرك كالشبح وهو يهمس :

ـ مافى

قال مافى فى ترقب :

ـ أنا هنا . . . وكنت أنتظر هذه اللحظة من زمن .

وتحرك الزيبق كالشبح نحو الصوت ، وأخرج خنجره ، وتحسس رسغى لومبا ، ثم مزق قيوده بخنجره ، وهمس :

ـ لومبا .

جاء صوت لومبا هادئا وهو يقول :

ـ أنا أيضا هنا ، ولم أفقد الثقة لحظة أن إنقاذى من يد الرئيس سوهى سيتم على يديك . .

وتحرك الزيبق مرة أخرى كالشبح نحو الصوت ، ومد خنجره فمزق قيود اليدين الممدوتين إليه ، وقال فى ارتياح :

الآن نستطيع أن نتحدث..

ضحك عمر العيار في مرارة وهو يقول:

ـنتحدث؟... وهل عاد في الأمر حديث..؟ لقد أمضيت سنوات طوالا في استمالة الرئيس وقبيلته حتى حزت ثقته، وأصبح أهم صديق لنا في هذه المنطقة، وتأتي الآن وفي قمة احتياجنا إليه فتدمر كل شيء، هذه الخبطة على رأسه ستجعل التفاهم معه متعذرا بعدها..

ـالمسألة مازالت في يدنا، وسنتدارك الأمر..

قال العيار في حنق:

ـ كيف؟

قال الزيبق:

ـهذا رجل يعتقد في أنني أستطيع فعل الخوارق، فلنستغل هذا إذن..

والتفت إلى حسن بن الحصرى وهو يقول:

ـلقد اصطدمت قدمي بحصى كثير قريب من الشجرة، اذهب وابحث عن حصوات دقيقة جدا.. ثلاث حصوات صغيرة، وحاذر أن يراك أحد..

ودون أن يتحدث تحرك حسن بن الحصرى في حذر خارجا من باطن الشجرة، بينما فك علي الزيبق جرندانه الذي يربطه على ظهره وجعل يعبث فيه حتى أخرج ما أراد، ثم قال:

ـأريد بعض الضوء.

قال عمر العيار:

ـ هذا خطر ياعلى فإن لم يلفت الضوء رجال المدينة المرصودة فهو سيلفت رجال الرئيس سوهى بالتأكيد..

وجاء صوت حسن بن الحصرى من مدخل التجويف قائلا: ماذا تريد بهذه الحصوات يامقدم علي.... وقبل أن يجيبه علي الزيبق عاد صوت الطبول يدوى فى الغابة من جديد، وإن كان يبدو بعيدا هذه المرة، ويزداد ابتعادا كلما تكرر .. وهمس الزيبق:

ـ ماذا يعنى هذا الطبل؟

قال لومبا:

ـ إن المطاردة تبتعد عن هذا المكان.

وقال عمر العيار:

ـ لقد نجح رجال الرئيس سوهى فى تضليل المطاردين من رجال المدينة المرصودة، وهم الآن يتعقبون أثرا خادعا يبعدهم عنا..

تنهد الزيبق وهو يقول:

ـ إذن نستطيع أن نشعل أحد هذه المشاعل.

قال مافى فى قلق:

ـ لو زال خطر رجال الوزير مروان، فمازلنا نواجه خطر سوهى ورجاله.

قال الزيبق:

ـ نحتاج إلى النور لنتغلب على خطر سوهي ورجاله.

وفجأة اشتعل وهج في التجويف، وتقدم حسن بن الحصرى يحمل مشعلا مشتعلا، وقال:

ـ هذا هو النور الذى تريد يامقدم علي.

وفي صمت تناول علي الحصوات، وفتح زجاجة صغيرة، وأمسك الحصوات بملقاط رفيع، ومضى يصب عليها من الزجاجة سائلا لزجا ما أن مس الحصوات حتى أصدر دخانا أزرق، وأخرج زجاجة أخرى صب منها سائلا فوق الحصوات فأصبح قوامها شفافا كالزجاج وتعددت ألوانها حتى وكأن كل ألوان الطيف قد اجتمعت فيها، وتأوه لومبا متعجبا وهو يقول:

ـ لست أدرى أيكما الساحر، هذا الطبيب أم أنت؟

ضحك الزيبق، وهو يبلل قطعة من قماش من الزجاجة الثانية، ويرسم بها دائرة ملونة بألوان الطيف على جبهة الرئيس سوهي، ثم على جبهتي الحارسين، وقال:

ـ كل ما نجهله نسميه سحرا، هذا علم يالومبا..

قال حسن بن الحصرى:

ـ بل هذا ملاعيب الزيبق التي لا حصر لها.

لم يجب الزيبق، بل انهمك يعيد الزجاجتين إلى الجرندان، ويخرج زجاجة كبيرة نوعا، وحين فتح الزيبق سدادتها شاعت في المكان رائحة نفاذة.. واقترب علي بالفوهة من أنف الرئيس سوهي الذى سرعان ما انتفض وهو يعود إلى وعيه، وقرب

الزيبق الفوهة من أنفي الحارسين فأفاقا في الحال، وحين أعاد الزجاجة إلى مكانها في الجرندان حرص على أن يرمي الحصوات، كل حصوة قريبة من رأس رجل من الرجال... وتأوه الرئيس سوهي، واعتدل في جلسته، وأخذ يتحسس رأسه، وهو يستجمع حواسه تدريجيا. ثم قال:

ـ ما هذا، ما الذى حدث؟ .. أين أنا..

وحين بدأت نظرات عينيه تعود إلى تركيزها الطبيعي، قال الزيبق وهو يضحك:

ـ أنت هنا معنا في تجويف الشجرة في قلب الغابة على مقربة من المدينة المرصودة، أما الذى حدث فهو أنك أغضبتني.. وحين أغضب تنطلق الصواعق من السماء على من أغضب عليهم فتصرعهم في الحال.

تحسس الرئيس سوهي رأسه ثم جبهته، فخرجت يده مليئة بالألوان... فنظر إلى كفه الملوثة وقال:

ـ صاعقة على جبهتي، ولم أمت..

ضحك الزيبق وهو يقول:

ـ كان غضبي خفيفا فاحمد الله على هذا.

بينما مد كل من الحارسين يده إلى جبهته لتعود ملونة بالأصباغ وارتسمت نظرات الذعر في عيونهما، بينما أخذ كل منهم يحدث في العلامة الغريبة فوق جبهة الآخر، ثم حولا بصرهما إلى العلامة المشابهة على جبهة الرئيس سوهي، الذى

أخذ ينقل بصره بين العلامتين في وسط جبهة كل منهما... ظهرت علامات الدهشة والخوف على وجهه، ومد يده يتحسس رأسه ، وقال في صوت متخاذل :

ـ الشهاب في الجبهة والألم في رأسي من الخلف..

أشار الزيبق إلى الحصوات الغريبة إلى جوارهم، وقال :

ـ هذه الشهب كانت تلمع في السماء، ثم دخلت من فوهة هذا التجويف ليصيب كل واحد منها واحدا منكم في جبهته، ليتجمع الألم في مؤخرة رأسه... وسيزول الألم تدريجيا فلا تخف أيها الرئيس سوهي..

مد الرئيس سوهي يده إلى الحصوات الثلاث يتأملها في دهشة وإمعان وقال :

ـ لم أر في حياتي مثل هذه الأحجار، لا هي من الصخر، ولا هي من الجوهر... وهذه الألوان كيف اجتمعت كلها معا...؟

قال الزيبق وهو يبتسم :

ـ لو كنت رأيتها وهي منيرة في السماء تزمجر وتبرق وترعد لعرفت أنها شيء خاص جدا، هذه شهب محترقة أيها الرئيس..

قال الرئيس سوهي وقد شحب وجهه..

ـ وأنت سخرتها لإنقاذ السلطان قاسم ورجال مدينة بحر الغزال من خنجري..

قال الزيبق :

ـ كنت ستذبحهم وهم مقيدون . .

ازداد شحوب وجه الرئيس سوهى ، وجاء صوته ضعيفا متخاذلا ، وهو يقول :

ـ هم أعدائى ، وأعداء قبيلتى . .

قال الزيبق :

ـ وحياتهم مهمة لى كل الأهمية . .

رفع سوهى رأسه فى حدة وهو يقول :

ـ لماذا ، لقد قال السلطان كل ما يعرفه للساحر ، ولم يعد له نفع . .

قال الزيبق فى صبر :

ـ ولكنه نافع لى أنا ، فنفوذ المدينة المرصودة عتيد حتى الجزيرة المسحورة ، ولن أستطيع الذهاب إليها إلا بموافقة السلطانة زينب ، وهى قد وعدتنى أن تؤمن طريقى فى الذهاب وفى العودة بشرط أن أمكث عندها شهرا عندما أفوز بما جئت من أجله . .

قال الرئيس سوهى :

ـ وهى لن تنفذ وعدها إلا إذا أسلمتها السلطان قاسم . .

قال الزيبق :

ـ هذا صحيح ، سأسلمه لها ، فنحن نعرف الآن كل ما عنده من معلومات . .

فجأة صاح السلطان قاسم فى صوت تزداد نبرات الخبل

وضوحا فيه كلما استمر فى صياحه المحموم وقال:

ـ زينب لابد أن تتـزوج الملك سلطان ملك بحـر الغـزال، لتصبح ملكة بحر الغزال، ويترك لى ملك المدينة المرصودة، ثم أستقل وأصبح الخليفة.. أنا الخليفة اركعوا أمامى، أنا صديق ملك الافرنج، أنا صديق كل ملوك الولايات هنا فى إفريقيا، وهناك فى آسيا. .أنا السلطان الأعظم..

قال حسن بن الحصرى فى ضيق:

ـ لقد جن الرجل

قال عمر العيار فى تؤدة:

ـ لقد بدأ جنونه يوم بدأت خيانته... إنه الطموح الذى يدمر صاحبه..

تحسس الرئيس رأسه من جديد، ثم تحامل على نفسه ووقف ونظر إلى الزيبق طويلا قبل أن يقول:

ـ أنا لا أريد أن أعادى واحدا له قواك الخفية هذه، افعل بالسلطان ما تشاء، ولكنى سأعاقب لومبا ومافى على سالف إساءاتهما لى ولقبيلتى..

قال الزيبق فى صوت هادىء:

ـ ليس بين لومبا ومافي وبينك عداء، فهما إن كانا قد أساءا إليك فقد كان هذا بأوامر ملكهم سلطان، وقاما بواجبهما فى خدمته وخدمة مدينة بحر الغزال.

صاح الرئيس سوهى فى غضب:

ـ لقد قادا الغارات على القبيلة، وأسرا منا الكثيرين مازالوا يحيون حياة العبيد في قصر الملك سلطان..

قال مافى متدخلا في الحديث:

ـ كانت قبيلتك تغير على مراعينا أيها الرئيس سوهي

صاح الرئيس سوهي مستمرا في غضبه:

ـ هذه خيرات الله خلقها سبحانه لعبيده، فلا يحتكرها أحد، قال لومبا:

ـ أمامكم الغابة واسعة، فلماذا تغيرون على القطعان وهي ترعى في زمام مدينة بحر الغزال؟

وصل غضب الرئيس سوهي إلى قمته وهو يقول:

ـ ولماذا تغيرون على المدينة المسحورة وهي أرضنا نحن وتسرقون الجواهر والأحجار الكريمة.

قال لومبا في صبر:

ـ الملك يعتبرها من أملاكه، فهي حدوده الملاصقة للمدينة المسحورة..

قال سوهي:

ـ كان السلطان قاسم يعتبرها من أملاكه أيضا.. فمرة هو يغزونا ويذلنا ويأسر رجالنا ويسبي نساءنا، ومرة تأتون أنتم بحرابكم وسيوفكم لتسرقوا خيراتنا وتقتلوا محاربينا..

تنهد لومبا وهو يقول في يأس:

ـ إنه القدر الذي جعل جزيرتكم غنية يطمع فيها كل الأقوياء.

قال الزيبق:

ـ أيها الرئيس سوهى إن لومبا ومافى جنود مخلصون لبلادهم، وينبغى أن تنزع من قلبك كل حقد شخصى تكنه لهما.. أما أمر الجزيرة فأعدك أننى سأحفظ أمنها، وأبعد عنها أخطار الطامعين فيها .. هل تثق في وعد يقطعه الزيبق على نفسه؟

ـ انفثأ غضب الرئيس سوهى، وارتسمت على وجهه ملامح أمل طال غيابه، وقال:

ـ أتعنى ماتقول حقا..؟

قال عمر العيار..:

ـ الزيبق لا يقول إلا ما ينوى أن يفعل.

ابتسم الرئيس سوهى، وأشرق وجهه كله،ومد يده مصافحا الزيبق، وهو يقول:

ـ ليس لنا من أمل إلا أن نعيش فى سلام، فإن ضمنت لنا هذا، فقد حققت لى ولقبيلة البونت كل ما كنا نحلم به..

شد الزيبق على يد الرئيس سوهى، وهو يقول:

ـ ولومبا ، ومافي..؟

قال الرئيس سوهى:

ـ هما من أتباعك، فهم من الآن أصدقاء..

قال لومبا فى بطء:

ـ لن تندم أيها الرئيس سوهى على كلماتك هذه أبدا..

ـ قال الرئيس سوهي:

ـ لقد صدق الزيبق فليس بيني وبينكما عداء شخصي..

قبل أن يرد أحد على كلماته، عاد صوت الطبول يدق من جديد، فصمت الجميع يسمعون الدقات المتوالية والمتتابعة، وهي تقترب تدريجيا من مكانهم... وحين صمتت أصوات الطبول قال مافي:

ـ لقد عادوا إلى الأثر الأصلي..

وقال لومبا:

ـ إنهم يتجهون نحو هذا المكان.

قال الرئيس سوهي:

ـ أطفئوا المشاعل في الحال، وانتظروني هنا.

وسرعان ما أطفئت المشاعل ليسود جوف الشجرة ظلام مطبق، بينما أشار الرئيس سوهي إلى الحارسين، وانطلق مسرعا والرجلان يتبعانه .. وقال الزيبق:

ـ لو وصلوا إلينا فسنقاتلهم..

قال عمر العيار في ثقة:

ـ لقد ضللهم الرئيس سوهي مرة، وهو يستطيع أن يضللهم مرة ثانية..

فجأة عاد الرئيس سوهي مضطربا وهو يقول:

ـ الجوهرة، لقد سرقت قلادتي.. أين الجوهرة؟

وجم الزيبق، ثم لكز حسن بن الحصري، وقال في صوت

ذى مغزى:

ـ لم تسرق قلادتك أيها الرئيس، وإنما سقطت منك قريبا من السلطان قاسم، حين كنت تهم بقتله... وسيأتيك بها المقدم حسن بن الحصرى، فقد كان قريبا منك ومنه... هيا يامقدم حسن أحضر القلادة والجوهرة للرئيس سوهى حيث سقطت.

ودمدم حسن بن الحصرى محتجا، فدفعه على الزيبق بقوة، وهز حسن رأسه فى يأس، وتحرك إلى داخل التجويف وهو يخرج القلادة والجوهرة المثبتة بها من جيبه، ثم تظاهر أنه يبحث قرب السلطان قاسم، ثم صاح:

ـ إنها هنا فعلا، لقد وجدتها..

وتنهد الرئيس سوهى فى ارتياح، بينما قال الزيبق:

ـ كنت أعرف أنك الوحيد الذى يستطيع أن يعثر عليها، أعطها لصاحبها يامقدم حسن..

ومد حسن بن الحصرى يده بالقلادة إلى الرئيس سوهى الذى أخذها فى لهفة ومضى يتحسس الجوهرة بأصابعه، ثم ارتداها فى عنقه، والتفت خارجا مرة أخرى وهو يقول:

ـ لقد نصبت لهم كمينا بالقرب من هنا، لو اقتربوا منه كانت نهايتهم..

قال عمر العيار:

ـ نحن لا نريد سفك الدماء أيها الرئيس سوهى، فحاول أن

تصرفهم بالحيلة.

لم يرد الرئيس سوهى، وإنما خرج مسرعا، بينما قال حسن بن الحصرى:

ـ هل كان لابد أن ترغمنى على إعادة الجوهرة يامقدم على؟

قال الزيبق:

ـ انس الجوهرة، وابتعد عنها تماما.

ضحك عمر العيار وهو يقول:

أنت تطلب منه المستحيل، هذا طبع فيه، واللص لص ولو ارتدى مسوح الزهاد..

ودمدم حسن بن الحصرى غاضبا، بينما ارتفع صوت السلطان قاسم فجأة صائحا:

ـ إلى ياجنود المدينة المسحورة، أنا هنا أسير، أنا سلطانكم وقائدكم ومنقذكم..

صاح حسن بن الحصرى فى حنق:

ـ سيكشف هذا المجنون مكاننا بصياحه..

بينما قال عمر العيار:

ـ هو لايدرى فى جنونه أنهم يبحثون عنه لقتله لا لإنقاذه..

قال على الزيبق:

ـ اذهب فكمم فمه يامقدم حسن حتى لايقودهم إلينا بصياحه.

وتحرك حسن بن الحصرى فى الظلام فى صمت نحو

السلطان... بينما قال الزيبق:

ـ يجب أن نخرج من هذا المكان، فنحن هنا كالفأر فى المصيدة. قال عمر العيار:

ـ الرئيس سوهى يعرف هذه الغابة وطرقها كأصابع يديه ويستطيع أن يبعدنا عن كلاب الصيد هؤلاء..

وقال المقدم حسن بن الحصرى:

ـ كان هذا المخبأ مهما يوم كان هناك ثلاثة أسرى مقيدين أما الآن فليس من عائق يحد من حركتنا إلا السلطان وهو مقيد ومكمم، ومن الممكن أن أحمله فى هروبنا إذا قررتم الهروب..

قال الزيبق:

ـ ننتظر الرئيس سوهى ونطرح عليه الأمر.

-٢٨-

رقصة الانتصار

حين عـــاد الرئيس ســـوهى إلى قلب الشجرة المجوفة كان مطرقا ويبدو عليه الضيق، وبعد فترة صمت قصيرة جال فيها بعينيه فى الجميع وقال:

- إنهم يقتربون ، والقمر قد بدا يبزغ، وسيسهل ضوؤه مهمتهم. قال لومبا:

- نستطيع أن نهرب قبل أن يصلوا إلى هذا المكان، ونختـــفى عن أنظارهم فى الغابة..

وقال مافى:

- والغابة لا يعرف مسالكها مثلك أيها الرئيس سوهى، كم اختفت قبيلتكم كلها

أمامنا ونحن نطاردها، وكأنما انشقت أشجار الغابة وابتعلتها بكاملها.

ضحك الرئيس سوهي في مرارة وقال:

- إن كثرة هروب أبناء القبيلة علمتهم المسالك والمخابىء والحيل، وقد أستطيع الاختفاء أنا ورجالى، ولكن أنتم..؟ لا أظن أن هذا في قدرتكم..

فجأة رفع على الزيبق رأسه، وقال في حزم:

- لم يبق إلا طريق واحد للخلاص.

قال حسن بن الحصرى فى أمل:

- ماهو..؟

قال الزيبق:

- هما يطاردان أسيرين هما أنا وأنت يامقدم حسن، فلو سلم الأسيران نفسيهما لهم اكتفوا بهذا وعادوا دون أن يخطر ببالهم أمر سوهي ورجاله ولا أمر السلطان قاسم..

قال عمر العيار وهو يبتسم:

- هذا قرار شجاع إذ كيف تضمن أنهم لن يبادروكم بحرابهم وسيوفهم بمجرد رؤيتهم لكم دون انتظار لحديث أو تفاهم...

ضحك الزيبق وقال:

- هنا يأتى دور الساحر الافريقى، فهذا الساحر سيأسر الهاربين ويقدمهما لقمة سائغة للوزير مروان والسلطانة زينب..

ابتسم عمر العيار وهو يقول :

ـ لا يفكر في مثل هذا إلا الزيبق، فمن ناحية تتوقف المطاردة ومن ناحية أخرى تعلو مكانة الساحر الإفريقي قال الزيبق مكملا :

ـ ولا تنس أن الوزير مروان والسلطانة زينب يريدان السلطان في أيديهم، وهما لن يقدما على قتلنا قبل أن يستردا السلطان المخلوع . .

قال حسن بن الحصرى وهو يضحك :

ـ ويفوز الزيبق بجواز المرور إلى الجزيرة المسحورة . .

قال الزيبق في حزم :

ـ ليس أمامنا الآن إلا هذا . .

ثم التفت إلى لومبا قائلا :

ـ أنت ومافي مسئولان عن هذا السلطان المجنون، ومسئولان أيضا عن باقي حاجاتي المتروكة في الكهف، في الجبل المقابل للمدينة حيث كنا ، وحيث تركت حاجاتي الهامة لي .

قال لومبا :

ـ يسعدني أن تثق فينا يازيبق ـ حاجاتك تحت الحفظ ، وأسيرك نحن نحرسه لك .

قال الزيبق :

ـ إذن يغادرنا الآن الرئيس سوهي ورجاله إلى ناحية، ويخرج مافي ولومبا مع الأسير إلى الكهف من ناحية أخرى، أما

الطبيب الإفريقى فيقودنى أنا والمقدم حسن، ويستعد لمقابلة الفارس باسم ورجاله.

كان الرجال يتقدمون فى حذر، مكونين نصف دائرة واسعة، وقد أشهروا أسلحتهم ، وساد بينهم صمت قلق، فقد كانوا يدركون أنهم وراء فريسة عنيدة، وأن مطلوبيهم يملكون من القوة وسعة الحيلة الكثير كما أنهم يملكون القدرة على تسخير قوى شاذة لا يستطيعون فهمها... وهمس الفارس باسم لرجاله فى صوت أجش قائلا : ـ جائزة كبرى لمن يستطيع أن يقبض على الزيبق، أو صاحبه، سأجعل الرجل الذى يتمكن من أحدهما ثريا طوال حياته، وسأرفع قدره إلى أعلى مكان بين الفرسان..

وتبادل الرجال النظرات فى قلق، وهم يحدقون حولهم فى أشجار الغابة الكثيفة التى ينيرها، ويكشف الطرقات خلالها ضوء القمر اللامع الذى بلغ منذ لحظات قمة اكتماله ـ وعاد الفارس باسم يقول فى نفس الصوت الهامس الأجش:

ـ الأثر الذى نتتبعه هذه المرة حقيقى وحاسم ونحن فى الطريق إليهم ، فقط التزموا الحذر..

وفجأة صاح واحد من الرجال قائلا :

ـ انظر أيها الفارس ، أمامنا نار مشتعلة عن بعد.

ورفع الفارس يده، فساد صمت واجم جميع الرجال ، وهمس:

ـ أين . . ؟

وعاد صاحب الصوت يقول :

ـ لقد رأيت وهجا ، هناك عند يمين هذه الشجرة الكبيرة .

قال باسم فى حذر وهو يحدق النظر فى الاتجاه الذى حدده الرجل :

ـ ربما كانت خدعة ـ انتبهوا ... لا هى نار حقيقية . . . لنقترب منها بحذر وصمت ، وكل يشهر سلاحه فى استعداد . .

ومضى الجميع يتقدمون ، وكل حركة لها حساب ، وكل نقلة قدم تتم فى هدوء ، والعيون مصوبة نحو هذا الشعاع المتذبذب البعيد الغريب . . . وكلما تقدموا تعالت إليهم أصوات غناء وقال واحد :

ـ أعرف هذا الغناء ، إنه الساحر . .

وقال آخر :

ـ إنه غناء النصر ، الساحر يحتفل بالنصر .

قال الفارس باسم وهو يكتم انفعاله بصعوبة :

ـ لا مكان للساحر هنا . . . هذه خدعة . .

قال الأول :

ـ ولكنه يغنى ، وصوته يأتى من ناحية النار المشتعلة .

وقال الثانى :

ـ وغناؤه للنصر . . أعرف هذه الأغنية ، بل أكاد أحفظها .

صاح الفارس باسم فى عنف :

ـ كفوا عن الكلام، ولنتقدم فى حذر.

ومضى الجميع يسيرون فى حذر وقد خلفت كلمات قائدهم الرعب في أعماقهم... وكلما تقدموا ازدادت أغنية الساحر وضوحا في آذانهم، وازدادت النار المشتعلة وضوؤها في أبصارهم.. وقال الفارس باسم:

ـ لعلها حيلة من حيل الزيبق فليلتزم كل منا الحذر.

وحين ازدادوا اقترابا من البقعة التى يشع منها لهب النار المتحركة قال الفارس باسم:

ـ إنه يبدو وحده..

قال الفارس الأول:

ـ هذا هو الطبيب الساحر

وقال الفارس الثانى:

ـ إنه يرقص رقصة الانتصار... ويرقصها وحده حول النار.

ورفع الفارس باسم يده فتوقف الفرسان عن السير، بينما انبعث صوت جهورى عميق النبرات من عند النار المتوهجة يقول:

ـ لقد تأخرت أيها الفارس باسم، أنا هنا فى انتظارك من زمن.

همس الفارس الأول:

ـ ألم أقل لكم هو الطبيب الساحر، وأنا أعرف صوته..

قال الفارس باسم:

ـ انتظرونى هنا، وراقبوا كل ما يحدث، وكونوا على

استعداد للتدخل إن تطلب الأمر ذلك.

ثم صاح في صوت عال موجها حديثه ناحية وهج النار المتألق:

ـ أنا قادم إليك أيها الطبيب الساحر..

وارتفع صوت الطبيب الساحر يجيبه وفي صوته نبرة سخرية خفيفة:

ـ تقدم ولا تخش شيئا فأنا وحدى هنا..

وتقدم الفارس باسم شاهرا سيفه حتى جاوز مجموعة الأشجار التى تحجبه عن كومة الأحطاب المشتعلة التي يرقص حولها الطبيب الساحر.. ورآه يرفع يديه ووجهه إلى القمر، وثانية يركع إلى الأرض ويقبلها وهو يهز رأسه فتهتز القلادة المحيطة بعنقه، وتحدث حليها صوتا معدنيا صدئا، وهو مرة ثالثة يتقافز حول النار وهو يرفع قدميه فى اتساق مع حركة ذراعيه التى لا تهدأ.. ووقف يرقبه وهو يبتسم فى سخرية وهو يقول:

ـ أحد رجالى قال إنك ترقص رقصة النصر أيها الطبيب الساحر.. فهل انتصرت على شياطين الغابة، أم تغلبت على الروح الشريرة التى تطاردك.

توقف الطبيب الساحر عن رقصته، ثم ركز بصره على الفارس باسم، وقال فى تؤدة:

ـ لم أكن أعرف أن لك هذه البصيرة النافذة أيها الفارس باسم فقد أصبت كبد الحقيقة بحديثك هذا، فأنا فعلا انتصرت

على شياطين الغابة، وأنا فعلا تغلبت على الروح الشريرة التى تطاردها أنت.

ـ قطب الفارس باسم حاجبيه، وركز بصره فى الطبيب الساحر، وقال:

ـ ماذا تعنى تماما أيها الطبيب..؟

قال الطبيب الساحر:

ـ ألا تعتبر الزيبق والفارس الذى يصحبه من شياطين الغابة، وأليس الزيبق هو الروح الشريرة التى يؤرقك وجوده، تخاف من حب الأميرة له وعرفانها بجميله عليها، وتغار من قدرته على الحرب ومهارته وحيله وملاعيبه..

قال الفارس باسم وقد ازداد توتره، واشتدت قبضته على مقبض سيفه:

ـ تعنى أنك تعرف مكانه..

قال الطبيب الساحر:

ـ بالطبع ولهذا أرقص رقصة الانتصار.

شهر الفارس باسم سيفه وتقدم نحو الطبيب وهو يهز سيفه وصاح:

ـ أخبرنى أين هو، لن يفلت منى هذه المرة... وسأمزقه بسيفى فى الحال..

قال الطبيب الساحر، وهو يهز كتفيه فى لامبالاة:

أعد سيفك إلى غمده فلن تمزق به أحدا اليوم..

وكان الفارس باسم قد اقترب فى انفعاله من الطبيب الساحر حتى كادت ذبابة سيفه تمس صدره، ورفع الطبيب الساحر يده محذرا وهو يقول:

ـ حذار أيها الفارس فذبابة سيفك فى مكان قاتل، ولو حركته أكثر من هذا لاخترق صدرى.

قال الفارس باسم:

ـ لو لم تخبرنى بمكان الهاربين لانتهى أمرك..

ضحك الطبيب الساحر ضحكة ساخرة، وقال فى صوت هادىء يحمل تهديدا خفيا، لم يخف أمره على سمع الفارس باسم:

ـ من استطاع أن ينتصر على الزيبق والمقدم حسن بن الحصرى،

لا يخشى سيف مثلك، أخفض سيفك أيها الفارس. ولم يحول الطبيب الساحر عينيه عن عينى الفارس باسم فقد كان يدرك أن إحساس الفارس باسم بأن عدوه قد غدا فى متناول يديه، قد ينسيه العقل بسرعة مذهلة وبحركة ماهرة ألقى صولجانه بسيف الفارس باسم وأطاح به، وقفز مسرعا إلى الأمام ليضربه بقبضته ضربة أوقعته فوق الأرض، وسرعان ما كان سيف الفارس باسم فى يده، وقد استرده من حيث وقع، وسدد ذبابته إلى عنقه وهو يقول فى صوت ساخر:

ـ قل لرجالك يلزموا أماكنهم... فأنا رجل عجوز ويدى

ترتعش وسيفك ثقيل، وقد يثير منظرهم خوفى فتهتز يدى ويخترق سيفك وهو فى يدى عنقك دون أن أستطيع أن أمنع يدى عن الرعشة.

كان الرجال قد تحركوا بالفعل عندما شاهدوا ما حدث فجأة لقائدهم، شلت المفاجأة حركتهم لثوان معدودات، ثم تحركوا فجأة وهم يتصايحون فى غضب متجهين نحو رئيسهم والطبيب الساحر... وكان الفارس باسم لايكاد يفهم ما حدث له، ولا كيف استطاع الطبيب الساحر المتهالك العجوز أن يطيح بالسيف من يده، ثم يلقيه أرضا بضربة واحدة، وقفزت إلى ذهنه حركة الزيبق السريعة فى بلاط السلطان قاسم، وكيف استطاع أن يأسره وهو وسط حرسه، وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه... وقد ثبتت عيناه عند حد السيف المسلط عليه، وأشعة القمر تلمع على حد سلاحه، والذبابة المدببة القاتلة تهدد عنقه.. وعاد صوت الطبيب الساحر يقول فى تهديد واضح:

ـ قلت لك، قل لهم يلزموا أماكنهم..

وتحركت عينا الفارس باسم فى محجريهما فى رعب، وأشار بيده وقد احتبس الكلام فى حلقه، فأزاح الطبيب الساحر ذبابة السيف قليلا عن عنقه، وبعد محاولات متعددة استنفدت قوة الفارس باسم انطلق صوته صارخا فى يأس:

ـ الزموا أماكنكم ، الزموا أماكنكم..

وجمد الرجال فى أماكنهم، ووقفوا حائرين يتبادلون

النظرات، وينقلون عيونهم بين قائدهم والطبيب الساحر في حيرة وقلق... وقال الطبيب الساحر في صوت هادئ وهو يبعد السيف أكثر عن جسد الفارس الراقد فوق الأرض:

ـ تستطيع الآن أن تقف، وأحذرك من أي حركة قد يسيء عقلي العجوز فهمها.

وفي حذر شديد جمع الفارس باسم عضلات جسده ليقوم ببطء واقفا، ويداه مجنحتان بعيدا عن جسمه تماما، وقال:

ـ والآن ماذا تريد أيها الساحر..

ابتسم الطبيب الساحر، وقال:

ـ أريدك أن تتبعني إلى هذه الشجرة.

تتبع الفارس باسم بنظره حركة السيف الذي كانت ذبابته نحو فراغ مظلم في جوف شجرة هائلة، تتراقص حولها أفرع الشجرة وأوراقها على ضوء النار المتذبذبة المنبعثة من الحطب الذي أوقده الساحر وتضيء أشعة القمر بعض مدخلها، بينما يطبق الظلام الدامس على معظم التجويف الكبير في قلب الشجرة.. وارتجف جسده كله، وأحس بيد من حديد تطبق على قلبه، بينما امتلأت جبهته بالعرق البارد، وقال في صوت مهتز:

ـ لماذا تريد أن أتبعك إلى جوف هذه الشجرة... مثل هذه الأماكن تسكنها الحيات الضخمة... وتأوي إليها الشياطين والمردة...

لمعت عينا الطبيب الساحر سخرية من خوف الفارس باسم أفقده كل شجاعته ورباطة جأشه، وقال:

ـ هذه معتقدات العجائز والصبية، ولا أظن فارسا مثلك، وصل إلى ماوصل إليه من مكانة فى بلاط المدينة المرصودة يخشى منها، حتى يؤمن بصحتها..

فعملت كلمات الطبيب الساحر ونبراته الباردة فعلها فى أعماق الفارس باسم، فالتفت حوله فى خجل، وقد حل إحساسه بالعار محل إحساسه بالخوف داخل نفسه، وتمالك نفسه فى صعوبة وهو يقول فى لهجة تشمل معانى الاعتذار والخجل:

ـ مطاردة الأشباح تحدث فى الأعصاب فعلها الأكيد، وهذا الزيبق ليس إلا كالأشباح والسراب الخادع ما أن اقترب من آثاره أو أتأكد أننى أتبع الطريق الصحيح إليه حتى يتبدد كل شيء فجأة، لتعود الآثار لتظهر فى ناحية أخرى.

وتنهد وهو يتمالك نفسه تدريجيا، وقال:

ـ لقد قضيت الليل بطوله أنا ورجالى فى مطاردة غريبة، وكأننا فى كابوس ولا نستطيع الإفاقة منه.. ثم.. وتوقف عن الحديث وهو يتيح لعضلاته أن تستريح من توترها، وللهدوء أن يعود إلى نفسه تدريجيا، ثم نظر فى عينى الطبيب الساحر، وهو يقول:

ـ ثم تظهر أنت، كأنما انشقت أرض الغابة فجأة عنك، ونارك

المتوهجة... أنت برقصاتك المخيفة الغريبة وسط الغابة وحديثك عن الانتصار على الشياطين، ثم حركتك السريعة وأنت تطيح بسيفي وليس معك إلا هذا الصولجان الهزيل..و..

وحك ذقنه بيده وقد بدأت ابتسامة باهتة تعلو شفتيه وقال:

ـ لم يضربني أحد من قبل مثل هذه الضربة التي طرحتني بها أرضا... وكان الفارس باسم قد عاد إلى هدوئه السابق، فتحولت الابتسامة الباهتة على شفتيه إلى ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ من أنت ؟ فلا أظنهم يعلمون السحرة والأطباء فنون القتال بالسيف والمصارعة واللكم..

لمعت عينا الطبيب الساحر... وهو يبادل الفارس باسم ابتسامته بمثلها وقال:

ـ أنت لا تعرف ماذا نتعلم في مهنة الطب أيها الفارس... وعلى كل حال أنا من سيعيد إليك أسيريك الهاربين، والآن...

وعاد يشير إلى فوهة الشجرة المهلكة ويقول:

ـ هما مقيدان مكممان هنا، لا يملك أحدهما لنفسه شيئا، وهما هديتي إليك، وإلى المدينة المرصودة، فرفع الطبيب الساحر يده يوقفه محذرا، ووقف الفارس باسم صامتا وهو يقول وهو يهز رأسه في فهم:

ـ هناك ثمن..

قال الطبيب الساحر:

ـ صدقت أيها الفارس باسم..

تنهد الفارس باسم، وهز كتفيه في استخفاف وهو يقول:

ـ بالطبع... فلا أحد يقدم على هذه المغامرة التي أعجزت فرسان المدينة المرصودة جميعا إلا إذا كان يريد لها ثمنا... ما الثمن أيها الطبيب الساحر؟

كان صوت الطبيب الساحر هادئا وهو يقول:

ـ ليس ثمنا هو شرط.

نظر إليه الفارس باسم في دهشة وهو يقول:

ـ شرط؟

استمر الطبيب الساحر يقول في صوته الهادىء الهازىء معا:

ـ أشترط أن تعدني بشرفك كفارس ألا تمس الأسيرين بسوء حتى نسلمهما إلى السلطانة زينب، ولها هي وحدها أن تقرر ماذا تريد أن تفعل بهما.

قطب الفارس باسم حاجبيه، وقال وهو يضغط على كلماته..

ـ تعني أنك تريد حمايتهما من سيفي أيها الطبيب الساحر... ضحك الطبيب الساحر في سخرية وهو يقول:

ـ سيفك مازال في يدي، أنت لا تملك سيفا أيها الفارس، وأنت لم تأسرهما، بل الذي أسرهما هو أنا، ولذا فمن حقي أن أقرر ماذا يتم في أمرهما حتى يتم تسليمهما إلى السلطانة..

احمر وجه الفارس باسم، وضرب الأرض بقدمه فى عجز وحنق، وقال:

ـ والسلطانة لن تقتل الزيبق... فهى مخدوعة به..

قال الطبيب الساحر... وهو يقترب من الفارس الحانق:

ـ بل هى مفتتنة به، وأنت أعمت قلبك الغيرة، وأنستك أن الزيبق وحده يملك المفتاح إلى السلطان المخلوع الهارب، والسلطانة وكذلك الوزير مروان يعرفان أهمية الحصول على السلطان، ومحاكمته أمام شعب المدينة المرصودة، لتتم فيه كلمة العدالة فيما اقترفت يداه فى حق المدينة، وفى حق السلطانة، وكذلك فى حق الخليفة وأنت تعلم أن حياتك نفسها لا تساوى واحدة من هذه الأحطاب الجافة التى أكلتها النيران لو هرب السلطان قاسم إلى حليفه ملك بحر الغزال الملك سلطان، وعاد مع رجاله لغزو المدينة المرصودة من جديد، والانتقام من أعدائه، والذين ساعدوا على عزله عن عرشه.

أطرق الفارس باسم برأسه إلى الأرض... وكلمات الساحر الإفريقى تنفذ إلى عقله لتبعد عنه الغضب والحماس اللذين أعمياه حقا عن حقيقة مهمته، ثم رفع رأسه قائلا:

ـ لم أخرج على رأس فرسانى لقتل الزيبق وإنما لأسره ... قال الطبيب الساحر:

ـ تعطينى الوعد الذى طلبته منك..

تنهد الفارس باسم وهز كتفيه فى استسلام وهو يقول:

ـ لك كلمتى ، سيصل الاثنان أمام السلطانة سالمين . .

قال الطبيب الساحر وهو يبتسم ابتسامة الرضا :

ـ إذن هيا بنا إلى داخل الشجرة . .

ضحك الفارس باسم وهو يسبقه إلى داخل التجويف قائلا :

ـ وسيرقص أهل المدينة المرصودة كلهم رقصة الانتصار . .

- ٢٩ -

الرجال يغيرون جلودهم

عادت القرية تضج بدقات الطبول من جديد، عدة دقات ذات إيقاعات معينة ثم تصمت، لتتبعها طبول جديدة تدق نفس الدقات من جديد، لتسلمها لمجموعة ثالثة، وسرعان ما كانت أخبار أسر الزيبق وصاحبه على لسان كل من فى الغابة، وسرعان أيضا ما وصلت المدينة المرصودة وشاعت بين أهلها، فأيقظتهم من نومهم قبل موعد استيقاظهم العادى بساعات - وأضيئت المصابيح لتتوهج المنازل بضوئها، كما أشعلت المشاعل فى الطرقات والميادين، وخرج الناس من بيوتهم يرقبون بوابة

المدينة الكبيرة، ويتوقعون القادمين الذين أنذرتهم الطبول باتجاههم نحو المدينة، بينما هرع عليه القوم وأعضاء البلاط إلى القاعة الملكية حيث جلست السلطانة على عرشها ووقف إلى جوارها الوزير مروان وهو يعبث فى لحيته، وقد استغرق فى تفكير عميق، أفاق منه على ازدياد صيحات الجماهير المحتشدة وصياحها، وهرعت السلطانة إلى باب القصر حيث تشرف على باحة المدينة وما يجرى فيها، ومعها هرع كل من فى البلاط يقفون خلفها يتأملون الموكب العجيب الذى كان يدخل من بوابة المدينة يتبعه وتحيطه حشود كثيرة من رجال ونساء وأطفال أيقظتهم رسالة الطبول القادمة من الغابة... كان الفارس باسم يتقدم الموكب متجهما وقد أمسك بيده مقبض سيفه كأنه يستعد لسله فى أية لحظة ووراءه جاء الأسيران وقد قيدت أيديهما خلف ظهريهما ووراءهما الطبيب الساحر الإفريقى يمسك صولجانه العجيب، ووراءهم حشد الفرسان وقد احتذوا حذو قائدهم، فوضعوا أيديهم فوق مقابض سيوفهم فى تأهب وحذر.. وكلما ازداد تقدم الموكب تكاثر عدد المتابعين له والمتحلقين حوله، وتحولت همهمات الجموع إلى أصوات عالية، ثم إلى هتافات صارخة.. وهمس حسن بن الحصرى لعلى الزيبق قائلا:

- هم فرحون بأسرنا ياعلى، ولا نحن نعرفهم ولا هم يعرفون أيا منا... فلماذا؟

ابتسم الزيبق وهو يقول:

ـ قالوا لهم إننا الأعداء، وإن فرسانهم الأبطال أسرونا... فهم شامتون فينا، معتزون بفرسانهم الأبطال.

عاد حسن بن الحصرى يقول، وهو يجول بعينيه فى الجموع الهائجة حولهم:

ـ لا نحن أعداؤهم، ولا فرسانهم أسرونا..

قبل أن يجيبه على الزيبق، تراجع حسن بن الحصرى مجفلا من حجر صغير أصاب صدره، بينما سقط حجر آخر أمام الطبيب الإفريقى وصاح أحد الفرسان من الألم إذ أصابه حجر فى جبهته فأدماها... وعاد الحصرى يقول فى غضب ودهشة:

ـ هم يرجموننا يازيبق..؟

ابتسم الزيبق فى مرارة، وهو يقول:

ـ لنسرع قليلا فى مشيتنا، هذا الفارس باسم يظن أنه فى استعراض عسكرى بالخطوة البطيئة، بينما الناس هنا يكثرون الكلام الكاذب حتى تحولوا إلى مجموعة مجنونة بحب الانتقام والرغبة فى سفك الدماء.

وسمع الفارس باسم كلمات الزيبق فأشار بيده، فضم الفرسان صفوفهم، وكونوا شبه دائرة حول الأسرى، وأسرع الجميع فى سيرهم بينما استفزت هذه الحركة الجماهير، فازداد صراخ الناس وعلت هتافاتهم، وظهرت أياد كثيرة ترجم الموكب بالطوب والحجارة وقطع الأخشاب والأوانى، وكل ما

كان متاحا للأيدى الغاضبة... وبدت وكأن المسافة من باب المدينة وحتى باب القصر قد طالت، كما بدأت الجموع تحتشد بين الموكب والقصر وكأنما لتحول دونه وللوصول إلى باب القصر فى سلام، وقال الزيبق فى سخرية:

ـ ترى بماذا ملأ الوزير مروان وأتباعه آذان الناس وقلوبهم ليكون هذا موقفهم منا، غضبا عارما وغريبا، وتعطشا حقيقيا لدمائنا...

قال الطبيب الإفريقى:

ـ لا أعرف يامقدم على، ولكنى أستطيع أن أفهم مما جمعته من ألفاظ السباب المتناثرة من أفواههم... فهم يتهمونكما بخطف السلطان وبيع السلطانة لملك بحر الغزال... وأنكما من رجال السلطان الفاسد قاسم، وبعضهم يرى أنكما سبب الجفاف الذى حل بالبلاد وربما كنتما أيضا سبب المرض الذى أصاب ابنة هذا الشيخ، أو ابنة هذه العجوز..

ضحك الزيبق وهو يقول:

ـ تعجبنى روحك الساخرة، ولكن أليس هؤلاء هم أنفسهم الذين استقبلونى يوم عدت بالسلطانة محررة بالهتاف والتمجيد..

قال الطبيب الساحر:

ـ ليس للجماهير التى شحنتها أبواق الدعاية الكاذبة ذاكرة يامقدم على، تذكر هذا، لأن تواجه ثورا هائجا أسلم لك من أن

تواجه جمهورا جاهلا قد حشد بالحكايات والقصص المبتسرة والإشارات المبهمة التى تجعل منك عدوه..

قال المقدم حسن بن الحصرى:

ـ كأننا سبب كل بلوى أصابت هؤلاء الناس.

قال على الزيبق:

ـ وكأن قتلنا بالحجارة، أو بأيديهم المجردة سيزيل كل بلوى من حياتهم.

قال الطبيب الساحر ساخرا:

ـ فينزل المطر، ويشفى المرضى، ويأكل الجوعى.

صاح الفارس باسم المتوتر الأعصاب:

ـ أنتم تلهون بالكلمات وغضب الجماهير يتزايد.

قال الزيبق ملوحا بيديه المقيدتين:

ـ فك هذه القيود أيها الفارس باسم وسأريك أين ستذهب هذه الجماهير..

نظر إليه الفارس باسم فى حدة وهو يقول:

ـ حتى فى هذا الموقف تريد أن تمارس ملاعيبك..؟

ضحك الزيبق وقال:

ـ إن أردت الحقيقة فأنا لا أحب أن يصيب غضبى الجماهير بشر. فهى مخدوعة، ولا تعرف ماذا تريد، ولا ماذا تفعل، ولكن يدى ستطول رأس الأفعى يوما، وسأسحق هذه الرأس حتى لا تلعب هذا اللعب الخطر بعواطف الناس..

قبل أن يجيبه الفارس باسم ارتفعت أصوات الأبواق من القصر، مصحوبة بدقات طبول وخرج حرس القصر مسرعين يفرقون الناس المحتشدين بين باب القصر ومقدمة الموكب، والناس تتدافع بعضها في خوف، وبعضها في تحد، ورفعت السلطانة يدها، فالتفت الجميع إلى وجودها، وساد الصمت المدينة كلها، وقالت السلطانة بصوت سمعه كل من في الميدان المواجه للقصر:

- أشكر لك أيها الفارس باسم أن أعدت ضيوفي إلى قصري... وسكتت السلطانة فشحب وجه الفارس باسم، بينما اشتدت حركة يد الوزير مروان وهي تعبث بلحيته، وساد الميدان ترقب لكلمات السلطانة، التي عادت تقول في نفس الصوت الجهوري المليء بالقوة والرقة معا:

- لماذا هما مقيدان؟ لابد أن أعداءنا قد قيدوهما وشئت أن تأتي بهما في الحالة التي وجدتهما عليها... لا فك قيودهما فقد وصلا بر الأمان حيث يعلن شعب المدينة المرصودة امتنانه للرجال الذين حرروه من قاسم الغاشم، وحرروا سلطانتهم من الأسر والعبودية... نحن لا ننسى أيها الفارس الزيبق جميلك على المدينة وعلى أنا... وعلى شرف المدينة، وشرفي أنا..

وسكت كل من في الميدان وكأن على رؤوسهم الطير... وفجأة حدثت مفاجأة أذهلت الزيبق، إذ قفز الفارس باسم إلى جوار السلطانة وامتشق سيفه، وصاح وعيناه تلمعان في حدة قائلا:

ـ أنا شاهد على كل ما تقوله السلطانة، وأنا مع السلطانة، كل ما تقوله صحيح، وكل من تحبه نحن نحبه، وكل من تكرهه نحن نكرهه..

وكأنما كان الميدان في انتظار لهذه الإشارة، فإذا بالوجوم يتحول فجأة إلى عاصفة من الهتاف والتحية .. وتقدم الفارس باسم واستل خنجره وقطع قيود الزيبق، ثم قيود المقدم حسن وسط هتاف الجماهير .. وأخذ المقدم حسن بن الحصرى يدلك رسغيه وهو يبتسم، وقال لعلى الزيبق:

ـ هذا الفارس كحظى مرة هو فى السماء ومرة هو فى الأرض.

ضحك الزيبق بمرارة، وقال:

ـ وهو كحظك أيضا لا تعرف ماذا سيكون من أمره غدا.

قال الطبيب الساحر:

ـ لقد حول المد الجماهيرى إلى ناحيتك بخبطة واحدة..

قال الزيبق:

ـ واكتسب إعجاب السلطانة وشكرها، وهذا ما كان يبغى، انظر إليها كيف تنظر إليه.

قال الطبيب الساحر:

ـ واكتسب فى نفس الوقت حنق الوزير مروان، وما أظنه كان يبغى هذا، انظر إلى الوزير مروان، وكيف ينظر إليه؟... ما أحسبه إلا محتارا فى أمره، لا يعرف كيف يفهم تصرفاته وتقلباته الغريبة والمدهشة..

وحين قاد الفارس باسم الزيبق إلى السلطانة لتصافحه هو والمقدم حسن والطبيب الساحر، تعالت هتافات الجماهير وصيحاتهم .. ثم حيت السلطانة الجموع المحتشدة، وقادت الطريق إلى داخل القاعة، وإلى جوارها الوزير مروان وهى تقول:

- آن الأوان لنسمع منك أيها الفارس الزيبق حقيقة ما حدث، وأنا واثقة أن حديثك سيوضح أمامنا أشياء كثيرة خفت علينا.

ومنع الحرس الجماهير المتدافعة أن تدخل القاعة، واتجهت السلطانة إلى عرشها، وتبعها الوزير مروان فوقف إلى جوارها، بينما وقف الفارس باسم عن يسارها، وأخذ كل واحد من أعضاء البلاط مكانه، القاضي والمحتسب وصاحب الجند وشيخ التجار، ونقيب أصحاب الحرف، وكبار الأعيان، والوصيفات، ووقف على الزيبق يدلك رسغيه وهو يهمس لعمر العيار إلى جواره.

- كل ما أخشاه أن تضر هذه المغامرة بشخصية الطبيب الساحر، فهى نافعة لنا، وللخليفة، وللأمة الإسلامية كلها..

قال عمر العيار:

- بالعكس هى ستثبت مكان هذا الطبيب الساحر كل التثبيت. وجلست السلطانة فجلس الجميع لجلوسها، وأشارت بيديها إلى مقاعد وحشايا إلى ناحية قريبة منها فتبادل الزيبق والمقدم حسن النظرات، كانت نفس الأماكن التى شغلاها يوم

دس لهم المخدر ، ورأت السلطانة نظراتهما المتبادلة، فضحكت ضحكة مفتعلة يشوبها الاضطراب ، وقالت :

ـ ألا زلت تذكر إساءتنا إليك، أعدك بكلمتي كسلطانة أن مثل هذا لن يتكرر مرة ثانية، لقد كانت مشورة متعجلة من . . .

قاطعها الوزير مروان متحدثا لأول مرة، و ،قال :

ـ مافات قد فات، ولم تكن المسألة كلها ضدك أنت، فليس بيننا وبينك إلا كل عرفان بجميلك، ولكننا كنا نريد أن نعرف منك مكان السلطان الغاشم قاسم، فعندما لم نجده في الكهف ظننا أنك تخفيه عنا .

واندفع الفارس باسم كعادته قائلا :

ـ وقال الوزير مروان إن السلطان ربما أغراك بماله فضمك إلى صفوفه ، وإنك قد تكون عدت إلى المدينة لتتآمر على أمنها وأمن السلطانة.

وجم الوزير مروان، وتوقفت يده عند لحيته لا تتحرك . . بينما ضحك الزيبق ضحكة عريضة، وأشار بيده إلى الوزير مروان وهو يقول:

ـ كل هذا يخرج منك أيها الصديق الوفي للسلطانة زينب . . ؟

سعل الوزير مروان يخفي ارتباكه، وتحرك في مكانه بقلق، وقد أحس بتركز العيون عليه، ثم قال :

ـ مهمتي الرئيسية هي الحفاظ على سلامة المدينة وسلامة

سلطانتها ، والحذر واجب، وأنت أيها الفارس آخر الأمر... وافد غريب لا أحد يعرفك هنا، أو يعرف حقيقة نواياك... ثم إن رفضك لتسليم السلطان قاسم آثار شكي ومخاوفي ، وواجبي أن ....

صاح الزيبق وهو يضحك:

- واجبك؟ ومهمتك؟... أهذا كل ما في الأمر..

وجم الوزير مروان... ثم تمالك نفسه وقال في تحد:

- ماذا تعني أيها الفارس الزيبق.. إن سمعتك لا تحمل في طياتها أي خير، والسلطان قاسم حذرنا منك، وقال إنك عدو رهيب يجب أن نحذره..

عاد الزيبق يضحك وهو يقول:

- والسلطان قاسم أهو عدوك وعدو المدينة المرصودة أم هو صديق.

تدخلت السلطانة في الحديث الذي أحست أنه يسير سيرا خطيرا، وقالت:

- عدو، السلطان قاسم لا أرجعه الله صديق لنا يامقدم.

قال الزيبق:

- ولماذا لا أرجعه الله..؟ ألست تريدين السلطان قاسم لتحاكميه على ما ارتكبه في حقك وحق المدينة المرصودة من جرائم وأخطاء.. إذن سيرجع بإذن الله وسيحاكم داخل المدينة المرصودة... وعلى يد قضاتها، وينال فيها جزاءه العادل على

ما ارتكبت يداه، هبت السلطانة زينب واقفة، وهب الوزير مروان واقفا، وساد الوجوم القاعة..

وقال الوزير مروان في بطء:

ـ تعني أنك مازلت تحتفظ بالسلطان قاسم أسيرا..

ولم يلتفت الزيبق إلى حديث الوزير مروان، بل وجه حديثه للسلطانة قائلا:

ـ كنت أريد بعض المعلومات من السلطان، وهذا هو السبب في احتفاظي به الآن، ولقد حصلت منه على كل ما أريد، ولهذا فأنا أعيده إليك لتحاكميه طبقا لقوانين مدينتك..

وسرت همهمة في القاعة، وسرعان ما تحولت إلى لغط، إذ أخذ كل واحد يناقش هذا التطور الجديد مع جاره، ولمعت عيون، وغمضت أبصار، وتعالت تهديدات، ورفعت السلطانة يدها فساد الصمت من جديد، وقالت:

ـ وأين السلطان يامقدم..؟

قال الزيبق:

ـ هو في مكان أمين، وإذا أذنت أيتها السلطانة أرسلت أحضره إليك..

صاح الوزير مروان:

ـ أخبرنا أين هو وسنرسل ونحضره على الفور..

قال الزيبق متجاهلا حديث الوزير مروان:

ـ المقدم حسن بن الحصري يعرف مكانه، فسأرسله نيابة

عنى، وليصحبه من جهتكم أنتم..

صاح الفارس باسم:

ـ أنا ورجالى مستعدون..

تجاهل الزيبق مقاطعة الفارس باسم كما تجاهل حديث الوزير مروان من قبل، وقال:

ـ لن يصحبه رجال مسلحون فلا داعى لهذا، ولكننى أقترح أن يكون رجلكم مع المقدم حسن بن الحصرى الطبيب الساحر... فهو بجيش وحده، إذ استطاع أسرى والمقدم حسن بن الحصرى حين عجز كل رجالكم وفرسانكم.

واحمر وجه الفارس باسم، وتراجع قليلا فى مكانه، بينما استمر الزيبق يقول:

ـ وهو فضلا عن هذا مخلص لكم، فلم يقبل كل الإغراءات التى عرضناها عليه ليطلق سراحنا، وأصر على أن يسلمنا مقيدين لكم...

نظرت السلطانة إلى الساحر الإفريقى بإعجاب، وابتسمت وهى تقول:

ـ نعم المواطن أنت أيها الطبيب..

قال الوزير مروان محتجا:

ـ هو ليس مواطنا فى المدينة المرصودة، إنما هو مواطن للغابات كلها ولا ينتمى إلى بلادنا انتماء كاملا، فنحن لا نراه إلا حين يشاء هو

قاطعته السلطانة زينب قائلة في إصرار:

- كم شفى من مرضانا، وكم استسقى لنا حين جفت الأمطار، وكم دل صيادينا على مراعي الصيد، وكم فض من خلافات بين أسر في المدينة كادت تتفكك لولا كلمته وصائب رأيه وثقة الناس فيه...

عاد الوزير مروان إلى عناده قائلا:

- ولكنه ليس منا، ولا يمكننا في مثل هذا الأمر الخطير، أنا أقترح..

رفع الزيبق يده، وهو يهب واقفا، وقال:

- هذه شروطي ولا اقتراحات فيها، إما أن تقبل كما هي، وإما ترفض، فأستودعكم الله وأرحل عن بلدكم هذا..

قال الوزير مروان في خبث:

- أنت بين أيدينا يامقدم علي..

ضحك الزيبق ضحكة ساخرة وهو يقول:

- لست مخدرا أيها الوزير، ولست الآن مخدوعا بالكلمات المعسولة، وحكاية الوفاء لجميلي الذي لا يقدر بثمن... كما أنني لست ضعيفا، وإنما أنا هنا أسير، ويحق لي أن أتخلص من أسري مهما كلف هذا من أسروني من أرواح... هل كلامي مفهوم..

اندفع الفارس باسم قائلا في عصبية:

- هذا تهديد لا نقبله..

ضحك الزيبق ساخرا وهو يقول:

هو تهديد واضح، وليس من شأني أن تقبله أو ترفضه.

شحب وجه الفارس باسم، بينما قالت السلطانة متدخلة في الأمر في صوت حاسم..

ـ ما كل هذه الكلمات المتعجلة، التي لا تؤدى إلا إلى كلمات أكثر عجلة، لا لست أسمح بهذا كله..

أنت لست أسيرا أيها الفارس على، بل أنت ضيفي أنا الشخصي إن لم تكن ضيف المدينة المرصودة التي يبدو أنها تواجه الأيام الأولى من سلطنتي بتحدى أصدقائي وأصحاب الفضل على... كأنما المقصود هو تحديد حجم سلطتي، وفرض الوصاية على تصرفاتي... وأنا لن أقبل هذا، فأنا السلطانة، لم أعد الطفلة القاصر التي يتحكم فيها السلطان قاسم، وقد بايعتني جماهير المدينة المرصودة، ونصبني القاضي سلطانة رسمية وشرعية على هذه المدينة، ومن لا تعجبه هذه الحقائق، فليعلن هذا صراحة، فجو المؤامرات والدسائس في هذا البلاط قد انتهى بإزاحة قاسم، وصاحب الفضل في إزاحته هو المقدم الزيبق، ومن العار أن تبدأ المؤامرات من جديد ضده هو نفسه..

صاح الزيبق في حماس:

ـ لا فض الله فاك أيتها السلطانة، أنت جديرة حقا بعرشك... وارتفعت عبارات الاستحسان من كل مكان في القاعة، وهب القاضي واقفا وهو يقول:

ـ أنت السلطانة شرعا وقانونا ، وقد أقسمنا يمين الولاء لك .
واندفع الفارس باسم يغير موقعه من جديد ، ويقول متحمسا :
ـ وسيوفنا فى خدمة السلطانة . .
ـ وفى لزوجة قال الوزير مروان :
ـ كلمة السلطانة فوق كلمتنا ، ومادامت تثق فى الطبيب الساحر ، فنحن أيضا نثق فيه . .
قالت السلطانة :
ـ إذن حسم الأمر ، يذهب الطبيب مع المقدم حسن بن الحصرى كما أراد الزيبق ويعودان بالسلطان قاسم المخلوع . .
قال الزيبق :
ـ هذه مهمة لا تتم إلا ليلا . . . وقد أرهقت أحداث الليلة الماضية كلا من المقدم والطبيب ، فلنسترح هذا النهار ، وعند الليل يحضر الطبيب الساحر إلى غرفتنا لأدله على الطريق ، وليصحب المقدم حسن بن الحصرى فى رحلته لإحضار السلطان المخلوع . . .
قالت السلطانة :
ـ ولن يتعقبهما أحد ، هذه أوامرى . .
وأحنى الوزير مروان رأسه فى ضيق ، وقد أحس أن السلطانة قرأت ما كان يبيته من أمر . . ثم قال فى صوت متخاذل :
ـ لن يتعقبهما أحد كأمر السلطانة .
قالت السلطانة وهى تشير بيدها إلى كبير الخدم :

ـ سيقودك كبير الخدم إلى الحجرة المخصصة لكما أيها المقدم الزيبق، أنت وصديقك، أما الطبيب الساحر فله حجرة أخرى في القصر...

قال الطبيب الساحر:

ـ لا أيتها السلطانة، أنا أعرف أين أقضي هذا النهار... وعند الغروب سأكون هنا لألتقي بالمقدم علي وزميله:

قالت السلطانة:

ـ لك ما تريد، والآن اذهبوا لتستريحوا حتى يحين الليل، وسيحضر لكم الخدم الطعام والملابس اللازمة إلى حجرتكما..

انحنى الزيبق أمام السلطانة وهو يقول:

ـ إلى المساء إذن أيتها السلطانة، أيدك الله بعونه وهدايته...

وخرج هو والمقدم حسن بن الحصري يتبعان كبير الخدم من القاعة إلى داخل القصر، بينما انسحب الطبيب الساحر من القاعة إلى خارج القصر في هدوء... وما أن خرجا حتى علت ضجة الحديث والجدل تملأ جو القاعة، والكل يدلي برأيه فيما حدث..

-٣٠-

حكاية ياسمين

قال المقدم حسن بن الحصرى والباب يغلق خلف كبير الخدم الذى تركهما وحدهما ليحضر لهما ما أمرت به السلطانة من طعام وملابس :

-أريد أن آكل أولا ثم أنام إلى العصر..

قال الزيبق:

-أما أنا فأريد أن أستحم أولا ثم أنام إلى ما يشاء الله..

ضحك المقدم حسن بن الحصرى وقال :

-أريد أن أرى وجوههم حين يدركون أن سلطانهم قد جن ، وأنهم سيحاكمون إنسانا لا يعى معنى المحاكمة، ولا معنى العقوبة.

قال على الزيبق وهو يستلقى على فراشه:

ـ ليس السلطان قاسم هو المجنون الوحيد فى هذه المدينة... فأمر الوزير مروان يحيرنى، وكذلك أمر الفارس باسم... فكلاهما متقلب الأطوار، غريب المواقف..

وطرق الباب، ودخل الخدم، بعضهم يحملون الطعام، وبعضهم يحمل إناء خشبيا كبيرا وضعوه وسط الغرفة، ودخل غيرهم يحملون أوعية مليئة بالماء البارد والمناشف، وملابس نظيفة، وأدوات الحلاقة الجديدة، والصابون والعطور، فضحك المقدم حسن بن الحصرى، وهو يرقب حركة الخدم النشطة فى إعداد مائدة الطعام، وأدوات الاستحمام وقال:

ـ بالفعل هناك شىء مجنون فى هذه المدينة.. فساعة نحن فى سجن ضيق مقيدين ومربوطين إلى الحائط الأملس، يطبق علينا ظلام دامس، ويأس كامل من النجاة، وساعة أخرى، نحن فى حجرة رحبة طليقين، تقدم لنا الموائد الفاخرة، وأدوات الترف والنعيم، لم يبق إلا الزهور والرياحين..

ولم يكمل المقدم حسن كلامه حتى دخلت الغرفة فتاة شديدة السمرة، ترتدى إزارا شديد البياض، وتحلى رأسها بطاقة من الزهور، تحمل فى يدها الزهور والرياحين، تقدمها فى آنية أنيقة وزعتها فى كل أنحاء الغرفة... وضحك الزيبق وهو يقول غامزا بعينيه لحسن بن الحصرى:

ـ تمن، تجد، فنحن الليلة فى دنيا المعجزات..

ولم يجبه حسن بن الحصرى بل انقض على الطعام، انقضاض الجائع المشتاق.. وأثار منظر أكله شهية الزيبق، فانضم إليه فى التهام الوجبة الشهية التى قدمت إليهما، بينما أكمل الخدم عملهم وانسحبوا فى هدوء، وتقدمت السمراء ذات الإزار الأبيض، وتاج الورد الذى يزين رأسها منهما مبتسمة وهى تقول:

ـ وتسأل مولاتى السلطانة، هل من شىء آخر ترغبانه؟

قال حسن بن الحصرى وهو بين قضم وابتلاع:

ـ هذا يكفينا هذه الليلة على الأقل.

وقال الزيبق:

ـ كرم مولاتك السلطانة غمرنا تماما، أبلغيها شكرنا وتقديرنا، انحنت الفتاة لهما برشاقة، وقالت:

ـ أمرت السلطانة أن لا يزعجكم أحد قبل المغرب.

ثم انصرفت.. وقال حسن بن الحصرى وهو يعود إلى الطعام:

ـ سآكل وأنام، وأترك لك نعيم الحمام.

ابتسم الزيبق وهو يقول:

ـ لا أعرف كيف أفكر إلا إذا أحسست أن كل جزء فى نظيف، وقد اغتسل تماما من كل الأدران ـ وأمامى أشياء كثيرة على أن أفكر فيها..

قال حسن بن الحصرى:

ـ فكر أنت وسآكل أنا حتى يدهمنى النوم... وأنام..

كان الزيبق فى القاهرة من جديد... وكان ينام فى حجرته فى بستان الشيخ زكى البتوكى الذى يرسل إليه رائحة عطوره وزهوره ورياحينه، لتهدأ أنفاسه وتنتظم ضربات قلبه، وكانت أمه فى الغرفة، كيف جاءت هنا، هو لايدرى ولكنها كانت تقف وتنظر إليه وهى ترتدى زى أحمد بن البنى وتتقلد سلاحه... أراد أن يقول لها إن وجودها هنا خطأ، فلا أحد يعرف هذا المكان، ولا ينبغى أن يعرفه أحد... ولكنه عاجز عن الكلام، عاجز عن الحركة .. هو مستيقظ تماما ... يعرف كل ما يدور حوله، ولكن يده لا تتحرك لتشير ، ولسانه لا يتحرك ليبين، وركب حصانه وسط الصحراء، يجرى ويجرى، وهو ظمآن، وإناء الماء قد جف ولا ماء فيه... والحصان يضرب فى الرمال ويجرى، ورياح عاتية تسفى رمالها فى وجهه، وهو يغطى وجهه بطرف شاله، ولسانه متضخم وقد جف من الظمأ، ومن بعيد تلوح زينب تحمل إناء مندى بالماء، وهى تشير ، وتصيح به، أن يقترب ويشرب، وكلما اقترب ساخت حوافر الحصان فى الرمال لتتوقف أو تكاد، يقترب فى بطء.. فى بطء.. وتختفى زينب، ولا يبقى سوى الفراغ.. ولا شىء ، ولا أحد، وهو ظمآن.. وفجأة تقول دليلة وهى فى زى الدرويش الصالح:

ـ سأميتك عطشا يازيبق.. لن تشرب إلا ماء النار..

واقـتـربت وهي تحـمل إناء يخـرج منه دخـان أزرق ، اقـتـربت نحـوه ، وهو عـاجـز عن الحـركـة، لا يـسـتـطيع أن يدفـعـهـا أو يردها . . . وقـال لنفسـه : أين أمي ـ أين فاطمـة ـ أين فاطمـة، وأين زينب . . أين سـالم؟ . . . لاأحـد يردها ، وهي تتـقـدم . . . وتتـقـدم وتقول في صوت كالفحيح :

ـ السلطان قاسم هو سلطان المدينة المرصودة، لا أحد غيره . . لا أحد غيره . .

ومن الدخـان تشـكلت حـية رهيبـة، تزحف نحـوه فاتحة فاها وهي تفح . . . حتى أوشكت أن تلتـهم رأسه وفجأة ينقض المقـدم منصور بسيفه ، فيقطعها نصفين .

ويصيح الزيبق :

ـ ولكـنك مت ياخـال منصـور، أنـت مـيـت ، أنت مـقـطـوع الرأس ، مصلوب الجسد . . . أنت ميت ياخال منصور .

ينظر إليه الخال منصور، ويبتسم، ويقول :

ـ عدوك مات يازيبق ، عدوك مات .

وارتفـعت حـوافـر جـواده فـوق الرمـال ، ومـضت تـنطلق بلا عائق . . وقال في صوت حنون :

ـ نحن عند الغروب أيها المقدم، هلا استيقظت .

وفتح عـينيه بصعوبة بالغة، الحجرة المظـلمة ، وسـرير المقـدم حسن بن الحصرى أمامه، وأصـوات من بعيـد ، أشباح تعود إلى مجال الرؤيا فإذا هي معالم الحجرة التي نام عليها عند الصباح ،

واستمر الصوت الحنون الرقيق يقول :

- أمرت مولاتي أن أوقظك عند الغروب ، وآن الأوان أن تستيقظ .

وأفاق تماما ... وقال :

- أين أنا ؟

ضحك الصوت العذب الحنون وهو يقول :

- أنت في ضيافة السلطانة زينب أيها المقدم ، وآن الأوان أن تستيقظ فالمحاكمة تبدأ بعد حين

قال الزيبق وهو يستجمع شتات نفسه :

- وأين المقدم حسن بن الحصرى ؟ .

عاد الصوت العذب الحنون يقول في هدوء :

- هو إلى جانبك على هذا السرير ... ومولاتي تسأل أتأمر بأى شيء قبل أن أصحبك إلى الديوان .

اعتدل الزيبق في فراشه وقد طار كل أثر للنوم من جسده ، وقال :

- نعم ... أريد أن أعرف ما حدث أثناء نومى الطويل هذا .

قالت وهى تقدم له من الماء المعطر :

- ستعرف كل شيء في حينه يامقدم ، فلا تشغل بالك الآن .

أخذ الكوب ومضى يشربه في بطء ، وهو يحاول أن يتذكر ذلك الحلم المخيف الذى حطت أحداثه على قلبه كالكابوس ، وتمتم وهو يعيد الكوب إليها ..

ـ سأوقظ المقدم حسن، بينما تحكين لنا أنت ما جد من أحداث..

ومضى الزيبق إلى المقدم حسن يوقظه في رفق، بينما تنهدت الفتاة، وهي تقول:

ـ ألا تريح نفسك أبدا يامقدم... أليس في حياتك من الوقت ما هو ملك لك. يتثاءب المقدم حسن بن الحصرى، وهو يتنبه تدريجيا للفتاة التي تقف في الغرفة، فقال: ـ أسأليه بربك، فقد نسى منذ فترة طويلة أن في الحياة شيئا اسمه الراحة والدعة..

ضحك على الزيبق، وقال:

ـ لم أحضر هنا لأرتاح، وأستسلم للدعة يامقدم حسن، لقد جئت في مهمة ولاراحة لي إلا إذا أنجزتها، وانتهيت منها على خير، وجه ممكن.

قفز حسن بن الحصرى من سريره، وهو يقول:

ـ لا تخاطبني أنا، فأنا لم أسأل، هي التي سألتك.. ومن حقها ولها كل هذا الجمال والدلال أن تسأل، ولا تستطيع أن تمتنع عن إجابة سؤالها.

قال الزيبق في جدية:

ـ ليس سؤالها بذى أهمية هي عاشت منعمة وسط بلاط السلطان ثم السلطانة، كل ما يلفتها هو أحاديث الحب والعشق والغرام... وهذه كلها أشياء بهيجة وسعيدة وناعمة، ولكنها لم تعرف، ولن تعرف، الوجه الآخر من الحياة.

قال الفتاة :

ـ وماهو الوجه الآخر للحياة يامقدم؟

قال الزيبق وفى صوته رنة مرارة:

ـ الجشع، الطمع فيما يملك الغير، والحسد والغيرة، التى تؤدى إلى الخيانة والغدر، وإلى اللصوصية والابتزاز، والاستهانة بما يملك الناس، بل والاستهانة بالآخرين وبأرواحهم..

قالت الفتاة:

ـ أتحسب أننى لا أعرف كل هذا لمجرد أننى فتاة، وأننى صغيرة السن؟ لقد رأيت فى بلاط السلطان قاسم من هذا الشىء الكثير، وعرفته قبل أن أعرف معنى الحب، وماكان يبقينى فى هذا البلاط إلا حبى للسلطانة زينب، فقد ربيت معها، وحظيت بعطف أمها وحنانها، وقضيت الليالى ساهرة فى حراستها من غدر السلطان ومؤامراته، ولعلك فهمت الآن سر إعجابى بك، فأنت منقذ السلطانة من كل البلاء الذى كان يحيط بها، وأنت الذى رفعتها إلى عرشها الذى هو حق لها، وأنت آخر الأمر الذى جئت بالسلطان ذليلا مقيدا ليلقى جزاءه الحق..

صاح الزيبق منتبها إلى كلماتها الأخيرة قائلا:

ـ هل جاء السلطان؟

قالت الفتاة:

ـ طبعا، ساقه الساحر الطيب، مكبلا ومقيدا إلى سجن المدينة، وهو الآن هناك ينتظر المحاكمة، ومولاتى تنتظرك يامقدم

لتكون شاهدا على ما يحدث.

قال المقدم حسن بن الحصرى:

ـ وأنا ، ألا ينتظرنى أحد؟

ضحكت الفتاة وتأودت وقالت:

ـ يامقدم، الكل لا ينسى معركتك المجيدة عند أبواب المدينة ، وصمودك أمام فرسان المدينة المرصودة، حتى استطاع المقدم الزيبق بملاعيبه أن يخلصك.. لم يستطع فارس أن يهرب من سيوف فرسان المدينة غيرك..

ابتسم الزيبق، وقال:

ـ فأنت تعرفين قدره كفارس شجاع..

قالت الفتاة:

ـ لقد سمعت عن قتاله اليائس المخيف حكايات، وحكايات.

ارتفع الدم إلى وجنتى المقدم حسن بن الحصرى، وقال متلعثما:

ـ ما كنت إلا أدافع عن حياتى ونفسى.

قالت الفتاة:

ـ أمجد دفاع، وأروع فروسية..

ضحك الزيبق وقال:

ـ أسمعت يابن الحصرى... لم ينس أحد موقفك، ودفاعك المجيد.

قالت الفتاة مسترسلة فى حديثها:

ـ هو عندنا حديث خرافة... ولو مات مدافعا عن نفسه لغدا أسطورة..

قال الزيبق:

ـ هذا فارس لايتكرر أيتها الفتاة.. ما اسمك ـ فبعد كل هذا الحوار لا نعرف لك اسما.

قالت الفتاة وهى تخفض رأسها فى فخر:

ـ اسمى ياسمين..

اندفع حسن بن الحصرى قائلا فى انفعال:

ـ ياسمين.. هذا اسمك، وهو العطر الذى يفوح منك، فأنت فعلا ياسمين.

قالت ياسمين وقد احمر وجهها خجلا:

ـ سيدى الفارس... هذا كثير..

ضحكت ياسمين، والتفتت إلى الزيبق قائلة:

ـ أليس عندك يامقدم على كلمات حلوة كهذه الكلمات؟

قال الزيبق:

ـ ما عندى من كلمات قلته للفتاة التى سأتزوجها.

أجفلت ياسمين وقالت فى دهشة:

ـ إذن فأنت تحب يامقدم على، وكنت أظنك بلا قلب يعرف خفق الحب..

قال الزيبق:

ـ رجل السيف رجل كغيره من الرجال، يعرف الحب،

ويعرف الحزن،ويعرف الألم.

لانت ملامح ياسمين، وقالت:

ـ أصدقك الآن يامقدم علي... لقد أخبرتني السلطانة أنك صددتها لأنك تحب،وأنك ما جئت إلى بلادنا إلا مدفوعا بحبك الأصيل .. وما كانت هي تصدق هذا الحديث، وما كنت أنا لأصدقه لولا أن سمعته منك الآن، وأحسست في لهجتك بالصدق الذى لازيف فيه..

لمعت عينا الزيبق فجأة، وقال وهو يمسكها من ذراعها بعنف:

ـ إذن ففي الأمر مؤامرة..

ظهر الخوف على وجه ياسمين، بينما هب المقدم حسن بن الحصرى واقفا واندفع نحو الزيبق وهو يقول:

ـ أنت تؤلمها يامقدم علي..

قال الزيبق وعيناه تلمعان غضبا:

ـ دفعتك السلطانة دفعا لتغيرني بجمالك وفتنتك، لتعرف هل كنت صادقا في صدي لها، أم أنني كذبت عليها عن عمد لسبب أخفيه..

كان صوت ياسمبن يرتجف، وهي تقول:

ـ لن أكذب عليك أيها الفارس.. لم تأمرني السلطانة مباشرة، ولكنني فهمت ما أرادته مني، ثم إني أميل إليك؟

ترك علي الزيبق ذراعها فجأة، ودفعها بعيدا، وهو يقول:

ـ أنت الحية التى خرجت من إناء النار تحمله دليلة..
قال المقدم حسن:
ـ دليلة، ما هذا، أى إناء نار... وأية حية
ـ إنه الحلم يامقدم حسن، الكابوس الذى أطبق على صدرى طوال النهار .. وأنا نائم، هذا تفسيره الآن.
قالت ياسمين وفى عينيها نظرة ذعر:
ـ كابوس؟ وما شأنى أنا بالكوابيس..
قال لها على الزيبق:
ـ لا شأن لك، ولكنك تفسير الحلم وتعبيره..
قال المقدم حسن بن الحصرى فى ذهول:
ـ كل هذه الكلمات الجميلة كانت جزءا من مؤامرة...
قال الزيبق:
ـ وهذا الثوب، وهذه المشية، وهذه الابتسامة.
قال حسن:
ـ لست أصدق نفسى، أمثل هذه الفتاة تفعل كل هذا عن عهر؟ من الآن لن أصدق البراءة فى إنسان أبدا..
قالت ياسمين فى ضراعة:
ـ أقسم أنه لم تكن هناك مؤامرة، فقط مولاتى كانت لا تفهم سر صد المقدم على عنها .. وهى من هى جمالا وعزا ومكانة .. و ..
صاح المقدم حسن:

ـ صدق كلام الزيبق... شاهت كل الأشياء، شاهت كل الأشياء..

قال الزيبق في ضيق:

ـ هذه مدينة مرصودة بالشك والغدر والخيانة، والسلطان يتآمر على الخليفة، وعلى الوريثة الشرعية للسلطة، والوزير مع كل عهد، ومع كل قوة، ورئيس الفرسان يتقاذفه الموج، ويعبث به الريح، وحتى هذه الفتاة البريئة تنتهك جمالها وبراءتها.

صاحت ياسمين:

ـ ولاء لسيدتي

قال الزيبق:

ـ هذه حكايتك أنت ياياسمين.. أما أنا فقد ضقت ذرعا بهذه المدينة، وأريد أن أغادرها في الحال..؟

قال حسن بن الحصري:

ـ ومهمتك في الجزيرة المسحورة؟

قال الزيبق:

ـ سأنجزها قبل أن أرحل.

وقبل أن يجيبه أحد، طرق الباب، ولم ينتظر الطارق إذنا بالدخول، إذ فتح الباب، ودخل الفارس باسم مندفعا، وهو يقول:

ـ تأخرت يامقدم علي، المحاكمة بدأت، وسيفوتك جزء هام منها..

ثم التفت إلى وجود الفتاة ياسمين ، فصاح فيها فى غضب :

ـ ماذا تفعلين هنا ، والسلطانة تبحث عنك ؟

تلعثمت ياسمين ، بينما قال الزيبق فى سخرية :

ـ إنها هنا فى مهمة للسلطانة .. هيا بنا نحضر المحاكمة ...

التفت إليه الفارس باسم وقال :

ـ لقد أوشكت المحاكمة أن تنتهى ، فأسرعا لتحضرا تنفيذ الحكم.

قال الزيبق فى سخرية :

ـ أو صدر الحكم قبل انتهاء المحاكمة ؟

وجم الفارس باسم، ثم تمالك نفسه وهو يقول :

ـ وهل هناك شك فى خيانته وإدانته ..

ضحك الزيبق وهو يقول :

ـ إذن هيا بنا نحضر النهاية التى وضعها السلطان قاسم لنفسه بنفسه ..

-٣١-

المدينة تحترق

كانت المشاعل تملأ المكان بنورها القلق المتذبذب، وكانت هناك مصابيح عديدة ترسل بنورها الذابل الثابت حولها... وكانت الساحة مليئة بالناس، وقد بدأت ساعات الليل الأولى تلف المدينة بظلامها، ووسط المدينة أقيمت منصة جلس عليها القاضي، وفي ناحية وقف الجلاد يحمل سيفه الضخم وأمامه النطع، وفي ناحية أخرى وقف السلطان قاسم موثق اليدين وحوله الحراس شاهرين رماحهم،. وأمام المنصة جلست السلطانة وإلى جوارها الوزير مروان .. وقال حسن بن الحصري

وهو يتبع الزيبق إلى الساحة، رافعا صوته ليصل إليه رغم ضجة الميدان وصخبه:

ـ هل انتهت المحاكمة حتى جيء بالجلاد والنطع..؟

قال الزيبق:

ـ لقد جاء الجلاد والنطع قبل المحاكمة.

قال حسن بن الحصرى:

ـ ولكن ما معنى المحاكمة اذن؟

قال الزيبق:

ـ إنها هنا تبرير للقتل، مجرد تبرير.

قال حسن بن الحضرى:

ـ أما كان الأجدى أن يقتلوه بدلا من هذه المهزلة..

وقال الزيبق وهو يشق طريقه إلى حيث جلست السلطانة والوزير مروان:

ـ قديما كان الطامع فى الملك يتحدى الملك الذى يكون قد كبر فى السن علنا، ويقتله فى مبارزة أمام كل القبيلة، ويصيح الناس مات الملك عاش الملك، وينتقل العز والجاه والمال والسلطان من بيت إلى بيت، والناس يرضونه، فالحكم للقوة، والقبيلة لا ترضى أن يحكمها إلا من يستطيع أن يهزم من يتحداه ويقتله، أما اليوم فلابد من القانون فالقانون قد ارتضاه الناس، وأن يحكم على السلطان اليوم بالموت فهذا هو حكم القانون، فهم حكم ارتضاه الناس ووافقوا عليه، وهو الذى يبرر

للسلطان الجديد أن يحتل مكان السلطان المقتول دون أن يتهم بالاغتصاب أو القتل..

وضاع صوت الزيبق وسط ضجة كبرى ثارت من عند المنصة، ومن حولها من جماهير الناس، وتوقف الاثنان عن الحركة إذ اندفعت الجموع التى كانت فى الخلف تدفع من هم أمامها لتصل إلى أقرب مكان إلى المنصة، وتنهد الزيبق وهو يقول:

ـ لقد نطق القاضى بالحكم... والناس يتدافعون ليروا تنفيذه فما فى كل يوم يقتل فى المدينة سلطان.

قال حسن بن الحصرى فى حنق:

ـ لا نستطيع الحركة فقد أحدقت بنا الجماهير وحاصرتنا..

قال الزيبق:

ـ لاأظن أن هناك طفلا أو شيخا أو رجلا أو امرأة فى المدينة كلها داخل هذه المنازل، الكل هنا والبيوت خالية.

وفجأة ارتفع صوت من ناحية الميدان الأيمن يصرخ قائلا:

ـ النار، النار فى مستودع الغلال..

بينما صاح صوت آخر فى ذعر:

ـ المنازل تشتعل ، كل هذه الناحية تشتعل..

ونظر الزيبق إلى حيث أشار الرجل، كانت ألسنة النيران تخرج من نوافذ المنازل، وتحول الظلام إلى نور متوهج إذ تحولت الناحية اليمنى من المدينة إلى شعلة متأججة، وقال المقدم حسن

بن الحصرى:

ـ النار فى كل مكان، كأن هذا الجانب اشتعل كله مرة واحدة، قال الزيبق:

ـ وهج النار يعنى أن هناك نفطا يشتعل فيزيد وهج النيران وحدتها، لا ليست هذه الحرائق مصادفة إنها بالقطع بفعل فاعل أثيم.

ارتفعت صرخات النساء وصيحات الرجال تصم الآذان، وهم يتدافعون، ويدوسون على من يسقط منهم، بينما صاح الزيبق فجأة:

ـ انظر..

ونظر حسن بن الحصرى إلى حيث أشار الزيبق، إلى المنصة. وكان الجلاد يتهاوى إلى الأرض وقد استقر سهم فى قلبه، بينما كان السلطان المقيد يصرخ فى جنون، كوكبة من الفرسان يندفعون بخيولهم نحو المنصة، وفى مقدمتهم فارس طويل فى زى الدراويش ووراءه مونجو ورجاله وهمس الزيبق من بين أسنانه:

ـ دليلة.

وحاول أن يندفع نحو المنصة، ولكن الجموع كانت تضغطه ضغطا وتعيده إلى الوراء، وقال حسن بن الحصرى الذى كان يقاوم ليظل إلى جوار الزيبق:

ـ ليس فى هؤلاء الفرسان نساء..

قال الزيبق، وهو يصارع موج الناس الزاخر الصارخ:

ـ أيها الدرويش الصالح.. ألم تسمع عن الدرويش الصالح.. هى التى ألبت السلطان قاسم على الخليفة، وحرضته على التمرد ، وهاهى الآن تنقذه من الموت الأكيد... وخدعة الحريق لا تخرج إلا من عقل كعقلها لا يأبه بسلامة الناس ولا بسلامة أموالهم..

وكان الفرسان قد وصلوا إلى حيث وقف السلطان فانتزعه مونجو من أمام النطع وأردفه أمامه فوق حصانه ، بينما أخذ رجال مونجو يمطرون الناس حولهم بالسهام ، وتساقط الناس، واندفعوا هاربين من أمامهم... وسرعان ما تحولوا بخيولهم مسرعين يغادرون الميدان ليبتلعهم ظلام الليل... وتمكن الزيبق أخيرا أن يشق طريقه مندفعا إلى حيث وقفت السلطانة شاحبة الوجه، مذعورة،وما أن رأته حتى اندفعت نحوه وهى تقول:

ـ أرأيت ما حدث، مونجو وعصابته اختطفوا السلطان قاسم، قال الزيبق وهو يربت عليها مهدئا:

ـ لقد خلصتهم دليلة من الكهف، وقادتهم فى تخليص السلطان. وكان الوزير مروان قد فقد هدوءه، فقال فى عصبية:

ـ لابد من اللحاق بهم، فوجود السلطان حرا خطر داهم على وعلى السلطانة ، وعلى المدينة..

قال الزيبق:

ـ يجب إنقاذ المدينة من الحريق أولا.

قالت السلطانة زينب.

ـ نعم ، المدينة أولا .

ووقعت عيناها على الفارس باسم وهو يهرع نحوهم ، فقالت في ثبات :

ـ أيها الفارس ، اجمع رجالك ، وضم إليك كل الفرسان وكل الحرس ، وكل الجنود ، ونظموا (طابورا) من الغدير إلى المدينة لحمل الماء ومحاصرة الحريق . .

قال الفارس باسم في اضطراب :

ـ ولكن السلطان هرب ، وأستطيع أن ألحق بمختطفيه قبل أن يبتعدوا .

قالت السلطانة في حزم :

ـ المدينة أولا . .

صاح الوزير مروان في انفعال :

ـ هذا قرار خاطيء ، نحن نحتاج الرجال لإعادة السلطان الهارب قال الزيبق في هدوء :

ـ بل قرار السلطانة هو القرار الصواب ، فمن دبر الحريق ليصرف النظر عن هجمة الفرسان ، لابد أنه رسم طريق الهروب . . والمدينة الآن تحتاج كل جهودنا . .

وأحس الزيبق بيد تربت على كتفه ، فالتفت ليجد عمر العيار في زى الساحر الإفريقى يقف وراءه ، ويقول في همس :

ـ أين ذخائرك يازيبق فهذا الحريق سيقضى على المدينة قبل

أن يحمل الجنود الماء الكافى لإنقاذها.

قال الزيبق:

-أين لومبا ومافى، ألم يذهبا لإحضار حاجاتى من الكهف؟

قال عمر العيار:

-هما هنا، وقد عادا وأنت نائم، وأخفيتهما عندى، وحاجاتك كلها سالمة عندى.

قال الزيبق:

-إذن هيا بنا إليهما..

صاحت السلطانة والزيبق يتبع عمر العيار:

-أين تذهب أيها الفارس ،نحن نحتاج إليك الآن

قال الوزير مروان فى سخرية:

-وماذا يستطيع هو أن يصنع زيادة عما يفعله باقى الرجال؟

ضحك الزيبق وقال:

-سوف ترى..

وتبع عمر العيار وإلى جواره حسن بن الحصرى الذى قال فى حيرة:

-لقد صدق الوزير مروان ... فماذا ستستطيع أن تفعل حقا؟ قال الزيبق: وهم يغادرون الميدان الصاخب، وينحرفون وراء عمر العيار إلى جانب هادىء من المدينة لم تصل إليه النيران:

-البيوت فى هذه المدينة متلاصقة، ولن تجدى مكافحة

النيران بالماء وحده، إذ ستشتعل النار إلى بيوت جديدة قبل أن يتم إطفاء المنازل المحترقة بالفعل..

قال حسن بن الحصرى:

ـ هذا صحيح، فمنازل المدينة مصنوعة كلها من الخشب، وقد تعرضت للشمس الحارقة زمنا طويلا حتى أصبحت جافة تماما، ما أن تصلها النار حتى تحترق فى سرعة مذهلة.

كان عمر العيار قد وصل بهم إلى مسجد صغير فى نهاية حارة ضيقة، ووقف ينتظرهما حتى يلحقا به، وقال:

ـ هاقد وصلنا... كانت هذه الزاوية مقر الدرويش الصالح أو صديقتك الحميمة دليلة، وما أن اختفت من المدينة حتى وجدت فيها مكانا آمنا أستريح فيه بعيدا عن العيون..

قال الزيبق وهو يدخل إلى المسجد الصغير خالعا نعليه:

ـ لقد أحسنت الاختيار يامقدم.

وحين كان المقدم حسن بن الحصرى يخلع نعيله، خرج عليهما لومبا ومافى من داخل المسجد، مرحبين بالزيبق ورفيقه، وقال لومبا:

لقد رأينا كل شيء، وكدنا نذهب وراء الهاربين، ولكن الطبيب الساحر منعنا، وقال إن مكاننا هنا إلى جوارك..

دخل الجميع بساحة المسجد الصغير، حيث أضاء المكان مشعل علق على أحد الجدران، وفى جانب من المسجد وجد الزيبق حرنداناته والكل يرقبه فى صمت... وابتسم الزيبق

وهو يخرج عدة أصابع قصيرة قاتمة اللون، ولفة من الفتيلة الرفيعة، وقال وهو يعيد غلق الحرندان:

ـ والآن سنحاصر الحريق

قال عمر العيار:

ـ لست أفهم ماتعنيه

قال على الزيبق، وهو يضع ما أخرجه من الحرندان أمامه، ويفرد لفة الفتيلة الرفيع ليكون حبلين طويلين، ثبت طرف كل واحد منهما فى مجموعة من الأصابع القصيرة ربطها إلى بعضها ربطا محكما، ثم تنهد، ووقف وهو يقول:

ـ عندما لاتجد النار ما تأكله، ستأكل نفسها، وتكتفى بما أحرقت من دور، وتخمد المياه ما بقى مشتعلا منها..

قال عمر العيار وهو يهز رأسه فى فهم:

ـ أدركت ما تريده أيها المقدم... تهدم دارا عند هذا الطرف، ودارا عند الطرف الآخر، فلا تجد النار ماتمتد إليه..

قال على الزيبق:

ـ لقد فهمت ما أنتويه تماما يامقدم عمر..

قال حسن ين الحصرى فى حيرة:

ـ ولكن كيف..؟

ربت على الزيبق على مجموعتى الأصابع القصيرة، وقال:

ـ هنا تكمن الإجابة على سؤالك..

قال حسن بن الحصرى:

ـ هذه العصى . . ؟

قال على الزيبق :

ـ ستصحب أنت المقدم عمر العيار فى عمل هام لإنجاح مهمتنا ، وهو إبعاد الناس عن المنزلين اللذين سنختارهما ، وبعد أن يتهدم المنزلان على كل منكما أن يقود فريقا من الناس مزودين بالفئوس والمكاتل لحمل الأنقاض بعيدا بأقصى سرعة ، أما لومبا ومافى فسيصحبانى فى القيام بالعملية نفسها .

قال حسن بن الحصرى فى حيرة :

ـ ولماذا لومبا ومافى معك ، وأنا مع المقدم عمر العيار . . ؟

قال الزيبق :

ـ مازال المقدم عمر العيار هو الساحر الإفريقى الذى يحبه القوم هنا ويجلونه ، ويطيعون كلامه ونصائحه ، أما أنت فهم يعرفون أنك فى صفهم لأنك صديقى . . ولابد أن أبعد لومبا ومافى عن عيون الوزير مروان والفارس باسم لأنهما يعرفان أنهما من أعوان الملك سلطان ملك بحر الغزال ، وأنهما اشتركا فى اختطاف سلطانتهم زينب . .

قال لومبا :

ـ صدقت أيها المقدم ، فمنذ دخلت هذه المدينة ، وأنا على حذر أن يكتشف أحد أمرى ، ممن يعرفون دورى المخجل فى اختطاف السلطانة . .

قال الزيبق :

ـ هذه مسألة سنسويها نهائيا بعد إخماد الحريق..

قال عمر العيار:

ـ أنت تريد إبعاد الناس عن المنازل المحترقة... كيف وهم يحاولون إطفاء الحريق بالماء الذي يحملونه من الغدير... وأنت تعرف حماس الناس وخوفهم على منازلهم؟

قال على الزيبق:

ـ هم يعتقدون فيكم الخير، قل لهم إنك تريد أن تجرب سحرك لدقائق، ثم يعودون بعدها إلى حمل الماء من الغدير.. واختر معك من حملة المعاول والمكاتل من لهم مصلحة فى بقاء المدينة قائمة، وأبعد كل من يريدون النهب والسلب. أو الادعاء والتظاهر، وقسمهم إلى قسمين، وحين يتم الانفجار..

صاح حسن بن الحصرى:

ـ الانفجار؟ نعود مرة أخرى إلى البرق والرعد والنجوم المتساقطة من السماء التى أنقذتنى من قبضتهم..

ضحك الزيبق وقال:

ـ هذه المرة لن تسقط النجوم، وإنما ستسقط المنازل، لنترك بيننا وبين النيران منزلا... ونفجر المنزل الذى يليه، ثم تتعقبه فرق الإزالة فلا تبقى للمنزل أثرا... وحين تصل النيران إلى المنزل الأخير، سيكون الطريق مسدودا أمامها..

قال عمر العيار:

ـ وتريد منا أن نزيل الأنقاض فى الحال..

قال الزيبق :

ـ ولهذا اخترت منزلا بعد منزل من الحريق، ويجب أن تزال الأنقاض بسرعة..

قال حسن بن الحصرى :

ـ لو نجحنا فى هذا، فإن النيران ستوقف بالفعل..

قال لومبا :

ـ ولكننا لن نتمكن من إنقاذ كل منازل المدينة..

قال الزيبق :

ـ سننقذ المدينة نفسها وهذا هو الشيء الهام... هل فهم كل منكم دوره ، والمطلوب منه..

قال عمر العيار:

ـ هى مغامرة جسورة، فلو فشلت هذه الأصابع، ضاع كل شيء وضاعت المدينة..

قال الزيبق :

ـ هذه الأصابع من ذخائر الشيخ زكى البتوكى، ولن تفشل كما لم تفشل الملاعيب الصينية، فهى فى الحقيقة جزء منها، هل نتوكل على الله..

قال عمر العيار :

ـ ونعم من نتوكل عليه... هيا بنا..

قال الزيبق :

ـ هل فهم كل منا دوره؟

قال لومبا :

ـ لا أنا ولا مافي فهمنا دورنا ، نحن نصحبك ، هذه حقيقة ، ولكن ماذا سنفعل ؟ وماهو دورنا ؟

ـ ستتسلل أنت إلى المنزل الثاني للمنزل المحترق على يمين هذا الصف الطويل من المنازل ، ثم تضع هذه الأصابع داخله ، وتمر الفتائل إلى خارج المنزل حيث تكمن بعيدا عنه ، وسيفعل مافي نفس الشيء في المنزل الثاني للمنزل المحترق على اليسار . . هل هذا مفهوم . .

هز لومبا رأسه ، وكذا فعل مافي ، وهما ينظران إلى حزمتي الأصابع ذات الفتائل في روع وترقب . . واستأنف الزيبق حديثه فقال :

ـ سأضع الأصابع بنفسي ، وسأمد الفتائل حتى تصل إليكما بعيدا عن المنازل بمسافة معقولة . . كل المطلوب منكما أن يشعل كل منكما الفتيل حين أشير إليه ، ثم ينبطح أرضا ، ويترك لكل شحنة أن تفعل فعلها . .

قال عمر العيار :

ـ ولن يصاب أحد من أهل المدينة بسوء . .

قال الزيبق :

ـ هذا دورك يامقدم عمر ، أبعد الجميع ، ثم لينقض الجميع على الأنقاض ليزيلوها فورا ، ثم تستعمل الفئوس في الهجوم على البيت الثاني للبيت الذى تفجر ، وتزيل كل ما هو قابل

للحريق ، هى معركة تحتاج الفهم والتضافر ، كما تحتاج الفدائية والبذل ، ومن هنا أوصيك باختيار الرجال الصالحين لخوضها . .

قال المقدم عمر العيار :

ـ أعطنى فرصة زمنية إذن ، أذهب إلى الرجال ، وأحادثهم ، واقنعهم وأخبرهم . .

قال الزيبق :

ـ الوقت ضدنا ، فالحريق يمتد بلا عائق . .

قال عمر العيار :

ـ سألجأ إلى الرجال الذين آمنوا بحبى لهم ، فانتظرانى قليلا حتى أصل إليهم وأقنعهم ، وأخبرهم .

قال الزيبق :

ـ الوقت سلاح ضدنا فالمدينة تحترق

قال عمر العيار :

ـ لن يستغرق هذا منى وقتا طويلا ، فقط امنحنى الفرصة لأخبر الرجال وإلا مات كثيرون فى الانفجارات التى تزمع إحداثها .

قال الزيبق :

ـ عندما تستعد أرسل إلى المقدم حسن بن الحصرى هنا فى المسجد ، وساعتها سأنطلق أنا ولومبا ومافى .

قال المقدم عمر العيار :

ـ هذا عدل ، فسأذهب الآن

وقال للمقدم حسن بن الحصرى:

ـ اتبعنى يامقدم فهذا قدرنا.

وانصرف عمر العيار والمقدم حسن بن الحصرى من المسجد والتفت لومبا إلى الزيبق قائلا:

ـ ومتى نتحرك نحن..؟

قال الزيبق:

ـ ينبغى أن يعد عمر العيار عدته، فالرجال عنصر رئيسي فى نجاح خطتنا..

قال لومبا:

ـ ومادورنا فى هذه اللحظة؟

قال الزيبق:

ـ سنتحرك الآن، وسنضع فى كل منزل مختار، مجموعة من هذه الأصابع، وعند نهاية الفتيل الخاص بها يكمن أحدكما، وحين أصدر الإشارة، يشعل كل واحد منكما الفتيل، ثم ينتظر.

قال لومبا:

ـ وهل معنى هذا أن ننتظر المقدم عمر؟

قال الزيبق:

ـ سنضع الأصابع فى أماكنها، وينتظر كل منكما فى المكان الذى أحدده، وسأنتظر أنا هنا المقدم عمر، وحين أشير إليكما، يشعل كل منكما الفتيل الذى أمامه... هل نحن متفقون..

قال لومبا :

ـ فهمنا .

قال الزيبق :

ـ إذن هيا بنا . .

ومن المسجد تسلل الجميع فى صمت ، كل يأخذ موقعه الذى حدد له وكل يأخذ أهبته للمهمة التى أوكلت إليه .

-٣٢-

الجزيرة المسحورة

حين دوى الانفجار الأول، صمتت المدينة تماما، صمت الصارخون خوفا من النيران، وصمت الصاخبون حول النيران، يكافحونها عبثا بأوعية الماء المحمولة عبر طابور طويل من الرجال... صمت كل شيء وسكت، في ترقب وخوف... وقبل أن تذهب مفاجأة الانفجار الأول، دوى الانفجار الثانى مروعا ومهولا، وانهار المنزلان عند طرفى النيران حطاما وأشلاء، وبقايا متناثرة هنا وهناك، وانقض طابوران من الرجال على حطام المنزلين، وأحد يقوده عمر العيار، والثانى يقوده حسن بن

الحصرى، وارتفعت المعاول وهوت تكمل تحطيم ما لم يحطمه الانفجاران وامتدت الأيدى بالمكاتل تزيل الحطام فى سرعة وهمة، وقد فهم كل الرجال مهمتهم ، وأصبح أملهم الوحيد فى إنقاذ المدينة هو إزالة الحطام حتى تأكل النيران نفسها وتتوقف... وتحول السكون إلى حركة صاخبة نشطة، وانضم الكثيرون إلى طابور الماء حتى كونوا أكثر من طابور، وبدأت النيران تخمد فى مناطق عديدة، بينما ملأ المدينة دخان كثيف، ورأى كثيرون من سكان المدينة لومبا ومافى وهما يقومان بدورهما فى رفع الأنقاض، ونقل المياه، ومكافحة الحريق، ولم يلتفت أحد إليهما، ولم يعترض أحد طريقهما، بينما كان الزيبق ينتقل من مكان إلى مكان يمد يد العون لجماعة هنا، ويحث بالتشجيع والتوجيه جماعة هناك، حتى أحس الجميع أنه فى كل مكان، وأنه يعضد كل يد، ويذكى روح التحدى والصمود فى كل نفس.. وقالت الجارية ياسمين لسيدتها السلطانة وهى ترقب حركة الزيبق التى لا تهدأ:

ـ لقد سيطر الزيبق على النار، إنه جيش وحده..

قالت السلطانة زينب:

ـ منذ تعهد بإطفاء الحريق، وقد اطمأن قلبى، وزايلنى القلق والخوف..

ضحك الوزير مروان فى سخرية، وهو يقول:

ـ لقد سيطر على كل رجال المدينة، وهم يتحركون لإشارته،

كأنما تعودوا أن يتلقوا أوامرهم منه طول العمر..

قالت السلطانة زينب في لهجة حالمة:

ـ هو قائد بين الرجال .. فبعض الرجال لهم هذه الموهبة حتى لو كانوا بلا جاه أو سلطان.

قال الوزير مروان في إصرار:

ـ وبعض الرجال يركبهم الغرور حتى تداخلهم الأطماع في الحصول على الجاه، والاستيلاء على السلطة.

التفتت إليه السلطانة زينب، وقالت في حدة:

ـ لامطمع لعلى الزيبق في بلادنا أيها الوزير مروان..

قال الوزير مروان في خبث:

ـ من يعرف متى تبدأ أطماع الانسان،، وكيف تتصاعد..؟

قبل أن تجيبه السلطانة زينب، ظهر الزيبق يسرع نحوهم ومعه الساحر الإفريقى، والمقدم حسن بن الخصرى، فرفعت السلطانة يدها طالبة الصمت، وابتلع الوزير مروان كلماته، وهو يرقب في حنق حركات القادمين الناطقة بالزهو والثقة بالنفس..

وقال الزيبق حين واجه السلطانة:

ـ لقد تمت سيطرتنا على الأمور، وماهى إلا عدة ساعات وينتهى الحريق تماما.

وقال الساحر الإفريقى:

ـ لو أمرت مولاتنا السلطانة، ننصب الخيام لإيواء من فقدوا مساكنهم، ونعد الطعام للأطفال والنساء، وللمنهكين من

الرجال الذين كافحوا النيران..

صاحت السلطانة زينب:

ـ كيف فاتنا هذا، صدقت ياصديقنا الطبيب.

ثم التفتت إلى الوزير مروان آمرة:

ـ وقفتك إلى جوارى هنا بلا معنى، اذهب لتعد الخيام، وأوانى الطعام، ولتفتح مخازنى كلها، ويعد الطهاة الطعام..

ثم التفتت إلى الجارية ياسمين قائلة:

ـ اذهبى ياياسمين معه، ولتخرج كل جوارى القصر لإعداد الطعام، والمأوى والكساء لضحايا الحريق.. هل أذهب معك أم تستطيعين تنفيذ هذا الأمر كله..؟

قالت ياسمين:

ـ يكفى ما فعله الأغراب لنا، لقد تعلمنا منهم معنى الصمود والإصرار، ونحن لانقل عنهم حبا لمدينتنا ، سيدهشك مانفعل أيتها السلطانة..

قالت السلطانة زينب، وفى صوتها رنة فخر واعتزاز:

ـ كنت أعرف جوابك، ينبغى أن نتعلم مما شاهدنا ، كيف يكون العمل..

قال الزيبق:

ـ لست أشك فى صدق ما ستفعله ياسمين..

قال الوزير مروان:

ـ وتشك فيما سأفعل؟

قال الزيبق :

ـ هذه مدينتك . . . وأنت وزيرها ، وما جئت لكل هذا ، وإنما جئت أستأذن من السلطانة أن أذهب فى المهمة التي جئت من أجلها إلى هنا ، فقد طال تأخيرى لهذه المهمة . . . ووجب إذن السلطانة .

أطرقت السلطانة طويلا ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

ـ إذن السلطانة نافذ ، فاذهب إلى مهمتك ، ولن يمنعك أحد من المدينة المرصودة ، وإن أردت معاونة ، قدمناها لك .

صاح الوزير مروان فى احتجاج :

ـ وماذا نفعل فى المدينة المحترقة أو فى الهاربين مع السلطان قاسم . . . و . .

قاطعه الزيبق قائلا :

ـ أما المدينة فلم تعد محترقة ، وأمرها موكول إليكم ، أما الهاربون فيجب أن ينظم الفارس باسم حملة لتعقبهم ، وسأعطيه المقدم حسن ابن الحصرى معه ليعينه فى مهمته . . أما أنا ، فلم يعد لوجودى هنا معنى ألا إذا ذهبت إلى هدفى مباشرة .

قال الوزير مروان فى حقد :

ـ تعنى أن تحصل علي صندوق التواجيه ، وتسرقه من مدينتنا وترحل . .

قال الزيبق فى هدوء ، وهو يكتم ما يحس به من ضيق :

ـ صندوق التواجيه ليس ملكا لمدينتكم أيها الوزير، ولا يعرف أحد، هل سأوفق فى الحصول عليه، أم سأدفع حياتى ثمنا لإخفاقى

قاطعته السلطانة زينب قائلة:

ـ كفى أيها الفارس، سيصحبك التوفيق والنجاح ، اذهب والله يرعاك..

وقال المقدم حسن بن الحصرى:

ـ سأكون فى جيش الفارس باسم فلا تشغل بالك من هذه الناحية قال الزيبق:

ـ أعرف أنك قادر على إنجاح المهمة... وسأذهب الآن..

وقبل أن يجيبه أحد، كان الزيبق قد اختفى عن الأنظار...

قبل الفجر بقليل وصل الزيبق ومعه عمر العيار ولومبا ومافى إلى حافة البحر، ووقفوا ينتظرون مقدم الرئيس سوهى، وقال عمر العيار .

ـ لقد تأكدت من وصول رسالتى إليه، وسرعان ما يصل.

قال الزيبق:

ـ وجوده مهم، فهو وقبيلته حراس الجزيرة وأصحابها ، ولست أريد مقاتلتهم..

قال عمر العيار:

ـ هو صديقنا، وهو يطمع أن يكون كنز الجبل له ولقبيلته . فالمغارة التي وضع فيها صندوق التواجيه تحوى كنوزا وذخائر لا

مثيل لها..

قال الزيبق:

ـ سأفتح لهم الطريق إلى هذه الكنوز والذخائر..

قال لومبا:

ـ نذهب معك..

قال الزيبق:

هذه النفيلة مطلوبة منى كاختبار لحقى فى أن أكون مقدم درك مصر، ولو عاوننى أحد لفقدت حقى فى المطالبة بالإقرار لى بالتفوق والغلبة.. ولكنى أريد أن تذهب أنت ومافى إلى مدينة بحر الغزال، فأحسب أن السلطان قاسم هناك، ومعه دليلة المحتالة، ومونجو وعصابته، وليس أقدر منكما على معرفة الأخبار هناك..

قال عمر العيار قاطعا حديثه:

ـ هاهو صديقنا الرئيس سوهى قد وصل فى موعده تماما.. ولاحت قوارب محملة بالرجال تتقدم نحو الشاطىء فى سرعة وهدوء.. وفى مقدمة القارب الأول وقف الرئيس سوهى يحمل حربته، والجوهرة التي تتدلى فوق صدره تلمع فى أشعة الفجر الأولى، وقال الزيبق:

ـ الرجال فى زينة الحرب، وفى أيديهم الرماح والسيوف.. هذه ليست بادرة سلام..

ضحك لومبا ضحكة خشنة، وهو يعقب قائلا:

ـ رأيت هذا المنظر قبل هذا، إن القبيلة تستعد لخوض حرب دامية.

قال عمر العيار:

ـ لا تنس ما مروا به أمس، وأظنهم يحسبون أننا مازلنا فى عداء مع المدينة المرصودة.

وما أن انتهى من كلامه حتى كانت القوارب قد وصلت إلى الشاطىء حيث وقفوا، وقفز الرئيس سوهى إلى الشاطىء، ورفع حربته فى يده وهزها فى عنف، ثم أشار إلى رجاله فتبعوه، وجروا القوارب إلى الشاطىء ثم نزلوا منها مسرعين، بسلاحهم الذى يلوحون به فى وجه الشمس الوليدة التى لم تظهر بعد فى السماء ثم تقدم الرئيس سوهى نحو الواقفين فوق الشاطىء، وأومأ برأسه تحية لهم، ثم توجه بحديثه إلى الزيبق قائلا:

ـ أيها المقدم صاحب الحيل الكثيرة، والنيران المتطايرة، والرعد والبرق .. أنا ورجالى أبناء قبيلة البونت جئنا لنصرتك فى حربك ضد المدينة المرصودة.

رد الزيبق التحية، وتقدم نحو الرئيس سوهى وهو يقول:

ـ لم تعد هناك حرب بيننا وبين المدينة المرصودة، مهمتى الآن فى جزيرتك وجزيرة قبيلتك أيها الرئيس سوهى..

قال الرئيس سوهى فى دهشة:

ـ الجزيرة المسحورة..

تدخل الساحر الإفريقى فى الحديث قائلا:

ـ سيفتح المقدم الزيبق الكهف المسحور، وليس له طلب إلا صندوق التواجيه، وسيترك لكم الكهف بجواهره كلها، وقد زال عنه السحر ، وأصبح طريقكم إليه مأمونا ..

فجأة ضحك الرئيس سوهى، وتبادل رجال القبيلة النظرات الساخرة، وقد ابتسم بعضهم، وعلت ضحكات بعضهم الآخر، وحين انتهى الرئيس سوهى من ضحكه ، قال :

ـ ياكم حملنا من جثث المغامرين الذين قصدوا الجزيرة دون أن يعرفوا طرق السير فيها، فتمزقهم السيوف المسحورة... حتى استطاعوا تجنبها وقصدوا إلى الكهف دمرهم حراسه السحريون، وغدت أجسادهم هناك نهبا للصقور والطيور الجارحة، لانستطيع حتى أن نصل إليها لندفنها بعيدا عن مخالب وحوش السماء.

قال لومبا فى صوت مرتعش:

ـ هذه صورة مخيفة لرحلتك يامقدم.

وقال الساحر الإفريقى مخاطبا الرئيس سوهى :

ـ أيها الرئيس سوهى ما لم يقدر عليه أحد، سيقدر عليه الزيبق:

قال الرئيس سوهى :

ـ لو نجح لتنازلت له عن مكانى فى رئاسة القبيلة، فكم حاولت ، وحاول أجدادى الوصول إلى كهف صندوق التواجيه دون جدوى .. ففى هذا الكهف عز القبيلة وثروتها..

قال الزيبق:

- وصندوق التواجيه؟

- لا حاجة لنا بالصندوق فهو سر الهلاك الذى يهدد أهل الجزيرة فى حياتهم وأمنهم، وهو سر الأطماع التى تحيط بنا دائما، فإن اختفى توقفت الأطماع، وحل بالجزيرة الأمان..

ثم ضحك، وقال:

- ثم هو لن يصل إلى الصندوق إلا إذا تمكن من إزالة السحر الذى يحرسه، ولو فعل هذا لاستقرت حياتنا، وزرعنا جزيرتنا، وكثرت الخيرات لأبناء القبيلة..

قال الزيبق:

- لن آخذ من جواهر الكهف إلا الهدايا للخليفة وللسلطانة، أماالباقى فهو لكم..

قال الرئيس سوهى وهو يضحك:

- هدايا.. خذ ماتشاء.. أنت لا تعرف قيمة ولا كمية ما ستجده فى الكهف... ومهما أخذت فلن تنقص من هذا الكنز أنملة..

قال الزيبق:

- اتفقنا إذن، تقلنى إلى ساحل الجزيرة، واترك باقى الأمر لى..

قال الرئيس سوهى:

- نحن لا نرتاد إلا ساحل الجزيرة، وجزئها الجنوبى البعيد،

ولن يصحبك أحد منا إلا إلى الساحل..

قال الساحر الإفريقي:

- وهذا كل ما يبغي.. فباقي المهمة موكولة له وحده..

التفت الزيبق إلى المقدم عمر العيار، وقال:

- أحسنت ياصديقي، وأنتظر أن أجدك على هذا الساحل في انتظاري عند عودتي..

قال المقدم عمر العيار:

- سأذهب مع لومبا ومافي إلى مدينة بحر الغزال، فما يجرى هناك يدخل في صميم مهمتي هنا، وسأكون في انتظارك هنا عند الساحل قبل غروب الشمس.

صافح الزيبق عمر العيار وصديقه لومبا ومافي، وشاهدهم وهم يعودون إلى الغابة، التي سرعان ما ابتعلتهم داخل أشجارها الكثيفة المتشابكة، وتنهد، وهو يلتفت إلى الرئيس سوهي، ويشير إلى القوارب، قائلا:

- هيا بنا أيها الرئيس سوهي..

أشار الرئيس سوهي إلى رجاله فعادوا إلى قواربهم، وقاد الزيبق قارب الرئيس، وعادت القوارب تسير ناحية الشاطىء الآخر، والزيبق يقف إلى جوار الرئيس سوهي يرقب أشعة الشمس الأولى تنعكس على صفحة الماء القاتم فيلمع، ويختلف لونه عن باقي مياه النهر، ويتحول إلى فضة وسط نحاس داكن، والموج الخفيف يعبث به فيحركه حركة رتيبة هادئة..

وصلت القوارب إلى الشاطيء الثانى فى صمت، كان الرجال ينظرون إلى الزيبق، ثم يتبادلون النظرات فى تساؤلهم وهم يغادرون القوارب، ويجرونها إلى الشاطيء، ويثبتونها إلى أوتاد بحبال ليفية طويلة..

وقال الرئيس سوهى وهو يقف مع الزيبق فوق الشاطيء:

ـ هنا نتركك نحن أيضا أيها المقدم، انظر..

وأشار بيده إلى طريق متعرج يدور حول المنطقة الممتدة أمامه حتى يصل إلى غابة كثيفة تقع فى جنوب الجزيرة، بينما امتدت الرمال إلى الشاطيء العريض لتنتهى بمنطقة صخرية قليلة الأشجار، تظل ترتفع إلى أن تصل إلى جبل شاهق فى نهايتها.. وقال الرئيس سوهى:

ـ هذا طريقنا الآمن إلى حيث تقيم القبيلة وسط الغابة، أما هذه المنطقة كلها فلا يسلكها سالك إلا ويموت.. لو مات فى المنطقة من الشاطيء إلى حافة الجبل وجدنا جثته، أما لو مات عند الجبل فستطل جثته هناك نهبا للصقور..

قال الزيبق، وهو يتأمل الأكمة والجبل:

ـ كل شيء هنا هاديء لاينبيء بخطر.

ضحك الرئيس سوهى فى مرارة وقال:

ـ سترى كل شيء بنفسك، ولكن لا تبدأ السير حتى نذهب نحن جميعا..

وقبل أن يجيبه الزيبق، أشار الرئيس سوهى إلى رجاله

ليتبعوه، ومضى الجميع فى صمت يسيرون فى الطريق المتعرج الدوار، حتى ابتلعتهم الغابة، والزيبق فى مكانة يتبعهم بعينيه فى صمت..

لم يكن على مرمى البصر ما يثير الفزع، كل شيء هادىء تحت أشعة شمس الصباح اللامعة، رمال ممتدة تتخللها أشجار قصيرة، وبضعة صخور تظل تعلو، وتعلو إلى أن تصل إلى حافة جبل ضخم يحجب باقى الجزيرة عن الأنظار.. ولكن الزيبق لم يخدع بكل هذا الهدوء فقد كانت كل غرائزه متوفزة حذرة، تنذره بالخطر القريب المروع... وتلفت حوله، فاسترعى بصره شجرة قريبة غليظة الفروع، طويلتها ، فاتجه إليها وأخرج بلطته، ومضى يجتث أحد الفروع من أصل التقائه بالشجرة، وكان الغصن صلبا، والبلطة لا تكاد تؤثر فيه، واستمر الزيبق يضرب أصل الغصن، والشمس بدأت تزداد سخونة، وأنفاسه بدأت تلهث، والعرق الساخن بدأ يملأ جسده كله، وخلع الزيبق من ملابسه ما يعوقه عن الحركة، ثم انقض من جديد على غصن الشجرة ببلطته... وطار جزء من اللحاء الغليظ، وظهر قلب الغصن الطرى، وبدأت البلطة تغوص فيه فى عمق، وسرعان ما أحدثت ضربات الزيبق آثارها الواضحة، ومال فى عمق، وسرعان ما أحدثت ضربات الزيبق آثارها الواضحة ، ومال الغصن عن موقعه، وانقض الزيبق بحماس شديد، وسرعان ما سقط الغصن تحت قدميه وقد انفصل عن

الشجرة... وأخذ الزيبق يجر الغصن بعيدا، كان ثقيلا وطويلا، وكان ضخما عند نقطة انفصاله عن الشجرة، ثم يدق تدريجيا إلى نهايته.. ومضى الزيبق ببلطته يشذبه من الفروع الصغيرة التي تملأه، حتى أحس أنه صالح للغرض الذى يريده من أجله..

ونظر الزيبق حوله فى حذر، حتى استقر بصره على نقطة سوداء فى وسط الجبل البعيد، ومضى يسير وأمامه الغصن الغليظ يسبقه بخطوات كثيرة، يدق به الأرض، ثم يسكن، ويعود ويرفعه من جديد، ثم يدق الأرض بعنف بطرفه الغليظ، ثم يمضي يرفعه من مكانه، ويضعه فى مكان جديد... وفجأة انفجر كل شيء.. صوت أزيز مخيف يملأ الجو كله، كأن ألف نحلة تطن حوله، وألف بؤرة تلمع فى وقت واحد تحت أشعة الشمس، وكان الضياء يغشى عينيه، ضياء منعكس على أسنة سيوف متحركة لامعة، مخيفة... وتمزق الغصن الغليظ، وكأنما براه سلاح حاد فإذا هو لا شيء، وكأن ما يمسكه ورقة شجر لا قيمة لها، وحدق الزيبق أمامه وقد غص حلقه، وجفت مواطن العرق فيه، ووقفت عيناه فى محجريهما تحملقان فى ذعر .. وهمس لنفسه..

ـ الجن والشياطين..

هذا سحر مخيف، وكل من رآه أو عاناه يؤمن بقوة هذا السحر وعظمته .. ومضى يجر باقى الغصن في يده وقد تمزق

كله مزقا مخيفة، لو كان هو مكان هذا الغصن، لغدا حطاما مبددا، تذروه الرياح. وأحس أنه يولد من جديد... وقف مكانه ، والعرق البارد ينداح من كل جزء من جسده...وأمامه ألف سيف، يضرب في ألف اتجاه، والشمس تلمع على السيوف الضاربة، ولا حياة أبدا وسط هذه السيوف الضاربة... ومد الزيبق باقي الغصن إلى حيث بقي جذره المحطم وظل يحركه، وسحبه في هدوء وصمت، وارتفع باقي الجذر تدريجيا، وانساق وراء سحب الزيبق للغصن، ثم خرج من مكانه في هدوء.. وفجأة توقفت كل السيوف، وصمت الصوت الغريب، وعاد الهدوء يملأ المكان من جديد.

وتمالك الزيبق نفسه وهو يتذكر أحاديث الشيخ زكي البتوكي، هناك سر، وراء كل شيء ، لا سحر هناك، فقط هناك علم وصناعة، ورفع بلطته ومضى يضرب الأرض حيث وقف، يضرب بحذر وهدوء .. إلى اليمين... هذا هو ما اختاره، وإلى حيث اختار أخذ يضرب بالبلطة وكأنها فأس، خطوة خطوة، وفجأة ضربت البلطة حديدا، ارتفع صوت التقائه بحد البلطة، فتوقف الزيبق، ومضى يزيل حول الحديد، جنزير مخيف من الحديد، ولكنه هنا يلتقي بجنزير آخر يمتد إلى شمال ، إلى حيث الجبل... وتوقف الزيبق وهو يتأمل أمامه.. إنه هنا أمام السر العظيم..

- ٣٣ -

الكـــنز

بأصابع حذرة وحساسة، مضى الزيبق يتحسس نقطة التقاء الجنزيرين الحديدين، وارتطمت أصابعه بدواليب ولوالب من الصلب تحيط بنقطة الالتقاء، هنا مكمن السر، وعصب التحكم فى حركة السيوف... وأخذ ذهنه يعمل فى سرعة وهو يستعيد توجيهات الشيخ زكى البتوكى ونصائحه... وبهدوء وعزم رفع البلطة، وحدث صوت عال، وهو ينهال ببلطته بكل قوة لتحطم السيور الجلدية والجنازير، والعقد المركبة، وتمزق الدواليب واللوالب، وصمت كل شىء حوله بعد أن

زالت أصداء أصوات الحديد الممزق.. ورفع رأسه يتلفت حوله.. لا شيء، سكون كامل ولا حركة، السيوف اختفت وكأنها ما كانت ، والسلام يعم المكان من جديد، ولم يبق من آثار ما حدث إلا الغصن الغليظ المحطم، وكأنما براه سلاح مخيف .. وإلا أنفاس الزيبق اللاهثة التي تشي عن اضطرابه وقلقه ..كان يعلم أنه أتلف جزءا من الحركة الذاتية التي تتم ميكانيكا للسيوف عند وصول جسم ثقيل إلى مكان معين... ولكن هل هذا هوالمركز الرئيسي أم هو مركز فرعي توجد غيره مراكز مماثلة؟ وتمالك الزيبق نفسه، فهذا وقت التفكير الهادىء والسلوك المنظم .. ثم مضى يحفر في خط مستقيم، في حذر شديد وقد ملأ العرق جبهته وأحس بطعم الملح في فمه، إلى أن اصطدم حد البلطة بشيء معدني، وكان لصوت الاصطدام رنة واضحة... وتلفت حوله فوجد صخرة ضخمة، فذهب إليها يحملها ووقف في مكان اصطدام البلطة بالصوت المعدني وقدر نفس المسافة التي تفصله عن الحفرة الأولى، ورمى بالصخرة بكل قوته... وفجأة انبعث الصوت المميز، وتمزق الهواء بلفحات السيوف الضاربة في عنف.. وتمزقت الصخرة تحت وقع السيوف كل تمزق، ووقف الزيبق مذهولا ينظر أمامه وهو لا يكاد يصدق عينيه... كانت السيوف تتحرك أمامه حتى حافة الجبل، ولكن الصف الذي يقف فيه كان قد سكن تماما ولم يعد يتحرك أبدا. إذن فليس هناك مجمع عام، وإنما لكل

صف مركز حيوى مركزى لابد من القضاء عليه حتى تسكن السيوف فيه... وخلع قميصه ومضى يجفف العرق من جبهته وصدره ووجهه، وهو يحدد المكان الذى يتحكم فى الصف التالى طبقا لتجربته السابقة، وعاد إلى الوراء يبحث عن صخرة جديدة مناسبة، وحملها ، ووقف عند البؤرة التى حطمها ثم رمى الصخرة الجديدة، فتمزقت تحت السيوف، ومضى يحفر من جديد فى بطء وروية إلى أن عثر على المركز الثالث المليء باللوالب والسيور والجنازير، ورفع بلطته وهوى بها، وتوقف صف جديد من السيوف ..وابتسم فى ارتياح وقد حفظ المسافات، وعرف الأماكن الحساسة فى التقاء السيور والجنازير والدواليب المحركة، وأصبحت حركته أسرع، وهو يحفر من صف إلى صف، ومن مجموعة إلى مجموعة، وأصبحت ضرباته أكثر ثقة، وهو ينهال بعنف على مراكز العصب فى كل صف ببلطته فتتحطم فى صوت أليف إلى أذنه، ويتوقف صف من السيوف عن الحركة، وراء صف... وهو يتقدم وسط أشعة الشمس الحارقة حاملا بلطته، حاسبا المسافات والأماكن، محددا هدفه، مراعيا الدقة والصواب، فلا مجال هنا للخطأ، وإلا فالموت هو النتيجة المحتومة القاسية.. واشتدت أشعة الشمس قسوة، واشتد وهجها المنعكس على السيوف لمعانا، ولكنها كانت تختفى ، وتقل عند سكون كل صف جديد من السيوف. وأحس الزيبق بالزهو، هاهو يقهر هذا السحر المخيف

الذى سيطر أجيالا وأجيالا على قدر الجزيرة وأصحابها... كان علم الشيخ زكى البتوكى صحيحا، وكانت استنتاجاته وتوقعاته كلها صائبة... هذا عمل العلم، وبالفهم والمعرفة يبطل، ولا سحر هناك... إلا وهم الجهلاء، وأصحاب المعرفة السطحية. وفجأة توقف، كان يحس فى أعماقه أن هناك من يراقبه، من يعد عليه حركاته وخطواته، من يشاهد كل ما يفعل.. وتوقف، والبلطة في يده، والعرق في عينيه، والجهد يهزم عضلاته... أى قوى شريرة هذه التى تحيط به.. كان يعرف أن ما يواجهه ليس قوة خارقة، وليس سحرا... ومع هذا كان يحس أنه محاصر، كأن عيونا مجهولة ترقبه، وكأن أنفاسا شريرة تتنفس فوق كاهله... وعاد يتلفت حوله من جديد... ولكنه لم ير شيئا غريبا على امتداد بصره... وهز كتفيه كأنما يزيح عنه هذا الإحساس، ومضى ينقض من جديد على مكان الحركة يدمرها، والسيوف تتهاوى أمامه إلى أن رفع رأسه ليجد نفسه ينظر فى فتحة كهف كبير تلمع صخوره لانعكاس أشعة الشمس عليها، ولا سيوف هناك، ودق قلبه فى عنف، وفجأة قفز فى الهواء صارخا وهو يضحك، لقد فعلها، لقد هزم السيوف القاتلة، وانفتح أمامه الطريق إلى الكهف الملىء بالكنوز والجواهر، وحيث يوجد مطلبه الذى عانى من أجل الوصول إليه الكثير... صندوق التواجيه... وأفاق من موجة الفرح الجارفة التى احتوته على صرخات آدمية من ناحية البحر،

وحين التفت إلى ناحية الصوت وقف مكانه مذهولا... فقد رست على الشاطيء مركب كبيرة، وقفت في مقدمتها دليلة المحتالة وهي في زى الدرويش الصالح، بينما اندفع من المركب مونجو ورجاله جميعا وهم يلوحون بحرابهم، وصيحاتهم تصم الآذان ، وصاحت دليلة فيهم:

- هاهو الزيبق أمامكم، مزقوه ، فلم يعد لنا به حاجة بعد أن فتح الطريق إلى صندوق التواجيه وكهف الكنوز..

وقف مونجو ينظر إليها لحظات، ثم لوح بحربته وهو يصيح:

- الكنز أولا، أما الزيبق فأين سيذهب ، سنعود إليه لنأخذه إلى الملك سلطان، وإلى السلطان قاسم فسيدفعان فيه الكثير، وقاسم يريده حيا ليعذبه بنفسه..

وضحك ضحكة وحشية وهو يصيح في رجاله:

- إلى الكنز ، لن يسبقنا إليه أحد..

واندفع الجميع وراءه إلى الكهف، والزيبق ينظر إليه في ذهول، صدقت حاسة الخطر التي نبهته إلى وجود شيء غريب، وتحول ينظر إليهم... وهو يحس أن أنفاسهم تتنفس فوق كتفيه، ولكنهم جروا وعبروا... كان يقف متأهبا والبلطة في يده، يتوقع ضربة حربة في أى حين... ولكن أحدا لم يلتفت إليه، كانوا يجرون صارخين وهم يلوحون بحرابهم نحو مدخل الكهف، وهو يقف متأهبا. والكل يعبره إلى فوهة الكهف... كان يرقب في حذر ليستطيع تجنب أى طعنة توجه إليه. ولكن

أحدا لم يوجه حربته نحوه، بل كأن أحدا لا يهمه وجوده فى شيء، فالكل يتسابقون فى سرعة الوصول إلى الكهف، وقد تحول الوصول إلى الكهف هدفا لهم لا يرون غيره.. وكان مدخل الكهف عريضا وطويلا، تحده الجدران الصلبة من الناحيتين، بينما لا ترتفع صخور سقفه كثيرا عن الأرض، وما أن غدا الجميع داخل هذه الفوهة الواسعة حتى دوى صوت كالرعد، ووجف قلب الزيبق، وهو يرى ذاهلا السيوف الحادة تبرز من جدران الممر الصخرى، ومن سقفه ومن أرضيته لتمزق الجمع المحتشد هناك كل ممزق...

وطارت رءوس ، وتمزقت أبدان، وارتفعت صرخات تمتزج فيها الدهشة بالألم باليأس.. ثم سكت كل شيء فجأة كما بدأ.. توقف الصوت الراعد. واختفت السيوف إلى أماكنها المجهولة ولم يبق فى مدخل الكهف إلا دماء وأشلاء ومزق، وبقايا أعضاء آدمية كانت منذ ثوان تضج بالحركة والجشع والحياة .. جف حلق الزيبق، واضطربت أنفاسه، وشلت حركة جسده كله، ود لو أن الزمن استرجع هذه الثوانى القليلة، وأن الرجال لم يندفعوا خلف مونجو ليلقوا هذا المصير المخيف البشع، ود لو كان يحلم ، وأن ما حدث ليس حقيقة... ولكن الأشلاء التى مازالت تهتز فى ارتجاف بشع، والدماء التى لطخت جدران المدخل وأرضه وسقفه لم تترك أى شك فى أن ما حدث حقيقة، وأنه شاهد لتوه مجزرة بشعة ارتكبها مجهول مات منذ

زمن، ضد كل من يجرؤ على المساس بحرمة كنزه وأسراره... وأفاق الزيبق من ذهوله على صوت مفاجيء من خلفه وحركة عالية، فالتفت ليجد السفينة قد فردت قلوعها كلها وأخذت تنساب مبتعدة عن الشاطيء وكأنها فى فزع يفوق فزعه هو، وكانت دليلة قد اختفت من على ظهر السفينة ثم غابت عن نظره، وهو واقف مكانه وكأنما فقد القدرة على الحركة.. هاهى دليلة تهرب من جديد بعد أن دبرت فى هلاكه، فلاشك أنها عرفت أنه غادر المدينة المرصودة إلى الجزيرة المسحورة، ولاشك أنها أحضرت مونجو ورجاله لأسره أو قتله، ولكن طمع مونجو في استلاب الكهف، ورغبة قاسم فى الثأر المؤلم البطيء من الزيبق، أفسدا خطتها... وهاهم الرجال قد تمزقوا، وهاهى تهرب في ذعر، وكأنما تخشى أن تمتد هذه السيوف لتطبق على السفينة، وتحطمها مزقا، كما فعلت بالرجال... ولكن كيف عرفت؟ وممن؟... قفز إلى ذهنه وجه الوزير مروان... وابتسامته ذات الألف وجه... ولكنه هز كتفيه، وهمس لنفسه:

ـ كل شيء بأوان، وليس الآن هو أوان الشك، الآن هو أوان العمل..

وابتسم لنفسه فى مرارة، وعاد يهمس:

ـ الآن أوان التركيز، وإلا أصبحت مزقا كمونجو ورجاله... وأحس بالقشعريرة تهز جسده كله، فتمالك نفسه، ونظر

حوله ، وأحس بالدهشة تملأه، الشمس ترسل أشعتها ساطعة منيرة، والبحر يرسل فيض رذاذه منعشا لطيفا، والصحراء هي، هي، والكهف وفوهته المخيفة هي، هي... فمن أين يبدأ... وأرغم نفسه أن ينظر إلى الكهف ومدخله، مجموعة المزق والتعاسات التي تملأ المكان، وتمالك نفسه وجعل يتفحص مدخل الكهف في هدوء عند ناحية كانت صخرة ناتئة بعض الشيء، وحين تفحصها الزيبق في عناية، أحس أنها ليست من التكوين الصخرى الأساسى للكهف... ومد أصابعه يتحسس الصخرة في دقة، وأحس أنه يستطيع أن يحدد أبعادها وأحس أيضا أن هذه الصخرة وضعت هنا مؤخرا، أضيفت إلى تكوين حائط الكهف، وليست أساسا فيه وفي هدوء مضى يتحسس هذا الجزء الهام من تكوين حائط الكهف..

وسرعان ما أدرك حدوده، وضح أمامه أنه شيء مضاف، غطته السنون حقا، ولكنه ظل شيئا مميزا وواضحا، رغم تراكمات الأمطار والعواصف والأتربة، وأخرج بلطته، وأخذ يحدد في ضربات هادئة حدود هذه الصخرة المميزة، وحجمها وامتدادها ... وفي هدوء رفع البلطة، ومضى يضرب حول حدود الصخرة، حتى تأكد أنها بالفعل شيء بارز ومميز، وليست من التكوين العادى لصخور الكهف... واستطاع أن يحدد أبعادها تماما... وفي هدوء وحذر مضى يزيل ما يلصقها بحائط الكهف، من وضعها أجاد الصنعة، أسمنت، وكثير من

التمويه، وأزال الزيبق التمويهات، حتى لم يعد أمامه إلا الأسمنت، ومضى يزيله فى رفق وتؤدة وحين انتهى من إزالة وصلات الأسمنت، ضرب بالبلطة حول الصخرة، حتى تأكد أنها انفصلت عن الجدار الصخرى، فأخذ يدفع بحد بلطته هنا وهناك، حتى غدت الصخرة بلا رابط يربطها بالجدار... وفى هدوء جذبها إليه، وانفصلت عن أصل الجدار... وشدها برفق .. ثم انتزعها من مكانها .. ووضعها إلى جوار الجدار فى هدوء .. وأمامه ـ بعد أن أزال الصخرة ـ عالم من الدواليب ، والأسلاك ، والجنازير ، والتراكيب المعجزة. ... وتوقفت أصابعه تماما .. وأحس بالعرق ينداح على جبهته، بل وفى جسده كله... كان يعرف أن هذا صلب التحكم فى مدخل الكهف.. حيث مات مونجو ورجاله ميتة لا يرضاها أحد، ولا يحبها أحد.. ونظر إلى المدخل وهو يرغم نفسه إرغاما على النظر... كان مونجو ورجاله فى منتصف المدخل حين انقضت عليهم السيوف ... لم يصل أحد إلى الطرف الآخر من الكهف فعندما تصل الفريسة إلى نقطة معينة فى المدخل تتحرك هذه الدواليب والجنازير، وتبرز السيوف القاتلة لتفتك بأى كان مهما كان حجمه، وبأى معتد على حرمة الكهف أيا كان عدده... ومضى يتلفت حوله ليبحث عن عدة صخور كبيرة تفى بغرضه، وحين وجدها ، مضى ينقلها واحدا إثر أخرى إلى أمام فوهة الكهف... ثم قدر المسافة ورمى الصخرة بكل قوته، ولم يحدث شيء، كانت

الصخرة ثقيلة فلم تصل إلى منتصف المدخل، فعاد يحمل صخرة أخرى ويرميها إلى أبعد ، وفجأة ارتفع الصوت المرعب من جديد وبرزت السيوف تمزق الصخرة من أعلى ومن أسفل ومن الجانبين... وكان الزيبق يراقب ما فى الفتحة من أجهزة، ويراها وهى تتحرك والسيور تجرى إلى نهايتها، ثم تتوقف ، ثم تعود لترجع إلى مكانها بسرعة والسيوف تختفى من الكهف تماما... وفى عناية كاملة رفع الزيبق بلطته وهوى على أول السيور فتمزق السير تحت ضربته، ثم اتجه إلى السير الثانى ومزقه ببلطته، وكذلك فعل بالسيرين الأخيرين... ووقف يلهث ويجفف عرقه، ثم انهال بالبلطة على الدواليب والجنازير ليمزقها واحدة إثر الأخرى، إلى أن غدت المنطقة المجوفة أمامه مجموعة من السيور الممزقة، والدواليب المحطمة، والجنازير المقطعة... وهدر صوت من جوف الصخرة كأنه تنهيدة عميقة حارة... ثم سكت كل شيء..

تلفت الزيبق حوله، كان الساحل أمامه ساكنا إلا من نسمة هواء، وكانت الشمس ساطعة، وقد بدأت حرارتها تشتد. هو وحده الذى كان يرتجف من أعماقه، وتمور في داخله أصوات متعارضة صاخبة... كان واثقا أنه حطم مركز الحركة، وقضى على السحر المزعوم... ولكن مصرع مونجو ورجاله كان ماثلا أمامه يمنعه من الإقدام على الخطوة الأخيرة، فلو دخل إلى فوهة الكهف، وكان مخطئا فى تقديره فلا عودة له، بل سيتمزق

جسده شر ممزق .. ومضى يجمع صخورا جديدة، ثم يرميها إلى فوهة الكهف، ووقعت واحدة مكان الصخرة الممزقة، ولم يحدث شيء، وواحدة أمامها ولم يحدث شيء، وواحدة خلفها ، ولم يحدث شيء... وهدأت أنفاس الزيبق، واستل سيفه، ومضى حذرا يدخل إلى فوهة الكهف، كان يعرف أنه يسير بقدميه إلى موت مخيف... ولكنه كان يثق فى كلمات الشيخ زكى البتوكى التى يذكرها تماما... قال له:

-هى أشياء مصنوعة بالحكمة والمعرفة، تعتمد على العلم والميكانيكا، وقد وجدنا مثلها كثيرا فى المقابر المصرية القديمة فى مصر، وتحكى لنا الكتب القديمة أنها وجدت فى مقابر التبابعة، والأمم البائدة كعاد وغيرها فى الجزيرة العربية... أرصاد مصنوعة بالمعرفة، تتحرك على لوالب عند نقطة معينة حين يقع على هذه النقطة ثقل، فتخرج الثعابين والأفاعى وأسود تضج، وتخرج النار، وتنفث السموم... وتقتل كل من يعتدى على حرمة المقابر، أو يريد نهب الكنوز .. لو عرفت سر ما فى الجزيرة المسحورة، لقضيت على شره إلى الأبد...

كانت الكلمات الهادئة تدوى فى أذنه، وهو يتحرك داخل الكهف فى حذر، الآن وصل إلى حيث دماء رجال مونجو وأشلائهم، لم ينظر إلى الأرض أبدا، وإنما مضى وسيفه فى يده يتقدم إلى أمام... تحت قدمه الصخرة التى فتتتها السيوف... الآن إذن... والآن نجا.... وتوترت عضلاته، وهو يعبر المكان

فى توفز... ومر... نعم مر.. نجا.. مضى يجرى ما تبقى من فوهة الكهف وهو يلهث، ويضحك ويلوح بسيفه... لم يحدث شيء.. عبر فوهة الكهف، ولم تظهر السيوف القاتلة... وفجأة وجد نفسه خارج الممر القاتل، وأمام نور عنيف يغشى العيون.. وأغلق عينيه، وانحنى إلى الأرض، يلتقط أنفاسه، ويهدىء ثائرة قلبه السريع الضربات... ومرت لحظات .. أحس فيها أن الحياة تعود إلى جسده، وأنه ولد من جديد... كانت الدموع فى عينيه، وكانت كلمات الشكر والحمد لله عند شفتيه، وكان قلبه يخفق فى ابتهال... إنها إرادة الله أن ينجو من هذه المهلكة المخيفة، وهى إرادة الله أن يزيل هذا الخطر الجاثم المخيف الذى يحطم كل إنسان... ما هو إلا أداة فى يد القدرة... وأحس بصغاره، وأنه مدين للقدرة العليا التى لا تدانيها قدرة، وأنه مسخر لأمر يريده سبحانه وتعالى، وآن أوان حدوثه... وأنه كان أداة هذا الحدث..

وحين فتح عينيه، بهره الضوء المخيف، فعاد يغلقهما من جديد - كأن سيوفا من ضوء قد غزت عينيه حتى كادت تغشى رؤيتهما... لا يدرى لماذا أحس أنه أمام حدث عظيم... وتحامل وهو مغمض العينين، ثم استند إلى سيفه بيد، ورفع يده الأخرى عن عينيه، ثم فتحهما فى حذر... وعاد يغلقهما بسرعة... هذا ضياء لا يقدر عليه أحد - كأن ألف فوهة نور تندفع لترسل أشعة صارخة إلى العينين فتغشيهما، وتمنعهما

من الرؤية..

وحين فتح الزيبق عينيه أخيرا طالعه منظر لا ينسى أبدا.... مئات بل آلاف الجواهر، مرصوصة في كل مكان، وفي صدر المكان تمثال نحاسي للحكيم اليوناني... القلنسوة والشال والملبس ، والملامح، كان يعرفها من مصر حيث عاش اليونان، وحيث تركوا تماثيلهم في الصعيد القريب، وفي المنيا وبني سويف لم يكن عنده شك أن هذا التمثال اليوناني جاء هنا عبر الزمان والمكان، ولكنه كان هنا من زمن طويل، وجمع جواهره وثروته وعلمه، ودفنها في هذا الكهف... وأحكم حراسته بعلمه ومعرفته ،ولكنه مات... واندثر وكل حي لابد أن يموت ويندثر، ولكن الحياة لابد أن تستمر، لاتقف لإرادة رجل، ولا لعلمه إلا إلى حين... وقد حان الحين...

كان التمثال يمد يديه أمامه، وفوق اليدين وسادة من حرير أحمر، مطعمة بالجواهر، كل جوهرة تفوق جوهرة الرئيس سوهى عشرات المرات... وكلها تلمع في ضوء الشمس في انعكاس رائع جميل، وفوق الوسادة استقر صندوق التواجيه.. مطعما بالجواهر واليواقيت والمرجان.. وأحس الزيبق أنه يحلم لا يمكن أن يكون في العالم مكان كهذا.. حول التمثال أكوام وأكوام من الجواهر واليواقيت والزمرد واللؤلؤ وعناقيد الذهب.

والتمثال صامد أصم، وجهه لا يشي بمعنى ، وهو يحمل

الوسادة وفوقها صندوق التواجيه... هذه الثروة الخيفة استخرجها من باطن هذه الأرض، وأراد أن يستأثر بها ، فصنع أعجايب لحمايتها ولكنها ينبغى أن تعود إلى أهلها...

وتقدم الزيبق إلى صدر التمثال، وحمل صندوق التواجيه فوق وسادته المخملية المحلاة بالجواهر، ووضعها إلى جواره على الأرض، ثم أخرج جرندان من جرنداناته، وأخذ يملأ كل جرندان بالجواهر واليواقيت والزمرد والذهب، واحدة للخليفة، والأخرى للسلطانة زينب... ... كان ينتقى فى هدوء، وقد هدأت نفسه، وأحس أنه يتحرك فى عالم من الحكمة والصواب.

-٣٤-

فى نصف نهار

حين خـــرج الزيبق يحـــمل صندوق التواجيه بين ساعديه. وجرنداناته المليئة بالجواهر فوق ظهره، فوجىء بالمراكب الصغيرة تملأ الساحل الرملى أمامه... وفوجىء بالساحل نفسه وقد امتلأ بالرجال، وفى مقدمتهم الرئيس سوهى يلوح برمحه، ويصيح، فيصيح لصياحه كل الرجال، وهم يلوحون برماحهم وسيوفهم... وضع الزيبق حمله فوق الأرض، ثم رفع يده يحيى القادمين، واندفع الجميع نحوه، وفى مقدمتهم الرئيس سوهى، الذى غرس رمحه أمامه وهو يقول:

ـ صدقنا نبوءة الساحر الإفريقى، وجاء رجل من الشمال، هزم الشر، وفتح الطريق إلى الكنز.

قال الزيبق، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

ـ انتهت الأسطورة، والطريق إلى الكنز مفتوح..

صاح الرئيس سوهى، وهو يلوح بحربته:

ـ الفضل لك يامقدم... لقد تابعنا معركتك كلها، ولم نكن نصدق أنك ستنجو ،ولكنك ـ كما قال الساحر الإفريقى ـ محروس بعناية الله.. والآن ماذا تريد منا.

قال الزيبق:

ـ الكنز ملك لكم فأنتم أصحابه.

قال سوهى وهو يضحك:

ـ ماكنت أتوقع منك إلا هذا... وسأضع رجالى لحمايته..

قال الزيبق، وهو يجيل النظر فى الوجوه اللامعة بالسعادة ومعانى الحب والامتنان.

ـ الكنز لكم ، لم آخذ إلا ما جئت من أجله، أى صندوق التواجيه وهدية للخليفة وأخرى للسلطانة زينب، سلطانة المدينة المرصودة. قال الرئيس سوهى:

ـ كل ما أخذته حلال لك، فصندوق التواجيه مجرد رمز لحراسة الكنز، أما ما تحمله معك فهو لا يمثل شيئا بالنسبة للكنز.. ويكفى أنك قضيت على السحر اللعين، لقد صدق الساحر الإفريقى الذى أخطرنا أن أوان ظهور المخلص قد آن...

وكنا جميعا فى انتظار الرجل الآتى من الشمال يحمل سيفا وبلطة... وتخضع له النار، وتسير فى ركابه قوى البرق والرعد... وعرفناك منذ جئت فكنا فى خدمتك... ونحن فى خدمتك إلى النهاية... ولو شئت لزحفنا معك على المدينة المرصودة، لننصبك سلطانا عليها..

ضحك الزيبق وهو يقول:

ـ ألم تعرف بعد أنه لا أطماع لى فى بلادكم... لقد جئت لهدف، وقد حصلت على ما جئت من أجله، وآن أوان العودة..

ضحك الرئيس سوهى ضحكة عريضة، وهو يقول:

ـ تحكى الأسطورة التى يتناقلها أبناء القبيلة جيلا وراء جيل، أن الرجل الآتى من الشمال لن يرحل إلا بعد أن يمحق الشر فى بلادنا ويقضى على الأفاعى، ويسود السلام..

قال الزيبق:

ـ لعلك تتحدث عن رجل آخر.. أما هذا الرجل فهو يريد العودة إلى الشاطىء الآخر..

قال الرئيس سوهى:

ـ هيا بنا، القوارب جاهزة، والرجال مستعدون..

ووسط ضجيج الرجال وغنائهم ورقصهم وضحكاتهم الطروب صحب الرئيس سوهى على الزيبق إلى قاربه الذى اندفع متجها إلى الشاطىء الآخر، وحوله ووراءه عشرات القوارب الصغيرة التى تضج بالطبول والغناء..

كان عمر العيار فى انتظاره كما وعد على الشاطىء الآخر..

كل رجال قبيلة البونت اندفعوا نحو الساحر الإفريقى يعانقونه، ويرقصون حوله فى طرب وسعادة، وكل منهم يحاول أن يسبق الآخر ليحكى له على ما فعله الزيبق فى الجزيرة المسحورة، وكل منهم يشير إلى صندوق التواجيه الذى يحمله الزيبق إلى أرض الشاطىء..

واندفع الرئيس سوهى يشق طريقه بين رجاله المحتشدين ليعانق الساحر الإفريقى، وهو يقول:

- لقد صدق ما قلته، وتحققت الأسطورة وجاءنا بطل الشمال فأبطل السحر، وغدت الجزيرة آمنة.. نحن مدينون لك.

قال الساحر الإفريقى وهو يخلص نفسه من عناق الرئيس سوهى فى رفق:

- لا وقت لهذا، فالخطر ماثل وهو يشملكم كما يشمل المدينة المرصودة.

وجم الرئيس سوهى، وتراخت ذراعاه، بينما تقدم الزيبق نحو عمر العيار وقال:

- عندى من الأخبار ما لا يسر... ماهى..؟

قال عمر العيار:

- كل ما لا يسر.. كأنهم انتهزوا فرصة ذهابك إلى الجزيرة المسحورة ليفعلوا كل شىء.. وربما ظنوا أنك لن تعود منها حيا أبدا...

ساد الوجوم كل رجال القبيلة... وشحب وجه الرئيس سوهى، بينما سأل الزيبق عمر العياز قائلا:

- إنهم يتحركون بسرعة منذ إنقاذ السلطان قاسم، وحرق المدينة المرصودة... أليس كذلك؟

- كنت في مدينة بحر الغزال عندما عادت دليلة هذا الصباح إليها في زى الدرويش الصالح، كانت كأنها ضيف، اجتمعت بالملك سلطان، وسرعان ما قبض الجواسيس على لومبا ومافى وهربت أنا بالصدفة المحضة.

قال الزيبق فى عصبية:

- دليلة عادت على السفينة ذات الأشرعة بعد أن تعقبتنى إلى الجزيرة المسحورة، ودفعت مونجو ورجاله ورائى، ولكنهم تركونى واندفعوا إلى الكهف وقد ظنوا الطريق آمنا بعد أن أبطلت فعل السيوف فى أرض الجزيرة، ولكنهم تمزقوا عند المدخل، وشاهدت دليلة هذا فاندفعت هاربة بسفينتها من الجزيرة.

قال عمر العياز:

- ظنت أن كل شيء قد ضاع، وأنك لن تستطيع أن تحل لغز الجزيرة المسحورة، وأنك أيضا قد ضعت. ومن هنا بدأت حركتها السريعة والحاسمة.

قال الزيبق:

- وإذن..

قال عمر العيار:

ـ علينا أن نسرع وإلا فكل شيء قد ضاع...

التفت الزيبق إلى الرئيس سوهى، وقال:

ـ هذه الذخائر أتركها لك، وحين أطلبها أرجو أن أجدها.

ودفع إلى الرئيس سوهى بصندوق التواجيه فوق الوسادة المرصعة والجراندانين المليئين بالجواهر... ثم قال:

ـ لا أستطيع أن أوزع اهتمامى بين هذه الذخائر، وبين ما هو مطلوب منى الآن... فهل أنت معى أيها الرئيس سوهى؟

قال الرئيس سوهى، وهو يحمل صندوق التواجيه والجراندانين:

ـ هم فى الحفظ والصون، وحياتى فداء لهما... ونحن معك فى أى طريق توجهت إليه أيها الفارس.

قال الزيبق:

ـ سنسرع لنكون فى خدمة السلطانة زينب:

كانوا يتقدمون فى حذر متجهين نحو المدينة المرصودة، حين توقفوا فجأة، إذ أسرع أحد الطلائع الذين أمرهم الرئيس سوهى أن يتقدموهم عائدا فى عجلة واضطراب، وحين وصل إلى الرئيس سوهى قال فى انفعال:

ـ التقدم مستحيل أيها الرئيس، من المدينة وحتى هنا عساكر وخيام واستحكامات مخيفة، ولو تقدمنا أكثر من هذا لاكتشفوا أمرنا وقضوا علينا، فأظن أن كل رجال مدينة بحر

الغـزال هنا بأسلحـتـهم وعـدتهم، ومـعـهم كل أحـلافـهم وأنصارهم..

قال الرئيس سوهي:

ـ متى حدث هذا وكيف؟

قال الساحر الإفريقي:

ـ يكفي دليلة نصف نهار... لابد أن كل الحشد كان جاهزا أعده السلطان لتنفيذ خطته منذ زمن... وكانت إشارة دليلة له بالبدء كافية لإنجاز مثل هذا التحرك الضخم، وكافية أيضا لتطويق المدينة تماما.

قال الزيبق:

ـ لينتظر الجميع هنا، ولنتقدم أنا والرئيس سوهي والساحر الإفريقي، وهذا الدليل، إلى حيث رأى جيوش الملك سلطان لنرى بأنفسنا، ثم نتشاور في أمرنا...

لم يجبه أحد، وإنماأشار الرئيس سوهي بيده، فأخذ كل رجاله مخابئهم وراء الأشجار، وتقدم هو وعمر العيار والدليل مع الزيبق في صمت إلى أمام..

قبل أن يصل الزيبق ومن معه إلى حيث يقودهم الدليل، وصلت إلى آذانهم أصوات الجنود والحركة، وصهيل الخيل في المعسكر وفي داخله، وفي نفس الوقت وصلت إلى أنوفهم روائح الأخشاب والأعشاب المشتعلة، ممتزجة بروائح الطعام المطهو، واللحم المشوي... وقال الرئيس سوهي وهو يقترب

من حافة رابية عالية صحبه إليها الدليل :
ـ هو معسكر ضخم لم أشهد مثله فى حياتى . . .
قال عمر العيار، وهو ينظر محاذرا إلى جواره إلى المنظر الذى يطالعهم من أسفل :
ـ صدقت ، ولكننا هنا لن نعرف شيئا عنه، فهو مجرد معكسر . . قال الزيبق وهو يحاذيهما فى النظر إلى المعسكر :
ـ سأتسلل إليه لأعرف كل شيء عنه . .
قال عمر العيار فى حزم :
ـ لن تصلح أنت لهذه المهمة ، سأتسلل أنا إلى المعسكر ، فلونى سيساعدنى على الاختفاء وسط الجنود .
قال الرئيس سوهى :
ـ بل أنا الأولى أن أقوم بهذه المهمة ، فأنا أعرفهم جميعا ، أو على الأقل أعرف قادتهم ، وسأتمكن من التسلل وسطهم دون أن ألفت نظرا . .
صمت عمر العيار لحظات ، ثم قال :
ـ سأصحبك ، وسنعرف كل شيء . . فقط اترك جوهرتك هنا مع تابعك حتى لا تلفت إليك الأنظار .
قال الزيبق :
ـ وإذن . . .
قال عمر العيار فى حزم :
ـ تبقى هنا . . هذه مهمة لا مكان لك فيها . .

قال الزيبق :

ـ الآن ، ربما . . . ولكنى سأستعد ليكون لى فيها مكان بعد أن تنتهوا من الاستكشاف . .

وتسلل عمر العيار ووراءه الرئيس سوهى فى صمت ناحية المعسكر ، بينما قال الزيبق للرجل الباقى :

ـ ابق هنا فى انتظارهم حتى أعود إليك .

وانسل الزيبق عائدا إلى حيث ترك جرنداناته وسط الرجال ، فحملها وانزوى فى ناحية ، ومضى يخرج أدوات التنكر ، فصبغ وجهه باللون الأسود ، وارتدى شعراً أكرتاً ، ووضع قطعة مطاط فى فمه فإذا بشفتيه مدليتين ، وإذا بوجنتيه منتفختين ، وإذا بعلامات عند صدغيه وعند ذقنه كأنها آثار وشم أزرق قاتم قديم ، وفوجىء رجال الرئيس سوهى بالزيبق يعود إليهم ، على هذه الهيئة الغريبة ، وجعلوا يتبادلون النظرات بينهم فى دهشة ، فهو قد غدا واحدا منهم لولا ملابسه التى تميزه . . وقال الزيبق :

ـ أريد ملابس كملابسكم . . .

وضحك أحدهم وقال :

ـ لو ارتديت مثلنا ما عرفناك وسطنا . .

ثم عاد يضحك وهو يقول :

ـ أحضر لك هذه الملابس حالا .

ومضى الرجل إلى حيث وضع جرابه ، فأخرج طاقما كاملا

من الملابس ، وعاد بها إلى الزيبق . . . الذى نظر إليه فى دهشة ، فقال الرجل :

- صدقت فى هذا ، ولكنى أحسب أن هناك ملعوبا من ملاعيبك . .

- قال الرئيس سوهى إننا معك فى كل حلك وترحالك ، وعرفت وعرفنا جميعا أنك ستنتصر على الشر ، فهذا هو تفسير الأسطورة القديمة ، فحملت معى ما يعيننى على الرحلة الدائمة معك . .

ابتسم الزيبق ، وتقبل الملابس فى ترحيب ، وهو يقول :

- انتظرونى هنا ، فهذا يومنا مع أعدائنا . .

فوجىء الزيبق بهتاف الرجال الذى يكاد يصم الآذان ، وتلويحهم بحرابهم وقسيهم ، تحيه له - وعرف أنه أصبح بطلهم منذ قضى على طلاسم الجزيرة المسحورة ، فالتفت إليهم قائلا :

- سنقضى على أعدائنا كما قضينا على سحر الجزيرة ، ولكنى أريدكم أن تلزموا الهدوء والسرية حتى أعود إليكم . .

وانفلت الزيبق مسرعا ، وقد اهتز قلبه من ولاء الرجال وحبهم ، وحين وصل إلى المكان الذي أقعى فيه الدليل ، تسلل بحذر ، حتى وصل إليه ، وإلى المكان الذى يشرف منه على جيش مدينة بحر الغزال ، وقال فى حذر وهدوء :

- لم يصل أحد بعد .

أجفل الرجل ورفع حربته ، ثم أمعن النظر فى الزيبق ، وقال :

ـ من أنت ... لم أرك من قبل، ولست من النبط.
قال الزيبق في حذر، وهو ينظر إلى الحربة في احتزاز:
ـ انتظر أنا الزيبق، انظر إلى جيدا وستعرفني.
حدق الرجل النظر في الزيبق، وقد ازداد ارتيابه، وازدادت الحربة في يده تهديدا واستعدادا، وقال:
ـ الزيبق ـ تعني رجل الجزيرة السحورة، ولكن... ربما، فمن فعل كل هذا في الجزيرة قادر أن يكون في أى صورة..
تنهد الزيبق في ارتياح وهو يقول:
ـ صدقت، وهذه الصورة التي أنا فيها، ماذا ترى فيها؟
قال الرجل وهو يخفض حربته:
ـ أنت واحد منا، ولولا لكنة في كلامك ما عرفتك أبدا.
ضحك الزيبق وقال:
ـ لن أتحدث حتى لا يعرف أحد أمر هذه اللكنة.
قاطعه الرجل قائلا:
ـ صمتا، فالرئيس سوهي يعود، ومعه الطبيب الساحر...
ما أن انتهى الرجل من كلامه حتى سمعا صوت أقدام تتقدم نحوهما في حذر، ثم أطل وجها عمر العيار والرئيس سوهي، ونظر عمر العيار إلى الزيبق في دهشة، وقال:
ـ ومتى أتممت هذا التحول... ولم..
وقال الرئيس سوهي:
ـ لولا أن سمعت صوتك ما عرفتك..

قال الزيبق في ضجر :

- ماذا عندكما ؟

قال عمر العيار:

- في نصف نهار تمكنت دليلة من أسر حسن بن الحصري والفارس باسم ومن معهما من رجال ، وفي نصف نهار حشد الملك سلطان جيشا كبيرا لا قبل لرجال الرئيس سوهي به ، ولا أمل للمحاصرين في المدينة المرصودة في مواجهته . .

وقال الرئيس سوهي :

- لم أر في حياتي مثل هذا العدد المسلح من الرجال محتشدين في مكان واحد .

سأل الزيبق :

- ولومبا ومافي

قال عمر العيار:

- لابد أنهما أسرى أيضا ، هناك خيمة مقامة عند سفح الجبل عليها حراسة مشددة ، لا أشك أن الجميع فيها . . . بينما نصبت خيمة كبيرة في مواجهة المدينة جعلها الملك سلطان مركزا لقيادته ، وهو فيها مع السلطان قاسم ودليلة وكبار رجاله ، ورؤساء القبائل والعشائر الذين صحبوه . .

أطرق الزيبق مفكرا للحظات ، وعيناه تجولان في الحركة الدائمة التي يمور بها الوادي من بعيد ، ثم رفع رأسه قائلا :

- هناك شيء هام أغفلناه ، وهو النفق الذي تسلل منه لومبا

ومافى مع مونجو وعصابته عندما خطفوا السلطان، هم أيضا أغفلوه حتى الآن، وإلا لكانوا قد تسللوا إلى المدينة من زمن..

قال عمر العيار:

ـ هذا صحيح ـ نسينا أمر هذا النفق، وهو خطر ماثل على المدينة وسلامتها..

قال الزيبق:

ـ لا فائدة من أى عمل نقوم به في وضح النهار، وعددنا ضئيل بالنسبة لهم، ولكن لابد أن نتسلل إلى المدينة الآن، وندخل من هذا النفق، ونعمل على سده أو حراسته، ونتولى أمر الدفاع عن السلطانة والمدينة المرصودة، فلست آمن عليها ولا على المدينة مع وجود الوزير مروان فى السلطة.

قال عمر العيار:

ـ صدقت فى هذا، ولكنى أحسب أن هناك ملعوبا من ملاعيبك تتكون خطوطه فى ذهنك لمواجهة هذا الأمر الذى نحن فيه..

ابتسم الزيبق، وقال:

ـ اترك هذا الأمر لى ياعمر.. ولكن هؤلاء الذين أشعلوا النار فى المدينة ألم يستعملوا النفط؟ من أين لهم به..؟

قال الرئيس سوهى:

ـ هناك بحيرة منه فى الجانب الجنوبى من الجزيرة المسحورة حيث هيكل عبدة النار، تستمد كل القبائل حاجتها من النفط

منها. قال الزيبق:

ـ إذن فليسرع رجالك إليها، وليملئوا كل الزجاجات الموجودة عندكم بها ويسدوها في إحكام ويدعوا في الفوهة فتيلا مبتلا قابلا للاحتراق الشديد، وليعودوا كلهم هنا في أسرع وقت... فنحن لن نستطيع أن نتأخر كثيرا عن منتصف الليل..

قال الرئيس سوهي:

ـ سآمرهم بهذا وأعود إليكما..

قال الزيبق لعمر العيار:

ـ امض أنت إلى المدينة لحراسة النفق وإغلاقه... وستسمع منا بعد حين..

قال عمر العيار:

ـ ألست تحتاجني معك؟

قال الزيبق:

ـ عندما ترى بواكير هجومنا على المعسكر بعد منتصف الليل، اخرج أنت ورجال السلطانة زينب لضرب المعسكر بكل قوتكم... وسيكون أمر اندحارهم سهلا.

قال عمر العيار مترددا:

ـ ما ستقوم به وحدك عند حلول الظلام، يحسن أن أكون فيه معك..

قال الزيبق:

ـ كأنك حدست مافى ذهنى . .

قال عمر العيار :

ـ تزمع أن تجرد المعسكر من قادته . . . ثم تفاجئه .

ضحك الزيبق ، وقال :

ـ اترك هذا الأمر لى . . . أما أنت فهيا إلى مهمتك ، وإلا لو سبقونا إلى هذا النفق ، ضاع كل شيء . .

وبهدوء ربت عمر العيار على كتف الزيبق ، ثم تسلل بين الأعشاب العالية متجها فى صمت ناحية المدينة المرصودة .

- ٣٥ -

نهاية الرحلة

ظل علي الزيبق في مكانه فوق الرابية يرقب حركة الجنود تحته، وهم في حركة نشيطة لا تهدأ، إلى أن أحس بحركة الرئيس سوهي وهو يتحرك في حذر نحوه، وسرعان ما كان الرئيس سوهي إلى جواره، وهو يقول:

- لقد أرسلت الرجال إلى بحيرة النفط، وأمرتهم أن يستولوا من معبد النيران على كل الزجاجات التي فيه حيث يحتفظ الكهنة برفات من يحرقون من موتاهم في زجاجات... ولكنهم لن يعودوا قبل حلول الظلام...

قال الزيبق:

ـ لن نحتاجهم قبل هذا... أما الآن فلنتسلل أنا وأنت... كما فعلت مع الساحر الإفريقي، إلى داخل المعسكر لأرى كل شيء بنفسي، وأنت قد دخلته قبل هذا، فتستطيع أن تقودني في هذه الجولة وأنت أكثر دراية بما تفعل..

قال الرئيس سوهي:

ـ ماذا ننتظر ، هيا بنا..

زحف الزيبق والرئيس سوهي زحفا حتى أصبح المعسكر الكبير أمامهما تماما، وجمد الاثنان فجأة حين تحرك ناحيتهما أحد الحراس ممسكا حربته، ولكنه تجاوز مكانهما ومضى في طريقه حتى وصل إلى شجرة وقف عندها وهو يجيل عينيه فيما حوله في كسل وتراخ... وكان الزيبق يتحرك من جديد، حين أحس بيد الرئيس سوهي فوق ساعده، والتفت إلى حيث ينظر الرئيس سوهي فرأى حارسا آخر يتحرك من الناحية المقابلة وفي يده حربته، فعاد في مكانه من جديد، وإذا بالحارس الأول يترك مكانه عند الشجرة ويتحرك نحو الحارس الثاني إلى أن التقيا قريبا من المكان الذي يكمن فيه الزيبق والرئيس سوهي.. وتبادل الحارسان كلمات مقتضبة، ثم عاد كل منهم إلى موقفه الأول... وتبادل الزيبق النظرات مع الرئيس سوهي... وأومأ برأسه، وتحرك كل منهما في صمت إلى موقع حارس من الاثنين. وسرعان مادوت خبطتان مكتومتان من الجبهتين المقابلتين،

واختفى الحارسان، وقال الزيبق حين اقترب منه الرئيس سوهى يجر الحارس الفاقد الوعى، ويتأمل زميله الممدد على الأرض تحت قدمى الزيبق:

- كممهما وقيدهما، وسنخفيهما خلف هذه الشجرات،. ثم هيا بنا إلى خيمة الأسرى..

قال الرئيس سوهى:

- ولكن هذه مخاطرة..

قال الزيبق:

- سنرتدى ملابسهما ونضع على وجوهنا مثل الأصباغ التى وضعوها على وجنتيهما ولنسرع فلا وقت هناك..

كانا ينتقلان فى خفة بين الجموع وفى أيديهما الرماح، وعلى وجهيهما أصباغ الحرب، وهم يلقيان بالتحية هنا وهناك، ولا أحد يشك فى أمرهما ، وقال الرئيس سوهى:

- هذا هو المكان..

وتلفت الزيبق حوله... كانت الخيمة فى نهاية الساحة الواسعة التى عسكر فيها الجيش، وكان هناك حارسان يتحركان حولها بانتظام .. وعلى بعد قليل منها أوقدت النيران، ووضعت القدور التى كانت تنبعث منها روائح طعام شهى.. وابتسم الزيبق وقال:

- لماذا لا نأكل، ألسنا منهم... وهذا الطعام أليس للجوعى من جنودهم..

نظر إليه الرئيس سوهي مقطبا، ولكنه سرعان ما ضحك، وقال:

ـ لم لا ؟..

وفي هدوء تقدما نحو النيران والقدور ذات الرائحة الشهية، وكان الطاهي الذي يقف أمام القدور سمينا كبير البطن، وكان جسده كله يتصبب عرقا رغم هواء الغروب الرطب... وأخذ الرئيس سوهي يحادثه، والرجل يملأ أوعية واسعة بالطعام، ويضعها إلى جواره، وهو يوالي تحريك مافي القدور بملعقة خشبية طويلة، وهز رأسه بعد قليل، وهو يشير إلى وعاءين مملوءين طعاما، فحملهما الرئيس سوهي إلى حيث جلس الزيبق جائعا، فانقض على الطعام الذي أحرق فمه، وبرزت عيناه من محجريهما إذ صدم فمه الطعام الحريف المليء بالتوابل والشطة، والشديد السخونة، وقال الرئيس سوهي محذرا:

ـ هذا طعام نألفه كلنا هنا، فحذار أن يبدو عليك ما يدل على أنك غريب عنه..

مسح الزيبق الدموع التي طفرت من عينيه، وقال:

ـ هو طعام شهي على كل حال، وسأعتاده بعد قليل..

قال الرئيس سوهي وهو يغمز بعينيه:

ـ وهناك شيء شهي آخر... أترى هذه الأوعية المليئة بالطعام..

قال الزيبق وهو يتابع أصبع الرئيس سوهي إلى حيث أشار:

ـ ثمانية أوعية.

قال الرئيس سوهى :

ـ سيكملها الطاهى عشرة، ثم يحملها إلى الخيمة، فهى طعام الأسرى..

قال الزيبق:

ـ عشرة أسرى..

قال الرئيس سوهى:

ـ لابد أن بعضهم من جنود المدينة المرصودة، المهم أننا سنحمل إليهم هذا الطعام بأنفسنا، فقد عرضت على الطاهى هذا كرد لجميله حين أعطانا الطعام، ووافق..

ابتسم الزيبق، وهو يقول:

ـ أنت تتعلم بسرعة أيها الرئيس سوهى... ثلاث رحلات تكفى لأن نحمل الطعام كله إلى الخيمة ونبقيه خارجها حتى تكتمل كل الأوانى، ثم نصحب الحارسين معنا إلى الداخل، فهذه الرحلات نفسها تكفى لكى ننفى أى شك قد يحوم حول انتمائنا للمعسكر، كيف والطاهى يستعملنا كمساعدين له... آه... لقد أكمل الطاهى الوعاءين الأخيرين...هيا بنا..

والتهم الرئيس سوهى مابقى فى إنائه من طعام، وأسرع يسبق الزيبق إلى الطاهى، إلى حيث وقف الطاهى يفرك يديه فى ارتياح: وقد ملأت وجهه ابتسامة عريضة سعادة بهذه المساعدة التى جاءته من حيث لا يحتسب، فكم كان يكره أن

يقطع المسافة بين الموقد وبين هذه الخيمة خمس مرات كاملة. . .

وما أن انتهى من حديثه مع الرئيس سوهى حتى أشار هذا إلى الزيبق فوضع حربته إلى جوار الموقد، وحمل إناءين ممتلئين، ومضى بهما ناحية الخيمة، بينما حمل الرئيس سوهى إناءين آخرين، وسار يتبعه وحين وصل الزيبق إلى الخيمة تقدم نحوه الحارسان في تساؤل، ولكنه وضع الإناءين أمام الخيمة، ومضى عائدا دون أن يرد على حديثهما، ووصل الرئيس سوهى بعده فأفهمهما حقيقة مهمتهما، ثم غادرهما إلى الموقد مرة أخرى... وعاد بعد حين بأربعة أوان أخرى، وهز الحارسان رأسيهما في استحسان لفعلهما فلقد كانا يحبان الطاهى السمين، وكانا يعرفان كراهيته للمشى ولو لمسافة قصيرة، دع جانبا أن يسير المسافة خمس مرات كاملة ولهذا فما أن عاد الزيبق والرئيس سوهى بآخر إناءين قابلاهما ببسمات عريضة، وكلمات إطراء واضحة، وقال الرئيس منتهزا فرصة رضاهما:

ـ ساعدانا في إدخال هذه الآنية إلى الخيمة. .

وحمل الجميع الآنية على مرات إلى داخل الخيمة، وعيون الأسرى تتبعهم في وجوم، وماكادت آخر الأطباق توضع على الأرض، حتى دوت خبطتان مكتومتان، وأمام أعين الأسرى المندهشة سقط الحارسان غائبين عن الوعي في صمت. . . وفي سرعة كان الحارسان قد كمما وأحكم وثاقهما، واندفع الحارسان الآخران إلى الأسرى يفكون قيودهم وهم يأمرونهم

بالصمت الكامل... وهمس المقدم حسن بن الحصرى:
ـ على الزيبق، لايفعلها إلا الزيبق..
قال الفارس باسم فى مرارة وهو يفرك رسغيه لتعود إليها الدماء المحبوسة:
ـ الزيبق؟... لا االزيبق قد مات من زمن فى الجزيرة المسحورة، ألم يحك الدرويش الصالح للملك سلطان حكاية السيوف التى تخرج من الأرض والجدران والسقف..؟ لعله الآن قد غدا مزقا..
قال لومبا:
ـ لا، لا يحدث هذا لمثل الزيبق..
قال الزيبق:
ـ أشكر لك ثقتك فى يالومبا... وأنت يامقدم حسن
صاح حسن بن الحصرى، وهو ينظر إليه فى دهشة:
ـ أنت... ولكن هذا اللون، هذه الملابس، هذا الوجه
ثم أخذ يضحك وهو يضرب كفا بكف، ثم قال:
ـ من يغلب ملاعيب الزيبق؟
قال الزيبق والرئيس سوهى يطلق سراح آخر الأسرى:
ـ ليس هناك وقت للكلام، الآن كلوا الطعام، وسنخرج أنا، والرئيس سوهى لنحل محل الحارسين حتى لايشك أحد فى الأمر، وأنت يالومبا ومعك مافى... ارتديا ملابس الحارسين الصريعين.... وحذار من إصدار أى صوت... وفى هدوء حمل

الزيبق والرئيس سوهي حربتي الحارسين، ومضيا إلى خارج الخيمة يدوران حولها كأنما يحرسانها في دقة وجدية كاملة..

وبعد قليل لاحظ الزيبق أن الطاهي السمين يشير إليهما في حركات سريعة متلاحقة، فقال للرئيس سوهي:

ـ لماذا تظن الطاهي يصدر كل هذه الإشارات..

قال الرئيس سوهي:

ـ إنه يريد الأوعية الفارغة..

وأشار الرئيس سوهي بحربته نحوه، وهو يقول:

ـ سأخرج لومبا معك بينما أعود إليه بالأوعية الفارغة وأسترد الحربتين؟..

قال الزيبق:

ـ أخبره أن الملك سلطان يريد الأسرى، وأننا نريد بعض أصدقائه من الجنود ليحرسوهم معنا، فنحن الأربعة لا نكفي..

وأخبرهم في الداخل أن يعيدوا ربط أيديهم فهم مازالوا أسرى... وحاول أن تعرف من الطاهي أماكن تخزين النفط هنا..

لمعت عينا الرئيس سوهي وهو يقول:

ـ فهمت .. قد تنجح خطتك، ولو أنها شديدة الجسارة..

قال الزيبق:

ـ في مثل موقفنا هنا وسط معسكر العدو، لا مكان إلا للجسارة تركه الرئيس سوهي إلى داخل الخيمة، وسرعان ما

عاد يحمل الأوعية الفارغة متجها إلى ناحية الطاهى، وعلى التو خرج لومبا مرتديا زى أحد الحراس وفى يده حربة، فقال الزيبق:

- امكث هنا، وسأرسل إليك مافى ليبدو الأمر طبيعيا، فلى حديث مع الآخرين..

وتركه ليدخل إلى الخيمة التى بدأ الظلام يخيم عليها، وقال الفارس باسم فى حنق:

- ولماذا تريدنا أن نظل مقيدين..؟

قال الزيبق:

- بعد أن يشتد الظلام قليلا، سنخرج من هنا إلى خيمة الملك سلطان، أسرى يقودهم حراسهم ليستجوبهم الملك، وسيبدو الأمر طبيعيا، أنتم فى الوسط تسيرون وقد قيدت أيديكم، وربطتم جميعا فى حبل واحد، وحولكم حراسكم..

قال المقدم حسن بن الحصرى:

- أتظن هذه الحيلة تنجح..؟

قال الزيبق:

- لابد أن تنجح وإلا هلكنا، وضاعت المدينة المرصودة.. إن الرئيس سوهى الآن يبحث لنا عن مدد جديد من الحراس..

قال الفارس باسم فى حنق:

- يا لجسارتك

ضحك الزيبق، وقال:

ـ عليك أن تفهم رجالك ما تريد منهم تماما ، فأى خطأ من واحد منهم سيفسد خطتنا .. ولكن لم تخبرنى بعد ، كيف وقعتم فى الأسر ، لم يجبه الفارس باسم وإنما الذى أجابه هو المقدم حسن بن الحصرى الذى قال فى مرارة :

ـ كان الفارس باسم يقودنا وراء الهاربين وقد استطاع أن أن يكشف آثارهم ، وفجأة انهالت علينا السهام من أمام ومن خلف ، وقبل أن نفعل أى شيء كانت الشباك قد سقطت فوقنا من قمم الأشجار لتمنع حركتنا ، وخرجت من الشبكة لأواجه بضحكات مونجو الشامتة ، وضحكات صديقك الدرويش الصالح الساخرة .. وبعدها ، هانحن هنا ..

قال الزيبق :

ـ أما مونجو فقد انتهى أمره ، أما الباقون فقد حانت ساعتهم .

قبل أن ينهى الزيبق حديثه دخل الخيمة الرئيس سوهى وهو يقول :

ـ كل من حولنا يعرفون أننا سنصحب الأسرى إلى خيمة الملك ، ومعى أربعة من الحراس لمعاونتنا ..

قال الزيبق :

ـ ومخازن النفط ..

قال الرئيس سوهى :

ـ لقد حددها الطاهى لى حين أخبرته أننا نريد أن نزود مشاعلنا بالنفط المشتعل حتى تضىء الطريق لنا ، ولا يهرب

السجناء... وهى منتشرة فى أنحاء المعسكر المختلفة..

قال الزيبق:

ـ هذا أحسن مافعلت، فعن طريق هذه المشاعل سنهزم الملك سلطان هزيمة منكرة.

قال الرئيس:

ـ لست أفهم؟

قال الزيبق:

ـ ستفهم كل شيء فى حينه، أما الآن، فلابد أن يعود واحد إلى معسكرك، فمن تختار..؟

قال الرئيس سوهى وهو يفكر فى صوت مسموع:

ـ لومبا يعرف الطريق، وسيكون من السهل عليه أن يجد الرجال بسرعة.

التفت الزيبق إلى لومبا، وقال له:

ـ عندما تصل إلى معسكر الرئيس سوهى سيكون رجال الرئيس سوهى قد عادوا بزجاجات النفط الملآنة، ثبت فى فم كل زجاجة شريطا قابلا للالتهاب، وقسم الرجال إلى ثلاثة أقسام، وليتسلل القسم الأول إلى يمين المعسكر، والثانى إلى يساره، والثالث فى مؤخرته، وعندما ترى الصواريخ تملأ السماء يشعل كل رجل الفتيل فى زجاجته ويلقيها فوق المعسكر، ثم أمطروا المعسكر بوابل من السهام، ثم اهجموا بحرابكم بعد هذا..

خرج لومبا مسرعا وهو يرتدى زى الحرس، وفى يده حربته، بينما قال الزيبق للرئيس سوهى:

ـ لنحمل بلطتين وهيا بنا ننطلق..

والتفتت إلى حسن بن الحصرى قائلا:

ـ لن يطول غيابنا، فلابد أن أحضر جرندانى حيث تركته على رأس هذا المعسكر، ثم إن براميل النفط هنا فى انتظارى أنا والرئيس سوهى.. ولا يتحرك أحد حتى نعود..

وخرج الزيبق والرئيس سوهى، وسارا بكل ثقة وهما يحملان الحراب ، وحيا الرئيس سوهى الطاهى برفع الحربة فى يده، إلى أن وصلا إلى حيث تركا الحارسين المقيدين، فتأكدا من قيودهما ، ثم أسرعا إلى أعلى الهضبة حيث أحضر الزيبق جرندانه.. وعادا فى هدوء إلى المعسكر وقد بدأ الظلام يخيم عليه وقال الزيبق:

ـ لنتسلل إلى حيث براميل النفط، ونشق جوانبها بالبلط حتى يسيل النفط منها ويغرق العشب حولها... ولنعد بعد هذا مسرعين إلى الخيمة.

قال الرئيس سوهى للحراس الجدد المنتظرين خارج الخيمة:

ـ لقد أكد الملك أمره بالإسراع بإحضار الأسرى، وسنحمل المشاعل حتى لا يهرب منهم أحد، ولتحيطوا بهم من كل جانب.. وهيا بنا إلى خيمة الملك..

وتقدم الرئيس سوهى يحمل مشعلا، ومعه مافى يحمل

مشعلا آخر، بينما تبعهما موكب الأسرى المقيدين، وحولهم الحراس المدججين بالسلاح، والزيبق فى المقدمة، يشقون أرض المعسكر فى اتجاه خيمة الملك، وكان خبر استدعاء الأسرى قد ملأ المعسكر فوقف الكثير من الجنود يرقبون الموكب وهم يمطرون الأسرى بسيل من الشتائم القبيحة، ويحيون الحراس بكلمات التشجيع والضحكات المرحة..

وكان الزيبق وهم فى الطريق يخرج من جرندانه، البنج وضد البنج، وقبل أن يصلوا إلى الخيمة بقليل أعطى الرئيس سوهى ومافى قطعا من البنج ليضعاها فى المشاعل التى يحملونها ، ثم أعطى الرئيس سوهى ضد البنج ،وأخذ هو الآخر ضد البنج، ثم حمل المشعل عن مافى وهو يقول له:

- احمل أنت الحربة ، وأعطنى المشعل، فهم يعرفونك هنا.. واختف وسط الحراس ولا تظهر نفسك قدر الإمكان..

وما أن وصل الموكب إلى الباب الخارجى للخيمة حتى اعترضه الحراس ، فتقدم الرئيس سوهى نحوهم قائلا:

- أنا رئيس حرس الأسرى ، وقد جئت بهم كأمر الملك سلطان لأنه يريد أن يستجوبهم.

قال أحد الحراس:

- ادخلوا بهم إلى ساحة الخيمة الداخلية حيث كبير الحرس، وهو يتولى أمرهم.

وأفسح الحراس الطريق ليدخل الموكب إلى ساحة الخيمة التى

يقف فيها الحراس والطهاة والخدم، والتى تفصل سور الخيمة الخارجى عن باب الخيمة الرئيسية... ولاحظ الزيبق كثافة الحراسة، فقال للرئيس سوهى:

ـ حاول أن ندخل أنا وأنت إلى الخيمة.

وظهر كبير الحراس يسرع نحوهم قائلا:

ـ من الذى أمركم بإحضار الأسرى إلى هنا..؟

قال الرئيس سوهى مشيرا إلى الزيبق:

ـ حمل إلى هذا الحارس أمر مولانا الملك، فجئت بالحرس والأسرى، فالملك يريد استجوابهم علّه يعرف مدخلا سريا إلى المدينة يوفر علينا الجهد والتعب.

قال كبير الحراس:

ـ هيا معى إلى الملك مادامت هذه إرادته، ولكن اتركوا الأسرى هنا حتى يأمر باستدعائهم.

وسار وراءه الزيبق والرئيس سوهى يحملان المشعلين، وفى خفية وضعا كميتين جديدتين من البنج فى المشعلين.. وانحنيا وهما يدخلان إلى قلب الخيمة الملكية...

ووجف قلب الزيبق وهو يرى الكل أمامه يجلسون فى جنبات الخيمة حول الملك سلطان، كان هناك السلطان قاسم، والدرويش الصالح، والوزير مروان، ورؤساء العشائر التى جاءت بجنودها ..وأسرع كبير الحراس ناحية الملك الذى كان يتحدث إلى الدرويش الصالح فى اهتمام، فأشار إليه بيده

لينتظر ، ووقف كبير الحراس فى خشوع ينتظر إذن الملك بالكلام... بينما تحرك الزيبق إلى ناحية، والرئيس سوهى إلى ناحية أخرى، والمشعلان يلتهبان بالنفط والبنج..

التفتت دليلة التي كانت تتزيا بزى الدرويش الصالح فجأة، وهي تتشمم الهواء حولها فقد أحست برائحة غريبة تملأ الخيمة، وكانت تعرف هذه الرائحة بحكم خبرتها الطويلة فى دنيا العياقة والحيل.. وجالت ببصرها حولها، فوقع بصرها على الزيبق وهو يحمل المشعل، وجعلت تنظر إليه فى حدة، وسرعان ما عرفته رغم تنكره، فصاحت ، وهبت واقفة وهى تشير نحوه بيدها.. والتفت الكل إليها فى دهشة، ولكن قبل أن تتكلم كانت تتهاوى إلى الأرض وفى عينيها نظرة ذعر ويأس.. وما أن هب الملك سلطان ليقف حتى تهاوى إلى جوارها فاقد الوعى مثلها، وتبعهم الباقون واحدا إثر الآخر.. وأطفأ الزيبق مشعله، وحذا الرئيس سوهى حذوه، ثم مضيا يقيدان كل الموجودين، ثم خرج الرئيس سوهى إلى الساحة الخارجية للخيمة، وصاح فى الحرس قائلا:

ـ أدخلوا الأسرى، ولكن اتركوا أسلحتكم هنا، فلا يجب أن يدخل أحد إلى حضرة الملك وفي يده سلاح.. وحين دخل الأسرى وحراسهم إلى قاعة الملك، أشار الزيبق إلى المقدم حسن بن الحصرى، ففك قيوده الوهمية وكذلك فعل باقى الأسرى، وانقضوا على حراسهم فأوثقوهم.. وقال الزيبق:

ـ الحرس الخارجى، عليكم بالحرس الخارجى..

وخرج الجميع إلى الساحة فتغلبوا على ما بها من حراس، ثم خرجوا إلى خارج الخيمة حيث انتهوا من أمر الحراس الخارجين، وقال الزيبق:

ـ ساعدنى يامقدم حسن، فى نصب الصواريخ.. وليحضر كل منكم القسىَّ والسهام، وضعوا فى السهام قماشا مبللا بالنفط، وليشعل كل منكم سهمه قبل إطلاقه..

وأسرع الزيبق والمقدم حسن بن الحصرى، ينصبون قواعد إطلاق الصواريخ بحيث تتجه إلى كل مكان فى المعسكر، وما أن انتهيا حتى صاح الزيبق:

ـ الآن.. وليصرخ كل منكم بأعلى صوته لتحدثوا أكبر ضجة ممكنة..

وانطلقت الصواريخ الملونة تلهب السماء بأنوارها، وتحدث فى انفجارها أصواتا كالرعد والبرق، ووراءها انطلقت السهام المشتعلة، وصرخات الرجال تصاحبها، وأحس جنود الملك سلطان أنهم يهاجمون من مردة تشق السماء، وترسل حمم النفط، وفجأة ارتفعت صيحات من يمين المعسكر وشماله وجنوبه، واندفعت كرات ملتهبة ما أن تمس الأرض حتى تنفجر بشدة، وتنثر النار حولها، ووصلت النيران إلى العشب المشبع بالنفط فاشتعل المعسكر كله فجأة وتحول الليل إلى كتلة من اللهب المشتعل... وكان رجال الملك سلطان يجرون هنا وهناك

فى ذعر وحيرة، حين فتح باب المدينة المسحورة وهجم جنود السلطانة زينب وعلى رأسهم عمر العيار، بينما اندفع رجال الزيبق والفارس باسم يهجمون بالسيوف بالسهام والحراب والسيوف .. واشتد الذعر بالرجال فتفرقوا هاربين، أو استسلموا لمهاجميهم دون قتال..

صافحت السلطانة زينب الزيبق وهى تقول:

ـ هذا يوم عيد لى وللمدينة كلها..

وكانت أصوات الأغانى والأهازيج تصل إليهم من كل أنحاء المدينة التى خرج أهلها يحتفلون بنصرهم العظيم على أعدائهم، فابتسم الزيبق وهو يقول لها:

ـ من الآن لن تخافى على مدينتك من ملك بحر الغزال فهو فى يدنا، وكذلك السلطان قاسم، والدرويش الصالح عدوى الحقيقى، والعقل المدبر لكل هذه المحاولات للانتقاص من سلطان الخليفة على هذه الأرض... وهو ليس درويشا، وليس صالحا، بل هو ليس رجلا آخر الأمر، إنما هو الداهية دليلة المحتالة التى دخلت أرضكم بهذا الزى لتتآمر على خروج أرضكم كلها عن طاعة الخليفة مستعينة بضعاف النفوس هنا، وأولهم وأخطرهم الوزير مروان الذى أسرناه فى خيمة الملك سلطان..

قالت السلطانة زينب فى دهشة:

ـ كان فى وسطنا عندما بدأ الحصار، ثم اختفى فجأة..

قال عمر العيار الذى كان يقف إلى جوارهما مبتسما:

ـ لقد خشيت أن يكون قد تسلل ليطلع الملك سلطان على المدخل السرى للنفق الذى استعمله لومبا ومافى، فشددت الحراسة عليه ، وبالفعل حاولا اقتحامه أول الليل، ولكنهم فشلوا.

قال الزيبق:

ـ لقد أحس أن المدينة ستسقط فى يد الملك سلطان، فأحب أن يبيع المدينة لينال الحظوة لديه... سنصحبه معنا إلى الخليفة مع الملك سلطان والسلطان قاسم ودليلة ليرى فيهم الخليفة رأيه.

قالت السلطانة زينب:

ـ إذن فأنت ستغادرنا أيها الفارس الزيبق..

قبل أن يجيبها ، صاحت ياسمين التى كانت تقف خلفها طربا، وصفقت بيدها فرحة وهى تقول:

ـ المقدم حسن بن الحصرى، إنه يعود سالما وأنا التى كنت أكاد أموت قلقا عليه..

ثم اندفعت نحو المقدم حسن الذى كان يسير مع الرئيس سوهى يحملان صندوق التواجيه، والهديتين الكبيرتين اللتين أخذهما الزيبق من الجزيرة المسحورة... ولمعت عينا المقدم طربا، وأقبل عليها يحييها فى حرارة، فقالت السلطانة زينب:

ـ يبدو أن ياسمين قد نجحت فيما فشلت فيه سلطانتها..

تجاهل الزيبق معنى كلامها، وقال:

ـ هذا هو صندوق التواجيه الذى جئت فى طلبه، أما هذه الصرة فهى هدية لك من كهف الجواهر فى الجزيرة المسحورة والصرة للثانية هدية للخليفة..

ابتسمت السلطانة زينب فى مرارة، وهى تتناول الصرة وفتحتها، فخطف لمعان الجواهر الأبصار ، وتحولت ابتسامتها إلى سعادة غامرة، ومدت يدها تتناول الجواهر وتتأملها فى فرحة، . وقد أنستها فرحتها بالجواهر كل مرارة كانت تحملها فى نفسها، وقالت وهى تختار مجموعة من الجواهر ، وتمد يدها بها إلى الزيبق:

ـ هديتك مقبولة أيها الفارس... واقبل أنت هذه الهدية منى لزينب الأخرى، ولو أن عودتك إليها أهم من كل جواهر العالم..

وقال المقدم حسن بن الحصرى :

ـ أما أنا فجوهرتى هى ياسمين..

قالت السلطانة زينب :

ـ هى لك أيها الفارس ولتسعد بها.. وتسعد بك..

قال حسن بن الحصرى، وهو يكاد يطير فرحا :

ـ إن قبلت أن تأتى معى، فهى زوجتى على سنة الله ورسوله.

صاحت ياسمين:

ـ أقبل ، أقبل يامولاى..

ضحكت السلطانة زينب وهى تقول فى مرارة..

ـ للزيبق صندوق التواجيه، وللفارس حسن ياسمين، أما السلطانة زينب فلها الجواهر..

قال الزيبق:

ـ بل لك مدينتك آمنة يامولاتي، وإلى جوارك لومبا ومافي يحكمان مدينة بحر الغزال والرئيس سوهي يحكم الجزيرة المسحورة، والكل أصدقاؤك وحلفاؤك.. قال عمر العيار:

ـ أما وقد انتهت مهمتي فأستأذنك في الرحيل غدا مع المقدم على الزيبق، فقد استقر الأمر هنا وزال كل خطر، وتم القضاء على كل المتآمرين وأعوان الفرنجة الذين أرادوا أن يمزقوا بلادنا من داخلها بعد أن عجزوا عن هزيمة جيوشنا في ساحة القتال..

قالت السلطانة زينب:

ـ نحن هنا ندين بالولاء للخليفة، ونحن ورجالنا فداء أرض المسلمين..

قال الزيبق:

ـ نعم الكلام أيتها السلطانة ـ لو أذنت نغادر بلادكم عند الفجر ، فهذه نهاية الرحلة..

من نسمات الفجر الندية خرجت المدينة المرصودة كلها تودع الراحلين، كان الزيبق في المقدمة على فرس أشهب، وإلى جواره المقدم حسن بن الحصرى، ثم هودج ياسمين ومعها الذخائر فوق جمل ضخم، ووراءه السجناء مقيدين فوق خيولهم، وفي مؤخرة الركب المقدم عمر العيار فوق فرسه..

ولوح الرئيس سوهى بحربته تحية للراحلين، بينما أخذت السلطانة زينب تلوح بمنديلها، وإلى جوارها الفارس باسم يلوح بيده وهو يقول:

- أنا أسعد الناس برحيلهم..

قالت السلطانة زينب:

- لن تشهد بلادنا مثلهم أبدا..

وقال الرئيس سوهى:

- سمعت كثيرا عن الزيبق، وأسعدنى الله أن أعيش معه، وأن أرى بنفسى قدرته ومهارته، وأن أحكى لأولادى عن ملاعيب على الزيبق.

المؤلف

* فاروق خورشيد
- ولد فى مارس ١٩٢٨ القاهرة.
- حصل على ليسانس آداب - قسم لغة عربية - كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٠.
- يعمل حاليا رئيس اتحاد كتاب مصر ومقرر لجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة - أستاذ الأدب الشعبي بالمعهد العالى للفنون الشعبية - أكاديمية الفنون - عضو المجلس الأعلى للثقافة.

* الكتب :

* (القصة) :

١- مجموعة الكل باطل ١٩٦٠ - الكتاب الماسى .
٢- مجموعة القرصان والتنين ١٩٧١ - هيئة الكتاب .
٣- مجموعة المثلث الدامى ١٩٧٩ - دار المعارف.
٤- مجموعة حبال السأم ١٩٨٧ - هيئة الكتاب.
٥- مجموعة كل الأنهار ١٩٩٦ - هيئة الكتاب.
٦ زهرة السلوان

* الرواية :

٧- سيف بن ذى يزن ١٩٦٧ الكتاب العربى .
٨- مغامرات سيف بن ذى يزن - دار الهلال ١٩٦٤ .
٩- على الزيبق ١٩٦٧ دار الهلال .
١٠- خمسة وسادسهم ١٩٨٠ - هيئة الكتاب.
١١- حفنة من رجال ١٩٨٠ - دار اقرأ - بيروت .
١٢- وعلى الأرض السلام - هيئة الكتاب - مختارات فصول ١٩٨٦ .
١٣- الزهراء فى مكة - دار الهلال ١٩٨٧ .
١٤- الزمن الميت - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨ .

١٥- ملاعيب على الزيبق - دار الهلال ١٩٨٩.
١٦- روايتان (إنها تجرى إلى البحر - البحر ليس بملآن) ١٩٩٦.
* الدراسات :
١٧- «مُحمَّد» في الأدب المعاصر ١٩٥٩ - المكتب الفنى.
١٨- فى الرواية العربية ١٩٦٠ - الجمعية الأدبية المصرية
١٩- بين الأدب والصحافة ١٩٦١ - دار الثقافة المصرية.
٢٠- فى كتابة السيرة الشعبية ١٩٦٤ - دار الثقافة العربية.
٢١- أضواء على السيرة الشعبية ط١ - هيئة الكتاب.
٢٢- السيرة الشعبية ١٩٧٩ - دار المعارف.
٢٣- هموم كتاب العصر ١٩٨١ - دار الشروق - بيروت.
٢٤- مع المازنى - دار الهلال ١٩٨٦.
٢٥- عالم الأدب الشعبى العجيب - دار الهلال ١٩٨٨.
٢٦- السيرة الشعبية العربية - هيئة الكتاب ١٩٨٩.
٢٧- الجذور الشعبية للمسرح العربى - هيئة الكتاب ١٩٩١ - ط٢ باسم «الموروث الشعبى» - دار الشروق.
٢٨- فى الأصول الأولى للرواية العربية - هيئة الكتاب ١٩٩٢.
٢٩- أدب السيرة الشعبية - دار لونجمان ١٩٩٤.
٣٠- المجذوب - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٥.
٣١- معادن الجوهر - دار الشروق.
* المسرح :
٣٢- أيوب ١٩٦٥ - الهيئة العامة للكتاب
٣٣- ثلاث مسرحيات ١٩٦٤ - الجمعية الأدبية المصرية.
* المسألة - مثلت فى تونس ١٩٨٧.
* حبظلم بظاظا - مثلت فى القاهرة والإسكندرية والخرطوم و المغرب.
* ثالثا وأخيراً - مثلت فى سوريا ١٩٨٦.
٣٤- حديقة المردار - ابن خلدون ١٩٩٣
٣٥- مسرحيتان (رع يغضب - القنبلة) ١٩٩٦.
* من أدب الكلمة :
٣٦- كلمات فى الحب والأسى - ١٩٨٣ دار اقرأ - بيروت

٣٧- حديث النفس - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٩.

* من أدب الرحلات :

٣٨- في بلاد السندباد - دار الهلال ١٩٨٧.

* أدب الطفل :

- مغامرات في أفريقيا - مولد بطل - عبلة والصبي المقاتل - السيف والكلمات - ثورة العبيد - الفارس والجواد - ذات الهمة - الأميرة المنتصرة - الزير سالم - مغامرات المهرج قشمر - الأميرة ذات الشعور والمارد - الجنى والكلب المسعور - علي باب والأربعين حرامي - كنوز الجبل - معروف الإسكافي - الجني الطائر - الجوهرة والملك الطماع - الخاتم المسحور وملك الجان - الغراب الأسود والحلم.

* جوائز رسمية :

* جائزة الدولة التقديرية في الآداب ١٩٨٩.

* وسام الآداب والفنون ١٩٨٩.

* وسام الجمهورية ١٩٦٤.

* جائزة الدولة التشجيعية عن القصة الروائية ١٩٦٤

* جائزة جامعة المنيا لأحسن روائي ١٩٨٤.

* درع جامعة صنعاء ١٩٨٥

* شهادة تقدير الجامعة العربية للفنون والإعلام والثقافة ١٩٨٦

* درع فرقة الأصدقاء المسرحية - الخرطوم ١٩٨٧

* درع جامعة الزقازيق ١٩٩٦

* درع الاتحاد العام للصحفيين العرب ١٩٩٦.

* الشهادة الذهبية لأحسن كاتب مهرجان القاهرة الثالث للإذاعة والتليفزيون ١٩٩٧.

قائمة إصدارات

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١ - قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين .... يحيى حقى
٣ - سيد درويش .... محمد دواره
٤ - المجذوب .... فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن .... كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى.......... د. نبيلة إبراهيم
٧ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب
٨ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢ ... د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى .... إبراهيم حلمى
١٠ - موال أدهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم
١٢ - المغازى .... د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على
١٥ - فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة
١٦ - الظاهر بيبرس ....د. عبد الحميد يونس
١٧ - الحكاية الشعبية .... د. عبد الحميد يونس
١٨ - خيال الظل .... د. عبد الحميد يونس
١٩ - الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة .... سعد الخادم

٢٠ - الفن الإلهى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ - النيل فى الأدب الشعبى .... د. نعمات أحمد فؤاد
٢٢ - الفولكلور فى العهد القديم جـ١ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٣ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٢ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٤ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٣ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٥ - حكاية اليهود .... تأليف : زكريا الحجاوى
٢٦ - عجائب الهند .... تقديم يوسف الشارونى
٢٧ - حكاية اليهود ط ٢ .... زكريا الحجاوى
٢٨ - الحُلى .... د. عبد الرحمن زكى
٢٩ - أبو زيد الهلالى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٣٠ - السيد البدوى ودولة الدراويش.... محمد فهمى عبد اللطيف
٣١ - التاريخ والسير .... د. حسين فوزى النجار
٣٢ - خيال الظل .... د. ابراهيم حمادة
٣٣ - فرق الرقص الشعبى فى مصر .... عبير السيد
٣٤ - مباحث فى الفولكلور .... محمد لطفى جمعة
٣٥ - نجيب الريحانى .... عثمان العنتبلى
٣٦ - عالم الحكايات الشعبية .... فوزى العنتيل
٣٧ - الزخارف الشعبية على مقابر الهو .... محمود السطوحى
٣٨ - الفولكلور ما هو ؟ .... فوزى العنتيل
٣٩ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الأول
٤٠ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثانى
٤١ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثالث
٤٢ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الرابع
٤٣ - سيم العشق والعشاق .... أحمد حسين الطماوى

كتب تصدر قريباً

- الشـــعـر الشــعــبى العــربى .... د. حــسين نـصـــار
- الأسطورة فجر الإبداع الإنسانى........ د. كارم محمود عزيز

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلي سابقاً)